مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ

شمال أفريقيا القديم

تأليف

اصْطيفان اگْصيل

ترجمة

محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE

DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الرابع

الحضارة القرطاجية

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : alacademia@iam.net.ma **E-mail**

فـاكْس 75.51.01 (037)

اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اگْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1880

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-057-5 (الجزء الرابع)

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڭصيل

الكتـاب الأول

التاريخ الاقتصادي لقرطاجة

الفصل الأول

الزراعــة

1

حوالي منتصف القرن الخامس كونت قرطاجة لنفسها بإفريقيا منطقة استطاعت استغلال خيراتها. واتسعت هذه المنطقة فكانت في منتصف القرن الثالث تشمل شرق وشمال القطر التونسي وقسما من موسطة هذا القطر. وكانت المنطقة تضم جهات تتفاوت في صلاحيتها للحبوب ولأشجار الفاكهة وللمواشي، بحيث كان بعضها خصبا، ومزودا على العموم بالمقدار اللازم من الماء، وبعضها كان ذا تربة فقيرة (مثل جبال خُمير الشجيرة) والتي غالبا ما تكون أمطارها غير كافية (مثل البسائط والنجود السفلى على الساحل بالضفة الشرقية).

كما استولت الجمهورية (القرطاجية) بساحل البحر الأبيض المتوسط على سَدْرة الصغرى وما بين السدرتيْن، وهي منطقة غير منتجة، باستثناء بعض الواحات المنبتة على طول الساحل والتي تفصل

بينها مفاوز صحراوية، كما يفصل بينها - وعلى بُعد متفاوت عن البحر - النتوءات الممزقة للنجد الصحراوي.

كما أن بعض المدن الفينيقية والبونيقية الممتدة على شواطئ الجزائر والمغرب أحاطت نفسها بمنطقة استفاد منها المعمرون. وكان هذا في الحقيقة عبارة عن أحواز من البساتين وليس أريافا.

هذه هي عناصر المجال الزراعي الذي كان في قبضة القرطاجيين بشمال إفريقيا[1]، فكان محدودا جدا، ولم تَسْخ الطبيعة عليه بصفة متساوية.

لقد كان فينيقيو المشرق فلاحين مهرة. ففي الحاشية الضيقة التي كانوا يقيمون عليها بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان، وخلف مدن الساحل مثل صُور وصَيْدة وبِبْلوس Biblos (جبيل) وغيرها كانت تمتد مقاطعات خصيبة استنتجها العمل الإنساني بصفة بارعة. فكان ينبت فيها الحبوب وعلى الأخص الكرم والزيتون وغير ذلك من أشجار الفاكهة.

وكذلك القرطاجيون فإنهم تعاطوا للزراعة ونجحوا فيها[2]. ويدعي سيسرون Cicéron أنهم أهملوها (الزراعة)، ولكن هذا القول بالتأكيد غير صحيح. فباستثمارهم لضيعاتهم، وكذلك بالتأثير الذي أحدثوه لدى الأهالي، فإنهم قد ساعدوا كثيرا على تهيئة الرخاء المادي الذي ستزدهر به إفريقيا إبان السيطرة الرومانية.

وتوجد بعض النصوص التي تساعد على تصور حالة الازدهار بالبلدان التي كان القرطاجيون سادتها. ففي نهاية القرن الرابع عندما

نزل جنود أگاطُوكْلس Agathocle بقاصية هضبة الرأس الطيب واتجهوا نحو قرطاجة، شاهدت أعينهم مشاهد تستحق الإعجاب، شاهدوا مساكن جميلة يملكها النبلاء البونيقيون، ومغارس للأعناب والزيتون، وشاهدوا البساتين، والمراعي المليئة بالخرفان وبالثيران والخيول. وبعد نصف قرن من هذا الزمن جاءت الجيوش الرومانية للاستيلاء على القليبيّة Clupéa في الجنوب الشرقي للرأس الطيّب أيضا فوجدوا في حملتهم السريعة كثيرا من المنازل الريفية المتقنة البناء، فاستولوا بكل سهولة على عدد كبير من الماشية، وأسروا، على ما قيل، عشرين ألف أسير(3). وبعد حرب حنّيبَعْل تغنى الشاعر إينيوس Ennius بما في أرض إفريقيا من حقول اتقنت زراعتها. ولما اندحرت قرطاجة في الحرب فقدت جميع ممتلكاتها فيما وراء البحار، وربما فقدت أيضا مستعمراتها على سواحل نوميديا وموريطانيا، ولابد أنها تخلت عن الامتيازات التجارية التي خصت بها نفسها في قسم كبير من مناطق الغرب. ولاشك أنها عملت للتعويض عما فقدته بالاستثمار الواسع لمنطقتها الترابية الإفريقية. ويؤكد أپيان Appien أنها عادت فازدهرت جدا بسبب خصوبة أريافها وبما تستفيده من البحر. وحوالي 153ق.م قدم إلى إفريقيا كاتون Caton مع بعض الرومانيين لتسوية خلاف حاصل بين مَسِنيسّا وقرطاجة فشاهدوا حولهم، كما يقول أپْيان أيضا، أرضا محروثة بعناية ومجهزة بالخدمات الكبرى.

ولدينا برهان آخر على الاهتمام الذي كان القرطاجيون يولونه للزراعة، وعلى توفقهم فيها. فالبحوث الزراعية التي كتبها الكثير منهم، قد أحرزت شهرة كبيرة حتى خارج إفريقيا.

ومن بين هؤلاء المؤلفين كان اثنان يحمل أحدهما اسم عَمِلْكار Amilcar والثاني يحمل اسم ماگون Magon. وهذا الأخير كان ذا رتبة رفيعة، إذ وصفه بلين Pline بلقب القائد Général. ويستحيل علينا أن نقول متى كانا يعيشان، وهل هما واحد ممن سمي باسم عَمِلْكار أو ماگون Magon الذين تذكرهم المصادر. أما عَمِلْكار فلا نعرف منه سوى الاسم، وأما ماگون فلدينا عنه بعض المعلومات، كما أن بعض الفقرات من كتابه قد وصلت إلينا. وحسب ڤارون Varron فإن شهرته فاقت جميع الإغريق الذين كتبوا في نفس الموضوع. وحسب رأي كولميل Columelle فقد كان يعتبر وكأنه أبو العلم الزراعي. ويقول بلين : «إن مجلس شيوخنا شرفه تشريفا عظيما، فبعد الاستيلاء على قرطاجة وهب خزانات كتبها إلى الأمراء الأفارقة، لكنه استثنى من ذلك شيئا واحدا فقرر أن تترجم كتب ماگون الثمانية والعشرون إلى اللغة اللاتانية. مع أن كاتون كان قد سبق له أن ألف كتابه، وأسندت المهمة إلى أشخاص عارفين باللغة البونيقية، وقام بالجانب المهم فيها د. سيلانوس D. Silanus، وهو شخص ينحدر من أصل نبيل».

وتُرجم كتاب ماگون إلى اللغة الإغريقية بقلم كاتب إغريقي هو كاسْيوس ديونيسْيُوس الأوتيكي Cassius Dionysius D'Utique وأهدى عمله هذا للقاضي Preteur سِكْستيلْيوس Sextilius (يبدو أن سكستيليوس هذا هو الذي كان حاكما على ولاية إفريقيا في 88 ق.م) ولم يسجن كاسْيوس نفسه باتباع الأصل المنقول، إذ عوضا عن الكتب الثمانية والعشرين التي يتكون منها الكتاب البونيقي، فإنه أصدر ترجمته في عشرين كتابا، على أنه أدخل فيه العديد من الإرشادات والمعلومات المستقاة من المؤلفين الإغريق. وقام بعد ذلك بزمن الكاتب البيثوني

ضيوفان Le Bithynien Diophane بتلخيص ترجمة كاسيوس إلى ستة كتب، وهذا المختصر هو الذي أَهْدِي إلى الملك ديجوطاروس Déjotarus. (كما ان أسينْيوس پوليو Asinius Pollio قام هو أيضا بتلخيص كتاب ضيوفان وأصدر له مختصرا في كتابين اثنين).

وقد ضاعت كتب كاسْيوس وضْيوفان، مثلما ضاع مؤلَّف ماكون، لكن ورد ذكر كاسيوس عند ڤارون Varron وعند بعض الكتاب الذين هم أحدث منه عهدا. وذكر اسم ضيوفان عند ڤارون ايضا وعند كرْكيلْيوس مَرْتِيـاليس Gargilius Martialis وهو إفريقي من أهل القرن الثالث، وأخيرا في المجموعة المعروفة باسم جيوپونيك Géoponiques التي جمعها كاتب يحمل اسم كاسْيانوس باسوس Cassianus Bassus، في القرن السادس على ما يحتمل، وإن كانت لا تعرف إلا نَشْرَتها البيزنطية التي من القرن العاشر.

وكتاب ماكون نفسه – في ترجمته اللاتانية – كان يعتبر حجة لدى الرومانيين في عهد سيسرون Cicéron. وقد ذكره عدة من الكتاب الذين عرفوه إما مباشرة وإما بواسطة مثل: ڤارون، وكولميل Columelle، وبلين، وكَرْكيليوس مَرْتياليس وغيرهم. وفيما عدا هذه الفقرات فالكتب القديمة عن فن الزراعة التي وصلت إلينا، وعلى الخصوص منها الجيوبونيك، لابد أن فيها الكثير مما هو لماكون. ومع ذلك فلا يمكننا أن ندل بالتأكيد على هذه الاقتباسات، وذلك حتى عندما يذكر اسم كاسيوس واسم ضيوفان، لأن كاسيوس الذي هو عمدة ضيوفان لم يكن مجرد مترجم للكاتب القرطاجي. ولو كان بين أيدينا النص الأصلي لماكون، لأمكن دون شك أن نرى أن معلوماته قد وصلت حتى إلى العرب أيضا

بواسطة الجيوبونيك، وربما أيضا عن طريق بحوث باللغة الأغريقية ترجمت إلى السريانية والفارسية والعربية[4]. فكان ماگون على وجه التحقيق مرجعا برغم التحفظات الصائبة التي قال بها كولميل بحيث:
«إن الفلاّح لا يمكنه أن يجهل التعليمات الغزيرة التي أعطاها المؤلفون البونيقيون في إفريقيا، وأن مكان البعض من أهل أريافنا ينكرون صواب الكثير من هذه التعاليم. وتْريمليوس Tremellius هو على رأيهم ولكنه يفسر هذه الأخطاء الواضحة باختلاف التربة والمناخ في إيطاليا عما عليه الشأن في إفريقيا، بحيث لا يمكن أن يعطيا نفس المنتجات».

لدينا نحو الأربعين فقرة من ماگون. وهي المتعلقة بالحبوب وبالدالية وبشجرة الزيتون، وبأشجار أخرى للفواكه، وبالخضراوات وبتربية الحيوانات (الخيول والبغال والثيران) وبحيوانات الخم، وتربية النحل، وبنباتات لا تستنبت ولكنها نافعة، كما تتعلق بالتسيير الداخلي للضيعة. فلابد أن الكتب الثمانية والعشرين كانت تشمل جميع فروع استثمار التربة والاقتصاد الفلاحي. وهناك فقرتان دالتان على أن ماگون لم يكن يجهل اللغة الإغريقية وهي اللغة التي كانت منتشرة في قرطاجة. فمن المحتمل أنه عند كتابته لمؤلفه لم يكتف بتجربته هو، وأنه استعمل بعض المؤلفات الإغريقية. لكن لم يكن يسهو عن ذكر بعض النباتات التي هي أجنبية عن مسقط رأسه.

إذن فالزراعة في قرطاجة كانت علما حقيقيا، وجد من بين الأرستقراطية معلمين ذوي خبرة واسعة، ومناصرين متحمسين. وكان النبلاء يشاركون في تسيير ضياعهم مشاركة ذات فعالية، تفوق ما كان لكبار الملاك الرومانيين في الولايات الإفريقية خلال القرون اللاحقة.

2

فيما يخص الحبوب نلاحظ أن القمح والشعير كانا يزرعان بشمال إفريقيا في العهد البونيقي، ولكن ليس لدينا تفصيلات مدققة عن الأنواع المزروعة منها.

ولم ينتظر السكان الأهالي السيطرة القرطاجية ليتعاطوا للفلاحة، فحول سنة 500 ق.م ذكر هيكاتي Hécatée الليبيين الذين «يزرعون القمح ويأكلونه» انطلاقا من مدينة اسمها ميگاسا Mégasa التي لا يعرف موقعها الآن. وبعده بنحو نصف قرن نسب هيرودوت Hérodote إلى (الليبيين الفلاحين) سكان الدور، المنطقة الواقعة غرب نهر تريتون Triton وبحيرة تريتونيس Tritonis، وذلك ما يتطابق مع شرق القطر التونسي. وفي هذا العهد، لم يكن قد مر إلا قليل على سيطرة قرطاجة على منطقة توسعها بإفريقيا.

ولاشك أنها وجدت مصلحتها في تنمية الفلاحة لدى محكوميها، الذين بارتباطهم بالأرض، وتزودهم بالطعام الضروري لحياة مقبولة، لابد أن يتقبلوا بسهولة تحمل النير الذي تفرضه عليهم. ومما لاشك فيه أنها جعلتهم يعيشون في أمن أكثر من ذي قبل، وذلك بالقضاء على الخصومات بين القبائل والعشائر وبالقضاء كذلك على غزوات الناهبين. وكان قسم من الحبوب التي يحصل عليها الليبيون يستعمل لتموين العاصمة، لأن الأتاوات المفروضة عليهم كانت تدفع عينا وعلى حسب نسبة الإنتاج السنوي للأرض، فمن صالح إدارة الضرائب إذن أن تكون المحاصيل وفيرة. والعدد المرتفع (للمدن) أي للحلل والقرى برهان على أن أكثرية السكان كانوا مستقرين، أي أنهم كانوا فلاحين.

وكذلك فإن سَرْدانية وصِقِلية الغربية كانتا تدفعان الحبوب إلى الجمهورية، فكان الفلاحون أيضاً في هاتين الولايتين ملزمين بأن يدفعوا لها نصيبيا من المحصول. وكان قمح سردانية مادة ثمينة لها في تموين جيوش قد تحارب وراء البحار، أو إذا حدثت ثورات أو زحوف تحرمها من قمح ليبيا. ولكنها في أواسط القرن الثالث فقدت كلا من صقلية وسردانية، فمن المحتمل إذن أن تكون إحدى نتائج الحرب البونيقية الأولى هي توسيع زراعة الحبوب في الممتلكات الإفريقية لقرطاجة التي تضطر لشراء الحبوب من الخارج، لأنها لم تعد تستطيع الحصول عليها من مقاطعات أخرى. وفي نهاية حرب حنّيبَعْل، في النصف الأول من القرن الثاني، زودت الرومانيين بالحبوب بمقادير لا يجب أن نبالغ في أهميتها(5).

وحسب ما يبدو فإن زراعة القمح والشعير كانت عملا لليبيين أكثر مما كانت عملا للقرطاجيين. والمقتطفات الواصلة إلينا من ماگون ليس من بينها ما يختص بها مباشرة. فلربما أن ماگون تعرض لهذا الموضوع باختصار كبير، ولم يعط عنه تعاليم جديدة يستفيد منها الأجانب.

ويعتقد أن منطقة التراب البونيقي قد زرعت فيها الحبوب على يد الأهالي حيثما أمكن ذلك. وأحسن الجهات صلاحية لذلك في مناخها وتربتها هي ناحية ماطِرْ وباجة والسهول المتناثرة بتونس الوسطى. ولا تعطينا النصوص القديمة معلومات عن القيمة الزراعية لهذه النواحي في العهد القرطاجي. ولكنها تمدح خصوبة جهتين أخريين هما منطقة بوزاكْيوم Byzacium حول مدينة هَدْرُميت أي مدينة سوسة، ومنطقة الأمبوريات Emporia أي ساحل سدرة الصغرى وما بين السدْرتَيْن.

فحسب هيرودُت[6] : فإن وادي كينبْس Cinyps (الواقع غير بعيد شرقي لبْدَة الكبرى) يساوي أحسن الأراضي المغلة للقمح، وقد يصل إنتاجه إلى 300 حبة مقابل الحبة الواحدة من الزريعة. وبعد ذلك ببضعة قرون قال بعض الكتاب اللاتانيين إن البوزاكيوم يغل 100 بل 150 للحبة الواحدة[7]. اما في أيامنا هذه فإن المناخ يجعل به زراعة الحبوب مشكوكا في نتائجها، إذ بسبب عدم كفاية الأمطار تتخلف المحاصيل غالبا، ولا تكون حسنة سوى سنة واحدة من خمس سنوات في المعدل. والحق أن المحاصيل يمكن آنئذ أن تكون مرتفعة. فالتربة خصبة، والبذور ترمى متباعدة تقليلا للخطر وحفاظا على المخزون من الرطوبة الموجودة في الأرض، لذلك فإن النباتات تنمو بحرية أكثر مما في الجهات الأخرى وتحمل سنابل أكثر وأكثف. ومع ذلك فإن العددين 100 و150 حبة للواحدة، إذا أردنا قبولهما، لا يمكن أن ينطبقا إلا على بعض الأحوال الاستثنائية، وتكون من الأعاجيب النباتية[8]. أما ناحية الأمبوريات فهي أكثر جفافا، ولا تصلح للحبوب، وعلى الأخص منها القمح الذي يتطلب عناية أشد من الشعير. وحيث إننا نرى أنه لا داعي للافتراض بأن المناخ قد تغير منذ عهود التاريخ القديم تغيرا عميقا، فلابد من الاعتقاد بأن هذه النصوص تبالغ كثيرا.

وبدون شك فإن الحبوب قد وقعت زراعتها أيضا بالمغرب والجزائر حول بعض المدن التي كانت لها أحواز واسعة. فصورة السنابل ترى على النقود ذات الكتابات الفينيقية، والمضروبة في روسدير Rusaddir، وتَمودا Tamuda، وزيلي Zili، ولِكْسوس Lixus، وسَلا Sala. ولابد من القول بأن قرطاجة آنئذ كانت قد اضمحلت. وقبل سقوطها بكثير، كانت هذه المدن على ما يحتمل قد تحررت من حكْمها، بحيث إنها وقعت في قبضة الملوك المورريين، واستطاعت أن تتحول فتصير مراكز الحكم

لمناطق أكثر سعة من مناطقها القديمة، مناطق ترابية يسكنها ويستغلها الأهالي. والنتيجة هي أن الصور التي نتكلم عليها هي برهان واهن عن تأكيد أن المعمرين في عهد السيطرة البونيقية قد تعاطوا للزراعة. ولكنهم ساهموا على ما يحتمل في نشرها.

وتوجد صُوَر المحاريث على العديد من الأنصاب النذرية التي عثر عليها في قرطاجة وعلى قطعة نقدية بونيقية. وهذه الأدوات الزراعية تشبه – في خطوطها الأساسية – الآلات التي يستخدمها جل البربر حتى اليوم، وترجع أصولها إلى عهد عريق في القدم. والمحراث الأكثر استعمالا في شمال إفريقيا يتكون من قطعتين غليظتين، أولاهما القصبة Age التي تشبك في نير القران، وثانيتهما الركيزة Cep التي تثبت فيها القصبة بانحراف[9]، وهذه القطعة الثانية تثبت في أحد أطرافها سكة Soc المحراث التي هي عبارة عن صفيحة حديدية مثلثة الشكل، بينما الطرف الآخر ينعطف فيكون المقبض الذي يساعد الفلاح على توجيه المحراث، إلا إذا كان المقبض قطعة مستقلة كما هو في الغالب. وترتبط القصبة Age بالركيزة Cep بواسطة ذراع Montant يكتسب بها مجموع الآلة قوة. وفي مؤخرة السكة الحديدية، على جانبي الركيزة، تبرز أُذُنٌ تزيح التراب الذي تثيره السكة.

هذا المحراث البدائي آلة يسهل صنعها وإصلاحها، وتستعمل بسهولة حتى في الأماكن المتمايلة والمستحجرة، وذات النباتات الكثيفة والمتلبدة. وهي لا تتطلب جراً قويا جدا. وصحيح أنها لا تتغلغل في التراب لأكثر من نحو عشرة سنتمترات، إذ التعمق بالحرث يقاوم الجفاف بصفة أحسن ويجود بغلات كثيرة. ولا ينهك هذا المحراث التربة

التي لا يراد أو لا يستطاع استعادة خصوبتها بالسماد، كما أنه لا يطلع إلى سطح الأرض حطام طبقة ترابية نوعها رديء، غالبا ما تكون مجاورة لها. وكانوا في العهد القرطاجي يشدون الثيران لهذا المحراث، ولربما كانوا في الأرض السهلة للفلاحة – وعلى الخصوص في منطقة البوزاكيوم[10]. يشدون الحمير، إذ استعمالها في المحراث قد أشار إليه بعد ذلك في إفريقيا كل من كولميل Columelle وپلين Pline.

ومن بين الأدوات الزراعية نذكر أداة لدرس الحب Dépiquoir مستعملة – كما يقول ڤارون Varron – في أسبانيا القريبة Citérieure وفي أمكنة أخرى. وكان اسمها الجرارة البونيقية، فالقرطاجيون إذن هم الذين أدخلوها إلى أسبانيا. وكانت مكونة من قطعتين من العود ومزودة بدويلبات لها أسنان من حديد، ويجلس السائق على هذه الآلة ويسير الثيران المقرونة بها. فلابد أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا هذه الأداة إلى الغرب. ولا تزال مستعملة في أراض مختلفة بالمشرق، وكذلك في السهول التونسية. وقد ركُبّت بها ثلاثة صفوف من الدويلبات المنسقة بطريقة التخميس Quinconce أثبتت في نطاق من العود الذي هو عبارة عن قاعدة يعلوها مقعد متحرك يجلس عليه السائق، أما الحيوانات فهي مربوطة إلى حلقة حديدية مثبتة في وسط العارضة الأمامية للإطار. وهناك آلة أخرى لدرس الحب عرفت عند اللاتانيين باسم تريبلوم Tribulum وباسم تريبولا أيضا، وهي كذلك مستعملة بالمشرق منذ أقدم العهود، وذكر استعمالها بإفريقيا في عهد الدولة المتأخرة Bas-Empire، واليوم تستعمل في تونس، ولاشك أنها لم تكن مجهولة بها في العهد البونيقي. وهي عبارة عن مسطح أثبتت في أسفله صفائح الحديد أو شظايا السيلَكْس (حجر الظر) فوقه يجلس السائق أو يوضع عليه شيء

ثقيل الوزن، ويجره اثنان من الحيوانات. وأخيرا فالطريقة البدائية التي تدوس الغلال بالحيوانات كالثيران والخيول والبغال، لاشك أنها لم يقع التخلي عنها، فقد استعملت في عهد الدولة الرومانية ولا تزال مستعملة اليوم.

وكان قسم كبير من الحبوب يخزن في المخازن، ويكوّن احتياطيا لازما في بلاد يمكن ان تفقد فيها المحاصيل بسبب الجفاف، أو تعطي محاصيل غير متساوية على كل حال. وغالبا ما كانت هذه المخازن تُحْدث تحت الأرض. فبعد مرور قرن من الزمان على سقوط قرطاجة، لاحظ مؤلف كتاب حرب إفريقيا Bellum Africum أن : «في أفريقيا من عادة السكان أن يكون لهم في المزارع وتقريبا في كل الضيعات مطمورات يخزنون بها الحبوب[11]» وذلك ما يؤكده پلين Pline. ولم يتخل البربر عن هذا التقليد، والقدماء أشاروا إلى وجودها في عدة جهات بالمشرق وبالهضبة الإيبيرية وغيرها كذلك. وترجع في أسبانيا إلى عهد بعيد جدا ثم تخلد استعمالها، وبها كان يطلق اسم سيلوس Silos على السراديب التي تخفى فيها الحبوب، وهناك لفظ يكاد يماثله، هو Sippôs, Sipôs, Seipôs، يوجد في نصوص إغريقية وعند بعض اللاتانيين الذين استعاروه من الإغريق. ولم يتأكد أنه من أصل سامي، وأن الفينيقيين نشروا استعماله[12]. ولكن من المحتمل أن تكون السراديب قد استعملت بافريقيا الشمالية منذ عهد قرطاجة البونيقية، ولم يكن استعمالها - كما يذكر كاتب الحروب الإفريقية Bellum Africum - خوفا من الهجمات المباغتة وصونا للمحاصيل من النهب فحسب. فالسراديب تحفظ الحبوب من مخاطر النيران، وبسبب إحكام إغلاقها

فهي تصون الغلال كذلك عن الحشرات، وإذا وقع حفرها في أرض جافة جدا فصونها مضمون لمدة طويلة.

وأذكر كذلك بمناسبة الحديث عن استعمال الحبوب، إشارتين منفردتين روى أحداهما ماگون Magon والأخرى فقرة من كتاب الفلاحة لكاتون الشيخ Caton l'Ancien. فالأولى عن طريقة لهرس القمح والشعير[13] والثانية تتعلق بأكلة مكونة من الدشيشة والجبن الطري والعسل ويسميها كاتون العصيدة البونيقية Puls Punica، ويبدو أن القرطاجيين كانوا كثيري الإقبال على هذه الأكلة[14]، ويصنعون حلويات مشهورة.

3

لقد سبق لنا القول : إن الكرم وشجر الزيتون، وفي الغالب أيضا شجر التين واللوز هي أشجار أهلية في بلاد البربر، فالمنطقة التي استولى عليها القرطاجيون صالحة للأشجار المثمرة، وهي اليوم أهم ثروات الشمال الشرقي للقطر التونسي، حيث توجد حقول واسعة للزيتون في المجَرْدة السفلى حول طُبُرْبة والجديدة، وتوجد مغارس كبيرة للدالية في جهات مرناق Mornag والخنقة Khangat، وسليمان وگرُمْبالية، كما توجد بساتين جميلة قرب بِنْزَرت ونابل والحمّامات وزَغْوان وفي هضبة الرأس الطيب. وخلف سوسة وصفاقَسْ، تحت سماء غالبا ما يودي فيها الجفاف بالحبوب، فإن مغارس الزيتون تتسع سنة عن سنة. أما واحات الحبوب فلا تعيش إلا بمغارس الأشجار، وليست جزيرة جَرْبة سوى جنة عريضة.

ومنذ عهد بعيد تعاطى بالمشرق الفينيقيون لغراسة الأشجار المثمرة. ولابد أنهم تنبهوا باكرا إلى أن بإمكانهم أن يتعاطوا وبنجاح لنفس المهمة على التراب الإفريقي، وأن يستجلبوا له الأنواع المنتشرة والمستحسنة في وطنهم، وأن يلقموا الأشجار البرية، وأن يعتصروا في نفس المحل الخمر والزيت[15]. ولم يحتاجوا لأن يتملكوا مساحات عريضة، إذ الأحواز المباشرة للمستوطنات البحرية كانت كافية جدا لإنشاء البساتين وبعض حقول الكرم والزيتون. ومع ذلك ادّعى أحد معاصري أغسطس Auguste وهو فينِسْطيلا Funestella أن الزيتون المغروس كان غير معروف بإفريقيا في بداية القرن السادس. ويؤكد ديودور Diodore من جانبه أن ليبيا لم تكن بها حقول للزيتون والكرم في نهاية القرن الموالي[16]. وهو قول غير صحيح غالبا، يكذبه هيرودوت. فحسب هذا المؤرخ[17] فإن جزيرة قورونيس Cyraunis التي هي قَرْقَنّة لاشك كانت مليئة بالكرم والزيتون. ويمكن التساؤل هل الكرم لم يكن كرما بريا، ولكن نفس الشك غير مقبول بالنسبة للزيتون لأن هيرودُت يستعمل هنا اللفظ الإغريقي الدال بالخصوص على الزيتون المغروس. والقرطاجيون كانوا هم الذين علموه ما كان يعرفه عن جزيرة قورونيس، أي إنهم في أواسط القرن الخامس كانوا مستولين على هذه الجزيرة، أو على الأقل كانوا يصلون إليها. فيجوز إذن أن نفترض أن غراسة الدالية والزيتون قد أدخلت إليها على أيديهم. فهل أهملوها في المنطقة التي كونوها لأنفسهم بالقارة في نفس الحقبة الزمانية، والتي نظرا لوجودها بالقرب من مدنهم كانت مواتية لهذه الزراعات ؟ يصعب علينا تصديق ذلك.

على كل فقد تعاطوا لها فيما بعد. فالأرض التي عبرها أگاطوكليس Agathocle بعد نزوله من أسطوله كانت مليئة بالزيتون والكرم وأشجار مثمرة أخرى. على أن النبلاء وهم سادة الدولة وملاك لقسم كبير من الأرض بالشمال الشرقي للقطر التونسي، ربما يكونون قد طمحوا إلى نوع من الاحتكار والاستئثار. فأحد الكتاب الإغريق، ولعله هُوَ تيمي Timée، قد حكى أن الجمهورية أمرت بقطع جميع الأشجار المثمرة من جزيرة سرْدانية، ومنعت، مهددة بعقاب الموت، إعادةَ غرسها. فإذا صح هذا تكون قد أرادت منعَ السردانيين من التخلي عن زراعة الحبوب (إذ الجزيرة كما نعلم كانت إحدى خزانات الحبوب لقرطاجة) ومنعَهم من مزاحمة الفلاحين غارسي الأشجار القرطاجيين. ونجهل هل عاملت محكوميها الأفارقة بنفس المعاملة. غير أن هؤلاء لم تكن لديهم – على غرار الأرستقراطية البونيقية رؤوس الأموال اللازمة لإنشاء المغارس الواسعة، والانتظار عدة سنين حتى تغل الأشجار بما يرضي.

ولربما تكون غراسة الكروم قد عرفت انتشارا بجوانب عدة مستوطنات بالشواطئ الجزائرية والمغربية. وتبدو صورة عنقود أو عنقودين مرسومين على بعض نقود لِكْسوس وسَلا تصحبهما كتابة فينيقية، وهي في الحقيقة نقود متأخرة العهد عن تحطيم قرطاجة. وعلى نهر إيڤور Ivor بعيدا كما كتب پلين Pline (18) تشاهد بقايا حقول الدالية والنخيل، فلربما أنه كان موقعا للفينيقيين، ووقع التخلي عنه. وبعيدا إلى الجنوب، هناك سيرْني Cerné أي القرن الواقعة على ما يحتمل بين رأسي جوبي Juby وبوجدور Bojador. وكانت آخر مستوطنة أسسها حَنّون على ساحل المحيط. لكن أمام هذه الجزيرة الصغيرة كان بعض

الأثيوبيين في القرن الرابع يصنعون الخمر. وهذا على أي حال هو ما يؤكده كاتب الرحلة المعزوة خطأ إلى سيلَكْس Scylax، فإذا كان قوله صحيحا فمن الطبيعي الظن بأن هؤلاء الأهالي قد علمهم القرطاجيون، ولكن شكنا قوي في صحة هذا القول، لأن نضج العنب واختمار سلافته لا يمكن حصولهما في ظروف جيدة تحت سماء بالغة القسوة.

وهناك عدة نصوص من ماگون تتعلق بغراسة الدالية، وهي تشهد بخبرة العرفاء الزراعيين البونيقيين في هذه المادة. ويخبرنا كولميل Columelle أن مسألة معرفة كيف يجب توجيه مغارس الكرم (المقامة على المنحدرات) قد كان الخلاف فيها شديدا : «فديمقْريط Démocrite وماگون ينصحان بتوجيهها للشمال، لأنهما يظنان بأن الدوالي المعرضة لهذه الجهة هي كثيرة الإنتاج، ولو أن الخمرة التي تعطيها ليست من نوع جيد». وكذلك فإن كولميل، مع ملاحظته بأن هذه القاعدة ليست صالحة لكل البلاد، فهو يعترف بأن بعض المناطق الشديدة الحرارة (كمصْر ونوميديا) يحسن أن تعرض فيها الكروم إلى الشمال. إذن فنصيحة ماگون تنطبق بالخصوص على إفريقيا وهي تدخل في الاعتبار شدة حرارة الشمس، ولربما حتى مخاطر الرياح الشرقية.

وكان ينصح باستعمال بعض الأحجار في قعر الحفر التي توضع فيها الغروس صونا للجذور من مياه فصل الشتاء وحرارة الصيف، وكان يرى أن لا تُردم الحفر في الحين، وإنما تُملأ إلى نصفها تقريبا، والباقي يردم تدريجيا خلال السنتين الآتيتين المواليتين. فبهذه الطريقة نجعل الدالية تدفع بجذورها من أسفل. ويلاحظ كولميل أن هذه الطريقة يمكن أن تكون صالحة في الأراضي الجافة، لا في التربة ذات المستنقعات أو تحت مناخ مطير، لأن الماء إذا كثر وجوده أو طال أمده في الحفر

المملوءة إلى نصفها فهو يقتل الغروس قبل أن تشتد وتقوى. هناك أيضا نجح تطبيق رأي ماگون في أفريقيا خاصة.

ويدعو كاتبنا إلى تسميد الأرض وتهيئتها، وينصح للغروس وهي بالحفر ان يحمل إليها ثفل العنب المخلوط بالدبال[19]، لأن الثفل يحدث تولد جذيرات جديدة، والدبال يدخل الحرارة المناسبة أثناء فصل الشتاء البارد والممطر، وفي الصيف يعطي للغروس المخضرة الغذاء والنسغ[20]. وإذا ظهر أن التربة التي نغرس فيها الدالية هي تربة فقيرة جدا، فلابد من أن نستجلب من بعيد تربة ثرية لتوضع في الحفر.

ولدينا من كولميل نص فيه تشويه أو بتر يتعلق بمختلف الأشكال لوضع الدوالي على الأرض. كالدوالي المتمددة على التراب، وذات الجذور الوطيئة بدون سماك، والمحمولة على نير. وبإصلاح ذكي لهذا النص، فإن الطريقة التي تجعل الدالية تقف لوحدها مستقيمة مثل الأشجار تكون قد وقع استعمالها عند القرطاجين. ويكون هذا القول طبعا صدىً لماگون.

ولدينا إشارة ربما من ماگون أيضا، تتعلق بانكشاف التراب عن الجذور، وهي مذكورة في الجيوبونيك Géoponiques [21]، وذكرها كولميل كذلك، وهي[22]: «إننا نقرأ في المؤلفات البيزنطية أن سكان ليبيا (شمال إفريقيا) عندما يعرون جذور الدوالي، فإنهم لا يبادرون إلى ردم الحفر، بل يتركونها مفتوحة طيلة فصل الشتاء، خلافا لما يجري به العمل في البلاد الممطرة». ويقبل كولميل هذه الطريقة للدوالي القوية، (في الأماكن التي يسمح فيها شتاء لطيف).

أما تقليم الأشجار فالقدماء كانوا على خلاف في وقته، هل يحسن أن يجرى في الخريف أو في الربيع. فماگون كان يؤكد أن الأفضل هو القيام بهذه العملية في الربيع، قبل أن يبرعم القضيب، لأنه يكون مليئا بدماعه[23] فيساعد على البتر بإحداث جرح حسن التجمع ولا يقاوم المزبرة. هذا الرأي يقول به عدة عرفاء فلاحيين لاتانيين، ولكن ينكره كولميل الذي يرى أن تقليم الأشجار في الربيع ليس هو الأحسن لكل البلدان، وينصح بالتقليم في الخريف في الأماكن المعرضة جيدا للشمس والتي يكون شتاؤها غير قاس. وخلافا لهذا، فإليك ما يقوله السيدان ريفيير وَ ليك Rivière et lecq في كتابهما في الموضوع[24] :

«إن تقليم الدالية يكون ما بين ديسمبر إلى نهاية فبراير أو بداية مارس... فيحسن التقليم متأخرا لا باكرا، إذ ليس فحسب أننا بذلك نؤخر الإنبات، وأننا أقل تعرضا لصقيع الربيع، بل إن القضبان التي أبطأ تقليمها تنبت بقوة».

ليس لدينا من ماگون مقالة تتعلق بطريقة تخمير الخمور المعتادة. وحسب پلين فقد سبق القول على سبيل المزاح بأن القرطاجيين كانوا يستعملون الزفت لمنازلهم والجير لخمورهم. حقا فإن صفائح التوفة Tuf الهشة المستعملة في مباني قرطاجة، كانت تطلى بالزفت، لتشتد مقاومتها للتغيرات المناخية. ومن جانب آخر يحدث لبعض عديمي الذمة أن يجعلوا الجير في السلافة لتحلية الخمر. ولا يوجد عن عهد السيطرة البونيقية أي نص يشير لخمور محلية ذائعة الصيت، واعتمادا على فقرة من ماگون ذكرت من قبل فإن القرطاجيين كانوا يستهدفون الكمية أكثر مما يطمحون للنوع[25].

على أنهم كانوا يصنعون من العنب الجاف (الزبيب) خمرة مستحسنة استمر ذيوع شهرتها حتى العهد الإمبراطوري الروماني. وقد احتفظ لنا كولميل بطريقة صُنْعها التي أوردها ماكون. ولا تزال الطريقة المماثلة لها مستعملة بالمغرب[26].

ويظهر أن القرطاجيين كانوا يحبون الخمرة، وأنهم يميلون لتعاطيها بكثرة [27]. وعلى قول أفلاطون فإن قانونا كان قد صدر[28] بمنعها عن الجنود والعبيد ذكورا وإناثا، وعن ولاة الحكم خلال سنة ولايتهم، وعن ربابنة السفن، وعن القضاة أثناء مزاولة وظيفتهم، وعلى الذين سيشاركون في مداولة مهمة، وربما حتى في الليل على الرجل والمرأة قبل العمليات الجنسية. ولم يكن يسمح بها في النهار إلا على أنها مقوٍّ ودواء. ومثل هذا القانون كان يصعب تطبيقه، ونعلم أن الخمرة كانت عمليا تشرب في الجيش.

هذا المنتج كان من الممكن بعثه إلى البلاد التي كان للتجار البونيقيين معها علاقات، وخصوصا إلى التي لم يكونوا يخشون المزاحمة الأجنبية بها. ومع ذلك فلم يكونوا يحجمون عن الخمرة [29] عادة، ليس لأنهم لم يكونوا يحبونها، بل لأنهم لا يستطيعون شراءها لفقرهم. أما أهل الباليار فكانوا يتعاطونها بكثرة، وتصلهم منها ربما سفن بونيقية، لأن الدوالي لم تكن لديهم. وكما يروي سترابون Strabon[30]، فإن القرطاجيين كانوا بسدرة الكبرى Grande Syrte بمكان يدعى خارَكْس Charax يتقايضون بالخمر مقابل السِّلْفيوم Silphium الذي كان يهربه رجال من أهل سيرنيكا.

وقد وقع العثور على قطع من جرار بونيقية ترجع لعهد متأخر بصقلية في كل من سلِنونة Sélinonte وإرِكْس Eryx، كما استخرجت من

التراب بعض هذه الجرار في مدن إغريقية بالجنوب الشرقي لهذه الجزيرة، فلربما أنها كانت بها خمر إفريقيا. ومع ذلك، فلا يمكننا على العموم أن نؤكد بأن الخمر التي كان فينيقيو الغرب يتاجرون فيها كان أصلها هو المنطقة القرطاجية الإفريقية. ويدَّعي الكاتب Pseudo-Scylax أن التجار الذين يصلون لجزيرة القرن Cerné كانوا يشترونها من الأثيوبيين أهل الشاطئ المجاور، وهذا أمر بعيد عن الصواب(31).

ومن جانب آخر فإن القرطاجيين كانوا يستجلبونها لاستهلاكهم الخاص. وكانت مدينة أكْريجَنْت Agrigente تزودهم منها في القرن الخامس. ففي هذا العهد، لابد زراعة الكروم كانت قليلة الانتشار لديهم. لكن بين الحربين الثانية والثالثة اللتين خاضوهما ضد روما، في نصف القرن الذي سبق تخريب مدينتهم، كانت مغارس دواليهم لا تسد حاجياتهم، أو على الأقل لم تكن تجود بالخمر الحسنة التي تنحي المزاحمة الأجنبية، بحيث إن الكثير جدا من قطع الجرار الروديسية Rhodiennes الراجعة لهذا العهد قد وقع العثور عليها في خرائب قرطاجة. وكذلك كانت تستجلب، ولكن بمقادير أقل، الخمور من كمبانيا.

في القرن الخامس، كانت كما سبق أن رأينا شجرة الزيتون تغرس في جزيرة قَرْقَنَّة، وفي نهاية القرن الرابع كانت كذلك تغرس في الشمال الشرقي للقطر التونسي. وحسب أورِيلْيوس فيكتور Aurelius victor (32) وهو أحد الكتاب من عهد الدولة المتأخرة Bas-Empire يكون حَنِّيبَعْل قد «ملأ بأشجار الزيتون أكبر قسم من إفريقيا»(33)، وأنه أمر جنوده بغراستها. فقد كان يرى في تعطلهم عن العمل خطرا على الجمهورية وعلى قادتهم. فإذا لم يكن هذا القول مجرد خرافة، فيمكن الافتراض بأن هذه المغارس Olivettes أحدثت في البوزَكْيوم Byzacium في الشهور القليلة

التي انصرمت ما بين رجوع القائد البَرْكي Barcide إلى إفريقيا وبداية عملياته العسكرية ضد سيبيون Scipion، حين كانت هَدْروميت Hadrumète مقر قيادته العامة. وبعد مرور مائة وخمسين عاما كانت مقاطعة البوزكيوم تنتج الزيت بغزارة. وإلى الجنوب قريبا من جزيرة جَرْبة نجد مدينة زيتا Zita ومرتفع زيثا Zeitha وهما مكانان مذكوران في وثائق من العهد الروماني، ويبدو أنهما استعارا اسمَيْهما من اسم شجرة الزيتون بالفينيقية.

حوالي 350 ق.م كان أهل جربة ينتجون الزيت، ولكن حسب قول بْزودوسيلَكْس Pseudo-Sylax كانوا يستخرجونه من شجر الزيتون البري[34]. اما الفينيقيون فلابد أنهم لم يتأخروا عن تطعيم البريات التي كانوا يلاقونها في أماكن عدة. ويحدثنا تيمي Timée أن جزيرة بيتويوس Pityuse [35] التي استعمروها قد جرى بها تطعيم الزيتون البري. وهناك فقرة – وإن كانت غامضة – يقول فيها پلين Pline إن هذه العملية كانت تجري بطريقة خاصة بإفريقيا[36]، فلربما أن هذا اقتباس عن ماكون.

وهذا الأخير مذكور بوضوح فيما يتعلق بالقواعد التي تتبع لإنشاء أحد مغارس الزيتون. فهو ينصح بغرس الأشجار بين الاعتدال الخريفي والمدار الشمسي الشتوي على التلال في التربة الجافة، الطينية، ومن الحصاد إلى المدار تغرس في التربة الثرية الندية[37]. ويضيف پلين قائلا : «ونَفْهَم أنه أشار بهذا إلى إفريقيا»، أما فلاحو إيطاليا فكانوا يفضلون الربيع. وينصح المؤلف القرطاجي بترك فراغ واسع بين الأشجار. ويتابع پلين قائلا : «إن بإفريقيا – وأدَعُ للكتاب مسؤولية ما يقدمون – يوجد الكثير من أشجار الزيتون التي تسمى أَلْفية Milliares تبعا لوزن المقدار من الزيت الذي تنتجه كل سنة، ويريد ماكون أن يفصل بين

الأشجار فراغ بمقدار 75 قدما» أي 22 م و20 س (في جميع الجهات، و45 قدما) أي 13م و32 س «على الأقل في التربة الفقيرة والصلبة المعرضة للرياح»[38]. وهذه الفراغات ليس فيها مبالغة، إذ في ناحية صفاقس يتركون اليوم فراغات من 24 مترا. أما إنتاج 1000 لبرة (27 كيلو غرام) فإن پْلين يرفض قبوله، وهو على صواب لاشك. ولربما أن الأمر في النص الأصلي لماگون يعني وحدة من الوزن أخف من اللبرات الرومانية، أو يعني ميزان الزيتون المنتج، وليس مقدار الزيت. وليس لدينا معلومات عن كيفية الإنتاج.

في القرن الخامس كانت مقادير كبيرة من الزيت تجلب من أگْريجَنْت Agrigente إلى إفريقيا. فهل القرطاجيون الذين كان إنتاجهم كثيرا، قد بلغوا بسبب التوسع في مغارسهم إلى حد الاكتفاء، بل وإلى تصدير ما لا يستهلكونه ؟ هذا ما لا ندريه. وبعد ذلك بكثير، كتب پلين قائلا : «إن الطبيعة قد وهبت جميع أرض إفريقيا لسيريس Cérès (ربة الزروع)، أما الزيت والخمر فإنها تفضلت بأن لا تمنعهما عن هذه الأرض، إذ منحتها الكثير من الفخر بمحاصيل الحصاد»[39]. وهذا القول مبالغ فيه جدا، ولكنه على الأقل يدل على أن مغارس الزيتون وصناعة الزيت لم يقع التوسع فيهما إلا بعد القرن الميلادي الأول.

في قرطاجة، كان الحي الخارجي لمِگارا Megara مغطى ببساتين تفصل بينها جدران من الحجر الجاف وسياجات شائكة، وتسقيها عدة قنوات مجاريها متعرجة. وكان بها العديد من الأشجار التي تغل بفواكهها في الصيف[40]. وكذلك فإن مدنا فينيقية أخرى بالغرب قد كانت تحيط بها البساتين. ففي صقلية، في أوائل القرن الثالث، كانت بادية بالرِمْ Palerme تُدعى باسم البستان، لأنها جميعها كانت مغروسة

بالأشجار، وكانت البساتين تصل إلى بعيد بالشمال الشرقي للقطر التونسي، بحيث إن أگاطوكل Agathocle قد اخترق سنة 310 منطقة تكثر فيها الدوالي وأشجار الزيتون ليس فحسب، بل زيادة عليها أشجار الفواكه من كل نوع، ومن تحتها المياه الراوية(41). ومن المحتمل أن تكون التعاليم المتعلقة بهذه الغروس قد احتلت مكانا واسعا من مؤلف ماگون. ومن پلين لدينا فقرة ترجع على العموم إلى عملية نقل الأشجار، وفقرات أخرى سنتحدث عنها تتعلق بالعناية التي تعطى لهذا النوع أو ذاك.

لم تكن فاكهة شجرة التين البري مما يؤكل. ولربما أن الفينيقيين هم الذين جلبوا إلى إفريقيا الأنواع الحسنة التي جربت في الفلاحة على مدى القرون، ولربما أنهم أيضا أدخلوا إليها تأبير التين، وهي العملية العتيقة التي لاتزال مستعملة عند البربر، ولها على ما يبدو أصل مشرقي. وعلى كل حال فإن تين المنطقة البونيقية كان مشهورا. ونذكر كيف أن واحدة من هذه الفاكهة (التين) المجنية من قرطاجة قد أتاحت لكاتون Caton الحصول من مجلس الشيوخ الروماني بالحكم على وطن حنّيبعْل. وكاتون نفسه في مؤلف عن الفلاحة قد ذكر التين الإفريقي (Ficus africana) الذي انتقل إلى إيطاليا، فنصح بغرسه في تربة ثرية أو مسمّدة. كما أن نصوصا أخرى أحدث عهدا قد أثنت على تين إفريقيا.

كان اللاتانيون يطلقون على الرمان أحد اسمين، إما Mala granata، أو غالبا ما يسمونه التفاحة البونيقية Mala punica. وهذا اللفظ سبق أن استعمله ماگون. وصفة punicus لا يبدو أنها مرادفة لـ Punieus، وPoeniceus أي أحمر، فهي لا تدل على لون الفاكهة. واستعمال Punicus

بهذا المعنى يكون غريبا[42]. والتسمية اللاتانية Mala punica تجد تبريرها في شهرة الرمان القرطاجي الذي كان يستجلب إلى إيطاليا، والذي شهد بجودته كتّاب مما بعد الميلاد. يقول پلين [43]: «إفريقيا تدعي لنفسها التفاح البونيقي، كما يدل على ذلك نفس الاسم لهذه الفاكهة التي تنتجها حول قرطاجة». وقد استقى كولميل من ماگون عدة طرق للمحافظة عليها. وغالبا ما كانت النذور القرطاجية تبدي على سارية منتصبة صورة رمانة رمز إلهة الخصب. وعلى نصب آخر نرى صورة شجرة رمان مثقلة بفاكهتها. ويبدو أن هذه الشجرة ليست أهلية في بلاد البربر مع أن الطقس فيها يناسبها، لأنها لا تخشى الحرارة ولا الجفاف. وعلى النقيض فإن هذه الشجرة كانت توجد في حالة وحشية في آسيا الغربية، وبها وقع استنباتها منذ أبعد العهود، إذن فيحسن الاعتقاد أنها أدخلت إلى إفريقيا على يد الفينيقيين.

لم يهمل القرطاجيون شجرة اللوز. ولدينا عن ماگون عدة طرق تتعلق بالغروس، وبالوقت المناسب للقيام بنقل الغروس التي استنبتت في المشاتل. وفي الختام، لدينا طريقة للحصول على أشجار قوية جدا، وكيف نجعلها تغل فاكهة أجود.

وأعطى في مؤلفه مجالا لأشجار فاكهة أخرى. فتحدث على ما يحتمل على أشجار الجوز والإجاص، ولو أنها زراعات تحظى بقيمة قليلة لدى مواطنيه، لأنها غير صالحة في مناخ القطر التونسي، بل لقد تحدث على شجرة القسطل، ولكن باختصار، كما يليق – على قول الإفريقي گرگيلْيوس مَرْتياليس Gargilius Martialis – بقرطاجني قليل العلم بزراعة شجرة غريبة عن بلاده.

وكثيرا ما يبدو رسم نخل التمر على النقود البونيقية، ونحن نعلم أن الأمر يتعلق بنوع من الشعار الناطق، ذلك أن كلمة «واقي» بالحرف الإغريقي تعني معا التمري والفينيقي. وكما لم تدل هذه الصورة، فإن النخلات المرسومة على العديد من النذور، لا تدل على أن زراعة نخيل التمر كانت تحظى لدى القرطاجيين بأهمية عظيمة. ففي المنطقة التي خضعت للجمهورية، لم يغل النخيل إلا على ساحل السِّرْت، حيث القرب من البحر يضر بنوعية التمور وبحفظها. أما منتجات الأشجار الأخرى المغروسة في الواحات في ظل النخيل فكانت تكفي فحسب للاستهلاك المحلي.

في أيامنا هذه، فإن الفلاحة البقلية Culture maraîchère توجد في الشمال الشرقي للقطر التونسي، عند بنزرت وتونس، وسليمان، وكرمْبالية، والحمّامات وغيرها. وفي هضبة الرأس الطيب، قد استعملت بنجاح حول قرطاجة التي كان سكانها بحاجة للخضراوات، ولربما حتى بغير قرطاجة، وتتحدث نصوص إغريقية ولاتانية على كُرنْب Choux قرطاجة أو الكرنب الليبي، وعلى خرشوف قرطاجة Cardon الذي هو نوع من القنارية Artichaut، وكذلك التوم البونيقي Ail punique الذي كان القرطاجيون يتعاطونه بغير حدود، والفوم البونيقي الذي هو الحمص Poix punique، وقد ذكر ماكون طريقة لهرس العدس. ولكن ليس مؤكدا أن هذا النبات كان يزرع في هذا العهد بإفريقيا، كما لم يكن يزرع بعد ذلك ببضعة قرون على قول القديس أوغسطين.

وأورد ماكون كذلك طريقة لتنظيف السمْسم Sésame، فلربما يكون القرطاجيون قد زرعوا هذه النبتة التي لها أصل مشرقي لاستخراج الزيت منها.

ومن بين النباتات الصناعية كان للكتّان Lin المكانة الأولى لاشك، على أن نصا واحدا يذكر كتّان قرطاجة، ولربما أن الأمر في الحقيقة لا يتعلق بقرطاجة أي (كرخدون) بل بخلقدونية Chalcédoine ولا برهان لدينا لنفترض أن الفينيقيين أدخلوا شجرة القطن للغرب. وما اشتهر باسم أوثونيات مالطة Othonie de Malte كانت ثيابا من كتّان.

أما نبات الغار الذي أشار له ماگون، فلم يكن يصلح إلا لزينة الحدائق والاستعمال الطبي.

وكان هذا الكاتب يهتم بالنباتات الوحشية التي يمكن الاستفادة منها، ففي إحدى الفقرات من كتابه أوردها پلين(44) يعلمنا كيف نقطع ونُيبِّس نبات البروق Asphodèle وعدة نباتات مائية تستخدم في صناعة السلال Vannerie وتشبيك الحلفاء Sparterie. والملاحظ هو أن القرطاجيين كانوا يصنعون الحبال من حلفاء قرطاجنّة بأسبانيا Carthagène، ويهملون حلفاء إفريقيا لأنهم كانوا يجدون هذه قصيرة جدا، وكان يسهل عليهم اقتلاع الحلفاء التي يكثر وجودها بسهوب القطر التونسي بواسطة الأيدي الأهلية.

وهناك قوائم مضافة لكتاب دْيوسْقُوريد Dioscoride على العقاقير الطبية، تذكر الأسماء التي تسمى بها النباتات الطبية عند شعوب مختلفة، ومن بينها الأفارقة. لكن الصيغة السامية لأكثرية هذه الألفاظ (الإفريقية) تبرهن على أنها ترجع للغة الفينيقية. لكن ما هي المصادر التي استقى منها جامع هذه القوائم ؟ نجهل ذلك. وهذه النباتات لابد أنها – ولو على الأقل – كانت تستعمل في الصيدلة القرطاجية.

4

بقيت الخَيّالة لمدة طويلة، لا تؤدي إلا دورا ثانويا في الجيوش البونيقية. والحق أنهم إلى ما حول القرن الرابع كانت لهم دبابات حربية يجرها فَرَسان أو أربعة خيول، ولكن حتى إذا سلمنا المعلومات التي تزودنا بها النصوص، فإن الحيوانات المستعملة في هذا المجال لم يكن عددها كثيرا. وأقوى الأعداد هو 1000 فرس بعضها مقرون وبعضها مركوب [45] أثناء الحملة الصقلية سنة 339. وفي نفس التاريخ، وربما إلى ما بعده بنحو ثلاثين سنة، كان هناك فيلق عسكري يتكون من الشباب المشاة الأرستقراطي. أما التابعون الليبيون فقد كانوا – واستمروا جميعا فيما بعد على وجه التقريب – ينخرطون مشاة. وإذا كانت الخيالة في عهد البَرْكيين Les Barcides قد صارت كبيرة الأهمية، فإنها في إفريقيا كانت تتخذ على الخصوص من بين الحلفاء النوميديين. ومع ذلك فقد وقعت الإشارة إلى كتائب من الخيالة تتكون من المواطنين. ويبدو أن النبلاء قد فضلوا العمل في هذا الجيش، لكن الأعداد المذكورة لم تكن مرتفعة جدا. وزيادة على ذلك فإن بعض المطايا كان يمكن اقتناؤها من خارج التراب البونيقي. ويبدو أن القرطاجيين لم يتملكوا لاحتياجاتهم العسكرية كثيرا من الخيول. كما أن تابعيهم كان لهم منها عدد قليل جدا. ونحن نجهل لماذا رسمت صورة فرس على ظهر جل النقود التي ضربتها الجمهورية من نهاية القرن الخامس إلى أواسط القرن الثاني. وليس في هذا برهان على أن القرطاجيين كانوا فرسانا متفوقين. والمؤكد هو أن تربية هذا الحيوان قد كان لها مكانة ممتازة لديهم. ففي سنة 310، لما زحفت جيوش أگاطوكل Agathocle، اخترقت مراعي ثرية مليئة بالخيول. ويعطي ماگون في فقرتين الأدوية لعلاج الحيوانات

المصابة بداء الربْو أو المريضة باحتباس البول، ولكن لابد من الاعتراف بأنها سخيفة.

والرسوم البادية على النقود وعلى بعض النذور البونيقية قد رسمت بطريقة مستعجلة، بحيث إن صُوَرها لا تساعد مطلقا للتعرف على سلالتها. فالنقود المضروبة بقرطاجة نفسها يبدو عليها عادة حيوان هزيل وكثير العضلات، ولكن بخلقة ثقيلة، بعنق ثخين وقوائم قصيرة. وتبدو صورته على أحد الأنصاب بخاصرتين عريضتين، وقوائم قصيرة، وذيل طويل، وله عرف قوي وكثيف. وبغيرها (حيث الصورة أحسن) نلاحظ كذلك وجود الخاصرتين العريضتين، وقِصَرَ العنق، والبروزَ البيّن لقصبة الأنف، وظهور الجبهة والعرف الكثيف. وهذه الخاصيات تتناسب مع الفرس الذي من سلالة البَرْب Barbe، التي تنتمي إليها خيول نوميديا المعروفة لدينا بمعلومات أكثر وضوحا. وكان من الطبيعي أن يستعين القرطاجيون بالسلالة التي كانت تعيش في البلاد منذ عدة قرون. وقد عدلوها بإزواجها ربما مع سلالة أخرى، وعلى الخصوص فقد أولوها العناية والاهتمام وأطعموها طعاما مقويا، فلم يمتنعوا عن إطعام مطاياهم بالشعير الذي قيل إنه كان لا يُعطى لخيول الأهالي.

وتعاطوا كذلك لتربية البغل، هذا الحيوان الذي يقوم بأداء الكثير من الخدمات في بلاد البربر، نظرا لقوته وتحمله وقناعته ووثاقة خطاه. وقد قال ماگون إن مدة حمل البغلة هي إثنا عشر شهرا، أي نفس المدة لحمل أنثى الفرس. فلابد من الاعتقاد بأنه لاحظ إمكان استيلادهما في إفريقيا.

حول العهد الذي دمرت فيه قرطاجة، كتب پوليب Polybe عن ليبيا قائلا[46]: «في هذا الصقع الخيول والثيران والكباش والماعز تكثر كثرة لا أظن إمكان العثور على مثيل لها في جميع أصقاع الأرض». وأضاف:

«وسبب ذلك هو أن كثيرا من قبائل ليبيا لا تستخدم منتجات الفلاحة، وإنما تعيش من قطعانها ومع قطعانها». فنرى أن ملاحظته هذه تنطبق بالخصوص على النواحي التي لم تزدهر فيها الفلاحة، إذن في الجهات التي بقيت مستقلة، أكثر من انطباقها على المقاطعة البونيقية. ومع ذلك فالقرطاجيون وتابعوهم لم تكن الماشية تعوزهم. وفي إحدى تعريفات القرابين التي عثر عليها في مرسيليا، ولكن أُتِيَ بها من قرطاجة، ذكرت الثيران والعجول والكباش، والتيوس والخرفان والجديان. وعلى جانبي الطريق التي سلكها جيش أكاطوكل Agathocle كانت ترعى قطعان الثيران والكباش. كما أن الرومانيين في سنة 256، بعد نزولهم في شبه جزيرة الرأس الطيب، قد استولوا في زمن قليل على غنيمة ضخمة من الماشية. وفي ناحية أوتيكا Utique كانت الماشية كثيرة الوجود في أواخر القرن الثالث. وفي أواسط القرن المتقدم أشاد الكاتب بْزودوسيلَكْس Pseudo-Scylax بجمال وكثرة القطعان التي يملكها الأهالي في الساحل التونسي.

بالقرب من قرطاجة، كانت الماشية تزود سكان المدينة العظيمة باللحم والحليب. وكانت تزود الفلاحة الواسعة بالسماد الحيواني. وكانت الأرستقراطية تستطيع المحافظة عليها في حالة جيدة في أراضيها، وبذلك تزيد في قيمة السلالات الأهلية. ولربما أنها استجلبت مما وراء البحار سلالات أجود، كالكباش مثلا ذات الصوف الرقيقة جدا للثياب والزرابي المشهورة، التي كانت تنتجها الصناعة البونيقية. وكان الليبيون في حاجة إلى حيوانات للحرث، وللقطعان التي يستخدمون ألبانها أكثر من لحومها، كما أن وَبْرها وصوفها وجلودها كانت تستخدم في صنع الملابس.

في الجنوب التونسي تمتد بسائط غير صالحة لزراعة الحبوب بسبب قلة الأمطار، إذن وكما هو الشأن اليوم، فإن الرحَّل كانوا يرعون بها قطعانا من الكباش والماعز أكثر عددا من قطعان الفلاحين الليبيين. ولسنا على استعداد للتصديق بأن هذه المجالات الواسعة قد كانت قسما من المنطقة البونيقية. ولكن وكما أن الماشية في الفصل الجاف لم تكن تجد بها ما يقوتها، فقد كان من الضروري على الرحَّل أن يصعدوا للشمال. ومن المحتمل أن قرطاجة لم تكن تعارض. فبسماحها لهؤلاء الأهالي بالدخول عندها، كانت لديها الوسيلة لتحوّل الأعداء الطبيعيين إلى تابعين خاضعين لها إلى حد ما. والأهم فحسب، كان هو تنظيم هجراتهم وإقاماتهم بصفة تخفظ النظام وتصون مصالح المستقرين. وفي المقابل فإن هؤلاء كان بمستطاعهم أن يخففوا من قسوة البرد على قسم من ماشيتهم بإرسالها إلى مراعي الجنوب[47]. ورحلات الانتجاع، كانت معمولا بها في بلاد البربر منذ عهود بعيدة، لمن أراد البرهان. ذلك ما تشهد به رحلة سيلَكْس Périple de Scylax، في الحديث عن الماصيِّين Maces، وهم قبيلة تجاور لَبْدة الكبرى بين السدْرَتَيْن : (يقضون الشتاء بالساحل، ويجعلون مواشيهم في حظائر، وفي الصيف يفقدون الماء فيأخذون مواشيهم للداخل، إلى الأعلى[48]).

وقد أعاد كولْميل Columelle الوصف الدقيق الذي أعطاه ماگون للثيران التي ينصح باقتنائها قائلا : «يجب أن تكون صغيرة السن، ثخينة الخلقة، بأعضاء غليظة، وقرون طويلة مسودة وشديدة، وجبهة عريضة مجعدة، وأن تكون لها آذان شعراء، وعيون ومشافر سوداء، ومناخر واسعة خنساء، ولها قنا طويلة بها عضلات، وغبغب كبير يتدلى حتى الركبتين تقريبا، أما الصدر فيكون عريضا، والكتفان واسعتين،

ويكون البطن واسعا شبيها ببطن الحيوان الحامل، والردفان طويلين والخاصرتان واسعتين، أما الظهر فطويل ومبسط أو حتى غائر قليلا. ويكون الكفلان مدورين، والأفخاذ ثخينة قائمة، والقصيرة خير من الطويلة، بركب ثابتة وحوافر كبيرة، والذيل يكون طويلا جدا كثير الشعر، ووبر البدن يكون كثيفا وقصيرا، لونه أصهب أو داكن، وناعم عند لمسه». وقد لاحظ البعض ملاحظة صائبة هي أن الثيران اليوم بشمال إفريقيا أبعد من أن تبدي مثل هذا المظهر المتميز. ولربما أن الحيوانات التي يتحدث ماكون عنها تكون أتت من عملية استيلاد مع إحدى السلالات الأجنبية، وتربت في ضيعات النبلاء البونيقيين فحسب.

وقد أعطى الكاتب القرطاجي طرائق خاصة لحفظ الماشية الكبرى في صحة جيدة. وكان الرومانيون على عهد ڤارون Varron يرتضونها ويطبقونها في ضيعاتهم : ونصح بخصي العجول في صغرها وباستعمال طريقة في الضغط تمنع حينئذ حدوث الجرح، كما يذكر أحسن طريقة لإجراء العملية بالحديد على الحيوانات الكبيرة في السن، أي بأداة هي عبارة عن قفص، وصفه كولميل نقلا عن ماكون، بحيث أن القفص كان يمنعها من الحركة ويعرضها للعملية في حالة مناسبة، ولابد من أن تعالج علاجا خاصا في الأيام الموالية. ونفس الأداة كانت تستعمل لتضميد الحيوانات الكبرى من ذوات الأربع.

وتبدو على بعض النذور البونيقية رسوم كباش وضأن لها ذيول طويلة وعريضة تتميز بها سلالة «البربَرين» Race Barbarine التي لاتزال إلى اليوم منتشرة في جميع القطر التونسي وإلى شرقه. ولربما أن تربية الماعز، تكون قد تركت للأهالي. ولم يكن هؤلاء ولا الفينيقيون يأكلون الخنزير، فلابد إذن أن هذا الحيوان كان جدا قليل الوجود في إفريقيا.

لكن في عبادة ديمتير Déméter وبيرسْفِون Perséphone، التي أدخلت في بداية القرن الرابع، وتقام حسب الطقوس الإغريقية، كان لابد من نحر خنزير قُرباناً.

وبعض الكلمات في ڤارون Varron توضح أن ماگون لم يهمل حيوانات الخم Basse-cour كالدجاج والحمام وغيرها.

نعلم أن العسل كانت له عند القدماء قيمة أكبر مما لدينا اليوم. إذ كان يقوم لهم مقام السكر. وكان القرطاجيون، على غرار بعض الليبيين، يجمعون ما ينتجه النحل. وكذلك، فإن النِّحالة كان لها مكانها في مؤلف ماگون. وكان يعارض رأي من يريدون، وبدون استثناء، القضاء على اليعاسيب أي ذكور النحل. وكان يقول بإمكان الحصول على النحل في فصل الصيف بقتل عجل أو ثور ليخرج من بطنه رجل من النحل. هذه الخرافة القديمة أصلها مصري، عرفها الإغريق قبله ثم أعاد ذكرها فرجيل Virgile في واقعة أرِسْطي Aristée الذائعة الصيت، كما ذكرها غيره. وتبدو إحدى حشرات العسل مرسومة على قطعة من العملة بكتابة فينيقية من روسدير Rusaddir (أي مدينة المليلية)[49] وأخرى من مدينة لم تعرف بعد، ولكنها مثل روسدير لابد واقعة في موريطانية. هذه الشهادات متأخرة عن عهد سيطرة قرطاجة، ولكن يحتمل أن النحالة كان لها من قبل ميزة حول هذه المدينة.

أما الشمع البونيقي الذي أورد ذكره كتّاب لاتانيون، فقد كان ينظر إليه على أنه أحسن أنواع الشمع جميعا. فقد كان يستخدم في الاستعمالات الطبية وفي التصوير بالألوان الشمعية Encaustique، التي أعطى پلين الطريقة لتحضيرها. ولفظة Cera Punica تبرهن على أن هذه الطريقة ترجع لأصل قرطاجي.

5

ولربما أن بعض المواطنين من ذوي الحالة الوضيعة كانوا يملكون ويفلحون بأنفسهم مزارع صغيرة في الجوار المباشر لقرطاجة ولمدن فينيقية أخرى، في البساتين ومغارس الفواكه التي تتطلب يدا عاملة متبصرة، ولكنها تدر دخلا منظما ببيع الفواكه والخضر في أسواق المدن. وليس لدينا – والحق يقال – عن الموضوع اية معلومة.

وعلى العكس فالنصوص التي سبق أن رأيناها تبرهن على أن الشمال الشرقي (50) للقطر التونسي كانت توجد به مزارع يملكها النبلاء. ونجهل كيف تكونت، ومثلها كان بجهات أخرى : فحنِّيبَعْل كان يملك إحداها قرب ثَبْسوس Thapsus. وعلى العموم لم تكن هذه الضيعات واسعة جدا. فجنود أگاطوكل Agathocle وريگلوس Régulus لقوا كثيرا منها في زمن قصير جدا. وهناك مَثَلٌ بونيقي يقول : «إن الأرض يجب أن تكون أشد ضعفا من الفلاح، لأنه إذا كان لابد من مغالبتها وغلبت هي، فمالكها يسحق».

كان جل المنطقة القرطاجية يفلحه الليبيون الذين كان أغلبهم يسكن دواوير عديدة جدا. فهل كانت الأرض ملكا للأهالي أو للدولة ؟ سبق أن قلنا لا يمكن معرفة ذلك. ولا برهان على أن بعض المقاطعات قد كونت ضيعات واسعة خاصة للسادة على غرار ما حدث في عهد الإمبراطورية الرومانية.

وقد أقيمت على أراضي الأرستقراطية دارات Villas جميلة بترف حقيقي (51). فكان السادة يقيمون إذن بها، وعلى الأقل أثناء قسم من السنة، في الصيف والخريف. في هذا الموضوع كان ماگون بالغ

التشدد، إذ كتب يقول في بداية مؤلَّفه : «من ملك أرضا فعليه أن يبيع داره، خشية أن يفضل العيش بالمدينة عوضا عن الريف. وإذا فضل أحد الناس سكنى المدينة فلا حاجة به للتملك بالبادية». غير أن هذه النصيحة كان يصعب اتباعها على رجال عليهم أن يشتغلوا بشؤون الدولة التي استولوا بها على الحكم والوظائف، ودون شك كانت لهم مؤسسات تجارية يراقبونها. فلكي يحافظوا على ثرواتهم ويوسعوها بالمداخيل الزراعية فحسب، كان لابد أن تكون تحت أيديهم ضيعات بالغة الكبر.

وقد ذكر بتدقيق كل من ماگون Magon وعِملْكار Amilcar كيف يجب أن تسير إحدى الضيعات. فعبيد الفلاحة موجودون بكثرة، والإنفاق عليهم لا يكلف كثيرا، وهم ليسوا ملزمين بالخدمة العسكرية. ولكن لابد من مراقبتهم عن قرب، لأن الطريقة التي يستغل بها النبلاء أراضيهم تفرض عناية لا يؤديها العبيد عن رضى. ولربما استخدم النبلاء بأجرة عمّالاً أحراراً، للقيام على الخصوص ببعض الأعمال الكبرى، التي لابد من إنجازها في وقت محدود، كجمع الكلإ والحصاد وقطف الأعناب والزياتين. وكان بمستطاع هؤلاء الفَعَلَة أن يأتوا من بعيد، كما يفعل اليوم المغاربة وأهل منطقة القبائل. ولربما أتوا حتى من منطقة لا تخضع مباشرة لسيطرة قرطاجة. ولا يوجد نص يسمح لنا بقبول كون الأرستقراطية كان يسكن عندها، في ضيعاتها الأهالي الأحرار من المزارعين أو الفلاحين الذين يقاسمون السادة إنتاجهم.

كانوا على الخصوص يتعاطون لغرس الأشجار وتربية الماشية، ووجودُ مؤلفات شهيرة في الفلاحة، وكذلك النقول التي لدينا عن ماگون، وبعض الاستشهادات الأخرى تبرهن على أنهم لم يكونوا يغفلون عن أي

عمل للحصول على إنتاج جيد وكثير. وبعضهم كان يعمل لإرضاء ميوله للبذخ، والبعض الآخر كان يجد الزبناء الكثيرين في سكان قرطاجة. وقد لاحظنا أن المزاحمة الأجنبية لم تختف، وعلى الأقل في الخمور. ومن ناحية أخرى لا نجد ما يشير إلى تجارة تصديرية نشيطة. فالنبلاء كان لهم دخل قيم جدا، لكنه لا يعادل الربح العريض الذي يمكن أن تغله الفلاحة وتربية الماشية اللتين تزاولان كصناعة كبيرة. فالعمل كان يجري بنظام المزرعة ذات الموارد المتنوعة، وليس بالاستغلال العريض ذي الدخل الموحد.

ولسنا نعلم هل كانت الدولة تستغل مباشرة الأراضي العمومية باستخدام أيد عاملة من العبيد. ذلك أمر يستبعد وقوعه، إذ الدولة كانت تريح نفسها أكثر ما يمكن من الوساوس الإدارية. وفوق ذلك فالأرستقراطية كان يسهل عليها أن تجد الوسيلة لتحول هذه الأملاك العمومية إلى ملكيات خصوصية.

أما الرعايا الليبيون فكانوا يحرثون الحبوب ويسهرون على الماشية، وبقيت طرائقهم بدائية. وعلى ما يبدو، كانوا كالأهالي في أيامنا هذه، يحرثون ليضمنوا لأنفسهم اللوازم الضرورية بأرخص نفقة وأقل مجهود. ومحاصيلهم كان لابد لها أن تفي بقوتهم مع أسرهم، وأن تمكنهم من أن يؤدوا الأتاوة العينية الثقيلة. كما كانوا يحتاجون لبعض النقود لشراء الأدوات والملابس التي لم يكونوا يصنعونها بأنفسهم، ولأداء بعض الضرائب المفروضة نقدا. وبيع الفاضل من الحبوب مع بعض الماشية والصوف والجلود كان يزودهم بالنقود. ولبرما أن بعض الرحل ممن يصيفون عندهم كانوا يشترون منهم القمح والشعير. والحصة التي تتقاضاها الدولة كانت تساعد مساعدة وافية أو كافية في

إطعام العاصمة، وتسد في وجوههم أبواب هذه السوق. ولا يبدو أن الإنتاج كان من الكثرة بحيث يمكن من التصدير لبلدان أجنبية.

6

سنختم هذا الفصل ببعض الإيضاحات المتعلقة باستغلال باطن الأرض والمياه التي تحد الساحل.

يحق لنا أن نفترض أن القرطاجيين استخرجوا من شمال إفريقيا بعض المعادن الضرورية لصناعتهم. ولكن تعوزنا البراهين حتى بالنسبة للمناجم التي كانت في متناولهم، قريبا من مدنهم أو من بعض المستوطنات على سواحل الجزائر والمغرب. ومن ناحية أخرى، نعلم أن التجار الفينيقيين، كانوا يذهبون إلى أسبانيا وإلى أبعد منها بحثا عن مختلف المعادن، وعلى الخصوص منها الفضة والقصدير اللذان كان الأهالي يستخرجونهما. ويظهر أن القرطاجيين لم يستغلوا بأنفسهم المناجم الفضية الأسبانية قبل النصف الثاني من القرن الثالث.

وطبيعيا، فقد كانت توجد مقالع لأحجار البناء بقرب المدن. وقد تحدثنا عن التي كانت موجودة في مقابلة العاصمة في هضبة الرأس الطيب. ولربما أن مقالع سيميتّو Simitthu (أي شمْتو Chemtou) التي أعطت (الرخام النوميدي) تكون قد فتحت في عهد السيطرة القرطاجية. فكاتون الشيخ Caton l'Ancien تحدث في خطاب ألقاه ربما في 152 وذكر: «الزليج البونيقي Pavimenta poenica» الذي كان بعض الأغنياء الرومانيين ينمقون به بيوتهم. وهو زليج أي بلاط من الرخام النوميدي كما يقول فيسْتوس Festus. وقبل ذلك بقليل فقدت قرطاجة السهول الكبرى

التي بموسطتها كانت مدينة سيميثو. ثم إن لفظ Poenica له مدلول واضح. ولابد أن نضيف أن هذا الرخام إذا كان قد سبق استحسانه في رومة، فإنه لم يوجد حسب علمنا في خرائب قرطاجة الأولى.

ونعلم حرص الفينيقيين في البحث عن الأصداف الثمينة التي تفرز البرفير Pourpre، كما نعلم شهرة الصبغة التي كانوا يصنعونها بهذا المنتج. فلدينا من العهد الروماني نصوص تتحدث عن مصايد ومصانع موجودة بأمكنة مختلفة بالسواحل الإفريقية في جزيرة جَرْبة وحولها، وفي شولو Chullu التي تدعى اليوم كولو Collo (وهي القالة بالعربية). وبالساحل المغربي في موگادور Mogador غالبا. ويجوز الاعتقاد بأن هذه المحطات وغيرها سبق أن كانت موجودة في العهد البونيقي. ولكي يكون البرفير (الأرجوان) جيدا، لابد أن يجمع في الخريف والشتاء، الفصلين اللذين كان القدماء يفضلون عدم ركوب البحر فيهما، الأمر الذي يفرض الإقامة الدائمة بجانب أرصفة المرجان.

ويبدو أن صيد السمك، وعلى الخصوص سمك التُّون، قد كان ذا نشاط على طول السواحل الشرقية للقطر التونسي وسواحل السدرتين. فَرِحْلَة سيلَكْس Scylax تذكر ملاحات (Salaisons) بمدخل بحيرة البِيبَان. وعلى الساحل الغربي لسدرة الكبرى يوجد اسم يظهر أنه مقوم ملاحَات Maqom Malahat أي (مدينة الملاحات). كما أن وثائق ترجع لما بعد تخريب قرطاجة تشير لوجود ملاحات ومراكز صيد بجزر قريبة من المنَسْتير، وفي رأس كبودْية، وبقابِس وفي إحدى اللبْدَتَيْن. ومياه المحيط كثيرة الأسماك على طول السواحل الإفريقية. وأهل لِكْسوس والمستوطنات الفينيقية الأخرى لابد أنهم كانوا يجدون في هذا موردا هاما[52]. لكن الصيد كان في الغالب يجري بقوارب من قادِس، كانت

تنزل بعيدا إلى الجنوب، كما كانت تتجه للغرب متغلغلة في المحيط. فأحد الكتاب الإغريق، ناقلا لاشك عن تيمي Timée، قد أورد المعلومات التي أعطاها بعض القادسيين. ذلك أن الرياح الشرقية قد دفعتهم فخاضوا البحر مدة أربعة أيام خارج أعمدة هرقل، فوصلوا إلى مجالات مليئة بالأسل والطحالب التي يكشفها الجزر، حيث عدد لا يحصى من سمك الطون الكبير والسمين جدا، يلجأ إليها ليموت. فكانوا يملحونها ويجعلونها في أوعية ويحملونها إلى قرطاجة. ويحتفظون بهذه الأسماك الممتازة ليأكلوها. ولربما أن قرطاجة كانت تتلقى أيضا نصيبها من الأسماك المملحة التي كانت تنتج بالسواحل الجنوبية لأسبانيا بالجانب الآخر للمضيق.

الكتـاب الأول

التاريخ الاقتصادي لقرطاجة

الفصل الثاني

الصناعـة

1

برغم المستوردات التي يشهد بوجودها أثاث المدن، فإن الاحتياجات المحلية قد بررت على ما يبدو نشاطا صناعيا كبيرا في مدينة يبلغ تعداد سكانها عدة مئات من آلاف الأفراد. وتلك أيضا إحدى ضرورات التجارة الخارجية. إذ كان لابد من حمولة للسفن التي تذهب لتشحن بعيدا، ولابد من أدوات للمبادلات في الأمكنة التي لا تستعمل فيها النقود. وكان من المؤكد وجود الآخذين في المراسي بالأراضي الخاضعة أو غير الخاضعة للسيطرة القرطاجية، التي كانت الجمهورية تمنع دخولها على الأجانب، والتي لم تكن أسواقها تزودها مصانع اهلية.

كيف كان العمل الصناعي منظما في قرطاجة ؟ كانت الدولة تستخدم العديد من العمال، سواء كانوا أحرارا أو عبيدا. ومن المعتقد أنها كانت تستعملهم في مشاغل، وخصوصا منها في الترسانات، وليس

في معامل يصنعون بها أدوات تخصص للتجارة. وأصحاب السفن كان من صالحهم أن يكونوا في نفس الحين أصحاب مصانع تزودهم في أحسن الظروف الممكنة بالبضائع التي يشحنونها على سفنهم، هذه السفن التي تأتيهم بالمواد الأولية. أما العمل فمن الممكن لهم أن يجعلوا العبيد يقومون به. ومع ذلك فليس لدينا أي برهان على وجود مصانع كبيرة تملكها الأرستقراطية. بل على النقيض من ذلك، يبدو أن الصناع الأحرار كانوا كثيري العدد. فكثيرا ما نعثر على نذور Ex-voto بها ذكر لبعض الحرف أو على رسوم تدل على ما يظهر على حرفة صاحب النذر. ولاشك أن هؤلاء لم يكونوا عبيدا، لأن الكتابات تكاد دائما تذكر اسم الأب واسم الجد في الغالب أيضا، ولم يكونوا أجانب لأن أسماءهم بونيقية. فهذه التنويهات وهذه الرسوم على نصب نذري تدل على أن الناس في قرطاجة لم يكونوا يجدون غضاضة في تعاطي العمل اليدوي. ولسنا ندري هل الحرفيون في هذه المدينة كانت لهم جماعات حرفية Corporations ترفع من قدر الصناع وتمكنهم من الدفاع عن مصالحهم.

وكان لابد للصناعة من إرضاء مختلف الزبناء سواء بداخل قرطاجة نفسها، أو خارجها من الأسَر الثرية أو من عوامّ غير أغنياء، أي من الشعب المتحضر إلى حد ما. فمن الضروري للصناعة أن تصنع أدوات الترف والبذخ والأدوات البسيطة ذات الثمن الزهيد.

والنصوص غير كافية جدا لتعرفنا بهذا. غير أن الأثاث المتنوع الذي بالمدافن يضع بين أيدينا وثائق جمة. لكن بعض المواد كالخشب والنسيج لم تقاوم الزمان. ويحسن من جهة أخرى أن نلاحظ أن الأشياء الثمينة جدا، لم تكن هي التي تدس في المدافن، وأن هذه المدافن

يزورها غالبا السارقون قبل أن يزورها علماء الآثار. وختاما إننا لا نحسن التمييز بين الأشياء المصنوعة بعين المكان في القرنين السابع والسادس، وبين التي صنعها في نفس العهد فينيقيو المشرق، وأتي بها إلى قرطاجة. وحتى لا نكون متشددين فالتمييز بين المصنوعات الإغريقية حقا ونسخها البونيقية أمر ليس متأكدا دائما.

فصناعات الملابس والحلي والأثاث الصغير يمكنها أن تجعل إنتاجها رهن إشارة الباعة الذين يبيعونه بعيدا، وهي صناعات كان ازدهارها أكثر من ازدهار البناء الذي لانكاد نقول عنه شيئا. وبعض الكتابات تذكر - على ما يبدو - صنّاعا يشتغلون بالحجر والخشب، ونرى على بعض الأنصاب بعض الأدوات التي يستعملونها كالدبوس، والمطرقة والكلابة والمقدة والمشواة والزاوية القائمة والفادن. وسنعطي في مكان آخر إيضاحات عن هندسة البناء. ويكفي أن ننبه هنا إلى أن طرائق البناء كانت تفرض وجود يد عاملة متقنة ودقيقة، أما الخشب، فإتقان العمال البونيقيين تشهد به التنويهات التي استحقتها سفن قرطاجة. والتعابير Coagmenta punicana، أي (تجميع على الطريقة البونيقية) وكذلك Funestrae punicanae، وكذلك Lectuli punicani، كلها تعابير نجدها عند كتاب لاتانيين. وتنبئنا أن طرائق القطع والإحكام المستعملة لدى صناع الخشب والنجارين القرطاجيين قد اتخذها الرومانيون. وقد وجد الفينيقيون الغربيون في إفريقيا الشجرة التي كان إخوانهم بالمشرق يستغلونها في غابات لبنان، أي شجرة الأرز التي يقاوم خشبها التلف طوال عدة قرون. وبقايا النعوش التي جمعت هي من خشب الأرز وأخشاب العفصية والعرعر وربما من السرو.

2

إن الفخار هو الصناعة التي نعرفها معرفة جيدة. فالفخاريات التي استخرجت من القبور القرطاجية تعد بالآلاف. كما أن أخرى شبيهة بها قد اكتشفت في مدافن وقع التنقيب فيها هنا وهناك على الساحل الإفريقي، وبغيرها في بَنْتِلاريا Pantelleria في مالطة، وبمُوتية Motyé بصقلية، وفي سردانية وبجزيرة يابسة Ibiça وبجنوب أسبانيا. فمما لا شك فيه أنه كانت توجد مصانع في أمكنة مختلفة. فشاهد أحد القبور في موتية يورد ذكر أحد الخزافين، وبعض الأشكال المستعملة في قرطاجة لا توجد في كل مكان. وعلى النقيض فمنها ما هو قليل الوجود بهذه المدينة، ولكنه كثير في غيرها، وذلك دليل على صناعة محلية، كما نلاحظ وجود اختلافات في نوعية الطين. ومع ذلك لا يخالجنا شك في أن فخاريات العاصمة قد كانت تصدّر إلى غيرها بكميات كبيرة. فالتمييز بين هذه الأدوات وماهو تقليدي لها أمر صعب.

في دَرْماش Dermèche ودْويمَس Douimès أي المنطقة التي امتدت بها جبانة شاسعة في القرنين السابع والسادس، قد أقيمت مصانع في أواخر أيام قرطاجة البونيقية. وقد اسفرت التنقيبات عن وجود أفران من الآجر النيء، بموقد بيضوي الشكل غائر في التراب بعمق، وكان ينفتح بباب ضيّق مقَوس، وكان يغطيه تقويس دقيق تدعمه سارية في الوسط، وتقوم من فوقه مدخنة دائرية الشكل تتصل مع الموقد بقنوات، عليها قبة لاشك كانت تحيط بسارية أنبوبية الشكل ذات طابقين، فيها ثقب للتهوية. فكانت الفخاريات الثخينة الصنع توضع في المدخنة، وفي السارية بعيدا عن لهيب النار كانت القطع الدقيقة الصنع. وقريبا من ذلك كانت المختبرات، وبها رفوف تحط بها الأوعية النيئة المنضوضة، ولكن يفصل

بينها عازل من عظم، ومخازن بها الأوعية التي خرجت من النار، موضوعة ومرتبة بحسب الأصناف. وفي هذه الامكنة وقع العثور على كتل من طين، وعلى أوعية كانت بها ألوان، وعلى أكداس من المصنوعات الفاسدة Ratés، وعلى قطع تامة سليمة أو مكسورة، منها الخوابي والأمفورات والجرار ذات المقابض والقدور والصحون والأكواب والقناني ومصابيح صغيرة ومسرجات ودُمى. وعلى مقربة من قرطاجة كانت توجد أيضا مصانع البِلْفِدير Belvédère على ربوة تضم طبقات غنية من الطين اللين، وتشهد شقوف الفخار الكثيرة جدا أن الخوابي Jarres كانت تصنع هناك. ومقابض هذه الجرار، كما هو الشأن في العديد مما اكتشف في قرطاجة نفسها، أي في خرائب المصانع وغيرها وبمواقع أخرى، كانت تبدي دمغات Estampilles تشهد بأصلها البونيقي يبدو بحرف أو حرفين من الأبجدية الفينيقية، وأحيانا تبدو بعض الرسوم ومن بينها نرى العلامة القرطاجية المعروفة بعلامة تانيت Tanit، بل إن بعض الدمغات تورد اسما مكتوبا بتمامه هو اسم ماگون Magon.

إن قيمة جميع هذه الفخاريات بكل تأكيد قيمة بسيطة. فليس فيها ما يمكنه أن ينافس الفخار الإغريقي، وخصوصا منه الأوعية الأتيكية Attiques بأشكالها البالغة التناسق، والبريق الأسود الجميل، والرسوم التي خطها قلم نبيه رشيق. إن الفخار القرطاجي بضاعة عادية جدا، مجردة عن الطرافة وعن الميول الفنية.

والطين ذو اللون الأحمر أو الرمادي أو الأبيض يشكل دائما بالمخرطة ويشوى في الفرن. وجدران الوعاء كانت في العهود العريقة في القدم تكسى غالبا بطلاء أحمر، وفي العهود المتأخرة بطلاء أبيض أو أصفر داكن.

أما الأوعية التي جمعت من مدافن القرن السابع والسادس والخامس فأشكالها كانت غير متنوعة. فمنذ حوالي نهاية القرن السابع كانت بعض الفخاريات توجد تقريبا في كل مكان، وتكوّن نوعا من الأثاث المستعمل في الطقوس والشعائر : فمنها خابية ذات شكل يذكر بقذيفة لها رأس أدير إلى أسفل، ولها مقبضان على شكل حلقتين أو أذنين، ومنها قنينة ببطن عريض، وأذنين وقعر منبسط، وقد يكون على رأسها سداد. ومنها إبريقان Aiguières بالمقبض، إحداهما بحاشية عريضة تنبسط عند فم الإبريق، وللثاني أنبوب بفم على شكل ورقة النفل Trèfle. وأخيرا منها قنديل ثُنيت جنباته للداخل بثلاث جهات، بحيث يحتفظ في الفرجتين بموقع للفتيلتين، والقنديل يتصل دائما بصحن صغير هو قعدة له، فيها يجتمع ما يسيل من الزيت. هذه الفخاريات النظامية تكون مصحوبة أحيانا بأبواق صغيرة Cornets تنتهي من أعلاها بكوب صغير، ويستعمل كدعامات. ومنها أقداح صغيرة، وقدور بأيدٍ أوبدونها، ومبخرات هي عبارة عن كوب بقدم متصلة بصحن. والزخارفُ المرسومة بسيطة جدا، هي دوائر سوداء، وبقع من الأحمر القانئ حول المقابض، ومجموعة من التعرجات Zigzags أو من الخطوط العمودية على منكب بعض الجرار، وشباك على جنبات القناديل.

جل هذه الأوعية نقلت عن أمثلة مصنوعة في فينيقيا، تقليدا للفخاريات المصرية. وكما في مصر، فإن الجوانب واضحة ومتينة مع بعض الغلظة. ومع ذلك، فمنذ هذا العهد البعيد، نلاحظ وجود تأثيرات إغريقية. وحسب ما نعتقد فإن المبخرات والأباريق ذات الأنبوب بفم كورقة النفل قد صنعت تقليدا لأدوات إغريقية معدنية أو من طين.

إن الكثير من هذه الفخاريات استمر العمل به طوال مدة وجود قرطاجة، كالجرار ذات المؤخرة الدقيقة والأباريق بأفواه النفل والقناديل بمشعلين والمبخرات. والحق أن الأشكال قد طرأ عليها بعض التغيير. فأعناق الأباريق قد قل طولها، والقناديل صارت أكثر عمقا، وجوانبها انقلبت أكثر فأكثر حتى التحمت فيما بينها، وأحاطت بثلاث ثغرات، منها اثنتان صغيرتان في المقدمة لمرور الفتائل، والثالثة كبيرة في الخلف وفيها يصب الزيت.

ومن ناحية أخرى، فإن نماذج جديدة قد ظهرت في القرنين الخامس والرابع. فثبتت إذن من ذلك العهد "القائمة" التي تكاد أن لا تتجدد، والتي بقي قسم مهم منها حيا بعد تخريب قرطاجة، وطوال عهد السيطرة الرومانية، بل وبعد أكثر من عشرين قرنا لم تندثر تماما من الفخار الإفريقي. والأدوات التي هي أكثر تمييزا لهذه الحقبة الثانية هي: جرار بآذان تنتهي في الأسفل بذيل أسطواني طويل، وجرات صغيرة لها مقبض، وتسمى وعاء رضاع Vases-biberons، إذ يقوم بمقبضها أنبوب منحرف يشبه الرضاعة (وتوجد هذه صحبة جثث الأطفال)، وأوعية لها شكل قربة مائلة، لها مقبض سلة، وبها هي أيضا رضاعة، وقناني مغزلية الشكل. ويعثر على الجرار والقناني بكثرة في القرنين الثالث والثاني، كما أن أوعية كثيرة أخرى تملأ القبور، كالأمفورات التي تتصل أعناقها وأكتافها بمقبضين عموديين، وأباريق بجوانب مستديرة، وحنايا مختلفة، وقدور، وزلافات Cols، وأكواب، وصحون وقصاع وغير ذلك. أما مصانع دَرْماش Dermèche – فزيادة على الفخاريات المماثلة لما في المدافن المتأخرة زمنا – فقد جمعت منها أبواق صغيرة Cornets مخروطية الشكل، تخترق قرصا تقوم به أنابيب صغيرة Godets. فلاشك

أن القرن الصغير كان يثبت فيه مشعل، والأنبوب ربما كانت تضيء به النوائر Lumignons.

أما طريقة الصنع التي كانت حسنة في العهد القديم، فإنها صارت سيئة جدا، بحيث أصبح الطين ثخينا، ويخالطه الكثير من الأوساخ. وهو سيء الإنجاز في المخرطة، شُوِيَ بما لا يكفي في الغالب، وجوانبه تلين.

في الغالب هذه القطع ليست مزخرفة، ومنها ما زخرفته بسيطة جدا: بدوائر، وبقع ضيقة سوداء، وداكنة في الكتف والمقبض، وبشباك على المقابض والحافات، وأحيانا بسعفات صغيرة أو أغصان بسيطة، وبسلسلة أو مجموعة من أوراق الزهور، وبشريط متموج. كما أن عينين قد رسمتا على مقبض بعض القرب، وأوعية الرضاع، وعلى شفاه أنابيب بعض الأباريق. وهناك فخاريات قليلة العدد ترجع لعهد متأخر اكتشفت بقرطاجة، بها وردات Rosaces وسعفات صغيرة قد رسمت مباشرة، أو على أقراص منقولة.

ويجب الرجوع إلى الفخاريات الإغريقية للعثور على جل نماذج الأشكال الجديدة. فبعض الأدوات هي مجرد تقليد سيء، تقدمه طريقة معينة في الصنع، كالقناديل التي تمثل تلك التي تعرف بأنها أتيكية d'Attique وردوسية Rhodiennes، وكالصحون والأكواب التي تقلد منتجات كمبانية Campaniens، ولكن يتقشر طلاؤها الأسود. وإنها لإغريقية أيضا تلك السيقان المتثنية بأوراق اللبلاب، والأكاليل المرسومة على جرار من صنع محلي. وأكثر من ذلك، فإن شقوفا اكتشفت في قرطاجة عليها دمغات Estampilles باسم بونيقي هو ماكون Magon ولكنه مكتوب بحروف إغريقية.

غير أن بعض الفخاريات المزخرفة بوجوه بارزة Relief، تجذب الانتباه وسط هذا الكدس من الأشياء الخشنة والتافهة. إن فكرة إعطاء أحد الأوعية شكل أحد الحيوانات، فكرة توجد في فنون مختلفة جدا. وقد اتخذها الفينيقيون من غير أن يتوسعوا في استعمالها. ففي قبر يرجع للقرن السادس عشر على سْفَنْكس Sphinx (أبي الهول)، له أجنحة، وعلى رأسه قلنسوة عالية. هذه الصورة كانت جوفاء من داخلها ومزودة بفتحتين لإدخال أو إخراج السائل الذي يصب فيها. والنموذج المحتذى صلب بما يكفي، والخطوط – سواء أكانت منقوشة أم مرسومة بالأسود على كساء لوني أحمر – فهي تُتَمّمه بإيضاح لبعض التفاصيل. وهذا عمل عجيب، فيه إيحاء مصري كجل الأشياء الفينيقية. ولكن لاشيء يبرهن على أنه صنع في قرطاجة لافي فينيقيا. أما الأوعية الأخرى التي لها أشكال الحيوانات فإنها أحدث عهدا، وهي لاشك من صنع بونيقي. وإذا لم تكن محاولات فاشلة فهي تحتذي نماذج إغريقية من دلافين، وحمام، وكباش وخنازير وأفراس تحمل جرتين. ولنعد للقرن السادس لنشير إلى أداة خصصت – على ما يحتمل – لتتلقى مختلف التقدمات السائلة. فهي متكونة من سبعة أقداح Gobelets مصفوفة، تقوم على أنبوب أجوف موضوع أفقيا، تفضي إليه، وتحملها ساق أسطوانية، وفي أعلى هذه الساق، عند مقدمة الأنبوب يبرز رأس بقرة، في خطمها ثقب يفضي إلى الأنبوب، ومن فوقها رأس امرأة تغطي رأسها على الطريقة المصرية. وهنا أيضا نجد أمامنا تقليدا منجزا، إلى حدٍ ما لفن وادي النيل. وكذلك فإن أوعية مماثلة، ولكنها لاتبدي بجانب الأقداح سوى رأس لحيوان – رأس كبش – قد وقع اكتشافها في سردانية وبجزيرة يابسة Ibiça.

ولابد أن العهد القريب من تخريب قرطاجة ترجع له الأباريق التي لها فم على شكل النفل Bec Tréflé، والتي كانت مخفية في قبور قريبة من بِنْزَرت والقالة Collo. ولا نعرفها بقرطاجة نفسها. ويحتمل أنها لم يقع صنعها في هذا المكان. فلها عنق تزينه رأس امرأة ثخينة الصنع، كما أن هناك أثداء وسواعد غالبا ما تبرز في أعلى المقبض. وأحيانا فالأيدي تمسك الأثداء كما في رسوم أسْتارْتي Astarté. هذه الوشوم المصنوعة على حدة، قد وقع إلصاقها على الجوانب. وغالبا ما أثبتت أقراص صغيرة حول الرأس وعلى الحلق. ويرى علاوة على ذلك، فوق بعض الأوعية آثار لأصباغ داكنة، ببقع ودوائر تحيط بالمقبض، وسعفات ومثلثات مملوءة بخطوط منحرفة متقاطعة عند الحلق. إنها فخاريات بذوق رديء، ولم يكن لصانعي الفخار البونيقي مزية ابتكارها. وإذا كان هؤلاء النقلَة الدائمون لم يأخذوا هنا نماذجهم عن الإغريق، فيسوغ أن نفترض أنهم وجدوها بجزيرة قُبْرُص التي صنعت بها أوعية مماثلة.

في بعض مدافن قرطاجة، وغيرها من مختلف السواحل الإفريقية (مثل هَدْرُميت، وثابْسوس، والمهْدية والقالة وگنوگو)، وكذلك في صقلية الغربية، وفي سردانية وجزيرة يابسة، عثر على دُمَى مخروطة من الطين المشوي Terre cuite. وكانت لا تزال تحمل أثرا من الألوان التي صبغتها. وهي أدوات قلما كان يعثر عليها.

لكن في القرنين السابع والسادس كان يقع العثور على تماثيل صغيرة مصرية أو على غرار المصرية. وأكثرها جاء على ما يحتمل من المصانع الفينيقية[53]، التي عدلت فيها قليلا أو كثيرا وشوهت نماذجها. وتمثل في الغالب نساء في حالة من الجمود وكأنهن مومياوات. ولا يمكن معرفة هل تمت صناعتها بالمشرق أو المغرب، إذ يمكن بسهولة نقل

القوالب إلى قرطاجة وإلى مستوطنات أخرى، سواء نقلت وحدها، أو معها صناع يغادرون وطنهم الأصلي بحثا على الثروة بعيدا عنه، كما كان من السهل حمل المقولبات Surmoulages. ويعثر كذلك على دُمًى أخرى، أنتجت في مصانع إغريقية، أقيمت بهوامش آسيا الصغرى، في ساموس Samos وغيرها. منها ربّات Désses على رؤوسهن قلنسوة أو خمار. وهن يجلسن على أرائك وأيديهن على الركب. ومنهن نسوة واقفات جامدات كأنهن مومياوات، لكن بغطاء للرأس ولباس إغريقيين. ويضم الكثير منهن إلى الصدر حمامة أو قرصا. ومنها تماثيل صغيرة جوفاء يعلوها أنبوب (عنق goulot) كانت تستخدم قوارير. وقد انتشرت هذه المصنوعات التي من الطين المشوي، بالتجارة في جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط تقريبا، وكانت تضمها قبور قرطاجة القديمة. وهي على ما يبدو إنتاج إغريقي حقيقي، لكن جرى تقليدها، بل استمر التقليد في العهد الذي تخلى فيه الإغريق عن الأسلوب العتيق. وذلك ما تشهد به الدُّمَى الناقصة التي عثر عليها بمدافن القرون الرابع والثالث والثاني.

لكن وفي العادة، فإن الدُّمَى المستخرجة من الجبانات الحديثة تشبه تلك التي كانت تصنعها آنذاك المصانع الإغريقية، فمنها كوري Coré، وأفْروديت Aphrodite، وهِرْميس Hermès الذي يحمل ضأنا. وأوروب Europe الممتطية ثورا، ونساء متدثرات وبأيديهن مروحات، ويحملن طفلا على الكتف. ومنها وعاء وأشخاص يمتدون على فراش الولائم، ورقاصات ملثمات، ونافخات في الناي، وعازفات على القيتارة Cithare والطبلة، ومنها فرسان وممثلون ومهزؤات وغير ذلك. وللدّمى يمكن ضم المبخرات التي لها شكل الرأس. ولاشك أن بعضا من هذه

المنتجات التي هي من الطين المشوي قد استجلبت. فطريقة الصنع متقنة كما أن بها لمسات Retouches لبيبة تشير إلى أصابع الفنانين، كما في نافخة للناي مثلا، وفي شخص الحب المضطجع اللذين في متحف لَڤيجوري Lavigerie، فهما أثران لطيفان. ولربما ان مصانع من سرنيكا كانت تتقن إنتاج دمى تَنَگرا Tanagra. وكانت هي التي تزود التجارة البونيقية ببعض إنتاجها[54]. ولكن أكثر الدمى كانت تصنع في قرطاجة، وربما في مدن فينيقية أخرى بالغرب. ففي مصانع دَرْماش عثر على عدة قوالب، وأمثلة شكلها معين مطروحة في إهمال، كما أن عدة من الدُّمى تمثل شخوصا قرطاجية، من رجال على رؤوسهم قلنسوات، وتكسوهم جبات طويلة يزينها ما يشبه الكتفيات Epitoge. ورجال ونساء بملفعات لها ثلاثة أشرطة. ونسوة لهن كتفيات ويرتدين ملابس كهنوتية. وأحيانا تكون اليد اليمنى مرفوعة في حركة للصلاة، مثلما يوجد بالعديد من المخلفات الأثرية الحجرية المنقوشة في قرطاجة. ونذكر أيضا أحد الآلهة الفينيقية، على رأسه قلنسوة ويحمل بيده مقدة. كما نذكر إحدى المعبودات التي تثقلها قلادة من عدة خيوط، وعليها كساء يتسع يمينا وشمالا ويشبه صدفة، وهو تقليد همجي لنموذج إغريقي. وكذلك تلك المجموعة من إلاهتين تحمل إحداهما الأخرى، والصدر تزينه نفس القلادة. إن كل هذا تافه وبذيء، ليس فيه إحساس فني، ولا حتى الاهتمام بتسليم بضاعة حسنة الصنع. فالطين غالبا غير مصفى، وغير نضيج في الشي، والدمى لم تلمسها معالجة أو لمست بغير مهارة. هذا ودُمَى قرطاجة تعتبر تحفا بجانب ما صنع في جزيرة يابسة Ibiça، التي استخدمت فيها مجوفات مبتورة، والتي فيها الرأس غالبا هي التي يبدو أنها صنعت بقالب، أما باقي الجسم فأنجز بلا شكل.

على رصيعة Médaillon من الطين المشوي، عثر عليها في قبر يرجع للقرن السادس، يظهر أحد النقوش البارزة فارسا على رأسه خودة، ويمسك رمحا وترسا مستديرة. فالأسلوب والسلاح إغريقيان. لكن خلف الشخص يبدو هلال طرفاه منتصبان يحيطان بقرص. فالصورة تسوغ الاعتقاد بأن الأداة قد صنعت في موقع فينيقي، أو هي على الأقل أنجزت لفينيقيين. ونفترض أنها تجربة في الطين أنجزت في قالب للحلويات، إذ عثر في قرطاجة وسردانية ويابسة على قوالب كانت دون شك تستخدم في صنع الحلوى، ويرجع أقدمها لنفس عهد الرصيعة تقريبا. وجل هذه القوالب مستدير الشكل، وبها نقوش مختلفة، منها نجمة تحيط بها أهداب، وبقعة سعفات صغيرة تُدعى بالفينيقيات. هذه السعفات الصغيرة مصرية الأصل، توجد بكثرة ودائما على الآثار الفينيقية، وهي عبارة عن هلال طرفاه مضفوران يحتوي على حزمة منتصبة من ورق الزهور. ومنها طيور متواجهة، وأسماك موضوعة في استدارة، وسرطان، وجعل Scarabée، وفرس ماء تحيط به الدلافين، وشخص يركب عربة، وفارس ورأس هولة Gorgane، وساتير Satyre. كما أن قالبا رباعي الشكل يبدي، بأسلوب اعتيادي، صورة مصرية هي العين الإلهية. فنرى إذن في هذه السلسلة من الأدوات كما في غيرها القرطاجيين يقلدون النماذج المشرقية ثم النماذج الإغريقية. وتعطي بعض القوالب صورا بحدود حرة، وتمثل أسماكا. فلعلها كانت أيضا تستعمل في صنع الحلوى. أما العقارب التي كانت تصنع بقوالب أخرى فكان لها استعمال مغاير، كانت تدفن في المنازل. وكان لها على ما يظهر قدرة تنحية العقارب الحقيقية. فهي طلسمات.

والمصنوعات الأكثر أهمية في الفخاريات البونيقية هي الأقنعة التي عثر عليها في قرطاجة وسردانية بمدافن القرنين السابع والسادس. كان

بها ثقب واحد أو عدة ثقوب للتعليق. ولكنها لم تكن معلقة بجدران مغارات الدفن. فلربما أنها كانت من قبل معلقة بمساكن الأحياء. ولم تكن تغطي وجوه الموتى، ويكاد جميعها يكون أصغر من الوجوه الطبيعية. وكانت توضع جنب جثث الموتى لابد، لحمايتهم من الأرواح الشريرة.

البعض من هذه الأقنعة مصنوع باليد، وتمثل رجالا بسحن كريهة، سرعان ما تذكر بالأقنعة اليابانية. فالفم المفتوح أحيانا بانحراف يكشر، والأنف كالمنقار أو هو على النقيض مفلطح، والذقن طويل ومعوج، والوجنات بارزة، والحواجب بالغة الانعطاف، والعيون بثقب نافذة لها شكل لوزة كبيرة أو هلال منقلب، والجبهة والخدود مملوءة بالحدبات، وتخترقها حزوز هي عبارة عن وشم وليست غصونا، إذ بعض الأقنعة تتجمع الخطوط بها في عدة معينات Losanges داخل شكل رباعي مستطيل، ويخترقها شيء كالسهم. وبقناع آخر يبدو رسم قارب. فالهيأة مرعبة أو مضحكة، والغاية هي إرهاب العدو ودفعه للفرار، أو تسكين غضبه.

هذه الأقنعة صنعتها أيد فينيقية، وعلى الكثير منها يبدو هلال منقلب، وتحته قرص. ذلك هو الشعار الخاص بالفن الفينيقي. وبشاعة الأقنعة تعطيها مظهرا واقعيا، على أن من غير المحتمل أن يكون العمال الذين صنعوها قد أرغموا أنفسهم على دقة النظر، ونالوا مزية صنع سخريات Caricatures معبرة عن قسمات لوجوه في حالتها الطبيعية. إن نماذجهم، كما نعتقد، لم تكن هي شخوص المارة التي يلتقون بها في الطريق، وإنما هي من طين مشوي، صنعت بمكان ما بالمشرق. وعلى عادة المصانع البونيقية كانوا يعيدون إنتاجها بطريقة دنيئة. ولقد عثر

في ساموس Samos، وفي إسْبَرْطة على أقنعة بشعة شبيهة بأقنعة دَرْماش ودْويمَسْ وبأقنعة سردانية. ويكون من غير الصواب عزو ابتداع هذه الأعمال لقوم لم يخلفوا لنا أي برهان على الإبداع الفني.

كما أن أقنعة أخرى – هي على الأصح تماثيل لنصف الإنسان Bustes – تبرز صورا نسوية أنتجت على العموم بالقوالب ثم تناولتها لمسات التنقيح. فهي ليست رسوم سخرَيَة، إذ الأفواه تبتسم ولا تكشر. ولربما أنها كانت توضع في القبور لجعل العدو غير شرير، بأخذه باللطف، أو ربما وضعت لإعطاء الموتى رفقة محببة، والكثير منها يغطي رأسه بغطاء مصري. والوجه أحيانا مُسْتوٍ وخال من أي تعبير. وأحيانا أخرى فالقسمات واضحة، بعيون منحرفة، وأنف طويل دقيق الرأس، وذقن بارز. تلك كانت في ذلك العصر إحدى الطرائق في تصور جمال المرأة. ونجدها في التماثيل والدمى الإغريقية. ولا يجب أن يبحث فيها عن إنتاج نماذج «سامية» ولا عن رسم صورة. وفي مكان آخر فالصورة لها تماما أسلوب إغريقي عتيق. فلربما أن تكون بعض الأمثلة قد جلبت من إحدى المدن الإغريقية، والأخريات ربما هي نقل عن القوالب.

وبعد القرن السادس صارت أقنعة الطين المشوي قليلة الوجود في القبور. وإنما بها سيلينات Silènes [55] وساتيرات Satyres تبدي تكشيرا، وبها وجوه عليها علامات الرجولية، وتقلد أقنعة المسرح، ووجوه نساء. والكل إغريقي أصيل أو تقليد تام إلى حد ما لمنتجات إغريقية.

3

لقد وجد من بين فينيقيي المشرق والمغرب رجال يحذقون خدمة المعادن. وكانت الدولة القرطاجية تشغل بعضهم في دور صناعاتها،

بينما بعضهم الآخر كان يعمل لحساب نفسه، وبعض النقائش البونيقية تذكر مذوبين للحديد والصفر، وربما حتى صناع بعض الأدوات المنزلية. وتبدو الأدوات المعدينة على كثير من أنصاب النذور Ex-voto، كما أن المدافن قد أعطت عددا كبيرا منها.

ولا يظهر الحديد في المقابر إلا عند أواسط القرن السادس، غير أنه يصعب التصديق بعدم معرفته بقرطاجة قبل ذلك. فهل وقع إبعاده عن المدافن لأسباب دينية ؟ ولابد من إجراء تحليلات لتمييز النحاس من البرنز الذي هو مزاج النحاس والقصدير. ولربما ان استخدام النحاس الصافي أو القريب من الصفاء قد كان كثير الاستعمال. أما الرصاص فيوجد بالخصوص في المقابر الحديثة العهد.

لقد سبق لنا القول : إنه قلما كانت الأسلحة توضع بجانب الموتى كالسيوف، والرماح والحراب برؤوس من حديد، وكالسهام برؤوس من البرنز. ويكفي الذكر لماعون ولأدوات منزلية عادية مجردة عن كل قيمة فنية، كالشواطير والمطرقات والسكاكين الحديدية (التي يكثر وجودها في كهوف مدافن القرنين الرابع والثالث)، وقطاعات Cisailles من حديد بشعبتين مرنتين من النوع المسمى مقراض، وصنارات من البرنز، ومنظفات من البرنز والحديد، وملاعق أو مجرفات صغيرة من البرنز، وصنوج ونواقيس، ومرايا مستديرة من نفس المعدن.

قبور قرطاجة غالبا ما تحتوي منذ القرن السادس على شفرات من النحاس، حجمها رباعي مستطيل تقريبا، متسع كثيرا من جهة أحد الجانبين الصغيرين الذي هو قاطع ومحدب. وبالجانب الآخر تمتد الصفيحة بساق رقيقة متشعبة، وتنتهي في الأمثلة القديمة بنتوءين، ويبرز بها فيما بعد شكل عنق ورأس للبط أو التم Cygne. وغالبا ما يوجد

بأصل الساق ثقب أو حلقة، كانت إما لتعليق الأداة وإما لتثبيت ذراع بها. ويبدو أن الرأي الأول هو الأصوب، إذ لم يعثر أبدا على بقية لمقبض من خشب أو عظم. وكان العديد من هذه الشفرات مخبوء في أكياس صغيرة من الثوب أو الدوم. في أول الأمر كانت الشفرات صغيرة وسميكة جدا، ثم انبسطت وتمددت من بعد، فتجاوزت خمسة عشر سنتيمترا. وبقيت وجوهها في القرنين السادس والخامس غير مزخرفة عادة، وإذا زينت فبالسعفات الصغيرة الفينيقية، وبزهور اللّوتُس، وبالأسماك. وكلها صور أنجزت بالتنقيط. وفي القرنين الرابع والثالث ظهرت بها رسوم بالخط. ومع الأسف، فإن أكثرها قد أتلفه التأكسد أو حطمه. والرسوم هي لآلهة مصرية، كإيزيس Isis وهي ترضع حورس Horus، وأنوبيس Anibus، وحورس بجسم إنسان أو صقر وغير ذلك، وأشخاص بملابس مصرية يرفعون اليد اليمنى مفتوحة، بينما اليسرى تمسك فنن اللوتس أو سعفة. كما يظهر بها نخل، وزهور اللوتس، وحيوانات. فبينما التأثير المصري قد انمحى تقريبا من الفخاريات، فإنه هنا قد استمر موجودا، لكن في الزخرف لا في الأسلوب. وعدا ذلك نجد وجوها من وحي إغريقي، مثلا كالهيرقليين الاثنين والهيرمس Hermès الوحيد. وذلك بإنجاز تافه أحط من إنجاز اكثر المرايا الأترورية.

ولاشك في أن هذه الأدوات هي من صنع قرطاجي. وغالبا ما يبدو رسم الهلال المنقلب فوق قرص بجانب رسوم الأشخاص. وتحمل شفرتان كتابة بونيقية. وعدا ذلك يظهر إله وعلى رأسه قلنسوة، وهو يمسك ساطورا. ويحتمل أنه كان يعبد في قرطاجة. وقد اكتشفت شفرات مماثلة في ثابسوس Thapsus (على الساحل التونسي) وفي سردانية وبجزيرة يابسة Ibiça.

حسب الرأي الذائع اليوم، كانت هذه الشفرات تستعمل لحلق الشعر، وهي حقيقة تشبه التي كان المصريون يحتلقون بها، كما هي مشابهة لأخرى يستعملها حتى اليوم زنوج إفريقيا الاستوائية. وفي هذا الموضوع جرى التذكير بوجود حلاقين مقدسين بقرطاجة. ومع هذا نلاحظ أن هذه الشفرات قد عثر عليها بجنب النساء، مثلما عثر عليها بجانب الرجال. وأنها في العهد الذي كثرت فيه كان الرجال متعودين إرسال لِحاهُم. ومن ناحية فإن هذه الشفرات ليست قليلة الشبه ببعض المقدات الصغيرة العتيقة. ومنذ أقدم العصور كانت المقدة تعتبر طلسما لدى العديد من الشعوب. والشفرات التي كانت توضع في القبور البونيقية، كانت توضع بقرب رأس الميت عادة، ولم تكن أدوات للاستعمال المنزلي، بل هي أدوات طقوس تعبدية. ويشهد لذلك العناية التي في زخرفتها، واختيار الرسوم التي تكسوها. ومن بينها ماهو صغير الحجم جدا، أو ما هو سيء الصنع جدا، بحيث لا يصلح لأن يستخدم لا في الحلاقة ولا كمقدات صغيرة.

أما عن أوعية البرنز، فليس من السهل التمييز بين ما هو مستجلب منها وما هو إنتاج محلي. ولبعض الأباريق الصغيرة المصنوعة في القرن السابع شكل إغريقي، ويبدو بها عند المفصل الأسفل للمقبض سعفة صغيرة، ليست قليلة الوجود في قبرص. وقد عثر على واحد منها في جبانة دْويمَس، وعلى آخر في مدفن إسباني بالقرب من مدينة كَرْمونة Carmona، ومعه جفنة من البرنز أيضا، وشفاه الجفنة مزخرفة بنجميات Rosaces. ولها مقابض متحركة، وتنتهي برؤوس للكباش. كما أن إبريقا كبيرا من البرنز المذهب كان مدفونا بأحد قبور بِرْسا Byrsa، والقبر متأخر ببعض الزمن. والإبريق ذو شكل مغاير. وهو إغريقي أيضا. ويرى

على مفصل المقبض من أعلى الرسم المصري لقرص الشمس، وعلى جانبيه ثعبانان ورأس عجل، وعلى المفصل الأسفل نفس السعفات الصغيرة، وقد استجلبت هذه الأدوات المنعزلة من المشرق.

وفي القرن الرابع، نلقى بقرطاجة كذلك بعض الأباريق التي استعيرت زخرفتها من مصر. فنجد في أعلى المقبض رأس أحد المعبودات، والرأس مغطى على الطريقة المصرية، وتعلوه رموز مصرية. ولا أستطيع القول بأن ذلك مستجلب، (إذ عثر على مثيل له بوادي النيل وسورية)، أو إنه تقليد صنع بإفريقيا.

كما أن أباريق أخرى استخرجت من قبور يرجع تاريخها للقرنين الأخيرين من عهد قرطاجة، وهي من نمط إغريقي محض. فمن بينها ما يشبه تمام الشبه الأوعية التي وقع اكتشافها في أوربا. ولابد أن لها أصولاً كَمْبانية Campanienne، ربما من كومس Cumes أو من كابو Capoue. ومن بين الزخارف المرسومة على المقبض نشير إلى شخص عار، منحن، يمسك بأسدين، ويضع أقدامه على سعفة صغيرة، وبجنبيه كبشان. كما نشير إلى رجل عار يمسك رأس الإبريق بين ذراعيه و فخذيه. والمفصل الأسفل به سْفَنْكس Sphinx أو شخص يجلس متربعا. وفي غيره يتكون المقبض من رجل آخر برأس يلامس رأس الأول، وبقدمين موضوعتين على وجه له لحية. ومن بينها أيضا امرأة تلعب بالصنوج في أعلى المقبض، وفي أسفله سعفة صغيرة. وزيادة على هذا فإن عدة من الأباريق ذات الزخارف البسيطة قد صنعت دون شك بقرطاجة نفسها. فعلى المفصل الأسفل للمقبض يظهر قناع لساتير Satyre أو لسيلين Silène، بينما يظهر رأس امرأة بالمفصل الأعلى. وغيرها ليس به سوى سعفة صغيرة بأسفل المقبض. وختاما، فالغير متجرد عن

الرسوم والزخارف. وهذه البرنزيات قد قام بتقليدها صناع الفخار البونيقيون.

أما الأوعية المعدنية التي زودتنا بها قبور العهد الثاني، فلا قيمة لها. وهي صحون وأكواب وقنينات ومعطرات Cassolettes برنزية. أما التي تبدو على الأنصاب النذرية Stèles votives، وترجع للقرون الرابع والثالث والثاني، فهي بواطي Grateres بمقبضين، وكذلك الأباريق والقنينات والمغارف والمبخرات. أما التجويف الرشيق وكذلك التضليعات التي تحيط بالمقبض، فتدل على أن هذه الرسوم تمثل نماذج معدنية. والأشكال إغريقية، باستثناء ضرب من القناني له مقام رفيع بالأنصاب النذرية، وسنتكلم عليه بعد.

ويمكن أن نشير لبعض الأشياء من الرصاص، منها الحقق الأسطوانية التي لها غطاء، وكانت تخزن مسحوق التجميل أو تحتوي مرْهما. ومنها موائد صغيرة مستديرة أو رباعية الشكل. ومنها صحون وأكواب وقناديل، وكؤوس صغيرة تزخرفها السعفات الصغيرة الإغريقية، وعليها كتابة مكونة من قسمين، أحدهما بونيقي والآخر بحرف إغريقي. وسيقان المبخرات أو القناديل التي أظهرتها التنقيبات لاقيمة لها، أما التي تشاهد على الأنصاب النذرية فهي تقليد للأشكال الإغريقية.

وختاما، فهناك صناديق وخزنات من الخشب، بها أقسام معدنية مثل مقابض البرنز للنعوش. وهناك عرى نصف دائرية متحركة من البرنز، هي كذلك للصناديق الصغيرة التي منها ما فيه مسامير برنزية رؤوسها مذهبة. وهناك ملصقات Appliques جدارية من البرنز أو الرصاص بزخارف للتجميل. كما أن قبرا من فيليبْڤيل Philippeville ربما ليس سابقا على القرن الأول ق.م، كما به مجموعتان من أربعة

خطوم للأسد من البرنز، وكانت في الغالب ملصقة على جوانب الصناديق. وقد عثر على مثيل لها في فينيقيا كبيرة الحجم، كانت زينة للنعوش. وهنا أيضا لم يكن الفنان البونيقي إلا مقلدا.

لقد أثنى هوميروس[56] على أوعية من معدن ثمين، هي من تحف أهل صَيْدَة أي الفينيقيين. ونحن نعرف بعضا منها يرجع للقرنين الثامن والسابع، ولقد ألقي السؤال عن تلك التي اكتشفت في إيطاليا : من أكواب وكؤوس وقدور فضية مزخرفة برسوم ناتئة أو بالمنحت، هل لم تأت من قرطاجة ؟ مع أن مدافنها لم تعطنا مثيلا لذلك. ولم يرِدْ برهان قاطع على أن الكتابة الفينيقية المرسومة على الكوب الذي عثر عليه في مدينة بْرينسْت Préneste هي قرطاجية حقيقية. ويحسن الاعتقاد بأن هذه الأدوات هي من صنع مشرقي، إذ أن أكوابا مماثلة عثر عليها في جزيرة قُبْرُص، ويظهر جديا أنها صنعت في مصانع قبريصية.

ولم يقل ازدهار الصناعة في المدينة الإفريقية العظيمة التي كان يصلها الذهب من داخل إفريقيا والفضة من جنوب أسبانيا. فبعض أنصاب النذور تذكر صاهرين للذهب. وفي القرنين الخامس والرابع أهدت الجمهورية تيجانا من الذهب لديماريتي Damaréte زوجة جيلون Gélon طاغية سرقوسة Syracuse، ولجويتير الكابتولي Jupiter Capitolin. كما أن شخصا يدعى يومليك Youmlik أهدى لأبولون Apollon وأرتميس Artémis بديلوس Delos. وفي 310 أهدى القرطاجيون لملْقَارْت بُيُوت قربان Tabernacles ذهبية مأخوذة من معابدهم. وبأحد هذه المعابد – وهو قريب من الساحة العامة – كان تمثال من ذهب مقاما لأحد الآلهة الذي عرفه الإغريق بأنه أبولون، وكان التمثال منصوبا بداخل مُصلّى يزن ألف طالان Talents [57] تكسوه صفائح من ذهب.

ويخبرنا نقش مكتوب بوجود منشآت ذهبية في حرمين مخصصين لإلهتين. والنبلاء كانوا مزودين عن سعة بأدوات الفضة. وبعض السفراء المبعوثين إلى إيطاليا، كانوا يعجبون من العادات البسيطة التي كانت مهيمنة برومة. فحيثما تم استدعاؤهم تعرفوا على نفس أدوات المائدة التي كانت تنقل من بيت لبيت. وبعض الشبان كانوا يحملون في الجيش أكوابهم من فضة وذهب. أما حسدربعل، أخو حنّيبْعل العظيم، فكان له بمعسكره ترس من فضة على قول تيت ليْف Tite Live، ومن ذهب على قول پْلين الشيخ Pline l'Ancien، وكانت تزن 137 لبيرة Livres (45 كيلو تقريبا) وعليها رسم صورته، ولربما تكون هذه الترس قد سقطت في يد الأعداء، إذ أنهم وضعوها فوق مدخل الكابتول. وفي سنة 209 استولى سيپْيون Scipion في قرطاجنّة Carthagène (بأسبانيا) على كنوز البَرْكيين Barcides، التي كانت على ما قيل تشتمل على عدد ضخم من أكواب الذهب وأوعية الفضة(58).

هذه النصوص توضح لنا أن القبور لا تحسن إخبارنا عن الأثاث الرفيع الذي يستعمله الأحياء. إذ الأوعية التي من معدن ثمين، والتي طلعت بها التنقيبات كانت ضئيلة وعديمة القيمة. فهي أكواب غير مزخرفة، وقنينة فضة من القرنين السابع والسادس، وحقة صغيرة من نفس المعدن لها غطاء مزخرف بقناع ساخر من القرن الثالث.

4

لقد عثر على العديد من الحلى الذهبية والفضية في مدافن قرطاجية وسردانية. ذلك أن فينيقيي الغرب، الرجال منهم كالنساء كانوا تقريبا يحبون التزيين أشد الحب. وهذه الأدوات تكثر بصفة خاصة في القرنين

السابع والسادس. وفي الشاطئ البحري لناحية دَرْماش لوحظ أن رمل البحر به قطع ذهبية متناثرة. ولم تكن هذه القطع شذرات طبيعية، بل هي كسارة دقيقة لحلى، مصدرها القبور التي حفرتها الأمواج على طول الساحل ثم حطمتها.

المعدن في هذه المدافن العتيقة نقي والشغل متقن، ذلك أن حبيبات صغيرة جدا، كثيرا ما تجمع بطرائق مختلفة، وتكون وسما زخرفيا. وهذه طريقة أصلها مصري، استعملت بكثرة في أتروريا Etrurie، التي أدخلت بها ربما على أيدي الفينيقيين، أو لربما أنها دخلتها على أيدي إغريق آسيا الصغرى. أما الحلى التي جمعت من قرطاجة وسردانية فهي من صنع فينيقي، كما يشهد بذلك الأسلوب المصري في الصوَر، وبعض الوشوم والسعفة الفينيقية والهلال بالقرنين المنتصبين أو المنحدرين المحيطين بالقرص. ويبدو عليها شبه كبير مع الحلى التي اكتشفت بجزيرة قبرص. ومع ذلك فيحتمل على العموم أن لا تكون مستجلبة من المشرق، لأن احتياج القرطاجيين لما هو رفيع يكون قد أحدث ازدهارا في إحدى الصناعات المحلية. ويمكننا أن نفترض وجود مصانع أيضا بسردانية. فالريشات الذهبية والفضية، التي كان أهل نورا Nora وأوليبا Olbia يسرأهم تثبيتها على رؤوسهم، لم تكن من عادات أهل قرطاجة، وإن كان هذا في الحقيقة لادليل فيه مطلقا على عدم صنعها بقرطاجة كبضاعة للتصدير.

وإذا كان العديد من النواويس Hypogées الراجعة للقرنين السابع والسادس تشتمل على العديد من الحلى، فهذه ذات أحجام صغيرة، ومن أنماط قلما تتغير. وتبدو رديئة بجانب الثروات المستخرجة من بعض القبور الإيطالية المعاصرة لها. وسنعرض لها عرضا سريعا.

إن الطابع الذي يختم به يعادل توقيعا ويكون ضمانة. فهو أداة ضرورية في العلاقات الاجتماعية. أحيانا كان ينقش على صفيحة صغيرة من ذهب أو فضة تلحم بخاتم للإصبع من نفس المادة. وفي أقدم العهود فإن قفص الحجرة الكريمة Chaton كان ثابتا، وله شكل رباعي مستطيل بزوايا مستديرة، تقليدا للأختام المصرية. ومن مصر أيضا استعيرت الرسوم وطريقة إنجازها. فأحيانا يكون الخاتم مزودا بقفص متحرك، به جُعَل من حجر دقيق الصنع أو من طين بطلاء لماع، فإذا أدخل الخاتم بالإصبع يكون الوجه المنبسط المنقوش ملامسا للجلد وحين يراد البصم بالخاتم يدار القفص. وكان الكثير من الناس لا يستعملون الخواتم، بل يستعملون حلقات للتوقيع، أكبر من أن تستعمل في الإصبع، فكانت تعلق في شريط من حول الرأس وترسل فوق الصدر. هذه الحلقات كانت من فضة، بجُعل متحرك، كثيرا ما يركب في دائرة من ذهب. أما الجعل فعادة ما يكون من حجر الكُرْنالين Cornaline. أما الأسْوِرة فبعضها كان حلقات بسيطة أو بلَوْلبتين، وبعضها الآخر كان عبارة عن تجميعات لوريقات مزينة برسوم أنجزت بالتطريق. وبها سعيفات فينيقية وجعل وغير ذلك.

كما أن صفيحات صغيرة مستديرة بها حلقات قد كانت جزءاً من قلادات، وعلى واحدة نقش ابتهال إلى أسْتَرْتي Astarté، و البِگْماليون Pygmalion. وفي غيرها تبدو الوشوم المصرية بالقرص الشمسي المجنح. وبنفس القرص وعلى جانبيه ثعبانان، ويعلوه هلال (منفرد أو يحيط بقرص صغير). وصفيحات صغيرة أخرى كانت تستعمل نفس الاستعمال. وهي مستديرة من أعلاها فحسب، وكأنها فتحات رُسم بها وعاء بين ثعبانين. وللقلادات أيضا ترجع مختلف المدلّيات Pendeloques

بحلق وأهلّة بقرون منحدرة، وأهلّة منقلبة على القرص، وقناع له لحية (وهو وجه يقي من الشرور) وجلاجل، وأدوات صغيرة بها ثقب للتعليق، فمنها لآلئ وكرات ومخروطيات وأشكال الزيتون والأسطوانات والمغازل، ولها سطح تزينه غالبا حبيبات.

بعض المدلّيات تظهر وكأنها استخدمت تارة حلقة للأذن وتارة قطعة من القلادة. فهنا نلاقي واحدة منها ليمين الرأس أو ليساره، إذ لم تكن دائما تعلق في الأذنين معا. وهناك نجدها غالبا بكثرة : خمسة او عشرة بل وأربع عشرة. وهي حلقات منكسرة، غالبا ما يلحم بها ذيل عمودي على شكل T أطرافه واسعة ومنفرجة جدا، وعدا ذلك فهناك صندوق صغير مستطيل الشكل، مملوء بالحبيبات ومعلق في حلقة منتفخة في الأسفل، أو فإن القطر المعلق في الحلقة يكون له شكل بيضة.

وفي بعض القلادات تثبت علبة من ذهب أو فضة، لها شكل أسطواني أو موشوري، ولها غطاء به حلقة للتعليق. وأكثر الأغطية يزينها رأس بارز لأحد الحيوانات (من لَبوؤة وقطة وكبش ونسر وغير ذلك)، وكثيرا ما تعلوها أفعى مقدسة وقرص الشمس، الأمر الذي يبرهن على نية إظهار للمعبودات المصرية. وبداخل الجعبة يوجد بعض الطلسمات، التي هي في العادة شفرات ملتوية من معدن ثمين، وعليها صور لآلهة وعفاريت مصرية، يصاحبها أحيانا ابتهالات باللغة الفينيقية. وهناك أدوات على شكل البلوط مصنوعة من البِلّور الجندلي Cristal de roche، لها قمع من ذهب، وتستعمل كاستعمال العلب الآنفة الذكر، وبها تفريغ مزود بجعبة معدنية.

ويمكننا كذلك أن نذكر أكاليل وخواتم للأنف وحلقات صغيرة وأشكالا لولبية يحتمل أنها كانت تشد خصلات الشعر، وحلقات كانت

النساء يجعلنها في كعوبهن (خلاخيل)، ونذكر حتى منطقة للأذن من فضة تنتهي بثغرة، ولاشك أنها كانت مثبتة في قلادة.

وأثناء القرون التي تلت، لم تفقد قرطاجة حبها للزينة. ولما حان تحطيم المدينة، وهبت النسوة حليهن الذهبي للدولة. وعند الكاتب بْلوت Plaute في إحدى مسرحياته الهزلية التي مُثلَتْ حول سنة 190، نجد شخصا ذا دعابة ينبه إلى أن عبيد حَنّون، بالتأكيد ليس لهم أصابع، لأنهم يجعلون خواتمهم في الآذان. على أن المعادن الثمينة أصبحت أكثر قلة في المدافن الحديثة. وصار الذهب غالبا ممزوجا بالفضة، أو هو ورقة بالغة في الرقة على نواة من فضة، وفي الأغلب على نواة من البرنز ومن الرصاص. فهل كان القرطاجيون، آنذاك وعلى العموم، أقل ثراء مما كانوا عليه في عهد القبور التي جرى تنقيبها في دَرْماش ودْويمَسْ؟ لا يجب الإسراع في تأكيد ذلك. ولنتذكر أن قرطاجة قد نالت في القرن الثالث نصيبا كبيرا من فضة المناجم الأسبانية التي كان البِرْكيون Barcides يستغلونها. فعلى ما يظهر صار الناس شيئا فشيئا أقل استعدادا للاعتقاد بأن الأدوات الثمينة هي ضرورية للموتى. وفي حالة عدم الإقلاع عن العادات البالية، دخل الغش في النوع.

والخواتم منها ما كان لا يزال يصنع وفقا لنمط قديم بجعل متحرك. ومنها ما هو ثابت بحجرة مثبتة في قفصها، أو بصفيحة صغيرة معدنية بيضوية الشكل، ليست في العادة قطعة موصولة، ولكنها أنجزت بتبسيط الحلقة. وكانت هذه الصفيحات الصغيرة لا تزال في الغالب تحمل صورا مشرقية، هي في الغالب وجوه من نمط إغريقي. ونشير كذلك إلى الرمز Symbole الذي هو بالضبط قرطاجي، ويدعى رمز (علامة) تانيت Tanit. وهناك عدة أدوات واسعة الانتشار، وهي أقراط للآذان، تتكون من ساق

منتفخة بالوسط، ومنثنية على شكل حلقة ألصق طرفها الواحد على الآخر، ثم جرت لولبتها على شكل إهليلج حول الحلقة. هذه الأدوات يعثر عليها منذ القرن الخامس حتى الثاني. ولكن مع الزمان فالأحجام قد صغرت. ففي مدافن الأوديون Odéon، أصبحت الحلقة مزدوجة على العموم، وتلك طريقة اتخذت منذ القرن الرابع. ونكتفي بذكر بعض الحلى الأخرى، كالأسورة التي كانت دوائر بسيطة أو ملولبة، وكمدلِّيات Pendeloques كان لبعضها قيمة وقائية بقناع متجهم، والعين الإلهية وغير ذلك، وعصابات الجبهة، والدبابيس التي في أعلاها كف يد مفتوحة. وفي مدافن القرون الرابع إلى الثاني عُثِر على علبة واحدة ذهبية للطلسمات، تزينها رأس لبوؤة وصار أغلب هذه العلب من البرنز أو الرصاص، وبعضها من فضة.

لقد كان البرنز ابتداء من القرن السابع يستخدم في صنع الخواتم وحلقات الآذان والأسورة البسيطة أو ذات الدوائر المتعددة، ويستخدم في صنع حبات القلادات، والدبابيس والمشابك (وهذه قليلة)، ولقد استمر استخدامه في كل هذا، كما استعمل الرصاص منذ القرن الرابع. وهذان المعدنان (البرنز والرصاص)، كما سبق أن قلنا، غالبا ما كان عليهما تغليف Placage رقيق من الذهب في حليات مزيفة. ولم يصنعوا الدبابيس من الحديد فحسب، بل صنعوا منه أيضا حتى الخواتم.

5

كانت المدافن العتيقة تشتمل على بعض أكواب من البلور الجندلي Cristal de roche، كما أن بعض الأحجار الكريمة مثل الْيَشْب Jaspe والينع Cornaline والحجر اليمان Agate وغيرها في قلائد وأسورة،

وغالبا ما كانت تتناوب مع حليات من المعادن الثمينة. فأحيانا كانوا يعطون لهذه الأحجار أشكال اللآلئ أو الأقراص، والكرات، والأسطوانات، والزيتون، وزهر النرد Dés، وتسلك في جديلة أو في ساق معدنية رقيقة، وأحيانا أخرى كانوا يصنعون منها مدلّيات Pendeloques مثقبة أو مثبتة في حمالة من ذهب أو فضة.

ولقد أشرنا إلى أن الجعُل (الخنفساء) كان يستخدم ختما كما كان عند المصريين. واستخدام شكله الأسطواني على النمط الآشوري، كان يلحظ وجوده أحيانا في القرن السابع. ثم وقع التخلي عنه تماما من بعد. وقد وجدت الجُعلان لها محلا في بعض القلائد. فما كان منها من حجر كريم فقد استعمل فيه على الخصوص الينع Cornaline واليشب الأخضر Jaspe vert. وهي لا ينعدم وجودها في القبور القديمة بقرطاجة، وتكثر في سردانية. وأخذ عددها يقل في القرن الرابع، بحيث قلت في مدفن سنت مونيك Sainte Monique في القرن الموالي.

ولعل بعض هذه الجُعلان قد جُلبت من فينيقيا. غير أن مصانع قد وجدت في سردانية، التي عثر بها خارج المدافن، على نوى Noyaux يلوح بها أثر العمل، كقطع غير تامة بجانب غيرها التي انتهى صنعها. ثم إن وسومها تشبه ما على الجعلان التي صنعها فينيقيو المشرق. فإذا كانت هذه الصناعة قد ازدهرت في الجزيرة (سردانية)، فلابد أن ازدهارها كان أكثر في قرطاجة التي بها سعة البيع مضمونة. وقد أخذت الرسوم الطابع المصري في القرنين السابع والسادس. وكانت الموضوعات المصرية توجد بها فيما بعد حتى خلال القرن الثالث. ولكن طريقة إنجازها كان يبدو عليها التأثيرات الإغريقية. ومنذ بداية القرن الخامس صنعت جعلان موضوعاتها ونمط صنعها إغريقي. غير أن الصناع

المقلدين يكشفون عن أنفسهم بإنجازهم البارد الجاف. ذلك أن أسلوبهم الجاف الذي بمنجزاتهم الأولى، استمر مفضلا لديهم زمنا أطول مما بقي عند أساتذتهم، على أنهم في القرنين الأخيرين لقرطاجة قد اتخذوا الأسلوب الحر. ففي أحد المواقع بين جبل سانْلوي والبحر، استخرجت عدة مئات من أقراص الطين المشوي، وعليها بصمات أحجار منقوشة، فلا شك أنها كانت أختاما دمغت بها وثائق تحفظ في الأرشيفات. فالرسوم، وهي لأخيل Achille والأمازونة بِنْتِزيلي Penthésilée (59) وهيرميس Hermès، وهيركليس Héraclès، وبان Pan والساتيرات وعذارى باخوس Bacchantes وغير ذلك، كلها أنجزت في أسلوب خال مما هو قديم. على أن بعض الطوابع المصرية تظهر من بين الأختام. وكذلك فإن مجموعة مماثلة ترجع لما قبل وسط القرن الثالث، قد وقع اكتشافها في مدينة سِلْنونة Sélinonte التي كانت تابعة للولاية البونيقية في صقلية. والمجموعة بقيت وفية للحضارة الهيلينية. وهنا أيضا فالبصمات إغريقية، باستثناء بعض الوحدات التي بها وسوم أصلها مصري أو أسياوي، مع كتابة قصيرة بونيقية منقوشة قرب رسم نصفي لفرس. وربما إنه تقليد لصورة يكثر وجودها على النقود القرطاجية.

اعتاد علماء الآثار أن يطلقوا اسم الخزف Faïence على صناعة مصرية قديمة جدا في وادي النيل. وهي صناعة كانت تستخدم عجين الرمل الصواني Siliceuse، مسحوقا سحقا ناعما، مخلوطا بقليل من الطبشور، لقولبة بعض الأشياء الصغيرة التي كانت تُكسى كلها بالميناء الملونة بأكْسيدات Oxydes معدنية. وعلى العموم كان الدهان الخزفي glaçure في العهد الذي ندرسه ذا لون أخضر فاتح. وكان الفينيقيون قد اتخذوا هذه الطريقة وكذلك الإغريق المقيمون بالدّلْتا حول 650 قبل

الميلاد. وقد عثر على أوعية صغيرة في قرطاجة وصقلية وإيطاليا، في قبور من القرن السابع جلبت دون شك من المشرق. ويصعب ذكر من صنعها. كما أن بضاعة من الصنف العامي جدا، قد كانت مكونة كذلك من أختام مستطيلة ومن صور للمعبودات. كما بها على الخصوص أنواع كثيرة من العناصر التي تتكون منها القلائد. مثل الكرات، والأشكال الأسطوانية وغيرها. وكذلك الدُّمَى التي تمثل معبودات مصرية. من بينها إيزيس Isis وأوزريس Osiris وحورص Horus، وأنوبيس Anubis، وبِسْ Bès، وعين الإله، وكذلك أقنعة لها لحى وقرون، وأيد مفتحة ومنقبضة، وحيوانات (واقفة أو رؤوسها فحسب) كالأسود والسّفَنْكس، والقطط، وأفراس النهر، والأبقار، والخنازير، والكباش والأرانب، وبنات آوى (الجقل) chacal، والقردة والتماسيح والثعابين المقدسة، والحمائم، والعقارب والأسماك ونبات البردي، وأزهار اللوتس، والأوعية، وألواح صغيرة تشبه ألواح الدومينو.

هذه الأدوات، من عجين مطلي، كانت توجد في قرطاجة وصقلية، من قبل في أقدم القبور، وبأعداد كثيرة غالبا. وكانت في القلائد مصحوبة بدمى وأقنعة وأيد، ومدلّيات مختلفة من العظم أو العاج. وأحيانا تصاحبها طلسمات من الألبتر Albâtre، وقوقعيات وأحجار مثقبة، وأسنان للحيوان منخورة أو مسلوكة في حمالة معدنية. وتصحبها أيضا حلق صغيرة من بيض النعام، وبعض المدليات الذهبية أو البرنزية، واللآلىء وكرات وأقراص، وجعب أسطوانية أو مغزلية الشكل من زجاج أو حجر كريم. وتتكون القلائد من عدة مئات من هذه العناصر، فيتجاوز طولها مترا ونصف المتر، وتكون طبعا عدة صفوف على الصدر.

إن الكثير من الجُعلان هي مصرية حقيقة، بالنظر للصّنع القويم للعلامات والصور. ويحتمل جدا أن هناك مستجلبات من بين الدمى. ولكن على العموم، فإن هذه التوافه كانت تصنع لابد في قرطاجة نفسها، حيث كانت تجد مشترين كثيرين من متاجرين يحملونها لبيعها على السواحل البعيدة. كما أن العديد من الجعلان لا تبدي سوى تقليد مشوّه لوسوم لا تفهم. وحتى الدمى فقد أصابها التشويه مع الزمان. وينضاف الفيل إلى مجموعة الحيوانات المصرية. ومن بين المدلّيات يلاحظ وجود الرمز المصري المكون من صليب ذي مقبض. وزيادة عليه هناك الرسم المماثل الذي هو بونيقي على وجه الخصوص، ويدعى علامة تانيت Tanit، والهلال المنقلب على القرص كذلك يلاحظ وجوده. ومع ذلك فإن هذه الصناعة لم تتغير مطلقا. وبقيت منغلقة على التأثيرات الإغريقية. فالعمال لم يعنوا نفوسهم بتجديد مجموعة مصنوعاتهم. والمشترون لا يحبون تغيير شكل طلِّسْماتهم التي صانت آباءهم. غير أن المصنوعات التي هي من طين ملوّن، قد صارت قليلة في المدافن المتأخرة في الزمان، وبدأ التخلي عن العمل بها.

كما أن أقنعة صغيرة تكسوها ميناء من ألوان مختلفة، أي ليست مكسوة بدهان أحادي اللون Monochrome، وتبدي أشخاصا ذوي مظهر كاريكاتوري، أكثرهم بلِحَى، وأعين مستديرة كبيرة عند الرأس، وأنوف معقوفة. وكانت هذه الأقنعة تستعمل في القرون الرابع إلى الثاني مدلّيات في القلائد. ولكنها دون شك لم تكن من صنع قرطاجي. ولابد أنها قد صنعت في مصر، ومنها أذاعتها التجارة في المغرب والمشرق.

وللصناعة المصرية كذلك يجب إرجاع بعض القناني الرشيقة التي من زجاج كثيف غامق، منقوش بشبكات، وخلالات، وريش منفوش،

وعصابات متموجة بلون فاتح. واستمر الصنع عدة قرون إلى ما حول بداية عهد الميلاد. وقد عثر على بعض من هذه القنينات في قرطاجة والقالة وگورايا، وفي سردانية ويابسة. ومنذ عهد بعيد وقع التخلي عن القول بالأسطورة التي عزت للفينيقيين شرف ابتكار الزجاج. والأشياء الوحيدة التي يمكن على وجه الاحتمال إرجاعها لمصانع قرطاجية، هي عناصر تافهة بالقلائد ذكرناها سابقا. وهي من زجاج كثيف، بها غالبا تزيينات بألوان أخرى غير ألوان الأصل. وهي أيضا عدسات مثقوبة تتجمع بالمئات وحتى بالآلاف، ربما لتكون صدرية واقية Plastrons، وهي في الأخير مسامير منقوشة الرؤوس، كانت في القرون الأخيرة لقرطاجة تستعمل لتزيين صناديق الخشب.

ولم يكن العاج والعظم منعدمين في المدافن البونيقية، وإن كان التمييز بين هاتين المادتين يصعب لأول وهلة. ونحن نعلم أن القرطاجيين في إفريقيا كان يسهل عليهم الحصول على أنياب الفيل. ولكنهم لم يكونوا وحدهم يشتغلون في العاج. ذلك أن مصنوعات من النمط المشرقي قد وقع اكتشافها في المقابر الإيطالية الراجعة للقرنين السابع والسادس. وهي قد صنعت إما بيد الإغريق، وإما بيد إيطاليين كانوا يستلهمون الإغريق. بينما هناك أخريات يبدو أنه لابد من أن تعزى للفينيقيين، ولو أنها تشهد بالتأثيرات الإغريقية. ويسوغ الافتراض بأنها صدرت عن مصانع مشرقية (قبرصية ؟)، وأنها بيعت بواسطة تجار من قادس، أو أن صناعا قد هاجروا من المشرق ليقيموا بهذه المدينة. فبعض الأمشاط، ومقبض لمروحة أو مرآة تلوح عليها وسوم متماثلة، قد عثر عليها في قرطاجة. ولربما أنها صنعت بها. إذ تشاهد عليها السعفة الفينيقية الصغيرة، كما يلاحظ فيها هذا المزج بين العناصر المصرية

والآشورية، مزجا اختص به الفن الفينيقي. كما أن مقبضين منقوشين يرجعان لزمان واحد، تظهر بهما امرأة، ورأسها مغطى حسب الطريقة المصرية، وترتدي بردة طويلة، ويداها على الصدر. فإذا صح أن هذه الأشياء هي قرطاجية فالرسوم مشرقية.

كما أن صناديق من خشب بزينة من عاج أو من عظم، كثيرا ما كانت توضع بالقبور. فيحسن إذن قبول وجود مصانع محلية. والزينات تتكون حينا من مسامير معدنية برؤوس منقوشة، وتارة من صفائح صغيرة تزينها وردات وسعفات صغيرة. وقليلا ما تحليها رسوم الحيوانات أو الإنسان. هذه الملصقات، كانت في القرنين الرابع والثالث، أحيانا عبارة عن دُمى من نمط إغريقي، اقتطعت على شكل الدُّمى، وكسيت بورق الذهب. ويعثر كذلك على أعمدة صغيرة Colonnettes بتيجان أيونية. والعاج الذي يزين صناديق هذا العهد، فيه قطع إغريقية حقا، وكأن قيمتها الفنية تشهد بأصلها.

وقد استُعمل العاج والعظم بقرطاجة لصنع بعض الأوعية الصغيرة، والملاعق والمقابض - ملساء ومخددة - للسكاكين، والمروحات والمرايا، وفي صنع الدبابيس والأسورة والخواتم والمغازل، ولوحات صغيرة بها تقطيعات وثقوب متقابلة. وهي أشياء قيل عنها إنها حمالات لآلات موسيقية وَتَرية، أو إنها مفاصل الصناديق، أو إنها أدوات للنسج. وكل هذا عديم الأهمية تقريبا.

كانت النعامة موجودة بكثرة في إفريقيا الشمالية. وبيضها كان مطلوبا جدا، إذ كان تارة يصنع منه أوعية بإحداث فتحة في أحد طرفي البيضة، وتارة يقطع البيض لتصنع منه أكواب لها حافات غالبا ما تكون مزينة بالتسنين. ويرسم على ظهر القشرة بالأسود، او الأحمر

بقع وشباك دائرية، أو رسوم معقدة أحيانا كالسعفات الفينيقية الصغيرة، وزهور اللوتس ومربعات بشكل الضامة، وحتى رسوم بعض الحيوانات. كما أن عليها وسوما أحدثت بمنقشة أو بإزميل. وحيث إنه يسهل تصدير البيض في حالته الطبيعية، فلا لزوم لأن نعزو للقرطاجيين ما وجد منه منجزا في بلاد أخرى. ففي مدينة فُلْسِي Vulci بأتروريا Etrurie أعطانا قبر من القرن السابع عددا كبيرا من هذا البيض، تزينه رسوم وأصباغ تبدي شخوص إنسان وحيوانات، وهي رسوم ذات أسلوب أيوني Ionien لافينيقي. وفي قرطاجة كانت قشور بيض النعام تقطع وتصنع منها أقراص أو أهلّة رسمت عليها بطريقة موجزة تقاطيع وجه إنساني، كأقنعة وقائية، كانت توجد سابقا في أكثر المدافن قدما(60).

أما قنينات العطر والأكواب الصغيرة من الألبتر Albâtre، فهي جدا قليلة الوجود، ولا تسمح بافتراض وجود صناعة محلية. فلابد أنها كانت تجلب من مصر أو من المصانع الفينيقية أو الإغريقية، التي ربما كانت تستلهم المنتجات المصرية.

حول القرن الثامن كان القرطاجيون يحملون للأرخبيل حليات من الكَهْرمان Ambre. ويمكن ان نتسائل :ألَمْ يكونوا هم الذين أدخلوا هذه الأشياء في القرون التاسع حتى السابع إلى إيطاليا الوسطى ؟ فقد ظهر فيها الكهرمان واندثر منها هو والخزف والزجاجيات التي كان استجلابها يقع على أيدي الفينيقيين. بل ولنا ما يبرر الافتراض بأن هؤلاء كانوا ينجزونه. ذلك أن بعض الجُعلان والدُّمى التي تمثل قردة، يمكن أن تعزى لهم على ما يحتمل. وكيف كانوا يحصلون عليه ؟ ذلك ما نجهله. وليس مؤكدا أن كهرمان القبور الإيطالية القديمة كان مصدره

سواحل اليوتْلاند Jutland أو البَلْطيق، لأن هذه المادة كانت توجد أيضا على الساحل الشرقي لصقلية. وبعض قدماء الكتّاب يؤكدون أنها كانت توجد على سواحل المغرب. وأياً ما كان الأمر، فالكهرمان قليل جدا بالمدافن القرطاجية (وكذلك في مدافن سردانية). ولاشك أن صنعه وتجارته لم يزدهرا في المدينة الإفريقية. فقد عُثر بها على لآلىء وأقراص ومدليات وعلى جعل واحد.

لقد أشار هيرودُت إلى النسائج التي كان النساء الصيداويات يطرزنها[61]، وكذلك فإن القرطاجيات لم يهملن تعاطي العمل في الثياب. فقد عثر في بعض القبور على أدوات كانت تستعمل في الفتل والنسيج. كما كان لفينيقيي الغرب معامل حقيقية. وبمَالْطَة كانت تصنع ملابس للنساء، وقلنسوات ووسائد ذات رقة ونعومة مشهورتين. وهناك كلمة إغريقية هي "أوثونْيا" التي أطلقها عليها المؤرخ تيمي Timée، فدفعت إلى الظن بأنها كانت من قطن، بينما كانت في الحقيقة نسائج من الكتان[62]. وكانت بعض القطع تتطلب سنوات من العمل[63]. وحسب بعض الكتّاب اللاتانيين، كانت مدينة القالة Chullu على الساحل الجزائري تزاحم مدينة صُور Tyr في صوفها المصبوغة بالأرجوان. ولربما أن هذه الشهرة ترجع إلى العهد البونيقي. وسبق أن قلنا إن مصايد للأرجوان قد أشير في عهد الإمبراطورية الرومانية لوجودها بطول السواحل الإفريقية. فهي على ما يحتمل قد كانت تستغل قبل ذلك العهد. وقرطاجة كانت لها صناعة نسيج مزدهرة. لم يبق لنا – مع الأسف – منها شيء. وقد أثنى هيرْميب Hermippe الشاعر الأثيني في القرن الخامس على زرابي قرطاجة ووساداتها المطرزة. كما أن أحد علماء الأغريق هو پوليمون Polémon، كتب كتابا في بداية القرن الثاني حول نسائجها. وحقيقة، فإن

هذه القطع الفاخرة لم تكن كلها من صنع قرطاجي. ونحن نعلم أن دونيس الكبير Denys l'Ancien قد باع للجمهورية، بثمن باهظ هو 120 من الطالانات Talents، ثوبا قياسه 15 ذراعا طولاً، كان قد استولى عليه في معبد "هيرا اللاّسينية" Héra Lacinienne بقرب مدينة كروتون Crotone، وهو ثوب كان قد صنع لأحد سكان سيباريس، وتزينه تطريزات تمثل معبودات ورسوما أخرى(64). وذلك برهان على أن القرطاجيين رغما عن إتقانهم في هذه المادة، فإنهم لم يقل اعترافهم بتفوق بعض المنجزات الإغريقية.

وكان الرومانيون يقدّرون الجلد البونيقي، الذي كان يصبغ بالأحمر. كما يقدر اليوم الجلد المغربي Maroquin. كما أن سلالا دقيقة الصنع قد خلفت أثرها في بعض القبور.

وكان الناس في قرطاجة يحبون التطيب بالعطر. فالنساء، وربما حتى الرجال، كانوا يستعملون مساحيق التجميل. وكان في هذا ما ينمي إحدى التجارات الصغيرة التي كان الفينيقيون أخصائيين فيها. وإنتاجها كان يباع بعيدا. ويبدو أن وعاء نُذرياً يشير إلى اسم لصانع المرهم. والأوعية المخصصة لحمل العطر يكثر وجودها في المدافن الحديثة. ومع ذلك نتساءل : أَلَمْ تكن في الغالب تبقى فارغة ؟ وسبق أن ذكرتُ عُلَباً من الرصاص لمساحيق التجميل. ولنفس العمل كانت تستخدم القواقع التي كان صفاقاها يرتبطان بمفصل معدني. كما يكثر وجود المباخر. وفوق هذا، فإن المعامل المحلية لم تكن تكفي لجميع الاحتياجات. فالمنتجات الثمينة، والزيوت والمراهم، والمساحيق، لابد أنها كانت تشحن في الكثير من هذه القنينات الجميلة المصنوعة من الطين المشوي، المزخرفة

بالألوان، وفي هذه القوارير المصنوعة من الألبتر Albâtre والزجاج التي كانت تأتي من بلاد الإغريق ومن المشرق.

6

يجب الاعتراف بأن هذا البحث حول الصناعة البونيقية، كان مملا وقليل الجاذبية. ففي كل مكان كانت لنا نفس الملاحظات. والصناع القرطاجيون لم تبد منهم أية أصالة، لا في المنهج ولا في الزخرفة. لم يبتكروا طرائق جديدة، لم يجددوا مجموعة ذخيرتهم في الرسوم بالاتصال المباشر مع الطبيعة والحياة. إنهم ينقلون وينقلون دائما، بحيث إن مصانعهم ليست في أول الأمر سوى فروع للتي في فينيقيا، التي استعارت طرائق مصر ونماذجها، وأدخلت عليها بعض العناصر التي لها أصل في بلاد الرافدين. إن قرطاجة بقيت على اتصال متين بأمّها فينيقيا. وفيما يخص بعض المجموعات من الأدوات، فإن الأسلوب المتأثر بالمصري قد استمر عدة قرون، بل إنه صمد بإفريقيا أكثر مما في فينيقيا نفسها. ومع هذا، فإن بعض التأثيرات الإغريقية أخذت تبدو منذ القرن السابع. ويحتمل جيدا أنها جرت بواسطة الفينيقيين المشرقيين، الذين كانوا في جزيرة قبرص يحيون بجانب الإغريق. ثم سيطر الفن الإغريقي بعد. ومن المحتمل جدا أنه تغلغل على الخصوص عن طريق صقلية، حيث إن بعضا من الإغريق صاروا رعايا للقرطاجة في نهاية القرن الخامس، أو بِيَدِ غيرهم ممن كانوا أثناء الهدنات بين الحروب يقومون بتجارة نشيطة معها. ولم يُبْد القرطاجيون عداوة للحضارة الهيلينية، وعلى الأقل للأشكال الخارجية لهذه الحضارة. ولكنهم لم يسارعوا في اتخاذها. إذن لم يكن يحلو لهم مطلقا أن يتخلوا

عن العادات العتيقة. وهكذا، فالأسلوب الإغريقي البائد عمّر طويلا قبل أن يضمحل، على غرار الأسلوب الفينيقي.

ثم انحطت طريقة العمل بعد القرن الخامس. ونستطيع أن نعزو الفساد في نوعية الحلى التي وجدت على الموتى إلى حب التقليل في المصاريف التي لم يعد لها طائل. ولكن هذا التأويل هل ينطبق على الخزف ؟ إن مصنوعات خزفية متقنة ومنجزة في عين المكان، لا تتطلب ثمنا أعلى من الأوعية المستجلبة التي لا ينعدم وجودها في المدافن. والحقيقة هي أن الصناع البونيقيين لم يكونوا يعنون أنفسهم بالإتقان. فذلك الاهتمام يتركونه للإغريق. أما هم فيؤدون عملهم المعتاد من غير أن يحبوه. لأن من حولهم يكثر المشترون الراغبون في البضاعة الرخيصة. أما في غير ذلك، فإن الاحتكارات التجارية كانت تكاد تجعل المشترين تحت رحمة الباعة. وهل بعض الصناعات الرفيعة كالصياغة، وصنع الحلى الثمينة والنسيج نجت من هذا التدهور في الصنع ؟ نجهل ذلك، لأن القبور لا تنبئنا عنه. وعلى كل، فلا داعي للقول بأنها أنتجت منجزات فنية حقيقية. إن المواهب الفنية لأحد الشعوب تبدو في أبسط المنجزات. لكن هذه تُبدي عجزاً عضالا لدى القرطاجيين. فهم لا يعرفون حتى كيف يحسنون تقليد نماذجهم الإغريقية. وهم في هذا أحط جدا من الأترورييين المقلدين مثلهم. ولقد خرجت من المدافن القرطاجية بعض الأدوات الرشيقة، ذات الشكل المتناسق والرسم القويم. ويسوغ التأكيد أن أكثرها صنع بعيدا عن هذه المدينة، إذ ليس من هذه الأدوات واحدة تجعلنا على حق في عزوّها لمصنع محلي بصفة قطعية. على أن من المحتمل أن يكون بعض الصناع الإغريق قدموا وأقاموا بالعاصمة الإفريقية، واشتغلوا بها كما لو كانوا ببلدهم. ولم يتوهم

القرطاجيون لصناعتهم رفعة وقيمة، بحيث إذا أرادوا أداة ليست عادية جدا، فإنهم يطلبونها من الخارج. وكذلك فإن زبائنهم من أهل البلدان الغربية كانوا إذا استطاعوا أداء الثمن، يطلبون المنتجات الإغريقية، لأن الباعة لم يكن يعنيهم أصل ما يبيعونه إذا نالوا أرباحا واسعة. فالصناعة إذن لم تستفد كما كان يجب، من الظروف المواتية التي هيأتها لها الاحتكارات التجارية.

الكتـاب الأول

التاريخ الاقتصادي لقرطاجة

الفصل الثالث

التجـارة

1

أما أن الفينيقيين كانوا ذوي مهارة في التجارة، فتلك حقيقة متداولة لدى القدماء، من عبرانيين وإغريق. وفي هذا الصدد كان القرطاجيون الورثة الجديرين بآبائهم. ويظهرون كثيري الجشع في الربح، أياً ما كانت منزلتهم الاجتماعية.

فالكثير من النقائش وأوعية النذور لتانيت پني بعْل Tanit Pené Baal وبعْل حمّون Baal Hammon، قد ذكرت التجار الذين كانوا على العموم على ما يظهر من عموم الناس. كما ذكرت الوسطاء في بيع المنتجات الواردة بكثرة على المدينة. وكذلك كان غيرهم يتعاطون تجارة التصدير والجلب، بصفتهم ملاّكا أو مسيرين لمحلات تجارية بالعمولة، في قرطاجة أو في المستعمرات أو في الخارج كمديرين أو مجهزين للسفن أو منظمين للقوافل. وفوق هؤلاء نجد رجالا من الأرستقراطية كانوا هم الأرباب الحقيقيين للمعاملات كلها. فكما في مدينة صور Tyr التي كان

باعتها من الأمراء وتجارها من كبراء الأرض(65)، فالذين كانوا في قرطاجة يسيرون الدولة، لم يكونوا يهملون القيام بالعمليات لحسابهم الخاص. ذلك كان عملهم في عهد أرسطوطاليس(66). ولا يوجد برهان على أنهم قد تخلوا عن العمل لاكتساب الثروة بهذه الطريقة في آخر أيام الجمهورية، وأنهم لم يكونوا سوى من النبلاء ملاك الأرض. والنصوص لا تذكر في أي شيء بالتدقيق كيف كانت تجري عملياتهم التجارية. فمن المحتمل أنهم كانوا مجهزين للسفن وصيارفة Banquiers. ويمكننا الافتراض أنهم، لكي يضاعفوا من وسائل عملهم ويقللوا من أخطارها، كانوا يتجمعون في شركات. ومن بين الرجال الذين كانوا يتعاطون مهنة الشراء والبيع ونقل البضائع، فإن أكثرهم كانوا تابعين لابد – بصفة مباشرة أو غير مباشرة – لهؤلاء الرأسماليين. فبعضهم كانوا من معتمديهم Agents، أو مندوبيهم أو قادة سفنهم، والآخرون هم شركاؤهم بضمانهم هم.

كان القرطاجيون كالصوريّين والصيدويّين يتعاطون خصوصا التجارة البحرية، التي كان يدعوهم لها الموقع الرائع لمدينتهم بين حوضي البحر الأبيض المتوسط. وكان يوجد أيضا مجهزون للسفن في مدن فينيقية أخرى بالغرب، كمدينة أوتيكا Utique وفي قادس Gadès التي كانت منطلقا للرحلات البحرية على طول سواحل المحيط. ولكن كانوا بدون شك يلقون المشقة في صدّ مزاحمة أهل قرطاجة الذين توفرت لهم وسائل أكثر، ونفوذ شخصي أوسع، كما لهم سهولة أكثر في الاتصال بالتجار الأجانب. ولعل أكثرية المستعمرات البونيقية لم تكن مرافئ للتسجيل Ports d'attache لأساطيل مستقلة، بل كانت مخازن تأتيها سفن العاصمة للتفريغ والشحن.

كانت سفن التجارة أكثر سعة من القوادس Galères التي كانت تستعمل في المعارك. واللفظ الفينيقي الذي كان يطلق عليها هو "گول Gaul"، ومعناه "مستديرة". ويمكن أن تكون لها أحجام كبيرة جدا، مثل سفن طَرْشيش Tarshish التي ذكرتها التوراة، والتي كانت تنقل المعادن الإسبانية إلى المشرق، ولكنها كانت تستعمل أيضا في رحلات أخرى. والأكيد أن البحرية القرطاجية التجارية، بنفسها وقائديها وبحارتها، قد كانت تساوي بحريتها الحربية ذات الشهرة الواسعة. وقد كانت تستعمل الأشرعة غالبا، ولكن لا تنسى حمل المجاديف، لكيلا تتعطل السفن إذا وقع حادث، أو تتوقف إذا هدأت الرياح هدوءا تاما. وكانت الملاحة تجري في الأول وهي متصلة بقدر الإمكان بالسواحل (المساحلة)، ثم أصبحت أكثر جرأة، فخاضت البحر مهتدية بالنجم القُطبي. ومالم تكن هناك ضرورة ملزمة، فإن السفن لم تكن تغامر في لجة البحر أثناء الفصول الزمنية القاسية، بين الاعتدالين الخريفي والربيعي. ولم تكن السرعة تتعدى مطلقا خمسة أميال في الساعة (9 كيلومتر)[67].

لم يكن القرطاجيون يجهلون أن روح المبادرة هي مزية ضرورية للنجاح في التجارة. فكانوا من وقت مبكر يرسلون من البيت العائلي أبناءهم «ويحضونهم -كما يقول الإمبراطور جولْيان[68] - على العيش من عملهم بشرط أن لا يقترفوا أبدا أي عمل يشين». ولربما أن المحتمل هو أنهم كانوا ينصحونهم بالعمل للثراء بصفة خاصة، من غير إصرار كثير على اختيار الوسائل، لأن الإغريقيين والرومانيين كانوا يعتبرون القرطاجيين أكثر دهاء وأقل ذمة. وهم صبورون ومكابدون لا يخشون الرحلات الطويلة، التي لم تكن دائما تخلو من المخاطر ولا الإقامة في البلاد البعيدة. وأحيانا يبقون شهورا وسنين من غير أن يعودوا لبيوتهم،

ويبيعون ويشترون كل ما يمكن أن يعود عليهم بالربح، ويعرفون كيف يداخلون من لايحبونهم عادة، ولا يهمهم الوقت مطلقا بشرط أن ينجح مسعاهم في عقد الاتصالات النافعة. فإنهم اتخذوا عادة عقود الضيافة المتبادلة بين الأفراد. وتشهد بهذه العقود الصفحات التي أنجزت في نسختين، والتي كانت التزاماتها وراثية تمكن من الاعتماد عليها. وهكذا فالتاجر بمجرد وصوله للمدينة يجد مخبرا وسيطا وضامنا للعمليات التي يريد القيام بها. وغير هؤلاء كانوا – ودون مطالبة بأي عون رسمي – يذهبون لمبادلة المنتجات بسواحل يسكنها أقوام من المتوحشين.

2

على أن نمو التجارة القرطاجية كان في نفس الحين عمل الدولة وعمل المبادرات والجهود الفردية. ولم يكن في الإمكان غير ذلك في مدينة يحكمها رجال يشتغلون بالتجارة. وفوق هذا كانت مصالحهم تتفق مع مصلحة خزينة الدولة التي كان تحصيل حقوق الديوانة (الجمارك) واحدا من أهم مداخيلها. وعلى هذا، فقد كانت للجمهورية سياسة تجارية يمكن تلخيصها كما يلي : إما بالقوة، وإما بالمعاهدات، وإما بتكوين المستعمرات، بفتح الأسواق للقرطاجيين، وجعل استغلالها موقوفا عليهم في المناطق التي يمكن تنحية كل مزاحمة عنها، أما التي يمكن إقامة هذا الاحتكار فيها، فتنتظم المعاملات فيها بمعاهدات توضح الفوائد المتبادلة، وتضمن ضد القراصنة حرية الملاحة كما تضمن وجود المدن والمتاجرة البحرية.

كانت الفتوحات التي أنجزتها قرطاجة في القرنين السادس والخامس في كل من سردانية وصقلية وإفريقيا، وفي أسبانيا في القرن

الثالث، بالغة النفع طبعا لهؤلاء التجار، وكذلك في إنشاء المستعمرات على طول سواحل البحرين الأبيض المتوسط والمحيط، وفي السيطرة على المستعمرات الفينيقية القديمة. وهذه المدن، سواء أكانت عاصمات Chefs-lieux للمحافظات أو للمقاطعات، أم كانت مواقع أمان في أوطان غير خاضعة، فإنها كانت تستخدم مراكز للمبادلات بين الساحل وداخل الأراضي. والبعوث الرسمية لمناطق بعيدة، كبعثة حنّون Hannon وبعثة حملكون Himilcon، كانت مهمتها التعرف على خيرات البلاد المستكشفة، وربط علاقات مع الأهالي. وكذلك فإن عقودا دبلوماسية تمت بعد الحروب، أو بالتراضي بين الطرفين قد بينت شروط وحدود التجارة أيضا بين قرطاجة ودول أخرى متحضرة. ولا علم لنا بالاتفاقيات التي لابد أنها عقدتها مع أهم المدن الإغريقية بالغرب، أي أكْريجَنْت Agrigente وسِرَقوسَة Syracuse ومَرْسيليا وقورينة Cyrène. ولكن أرسطوطاليس يخبرنا أن القرطاجيين والأتروريين كانوا متحدين، ليس فحسب باتفاقيات تحالف سياسي، بل وفوق هذا باتفاقيات تتعلق بجلب البضائع وبمعاهدات تمنعهم من أن يسيء بعضهم لبعض. وبفضل بوليب Polybe، لدينا معلومات عن معاهدتين تجاريتين أبرمتا مع رومة قبل حملة بيرْهوس Pyrrhus بإيطاليا. فحسب هذا المؤرخ ترجع أولى المعاهدتين إلى نهاية القرن السادس، أما الثانية فتؤرخ على وجه الاحتمال بأواسط القرن الرابع. ويقول بوليب : إن المعاهدة التي جرت سنة 278-279 زمن بيرهوس قد أكدت الشروط السابقة. إذن فلعل الأمر لا يتعلق ببنود المعاهدة الثانية، وإنما بشروط اتفاقية واحدة أو اثنتين كملتها وتممتها هذه، لجعلها متوافقة مع تقدم السيطرة الرومانية بإيطاليا.

كانت قرطاجة تريد على الخصوص أن تحتفظ لنفسها في الغرب بالاستغلال الاحتكاري لمجال تجاري واسع. فكان لابد من أن تكون سيدة على الأسواق عند شعوب غير قادرة على أن تصنع بنفسها الأدوات التي تحتاج إليها. كما أنها تنقل المواد الأولية التي تنتجها أراضيها. وهكذا، كان بمستطاع هؤلاء المتاجرين أن يجددوا حسب هواهم شروط البيع والشراء، ولا يخشون العودة بحمولتهم أو الرجوع بعد التفريغ. وهم وسطاء لابد منهم بين المناطق التي تحت أيديهم وبين الإغريق والإيطاليين والمشرق. فكانوا نظرا لذلك يتقاضون أجرة وساطتهم عن سعة.

ولكي يؤسسوا ويحافظوا ويوسعوا هذه الاحتكارات، فإن القرطاجيين كان عليهم أن يخوضوا المعارك، وأن يقوموا ببعض التنازلات في ميادين أخرى. وفي القرن الرابع كانت سياستهم، التي تخدمها بحرية حربية قوية، قد أتمت العمل الذي شرعت فيه من قبل بزمن طويل. وصار المزاحمون لهم منذ ذلك الحين مبعدين تقريبا عن كل السواحل التي لهم – أي للقرطاجيين – فيها منشآت، ومبعدين نتيجة لذلك عن داخل الأراضي التي يوصل إليها من هذه السواحل.

كان اللاتانيون يطلقون اسم توْريا ماريْا Tyria Maria على البحار التي كانت بنت صور Tyr (أي قرطاجة) تسيطر عليها وتجعل الرحلات البحرية خطيرة على الجميع. وأحد البحار كان هو المحيط الأطلسي، عند الشمال الغربي والجنوب الغربي لأعمدة هرِقَل. وفي القرنين السابع والسادس، كان لبعض الإغريق من أهل آسيا الصغرى علاقات منتظمة مع مملكة طَرْطِسُوس Tartessos، التي كانت عاصمتها مقامة قرب مصبّ الوادي الكَبير. فمنع عليهم من بعد عبور المضيق. وقد كتب

بَنْدار Pindare حوالي سنة 469 قائلا : ليس من السهل الدخول في بحر عسير العبور خارج الأعمدة. وحسب تيمي Timée فإن الأتروريين أرادوا أن ينزلوا في جزيرة كبيرة خصبية اكتشفها الفينيقيون على بعد عدة أيام بغرب ليبيا (هي على ما يظهر جزيرة ماضِرَة Madère)، ولكن القرطاجيين منعوهم من ذلك. وكان هذا زمن القوة البحرية الأترورية، أي في القرن السادس أو في بداية الخامس[69] . والمعاهدة الثانية المعقودة بين رومة وقرطاجة في 348 لاشك، منعت على التجار والقراصنة الرومانيين أن يتجاوزوا رأس بالوس Cap Palos بالساحل الأسباني، وهو على ما يقارب 500 كيلومتر بشمال شرق مدخل المحيط.

ويحكي سْترابون Strabon أن الفينيقيين من أهل قادس كانوا يخفون الرحلات التي يقومون بها للشمال حتى جزر الكاستريد Cassitérides (أي الجزر القصديرية) التي يذهبون إليها لاستجلاب القصدير والرصاص. وقد أراد بعض الرومانيين الاطلاع على سرّهم، فتقفوا إحدى سفنهم، غير أن قائد هذه السفينة ارتمى بها في مهواة عمدا، ثم جاءت السفينة الرومانية فارتطمت فيها بدورها، واستطاع البطل القادسي النجاة من الغرق، فنال من الخزينة العامة ثمن البضائع التي خسرها. وإذا لم يكن هذا الحادث حكاية، فيكون جرى بعد طرد القرطاجيين من أسبانيا، لأنهم لم يكونوا ليسمحوا للسفينة الرومانية بالوصول لقادس. كما تهمهم إراتوسْطين Eratosthène في القرن الثالث بأنهم كانوا يغرقون السفن الأجنبية المتجهة للمضيق. وقام بيثياس Pythéas حول 325 ق.م على وجه التحقيق، وهو من أهل مرسليا برحلة استكشافية طويلة أوصلته للنرويج، وقد توقف في قادس، وبالطبع فإن قرطاجة لم تعارض رحلته. كما أن أحد مواطنيه وهو أوتِمين Euthymène قام في وقت لا ندريه برحلة

ساير فيها الساحل الإفريقي حتى الصحراء، ولربما حتى السينغال. ولكن هذه كانت استثناءات. وقد اعترف هيرودُت بأنه لم يستطع معرفة أي شيء عن أراضي أوربا الغربية. وبعده فالرحلة القصيرة لحنّون، وعلى ما يحتمل حتى رحلة حملكون قد ترجمتا إلى اللغة الإغريقية. وفي أواسط القرن الرابع، فإن كاتَب الرحلة المعروفة باسم رحلة سيلَكْس Scylax حصل على بعض المعلومات عن الساحل الشمالي الغربي لإفريقيا، الذي قد جرى وصفه في نهاية نفس القرن في رحلة أخرى كتبت في قورينة (هي رحلة أوفِلاس Ophélas). ومع ذلك بقي الإغريق على جهلهم الكبير بالسواحل الواقعة خلف أعمدة هرقل، الأمر الذي أثبته كل من إراتوسطين Eratosthène وپوليب Polybe. وهذا الأخير كان يقسو في التشنيع على بيتياس Pythéas بأنه كاذب، وفي ذلك برهان على أن أي أحد لم يستطع التأكد من صدق الكاتب المرسيلي.

وفوق ذلك فالقرطاجيون والقادسيون لم يدخروا وسعا في تثبيط المغامرين الذين قد يريدون المغامرة في المحيط الشاسع الأطراف. فكانوا يؤكدون أن هذا البحر كان مليئا بالأخطار والموانع، بقيعانٍ غير عميقة ترتطم بها السفن، ومجالات عريضة من الطحالب تتعوق فيها، ووحوش عظيمة تقترب مهددة، وضباب كثيف، وتوقف تام للرياح.

كانت السواحل الشمالية لبلاد البربر ممنوعة عن الأجانب منذ عهد بعيد. ويحتمل أن قرطاجة كان يعنيها أن تحتفظ لنفسها بهذه الطريق، بين مضيق جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط الشرقي، أكثر من أن تغلق في وجه المزاحمين التجاريين أراضي خيراتها ضئيلة، واقتحامها صعب، وسكانها عشائر لا تزال همجية جدا. ففي الاتفاقية الأولى، وقع التنصيص على ما يلي : «إن الرومانيين وحلفاء الرومان لا

يخوضون البحر فيما خلف المرتفع الجميل Beau promontoire، إلا إذا أرغمهم على ذلك هياج البحر أو الأعداء. وإذا انجر لهذه النواحي أحد بغير إرادته، فإنه لا يشتري ولا يأخذ أي شيء باستثناء ما يحتاج إليه لإصلاح مركبه أو لأداء القربان. (ويجب أن يرحل داخل خمسة أيام)[70]».

أما المرتفع الجميل، فهو رأس سيدي علي المكي الذي يغلق من جهة الشمال خليج قرطاجة. وسبق أن ذكرنا خلافا لرأي بوليب، أن المنع يقع دون شك، لا على السواحل الواقعة جنوب الرأس المذكور، بل يقع على السواحل الممتدة غربه. وقد جرى إدراج هذا البند أيضا في الاتفاقية الثانية مع بعض التغيير في الألفاظ : «فيما وراء المرتفع الجميل ومَسْتِيا التي لطَرْسِيون – Mastia de Tarséion هي مدينة في أسبانيا – لا يسوغ للرومانيين أن يغنموا ولا أن يتاجروا، ولا يمكنهم ان يؤسسوا مُدناً». ونفس المنع لابد أنه وقع على الإغريق. فهيرودُت في القرن الخامس، يبدو أنه لم يكن يعرف شيئا عن ليبيا غرب قرطاجة.

وقد نظم أحد بنود الاتفاقية الأولى شروط التجارة التي يتعاطاها الرومانيون في ليبيا، أي في القسم من ليبيا الواقع جنوب المرتفع الجميل (نظراً لأنهم لم يكن مسموحا لهم بالإبحار غرب هذا الرأس) : أي بسواحل تونس الشرقية والسدْرتَين. لكننا نقرأ في الاتفاقية الثانية : «في سردانية وفي ليبيا لا يتاجر أي روماني ولا يؤسس المدن ولا يرسو إلا للتزود بالطعام أو ليصلح سفينته. وإذا طوحت به فيها العاصفة، فيجب عليه مغادرتها داخل خمسة أيام». فالقرطاجيون منذ الآن يبعدون الرومانيين عن جميع السواحل الإفريقية التي هم ساداتها، ولا يقبلونهم مطلقا إلا في قرطاجة نفسها.

أما الإغريق فقد سبق أن طردوهم في نهاية القرن السادس من المستعمرة التي أنشأها دوريْوس اللاّسِدموني على الكِينبْس Cinyps فيما بين السدْرَتَيْن. وخلال هذا العهد، ووسطِ القرن الرابع، ثبتوا في أضرحة فِلينْ Autels de Philène في داخل سدرة الكبرى حدود منطقة سيطرتهم. هل كانت هذه الترتيبات السياسية مصحوبة بتحريمات تجارية ؟ إن هيرودُت له معلومات هزيلة عن السدرتين وعن شرق تونس. على أن هذا لا يؤكد حتما أن الأغريق في عهده كانوا يجوبون هذه الجهات. ولربما أنه استقى من بعض الكتاب الأقدمين، مثلا من هيكاتي Hécatée الذي كتب حول العهد الذي جرت فيه حملة دوريْوس. أما ما يتعلق بجزيرة كيرونيس Cyraunis، (هي قَرْقَنّة بالشمال الشرقي لخليج قابس)، فهو يقول بلفظه إنه يذكر معلومات قرطاجية. وعلى ما يحتمل فإن بزودو سيلَكْس Pseudo - Sylax قد أخذ من مرجع بونيقي جميع ما قاله عن الساحل الإفريقي، من أضرحة فلِين Autels de Philène حتى أعمدة هرقل. فهو يلفت النظر إلى أن المدَن والمتاجر التي يذكرها، هي ملك لقرطاجة. ولربما أن المعلومات التي تلقاها حول سنة 260 تيموسْتين، وهو أميرال في بحرية بطلمي فيلديلف Ptolémée Philadelphe، هي أيضا من أصل بونيقي. أما سواحل المتاجر والبوزاكيوم Byzacium التي كانت موصدة عن التجارة الرومانية في القرن الرابع، فلا نعتقد أنها بقيت سهلة المنال على التجارة الإغريقية، لأن القرطاجيين كان لابد أن يحافظوا لأنفسهم على أبواب السودان، وعلى منافذ المنطقة الخصبة المحيطة بهدْروميت (سوسة). وبين سرْنيكا وقرطاجة فالسواحل مفتوحة للجميع، ومع ذلك لم تكن تقع المخاطرة بخوض لجة البحر. إذن فيحتمل أن الإغريق قد نالوا الإذن بالسير مع السواحل، وبالتوقف توقفا قصيرا هنا وهناك لما تفرضه احتياجات رحلتهم.

وعلى العموم، فالأجانب الذين لم تكن لهم مصلحة تدعوهم لزيارة السدرتين، كانوا يمنعون فيهما عن خوض البحر. والإيطاليون كانت معرفتهم سيئة بأحواز جزيرة جربة أثناء الحرب البونيقية الأولى، إلى حد أن الجزْر البحري قد أخذ على غرة أسطولا رومانيا كبيرا. وعلى غرار المحيط الأطلسي كان خليج السدرتين يخشاه البحارة. ولربما إن ذكره السيء هو من صنع القرطاجيين الذين كانوا يستحسنون المبالغة في أخطار البحر الذي يحتفظون به لأنفسهم.

إن المعاهدة الأولى المعقودة بين قرطاجة ورومة قد أذنت بالتجارة الرومانية في سردانية، والثانية منعتها. ولا ندري ابتداء من أي عهد طبق نفس المنع على الإغريق الذين نجد قبور سردانية فقيرة جدا في المصنوعات الإغريقية. وفي عهد إراتوسْطين كانت السفن الأجنبية التي تقترب من الجزيرة مهددة بالغرق.

في أسبانيا حددت المعاهدة الثانية للتجارة الرومانية حدا هو ميناء مَسْتيا Mastia الذي كان يوجد بالقرب من رأس بالوس Cap de Palos، الذي به وقع تأسيس قرطاجنّة Carthagène في القرن الثالث[71]. والمعتقد هو أن الإغريق لم يكن مسموحا لهم أن يتقدموا بعيدا. إذ نعلم أن مستعمرة أسسها الفوصيون Phocéens قريبا من مالقة (Malaga : Maenacé) قد وقع تدميرها.

وكان لابد للقرطاجيين أن يضمنوا لأنفسهم الاحتكار التجاري في جزيرة يابسة Ibiça التي استوطنوها في القرن السابع، ولربما حتى الباليار التي كانت لهم علاقات مع أهاليها، الذين كان الكثير منهم يذهبون للعمل في جيوش القرطاجيين.

- ولا نستطيع القول بأنهم فعلوا مثل ذلك بمالْطة وگوزّو Gozzo وبَنْتلاريا Pentelleria. فلم يكن بالمستطاع منع الوصول إليها على الذين يذهبون للميناء الإفريقي. ولكن لا ينتج عن ذلك أنهم كانوا مأذونين بتعاطي التجارة فيها.

وهكذا، ومنذ القرن السادس، فإن القرطاجيين قد أحدثوا لفائدتهم احتكارات تجارية في الغرب. وفي القرن الرابع لم يكونوا يتحملون المزاحمين لا في إفريقيا، غرب سرنيكا، ولا في سردانية، ولا في جنوب أسبانيا، ولا فيما وراء جبل طارق.

وبالطبع، فإن خراب إمبراطوريتهم الاستعمارية أهوى معه بنفوذهم. فهم عندما ضاعت منهم سردانية سنة 237، وأسبانيا في 206، ومستعمراتهم بالسواحل النوميدية والموريطانية، ومنطقة السدرتين بعد الحرب البونيقية الثالثة، لم يعودوا قادرين على إبعاد التجار الأجانب إلا من الساحل المحيط بولايتهم الإفريقية، بين طَبَرْقة Tabarca والمدخل الشمالي لخليج قابس.

وقرطاجة، مع محافظتها على هذه الاحتكارات، كانت مصلحتها في المحافظة على علاقات تجارية مع نفس هؤلاء الذين كانت تبعدهم عن أملاكها. ومعاهدة 348 نصت على أن بروما لا يكون فرق بين التجار البونيقيين والرومانيين. ولا نقرأ بندا مماثلا لهذا في المعاهدة الأولى. ويبدو لنا مع ذلك أنه من الصعب إثبات أن القرطاجيين حتى أواسط القرن الرابع لم يكونوا مقبولين في رومة. فإذا لم يكونوا نالوا هذا الحق ضمنيا، فلا نرى لماذا تكون جمهوريتهم، وهي أشد قوة أثناء المعاهدة الأولى، قد وافقت على اتفاقية فيها على العموم بند واحد موافق لها، أي المنع الصادر للرومانيين بخوض البحر وراء المرتفع الجميل. ونعتقد

كذلك أن أرسطوطاليس[72] عندما ذكر بإقامة معاهدات (تتعلق بالجلب) بين القرطاجيين والأتروريين، فإنه أراد الحديث عن الجلب للبضائع الذي يتعاطاه الطرفان، إما بالسفن الأترورية إلى قرطاجة، وإما بالسفن القرطاجية لبعض موانئ أتروريا.

يبدو أن هيرودُت التقى في القرن الخامس ببعض القرطاجيين في موانئ إغريقية. فمنهم من كان في سرقوسة وفي مدن صقلية أخرى في بداية القرن الرابع، وفي رهْجيون Rhégion عندما أعلنت الحرب الأولى ضد رومة، كما نجد أثرهم في عدة أمكنة في بلاد الإغريق نفسها.

أما الشعوب التي كانت تحافظ أمام قرطاجة على استقلالها، فقرطاجة لم تكن تستطيع فرض سيادتها التجارية عليها بالعنف أو بالتهديد، ولم تكن تنال من هذه الشعوب احترام احتكاراتها وحرية الوصول لموانئها إذا لم تحصل هي على شيء من قرطاجة. فاضطرت إذن إلى التعهد بأن لا تقوم بفتوح، وأن لا تؤسس مستعمرات بالجهات التي كانت لهذه الشعوب السيادة عليها، أو تريد الاحتفاظ بها لنفسها. والمعاهدتان الأوليان مع رومة منعتاها من بناء الحصون في أرض اللاتانيين، ومن احتلال أي بلدة فيها، كما تركت كُرْسيكا للأتروريين، وربما تخلت بها عن التجارة كلها. واعترفت بحقوق إغريق سرنيكا الذين وراء أضرحة فيلين، وبحقوق إغريق مرسيليا لا شك على سواحل غاليا والشمال الشرقي لأسبانيا.

وقد فتحت ميناءها التجاري للجميع. والمعاهدة الأولى لا تذكر ذلك صراحة. لكن، إذا كان الرومانيون يمكنهم المتاجرة بجنوب المرتفع الجميل – (لا بشرقه كما فهم بوليب) – فينتج عن ذلك أنهم كانوا أحرارا في الوصول إلى المدينة الإفريقية العظيمة. وحسب رأينا فإن أحد بنود

هذه المعاهدة كان إذن ينطبق على قرطاجة : «الرومانيون الذين سيأتون للتجارة، لا يقومون بأي عمل إلا بمساعدة دلال Heraut أو موثق Greffier. وكل ما بيع بمحضر هذين فثمنه واجب للبائع بالضمانة العامة، سواء أكان البيع في ليبيا أمْ سردانية». وهو قرار في صالح الأجانب المنفردين والجاهلين للعادات المحلية، وبهذا فهم متعرضون للتصرفات الجائرة وللخيانات أكثر مما هم قادرون على احترامها. وإذا كانت المعاهدة الثانية تغلق سردانية وليبيا في وجه التجار الرومانيين، فإنها قد خولتهم في قرطاجة قانونا أكثر فائدة لهم من المعاهدة السابقة، بحيث صار بمستطاعهم أن يتعاطوا لكل العمليات التجارية المسموح بها للمواطنين. ولا شك أن العاصمة قد فتحت – وبنفس الشروط – للإغريق والأتروريين. إذ لابد، من بين الأجانب المقيمين بها، أكثرهم كانوا تجارا.

في القسم من صقلية الخاضع للدولة البونيقية، ضمنت المعاهدة الأولى للرومانيين جميع الحقوق التي يتمتع بها القرطاجيون. وكما نرى، هذه هي المادة التي طبقتها من بعد المعاهدة الثانية على قرطاجة. وفي نفس الحين وقع تجديدها لصقلية. فلماذا ينال الرومانيون في الجزيرة هذه الحظوة منذ نهاية القرن السادس، ويستمر العمل بها في القرن الرابع، بينما اتخذت تدابير معاكسة في سردانية وإفريقيا ؟ فهل طالب الرومانيون لأنفسهم بأن تكون لهمَ في الموانئ الفينيقية بصقلية نفس التسهيلات التي لهم في ولوج الموانئ الإغريقية والتجارة بها ؟ أو طالبوا بنصيب في الفوائد التي سمح بها القرطاجيون للإغريق لكي ينالوا من هؤلاء فوائد متبادلة ؟ هل كانت الحرية في العلاقات التجارية نفوذا تخوله قرطاجة لأتباعها ورعاياها الصقليين الذين كانت تعاملهم ببعض المجاملة ؟ يصعب الاختيار بين هذه الافتراضات(73).

لقد بدأت القرصنة في البحر الأبيض المتوسط مع بدء الملاحة، واستمرت بقليل أو كثير من القوة، حتى القرن التاسع عشر. وكانت الملاجئ الأخيرة لهذه القرصنة هي الشواطئ البارْبَريسْكية Barbaresques[74]. وقد تعاطاها فيه القرطاجيون مثل حلفائهم الأترورييين، كما تعاطاها الإغريق واللاتانيون والليغوريون Ligures والليباريون Lipariens وغيرهم أيضا. ولم يكن هؤلاء اللصوص يكتفون بإيقاف السفن التي يلاقونها، بل كانوا ينزلون إلى اليابسة، وغالبا ما يكونون أساطيل قوية جدا لمهاجمة المدن وإلزامها بأداء الأتاوات. وحتى الدول، فإنها لم تكن تتردد في أن تعمل مثلهم للشعوب التي لم تكن مرتبطة معها بمعاهدات.

ولم تكن قرطاجة لتسكت عن هذه الجرائم التي تقع ضد تجارها وممتلكاتها، والتي تهدد بإتلاف خيرات الأراضي التي كانت تدّعي استغلالها. وبالطبع استخدمت بَحْريتها الحربية لحماية الطرق التجارية والموانئ، وشرطة للوقاية والردع. والمذنبون الذين يقبض عليهم كانوا يعاقبون بقسوة شديدة، حتى ولو مر على جنايتهم زمن طويل. وللدفاع عن الشواطئ فقد أقيمت حصون عديدة كانت تراقب البحر وتتبادل الإنذار بالخطر فيما بينها. وكان العديد من هذه المراقب موجودا في إفريقيا وأسبانيا في عهد السيطرة الرومانية، ويفضلون أن يطلقوا عليها اسم «حصون حنّيبَعْل». وهي تسمية شعبية يجب أن لا تعطى أية قيمة تاريخية.

وكذلك، فإن القرصنة كانت موضوعا لاتفاقات دبلوماسية. تلك هي هذه الاتفاقات التي تعهد بها القرطاجيون والأتروريون أن لا يسيء بعضهم للبعض. ونقرأ في المعاهدة الأولى مع روما ما يلي: «القرطاجيون لا يحدثون أي سوء لأهل أردي Ardée، وأنْتيوم Antium،

ولورَنْتي Laurente، وسِرْسيي Circéi، وطَرّاسين Tarracine، ولا لأي موقع آخر للاتانيين الخاضعين لروما. أما من ليسوا خاضعين لها، فإنهم يعيدونها سليمة إلى الرومانيين، وإنهم لا يبنون أي حصن في أرض اللاتانيين، وإذا دخلوا لهذه الأرض بصفتهم أعداء، فإنهم لا يقضون بها الليل». [وهذه مادة يقصد بها منعهم من التقدم إلى أبعد من الساحل]. إذن فقرطاجة كانت تتعهد بفرض بعض القيود على قراصنتها، وبمراقبتهم بنفسها. فيبدو جيدا أن هذه المواد كانت على الخصوص تقصد حملات رسمية، أو شبيهة بالرسمية لمؤسسات قطع الطرق العامة. ومقابل ذلك، لاشك كانت توجب على الرومانيين أن لا يسيئوا إليها. ولو أن الاتفاقية لا تنص على ذلك بألفاظ صريحة.

أما المعاهدة الثانية فتذكر بإيضاح الشروط المشتركة بين الطرفين، وهي : «فيما وراء المرتفع الجميل ومَسْتيا تَرْسِيون Mastia de Tarséion فإن الرومانيين لا يغنمون مغانم... والقرطاجيون إذا استولوا في اللاتيوم على مدينة غير خاضعة للرومانيين، فإنهم يملكون ثروات هذه المدينة وأهاليها، ولكنهم يعيدون المدينة. وإذا استولى بعض القرطاجيين على ناس ليسوا تابعين للرومانيين. ومع ذلك، فلهم مع هؤلاء معاهدة سلام مكتوبة، فلا يأخذونهم إلى موانئ الرومانيين، وإذا سيق لها أحد هؤلاء الأسرى وطالب به أحد الرومانيين، فإنه يطلق. والرومانيون من جانبهم يكونون ملزمين بنفس الشروط. وإذا أخذ أحد الرومانيين الماء والمؤن من أرض تابعة للقرطاجيين، فيجب أن لا يستعمل ذلك لإحداث الضرر لأي واحد ممن هم في سلام وصداقة مع القرطاجيين. ونفس المنع يقع على القرطاجيين. وإذا قام أحد بهذه الأعمال الممنوعة، فالمرء الذي لحق به الضرر، لا يأخذ حقه بيده، بل يصبح الضرر عموميا». إن الجملة

الأخيرة التي لم نستطع ترجمتها بدقة، هي إما ناقصة أو سيئة التحرير على الأصح، لكن المعنى يقدر بالحدس، وهو: إذا قام روماني بأحد أعمال القرصنة فالمنكوب يقدم دعواه للدولة القرطاجية التي تقوم مقامه وتبعث بشكواها إلى الدولة الرومانية، وهذه تعوض عن الخسائر، ويحق لها أن توقع بالمذنب الجزاء الواجب، ونفس الأجراء يطبق دائما وأبدا إذا كان الجاني قرطاجيا.

من بين الإجراءات التي اتخذتها الجمهورية لصالح التجارة، لابد أن نذكر تهيئ ميناء قرطاجة، الحوض الكبير الذي حفر بداخل الأراضي، وتحيط به الأرصفة، ويسبقه في جون الكرَم Baie du Kram رصيف عريض للإنزال. وليس لدينا برهان على أن خدمات مماثلة قد أنجزت بمكان آخر. ونعثر هنا وهناك بإفريقيا على بقايا لمرافئ عتيقة، غير أن هذه المنشآت منها ما هو روماني، ومنها التي لا يمكن تحديد زمانها.

وليس لدينا كذلك ما يسوغ الاعتقاد بأن القرطاجيين، حبا في تسهيل الحركة التجارية وفي تثبيت سيطرتهم، قد أقاموا شبكات من الطرق في المناطق التي كانت لهم السيادة عليها. وفي شمال إفريقيا وقعت الإشارة إلى وجود بعض الطرق في العهد البونيقي. فكانت إحدى هذه الطرق تربط العاصمة بنيابوليس (نابل)، على خليج الحمّامات، فكانت تمكّن من اختصار العبور على الذاهبين إلى أكْرِيجَنت، وسرَقوسة ومالْطة أو إلى البوزاكْيوم والمتاجر، وتمكّن من تلافي الأحواز الخَطيرة للرأس الطيب. كما أن طرقا أخرى كانت، خلال برزخ قرطاجة، تتجه نحو أوتيكا وبنْزَرت ووادي مجَرْدة. وهناك طريق معبدة كانت تساير الساحل شرقي لبدة الكبرى. ونجهل هل كانت جزءاً من طريق طويلة على البحر

Corniche تربط مدن السدرتين. ولربما أن هذه الطرق لم تكن أكثر قيمة من دروب الرجّالة Pistes الممتنعة عن النقل بالعربات، والعسيرة إذا ساءت أحوال الطقس، والتي كما هي اليوم توجد لابد في كل مكان بأرض الأهالي. ومع ذلك فإن بعض الأشغال الفنية قد وقعت الإشارة لها كالممرات التي شقت في الجبل التي تسد برزخ قرطاجة، وكالجسر على نهر مجردة، والسد الذي كان غير بعيد من البحر خلال المضاحل يوصل طريق الساحل إلى لبدة.

ويا عجبا من دولة للتجارة فيها مثل هذه المكانة، وتتأخر كثيرا في سك النقود. الحقيقة هي أن القرطاجيين لم يكونوا بحاجة لذلك في علاقاتهم التجارية مع الباربار، لأن هؤلاء كانوا يفضلون الطريقة القديمة التي هي المقايضة. فبالسواحل البعيدة، كانت استحالة التفاهم وحالة من الارتياب المتبادل، قد فرضا أساليب خاصة في التعامل، أعطانا هيرودُت عنها – في فقرة ذكرت من قبل – مثالا غريبا[75]. فقد كان التجار البونيقيون إذا تعاملوا مع قوم متحضرين يستخدمون إما النسائك Lingots (قطع الذهب والفضة) على شكل سبائك Barres توزن، وإما النقود الأجنبية. وعلى ما يبدو، ففي القرن الرابع، صدرت النقود في قرطاجة نفسها، بينما بدئ بضرب العملة قبل ذلك بقليل في صقلية الغربية. وسبق أن قلنا إن قطع النقد كانت ذات عيار فاسد في القرنين الثالث والثاني، الأمر الذي لاشك أنه كان يسبب المصاعب في التعامل. والملاحظ أيضا هو أن عيارات الميزان كانت تفتقد الدقة، وأنها أجريت على عدة أساليب، وتصنيفها بالتأكيد غير صحيح. فلابد إذن من قبول أن الدولة القرطاجية، إذا هي قامت بحماية التجارة، فقد توانت في صيانتها بالضمانات التي نراها لازمة.

3

يستحسن أن نعرف ماذا كان القرطاجيون يستجلبون من المناطق التي كانت تجري بها تجارتهم، وما يصدرونه لها. وبالأسف، فإن النصوص القديمة لا تكاد تجيبنا بشيء عن هذا السؤال. أما المكتشفات الأثرية، وهي لا تزال قليلة العدد، فلا تستطيع تعريفنا إلا ببعض الأشياء المصنوعة والتي تمثل جانبا ضعيفا من المعاملات.

لقد رأينا أن قرطاجة نجحت ربما كل النجاح في أن تحتفظ لتجّارها بالاحتكار التجاري في مستعمراتها وفي الوكالات التجارية الفينيقية بالغرب(76)، وفي الأراضي التي كانت هي الأبواب على البحر. وليس لدينا عن هذه التجارة أي دليل آخر سوى أثاث المدافن المستخرج من هنا وهناك، على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط : من سوسة، ولَمْطَة، وثَبْسوس، والمهْدية والعالِيَة بالساحل التونسي، ومن القالَة وگورَايا على الساحل الجزائري، ومن جزيرتي بِنْتلَارِيا ومالْطة، ومن كالْياري، ونورا وسلْكي وثاروس بسردانية، وبجزيرة يابسة، ومن فلاريكوس على الساحل الأسباني بين قرطاجنّة Cartagène والمرِية. فمنذ القرن الرابع، أي عهد انتشار الاحتكارات حتى عهد التمزيقات المتتالية للإمبراطورية القرطاجية في القرنين الثالث والثاني، كانت السفن الفينيقية هي التي أدخلت بها الخزف الإغريقي والكمباني والزجاجيات المصرية. وكان لابد لهذه المنتجات الأجنبية أن تمر بقرطاجة. وفي هذه المدن التي سبق لنا ذكرها، نجد العديد الوافر من الأدوات المماثلة لمنتجات الصناعة البونيقية، كالأوعية من الطين المشوي، والحلى، والتمائم، والزجاجيات، والأدوات المنزلية المعدنية، وبيض النعام

المزخرف وغير ذلك. ولاشك أن أكثر هذا قد جلب من قرطاجة، كما أن غيره صنع لابد بعين المكان أو في بعض المدن المجاورة..

وقع في المستعمرات السردانية التعرف على قبور من عهد سابق على العهد الذي كانت فيه الجزيرة مسدودة في وجه التجارة الأجنبية. ومع ذلك، كانت بها أدوات إغريقية بعدد ضئيل. فيحتمل أنها حملت لها على سفن فينيقية. أما الأدوات الفينيقية فيمكن أن يكون بعض منها صنع في سردانية نفسها، والبعض الآخر ورد من فينيقيا أو من قرطاجة. وعلى العموم لا نستطيع الاختيار بين هذين الافتراضين. والأول منها أكثر احتمالا ليس فحسب للقسم الأكبر من الفخاريات التي هي بضاعة معتادة ونقلها عسير، بل أيضا للأحجار الكريمة التي تزينها الوسوم.

في شعب الوادي الكبير بأسبانيا وعلى الساحل الجنوبي، توجد مقابر ترجع للقرنين السابع والسادس، وقد دفن بها موتى ينتمون لسكان من الأهالي. لكن بالقرب منهم وضعت أشياء فينيقية كصفيحات وأمشاط منقوشة من العاج أو العظم، وبيض النعام المزخرف والمصبوغ، وحلي وفخاريات. ولكن يحتمل أن كل هذا كان مصنوعا إما في المشرق وإما في قادس، وباعه تجار من هذه المدينة أو من صور لا من قرطاجة.

في إفريقيا الشمالية، القبور المعاصرة لقرطاجة الأولى والمشتملة على أثاث بونيقي، لا توجد مطلقا إلا على السواحل. أما بداخل الأراضي، فلا يوجد ما يذكر سوى بعض المدافن التي اكتشفت في خنقة الحجّاج، وفي زَغْوان، وباجَة، وبولاريجيا، التي يمكن أن تتقدم بقليل على موسطة القرن الثاني. هذه الأماكن كانت في تراب الجمهورية،

بحيث إن المكانين الأولين هما في مناطق لابد أن بعض القرطاجيين كانت لهم بها ممتلكات. أما بالجزائر، فيما وراء سِرْتا Cirta (قسطنطينة)، وهي إحدى العواصم النوميدية، فكانت هي المكان الوحيد الذي وجدت به فخاريات بونيقية قليلة ومن عهد متأخر، قد يكون مما بعد سقوط قرطاجة. وبالقرب منها في الخَنْق Khaneg، نال أحد الشيوخ الأهالي بواسطة تاجر فينيقي لاشك إناءً بأرجل ثلاث (؟) Trépied إغريقي من البرنز وصلتنا قطعة منه. إذن إننا إذا اعتمدنا فحسب على البراهين التي تقدمها التنقيبات الأثرية حتى اليوم، فلابد من الاعتراف بأن تجارة القرطاجيين مع الليبيين والنوميديين والموريين كانت تقريبا لا قيمة لها.

والمتأكد هو أن جل الأهالي كانت احتياجاتهم قليلة، وفقرهم كان أشد من احتياجهم. فهم مثلا كانوا يمتنعون عن الخمر، الشراب الذي كان غيرهم من الباربار يتهافتون عليه كثيرا، كما يتهافت اليوم أيضا بعض الهمج على ماء الحياة Eau-de-vie الذي تسممهم به التجارة الأوربية. كانوا يصنعون أوعية غليظة الصنع تكفيهم، ولو كانوا قد حصلوا على أعداد وفيرة من الفخاريات البونيقية لعثر بدون شك على الكثير منها. وملابس الصوف والجلد التي يدثرون بها، كان في الإمكان صنعها بالعمل في المنزل. كما أن حديد مزاريقهم ومحاريثهم، هي والعدد القليل من أدوات العمل، وما هو لازم منها للمنزل، كان يصنعه حدادون متنقلون أو مقيمون في القرى. وفوق هذا، يمكن أن يكون القرطاجيون قد زودوا الأمراء والشيوخ ببعض الأدوات الكمالية من أسلحة جميلة، وقباب ناعمة، وحلى وعطور وزرابي وغير ذلك، وأنهم كانت لهم أيضا زبائن من ناس ذوي مستوى بسيط، خصوصا من بين الذين

كانوا جنودا لقرطاجة وأخذوا بعض ألوان حضارتها. وكان قسم من الحلى التي يروق الليبيات أن يتحلين بها، من أصل فينيقي على ما يحتمل. ويقع الذهاب لشرائها إما إلى المدن البحرية، وإما أنها كانت تصنع بأيدي صناع يجوبون البلاد. وعلى كل يحسن قبول وجود تعامل له بعض الأهمية بين الساحل وبين داخل أرض البربر. أما المستعمرات، فإنها - باستثناء التي كانت تحد الولاية البونيقية - لا يظهر أنها كان لها من خلفها منطقة ترابية واسعة تمكنها من العيش بالزراعة. إنها كانت على الخصوص مخازن وأسواقا. غير أن التجارة التي كانت تقع بها، وهي تجارة نشيطة جدا، جعلت قرطاجة تستأمن لنفسها على الاحتكار بها. وهي تتكون من الجلب ومن الإصدار أيضا، وقد استخدمت - إلى عهد قريب - طريقة تجارة المقايضة.

أهالي الباليار الذين لم يكونوا يستعملون ذهبا ولا فضة، كانوا يتلقون من القرطاجيين الملابس والخمر والنساء. ومقابل ذلك يعطونهم العبيد. كانوا حسب تيمي Timée يذهبون إلى حد إعطاء أربعة من الرجال أو خمسة مقابل امرأة واحدة. ولا نعرف شيئا عن نوعية السلع المستجلبة إلى داخل سردانية، وإلى صقلية الغربية، وللشعوب الحرة في أسبانيا التي طلبت قرطاجة منهم الجنود المرتزقة منذ بداية القرن الخامس، وكذلك إلى الأهالي الذين أخضعتهم فتوحات عَملْكار باركا Amilcar Barca ومن خلفه على سلطة قرطاجة لمدة سنين قليلة.

ولا تنعدم النقود البونيقية لا في تونس، ولا في شرق الجزائر. ولكن يجب أن لا ننسى أن العمل بها كان لا يزال جاريا في الولايات الرومانية الإفريقية في القرن الميلادي الثاني. ويبدو أن هذه النقود جرت بكثرة عددية كبيرة في سردانية. ولابد أنها انتشرت بها خصوصا في العهد

الذي كانت فيه قرطاجة مسيطرة على قسم كبير من الجزيرة. وليست هذه النقود قليلة الوجود في جنوب أسبانيا وشرقها، ولكن يحتمل جدا أن جلها، وعلى الأقل القطع الفضية، قد ضربت في الهضبة نفسها في عهد سيطرة البرْكيين.

لم تكن جزر الباليار هي وحدها التي كان القرطاجيون يستاقون منها العبيد إما لخدمتهم هم – إذ كان لهم الكثير من هؤلاء العبيد – أو لبيعهم في الخارج. وهي تجارة أخذوا مثالها عن فينيقيي المشرق. ويمكن أن نفترض أنهم كانوا يأخذونهم أيضا من شمال إفريقيا ومن سردانية، على أن هذه البضاعة كان الحصول عليها يتم عن طريق القرصنة. بثمن أبخس من التعامل السلمي.

والمواد اللازمة للصناعة كانت تحتل لابد مجالا واسعا. ولا نستطيع التأكيد بأن بلاد البربر وسردانية قد وقع إكراههما على استخدام المعادن الكثيرة التي يضمها ترابهما، كالحديد والنحاس والرصاص. ولكن الفينيقيين اكتسبوا الثروة بذهابهم إلى جنوب أسبانيا للبحث عن مختلف المعادن، والفضة منها على الخصوص. وقد قلدهم القرطاجيون. وفي القرن الخامس كانت الفضة والرصاص المستخرجان من مناجم سِيرّا ألمـڭريرا Sierra Almagrera تشحن دون شك على السفن التي جاءت بالعديد من الأدوات البونيقية إلى قريب من الجبل. وبِفيلاريكوس Villaricos فإن شخصا يدعى جراشْتارْت Gerashtart، قد وقع العثور بهذا المكان على شاهد قبره مكتوباً باللغة الفينيقية. فلعله كان مندوبا عن إحدى الوكالات التجارية. ونحن نعلم أن مناجم جنوب أسبانيا كانت فيما بعد، أي في عهد البَرْكيين، تستغل استغلالا

نشيطا جدا، وأن قسما من الفضة المستخرجة منها، كان بالتأكيد يذهب إلى قرطاجة.

ويحتمل أن الخشب المستعمل في معامل صنع السفن قد أخذ من الغابات الكبيرة بشمال تونس. ومن ناحية قرطاجنّة Carthagène كانت تأتي الحلْفاء لصنع الحبال. والأهالي الذين بإفريقيا وغيرها ويتعاطون لتربية الماشية، كانوا يقدمون إهابها وأصوافها لصنع الملابس والجلد. وأصواف جزيرة يابسة الرقيقة جدا، لابد أن النساجين البونيقيين كانوا يطلبونها. وفي قرطاجة كان يستجلب الأرجوان أيضا وأنياب الفيل وبيض النعام وربما حتى ريشه، وإهاب الحيوانات المتوحشة. وكلها أشياء كانت موجودة في أرض البربر. كما أن بعض الأحجار الثمينة كالياقوت الأحمر والعقيق، كانت تؤخذ من الماسيسيليّين Masaesyles ومن النصِمونيّين. وكان الإغريق يطلقون عليها اسم الأحجار القرطاجية باسم المدينة التي يذهبون إليها لاستجلابها.

أما الحبوب المحصودة بالمنطقة الليبية وبسردانية، فإن اقتطاعات الدولة فيها كانت تضيق كثيرا من جهود تجار الحبوب. كما أن تمليح الأسماك Salaison التي تجهز في محطات الصيد الإفريقية والأسبانية، كانت مدعاة لتجارة مهمة.

فالمواد الأولية، وأقل منها بكثير مواد التغدية، كانت هي المنتجات التي يستفيدها القرطاجيون من أملاكهم الاستعمارية. والصناعة التي نمت نموا ضعيفا في بعض مدن الساحل كانت تساعد، ولا تزاحم مستجلبات العاصمة. ولم تكن تستجيب إلا لاحتياج محلي أو جهوي. وهذا باستثناء المنسوجات المالْطية الجميلة التي بلغت شهرتها إلى

بعيد، والتي كانت الأرستقراطية البونيقية تستحسنها لاشك. ووجود وعاء إسباني في قبر جرى حفره في القرن الثالث قريبا من البرج الجديد، لا يكفي لتدعيم القول بأن قرطاجة كانت قد تزودت – وعن سعة – من هذا الفخار البارباري.

4

إن الاتصالات بين البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا الوسطى تلاقي أقل الصعوبات عن طريق ساحل السدرتين. واهتمام القرطاجيين بإبعاد الاستعمار الإغريقي عن هذه النواحي، وكذلك تثبيت حدود دولتهم عند أضرحة فيلين Autels de Philène، يمكن تفسيره على الخصوص بحبهم للمحافظة لأنفسهم على التجارة مع واحات الفزّان، ومع السودان من وراء هذه الواحدات. فازدهار المتاجر – وهي مستعمرات أسست بساحل خيراته الزراعية ضئيلة جدا – يشهد على ما يظهر بهذه التجارة.

وحسب هيرودُت، لابد من ثلاثين يوما للذهاب من أخصر الطرق إلى الگرمَنْطيين Garamantes انطلاقا من أرض اللوتُفاجيّين Lotophages الواقعة على ساحل السدرتين. إذن ففي القرن الخامس وجدت الاتصالات بين الساحل حيث لَبْدة وگفارا Gaphara وأويا Oea وصَبْراتة قد احتلها الفينيقيون، وبين الفزان أرض الگرمَنْطيين. والطريق التي يتحدث عنها هيرودُت هي، حسب رأينا، التي تنطلق من طرابلس (أوويا قديماً) أو من لبدة (أي لَبْتيس) وتنعطف نحو الشرق لتتلافى النجد الأحمر الذي هو منطقة جرداء. وتمر في بونَجْم والسُّكْنا ثم تعبر الجبل الأسود. فهي ليست أخصر الطرق، مهما قال المؤرخ. أما التي تنطلق مستقيمة من الشمال إلى الجنوب، مارة بميزْدة Mizda، والنجد الأحمر،

وإيدِري Edéri وتبلغ في ثلاثة أسابيع من طرابلس إلى جَرْمَة، فهي أشد وعورة، ولايبدو أنها كانت مسلوكة في زمن هيرودُت. ويحتمل من جانب آخر، أنه من لبْتيس، وأوويا، وصَبْراتة وكذلك من جِغْتِي Gighti ومن تاكَباس Tacapas بسدرة الصغرى، كانت مجازات Pistes تتجه إلى الجنوب الغربي وإلى الجنوب، فتنعطف إلى غَدامِس التي لابد أنها كانت من عهد باكر أحد ملتقيات الطرق في الصحراء. فالسبيل سهل جدا من الفزّان إلى بُرْنو Bornou مرورا بواحات كَوار Kaouar وأكَادِم Agadem. ويقع الذهاب إلى السودان من غَدامس بطريق غات Ghat وأكَادس Agadès، أو عن طريق تْوات بعيدا إلى الغرب.

في القرن الميلادي الأول نشر الگَرَمَنْطيون سيطرتهم على إحدى مناطق السودان، التي أوصلوا إليها بعض الرومانيين. ويسوغ الافتراض بأن علاقاتهم مع إفريقيا الوسطى ترجع لتاريخ بعيد، وأنهم كانوا يعملون وسطاء للتجارة البونيقية. ولم يكن القرطاجيون يخشون مصاحبة القوافل، بحيث إن شخصا يدعى ماگون Magon قد اخترق الصحراء ثلاث مرات. ونضيف على وجه التحقيق جزئية من شأنها أن تدفع بنا للشك، إذ قيل إن ماگون قام بهذه الأسفار، وهو يعيش على أطعمة جافة ولا يشرب. وقد كان عبور الصحراء قديما شديد الصعوبة، ولكن كان أقل صعوبة منه اليوم. وذلك لأن المياه كانت أقل اختفاء تحت الرمال. وكانت القوافل تتكون من الثيران والحمير والخيول. لأن استخدام الجمال إنما انتشر فيما بعد، حول القرن الثالث للميلاد.

ولاشك أن القرطاجيين لم يعرفوا الإغريق بالتجارة التي كانوا يزاولونها مع داخل إفريقيا. ونعلم فحسب أن الياقوت الأحمر Escarboucles المجلوب من أرض الگرمَنْطيين كان يحمل إلى قرطاجة.

يقول هيرودُت : كان الكرمنطيون يذهبون على عربات تجرها أربعة خيول، ويطاردون الأثيوبيين سكان المغارات. ربما في التبسْتي بجنوب الفزان : فهل كانوا يسوقون هؤلاء التعساء لموانئ السدرتين لبيعهم عبيدا؟ هل كانوا يأخذون من السودان سودا آخرين لإيقاعهم بنفس الحظ ؟ ذلك ما نجهله. ولاشك أن بعضا من السود كانوا في قرطاجة. ويحتمل أن التجارة البونيقية كانت تبيع منهم للإغريق وللإطاليين. ولكن كان من الممكن أن يأتوا من قريب، أي من الحاشية الجنوبية لبلاد البربر التي كان (الأثيوبيون) يعيشون بها في العهود العتيقة. ولا دليل على أن القرطاجيين قد استجلبوا الكثير منهم من قلب إفريقيا. فعن طريق القرصنة والحرب والنخاسة كانت بلدان البحر الأبيض المتوسط تزود عن سعة أسواق بيع العبيد.

وكانت التمور تستجلب من الصحراء، غير أن هذه المادة لم تكن موضوع تجارة قوية، لأن كل واحة كان القسم الكبير من محصوله منها يخصص لطعام سكانها. ومن السودان كان في الإمكان أن يؤتى بالعاج وجلود الحيوانات المتوحشة وريش النعام. ومع هذا فلا يُمكن أن نَنْسى أن أرض البربر كانت تعطي الكثير من هذا. وهناك بضاعة أخرى، مطلوبة أكثر من غيرها، تسير ربما خلال الأراضي الغامضة بإفريقيا الاستوائية والصحراء الشاسعة الأطراف، لتصل إلى متاجر السدرتين، تلك هي ذهب النيجر الأعلى وفليمي Falémé وغينيا العليا.

على أن القرطاجيين الذين يحصلون على المعدن الثمين، قد شاؤوا طوعا، أن يأتمنوا على سرهم هيرودُت أو أحد الإغريقيين الذين يروي عنه هيرودُت(77) : فقد كان بعض الرجال ذوي الإقدام يذهبون بحرا إلى أحد بلدان ليبيا، خارج أعمدة هرقل، ويضعون على الساحل

بضاعة، ويأخذون عوضا عنها الذهب الذي كان الأهالي يأتون به. وكانت العملية تتم دون أن يكلم أحد أحدا، بل ولا حتى أن يراه عن قرب. ولم يذكر المؤرخ أين كان يقع هذا البلد. وكما سبق أن لاحظنا، فلا لزوم للقول بأن التجار القرطاجيين قد تقدموا في سيرهم حتى ساحل سِنِغامْبيا Sénégambie. وحتى لو كان الذهب يأتي من السودان فبائعوه كان بمستطاعهم أن ينقلوه عبر الصحراء الغربية لنواح من الأرض تقع بعيدا إلى الشمال. وختاما، فهذا الذهب كان يمكن التوصل به في جنوب المغرب.

كانت آخر مستعمرة أنشأها حنّون على الساحل الإفريقي للمحيط، هي التي أسست في جزيرة كيرني Cerné (القرن) التي كانت تقع، حسب ما نراه نحن، بين رأس جوبي Cap Juby وبوجدور قبالة جزر كناريا. وفي موسطة القرن الخامس، بالتأكيد بعد حملة حنّون، فإن رحلة سيلَكْس Scylax أعطت تفصيلات مفيدة عن تجارة الفينيقيين مع الأثيوبيين الساكنين بمدينة كبيرة قرب هذه الجهة في البر اليابس. فعلى ما يبدو، كانت تقام بهذه المدينة سوق لها وقت ثابت. فكان الفينيقيون حين يصلون إلى كيرْني يرسون السفن ويضربون الخيام بالجزيرة. وبعد تفريغ سفنهم يركبون القوارب ليذهبوا بسلعهم إلى مدينة الأهالي، حيث تقع المبادلات. فكان التجار ينقلون جلود الوعل (هل يعني جلود الظباء ؟) وإهاب الأسُود، والنمور والفيلة، والحيوانات المؤنسة، والعاج الذي له عند هؤلاء السود استعمالات عامة، كما يحملون حتى الخمر، وهذا أمر مستبعد جدا. والجملة المتعلقة بما يتركونه للأثيوبيين مبتورة. وتذكر فيها العطور، والحجر المصري أي (أشياء تافهة للزينة من الخزف المصري)، وكذلك الخزف الأتيكي، بحيث إذا لم يكن النص مشوها، فهو

يقول هيرودُت : كان الـگرمنطيون يذهبون على عربات تجرها أربعة خيول، ويطاردون الأثيوبيين سكان المغارات. ربما في التبسْتي بجنوب الفزان : فهل كانوا يسوقون هؤلاء التعساء لموانئ السدرتين لبيعهم عبيدا؟ هل كانوا يأخذون من السودان سودا آخرين لإيقاعهم بنفس الحظ ؟ ذلك ما نجهله. ولاشك أن بعضا من السود كانوا في قرطاجة. ويحتمل أن التجارة البونيقية كانت تبيع منهم للإغريق وللإطاليين. ولكن كان من الممكن أن يأتوا من قريب، أي من الحاشية الجنوبية لبلاد البربر التي كان (الأثيوبيون) يعيشون بها في العهود العتيقة. ولا دليل على أن القرطاجيين قد استجلبوا الكثير منهم من قلب إفريقيا. فعن طريق القرصنة والحرب والنخاسة كانت بلدان البحر الأبيض المتوسط تزود عن سعة أسواق بيع العبيد.

وكانت التمور تستجلب من الصحراء، غير أن هذه المادة لم تكن موضوع تجارة قوية، لأن كل واحة كان القسم الكبير من محصوله منها يخصص لطعام سكانها. ومن السودان كان في الإمكان أن يؤتى بالعاج وجلود الحيوانات المتوحشة وريش النعام. ومع هذا فلا يمكن أن نَنْسى أن أرض البربر كانت تعطي الكثير من هذا. وهناك بضاعة أخرى، مطلوبة أكثر من غيرها، تسير ربما خلال الأراضي الغامضة بإفريقيا الاستوائية والصحراء الشاسعة الأطراف، لتصل إلى متاجر السدرتين، تلك هي ذهب النيجر الأعلى وفَليمي Falémé وغينيا العليا.

على أن القرطاجيين الذين يحصلون على المعدن الثمين، قد شاؤوا طوعا، أن يأتمنوا على سرهم هيرودُت أو أحد الإغريقيين الذين يروي عنه هيرودُت(77) : فقد كان بعض الرجال ذوي الإقدام يذهبون بحرا إلى أحد بلدان ليبيا، خارج أعمدة هرقل، ويضعون على الساحل

بضاعة، ويأخذون عوضا عنها الذهب الذي كان الأهالي يأتون به. وكانت العملية تتم دون أن يكلم أحد أحدا، بل ولا حتى أن يراه عن قرب. ولم يذكر المؤرخ أين كان يقع هذا البلد. وكما سبق أن لاحظنا، فلا لزوم للقول بأن التجار القرطاجيين قد تقدموا في سيرهم حتى ساحل سِنِغامْبيا Sénégambie. وحتى لو كان الذهب يأتي من السودان فبائعوه كان بمستطاعهم أن ينقلوه عبر الصحراء الغربية لنواح من الأرض تقع بعيدا إلى الشمال. وختاما، فهذا الذهب كان يمكن التوصل به في جنوب المغرب.

كانت آخر مستعمرة أنشأها حنّون على الساحل الإفريقي للمحيط، هي التي أسست في جزيرة كيرني Cerné (القرن) التي كانت تقع، حسب ما نراه نحن، بين رأس جوبي Cap Juby وبوجدور قبالة جزر كناريا. وفي موسطة القرن الخامس، بالتأكيد بعد حملة حنّون، فإن رحلة سيلَكْس Scylax أعطت تفصيلات مفيدة عن تجارة الفينيقيين مع الأثيوبيين الساكنين بمدينة كبيرة قرب هذه الجهة في البر اليابس. فعلى ما يبدو، كانت تقام بهذه المدينة سوق لها وقت ثابت. فكان الفينيقيون حين يصلون إلى كيرْني يرسون السفن ويضربون الخيام بالجزيرة. وبعد تفريغ سفنهم يركبون القوارب ليذهبوا بسلعهم إلى مدينة الأهالي، حيث تقع المبادلات. فكان التجار ينقلون جلود الوعل (هل يعني جلود الظباء؟) وإهاب الأسُود، والنمور والفيلة، والحيوانات المؤنسة، والعاج الذي له عند هؤلاء السود استعمالات عامة، كما يحملون حتى الخمر، وهذا أمر مستبعد جدا. والجملة المتعلقة بما يتركونه للأثيوبيين مبتورة. وتذكر فيها العطور، والحجر المصري أي (أشياء تافهة للزينة من الخزف المصري)، وكذلك الخزف الأتيكي، بحيث إذا لم يكن النص مشوها، فهو

يعني أوعية مصبوغة أو مبرنقة Vérnissés من صنع أُتيكي أو من تقليده، وفخاريات أخرى كذلك.

حسب بْزودوسيلَكْس Pseudo-Scylax، كانت الملاحة مستحيلة خلف كيرني بسبب قلة عمق البحر والأوحال والطحالب. وهذه الإيضاحات غير حقيقية، وتبرهن فحسب على أن السفن الفينيقية – حسب علم الإغريق – لم تكن تتجاوز الساحل الشمالي للصحراء. ولا نستطيع القول هل كانوا في القرن الرابع والقرون التي تلته يتقدمون إلى أبعد من ذلك.

ويشك في أن القرطاجيين كانت لهم علاقات تجارية مع جزر كناريا. وهم إذا كانوا قد وصلوا إلى مَضيرا Madére، فإنهم لم تكن لهم بها مقامات Etablissements دائمة. ويقال إنه وقع العثور سنة 1749 على نقود بونيقية وسِرِنيكيّة بفْلوريس Florès التي تقع في أقصى الغرب لأرخبيل آصور Açores، فإذا فرضنا صحة هذا، فلابد من برهان على أن هذه النقود قد أدخلت إليها في عهود التاريخ القديم.

على طول السواحل الأوربية للمحيط الأطلسي، كان بحارة جنوب أسبانيا وبلاد طَرْطِسّوس من عهد قديم، يذهبون لمدخل بحر المانش للبحث عن القصدير بشبه جزيرة الكُرْنواي Cornouaille. ولا ندري متى ذهب الفينيقيون بدورهم إليها من قادس. والبعثة الرسمية التي قادها حِمِلكون قبل موسطة القرن الرابع، قد زارت جزر ويسْترِمْنيد Oestrymnides، التي كانت تقع ربما في قاصية بروطونيا Bretagne الفرنسية، حيث كان الأهالي يبيعون للأجانب القصدير والرصاص اللذين كانوا يأتون بهما على القوارب من قاصية الجنوب الغربي لإنكلترا. ولابد أن تجارا بونيقيين قد سبقوا حِمِلكون إلى هذه المجالات، كما أن آخرين قد تبعوه.

ويحتمل أن يكونوا تقدموا حتى آخر الكُرْنواي، لعقد اتصالات مباشرة مع الشعب الذي يستغل المناجم. وتوجد طريق أخرى للقصدير البريطاني في اتجاه البحر الأبيض المتوسط، كانت تخترق غاليا La Gaule، وتنتهي في مرسيليا. ولم تكن للقرطاجيين السيادة عليها. وبالتأكيد كانت مسلوكة في نهاية القرن الرابع أو في بداية الثالث. ولا شك أنها كانت أقدم من ذلك العهد بكثير. ولسنا بقادرين على ذكر الأهمية المتعلقة بهاتين الطريقين. وفي غرب شمال أسبانيا كان قصدير غاليسيا Galicie وأشتوريا Asturies قد وقع استغلاله في عهد السيطرة الرومانية. وكانت السفن تأتي إلى الجزر القصديرية Les Iles Cassitérides لحمله. وليس لدينا برهان على أن القرطاجيين قد عرفوه.

كان لابد، من إحداث مقامات، ما بين قادس Gadès وقاصية بروطونيا Bretagne، ويحتمل أن بعضا منها قد صار مَتاجِر. وليس لدينا أي معلومة عن التجارة التي كانت تقع بها، كما لا توجد علامة على تأثيرات بونيقية على سكان أسبانيا الغربية والشمالية ولا على غاليا الغربية.

ولا يوجد داع للاعتقاد بأن القرطاجيين قد تعدوا سوق القصدير، وتقدموا بالبحر حتى سوق الكهرمان L'ambre، التي قد تكون انعقدت عند مصب نهر الإلب Elbe. ويبدو أنهم لم يستحسنوا مطلقا هذه المادة.

5

ولندخل البحر الأبيض المتوسط، في اتجاه البلاد التي لم تستطع قرطاجة إخضاعها لاحتكارها التجاري.

فقد كان لها علاقات مع الشعوب التي على سواحل خليج الأسد (Golfe du Lion) وخليج جِنَوَة، وفي عدة مناسبات حشدت منهم جنودا مرتزقة. ومع ذلك لا نرى أن هؤلاء التجار كانوا يترددون كثيرا على هذه المجالات، لأنها كانت ملكاً لمرسيليا، التي إذا كانت في سلام مع مزاحمتها القديمة، فإنها لم تكن تبعد القرطاجيين عن مينائها، وربما حتى عن مستعمراتها. ولكن لم يخلفوا بها سوى آثار عديمة الأهمية أو غير موثوق بها. فبعض الأوعية العادية جدا قد اكتشفت في مرسيليا، ولها مظهر فينيقي. وفي أمْبورياس Ampurias في حضيض جبال البيرني Byrenées، عثر على أدوات غير كثيرة ولا أهمية لها، منها فخاريات وتمائم من الخزف المصري (إذا كانت قد وقع العثور عليها هنا حقا)، كما عثر في موناكو على نقود بونيقية قد تكون أدخلت إليها بعد موسطة القرن الثاني. وكذلك النقيشة الشهيرة – تعريفة القرابين – المكتشفة تحت كاتدرائية مرسيليا، وهي منقوشة في قرطاجة. ولا يستبعد أن تكون أثبتت في معبد، ربما أقامه دخلاء من قرطاجة كانوا يقيمون في المستعمرة الفوصية Phocéenne. ولعل هذه الحجرة الإفريقية كانت في وقت لا ندريه قد استعملت صابورة (أي ثقلا) لإحدى السفن، ثم تركت على ساحل بروفَنْصا. كما أن نقيشة أخرى بونيقية، هي شاهد قبر إحدى الكاهنات، قد أزيح عنها التراب منذ بضع سنين في أفنيون Avignon، ولكن لا مانع من الاعتقاد بأنها نقلت بعد ذلك بعهد قليل من تونس.

وفي أتروريا Etrurie كما في اللاتْيوم وكَمبانيا، فإن مقابر يرجع أكثرها للقرن الثامن وللنصف الأول من السابع، كانت تضم أشياء من طراز مشرقي، صنعها الفينيقيون ونقلوها. وتتكون من جعلان، ودمى

وأوعية صغيرة من طين مطلي بالميناء، وزجاجيات، وحلى، وأكواب مزخرفة بشخوص إنسانية، وقطع من العاج ومن الألباتر المنقوش. على أن الجعلان والتمائم والزجاجيات تظهر منذ القرن التاسع، حيث قرطاجة لم تكن موجودة بعد، أو كانت في حقبة تأسيسها. ويحتمل أنها، في القرن السابع أي في عهد بلغت فيه أوْجَها، تكون قد شاركت في هذه التجارة، غير أن هذا مجرد افتراض. ولقد سبق أن رأينا أن أكواب الفضة صنعت ربما في مصانع مشرقية. وليس هناك ما يدعو لافتراض أنها مرت بإفريقيا قبل أن تدخل إلى إيطاليا.

والأشياء التي يستجلبها الفينيقيون، لم نعد نلقاها مطلقا بعد القرن السابع في موسطة الهضبة. وذلك إما لكون الوصول لهذه الجهة قد منع عنهم بسبب مزاحمة التجارة الأغريقية المنتصرة، وإما لأن تلك البضاعة لم تعد مستحسنة.

ومن ناحية أخرى، لقد وقع العثور في قرطاجة وكذلك في سردانية بمدافن القرن السابع وبداية السادس على أوعية صغيرة، جنباتها رقيقة، بهندام رشيق، مقلد للمثال المعدني، لونها أسود دامس جدا، يحدث بطريقة التدخين، وتغطيها طبقة لامعة من الشمع. تلك هي البُكْشيري Buccheri المماثلة تماما للتي تمتلئ بها القبور الأترورية المعاصرة. ومما لاشك فيه أن صناعة البكشيري كانت نشيطة جدا في أتروريا. ولكن اكتشافات حديثة برهنت على أن الخزف الذي نتحدث عليه، كان أصله في بلاد الإغريق، في جزيرة لصبْوص Lesbos وربما في غيرها. ولابد أن المصانع الطسكانية Toscane تكون قلدت في أول الأمر نماذج مستجلبة. فيصعب إذن القول بأن البكشيري التي اكتشفت في قرطاجة هي أترورية أو إغريقية. وإذا شئنا الأخذ بالافتراض الأول، فلا يجب مع

ذلك التأكيد بأنها (أي البكشيري) قد نقلت مباشرة إلى إفريقيا على سفن أترورية أو سفن بونيقية. فالبكشيري قد نقلت إلى سِرَقوسة، ولربما أن هذا الميناء الصقلي كان واسطة بين مركز الصنع وبين قرطاجة.

وبهذا، فليس لدينا برهان على أن القرطاجيين والشعوب الإيطالية قد كانت لهم في العهود البعيدة علاقات تجارية.

وفيما بعد، حول نهاية القرن السادس، فإن مدافن أترورية بطركيني (أي كرنيطو Cornéto) اشتملت على جعلان من حجر ثمين، من طراز شبيه بالمصري، مماثلة لتلك التي يعثر عليها بقرطاجة وسردانية وفي فينيقيا أيضا. فيحتمل أن تكون من إنتاج بونيقي، إذ القرطاجيون كانوا منذ ثلاثين سنة حلفاء للأتروريين.

ذلك هو العهد الذي تقع فيه، حسب ذكر پوليب Polybe، المعاهدة التجارية الأولى بين قرطاجة وروما، المعاهدة التي تبعتها اتفاقيات أخرى. ونحن نعلم أن اتفاقيات مماثلة قد وجدت بينها وبين إيطاليا لمدة قرون عديدة. وهي علاقات يشهد بها وجود إيطاليين في قرطاجة، وقرطاجيين بروما، وبمبادلات في العملات.

ويمكن ذكر براهين أخرى. فالرومانيون قد أخذوا مباشرة عن اللغة الفينيقية، وبدون وساطة للإغريق، الأسماء التي كانوا يسمون بها قرطاجة : كرثاگو Karthago، وصُور والصوريين : سَرّا Sarra سَرّاني Sarrani، صيرّاني Serrani وربما أيضا أوتيكا Utika، والأفريين Afri أي أهالي المنطقة البونيقية. أما بالإغريقية فكان يقال : كَرْخدون وتورُص وتيريوي وإيتوخي وليبوس. وقد استعاروا من القرطاجيين بعض طرائق التجارة والبناء وبعض أنواع الطبخ وشكل أحد الملابس. ويجب

الاعتراف بأن هذا شيء قليل جدا، إذا قارناه بالتأثير الجاري في إيطاليا الوسطى من لدن الهيلينيين. وكذلك فلا برهان على أن الموازين والمقاييس التي من أصل مشرقي، وجرى استعمالها في الهضبة، تكون قد أدخلت لها على يد القرطاجيين. والاشتقاقات الفينيقية التي اقترحها بعضهم لبعض الأسماء اللاتانية، هي إما مغلوطة أو منقودة. أما عن بعضها الآخر الذي هو صحيح، فإن وصوله وقع بواسطة الإغريقية، ولفظة تونيكا Tunica هي وحدها التي يبدو أنها استعملت مباشرة.

إن أثاث المدافن الإيطالية من القرن الخامس وما تلاه من القرون، لا تخبرنا بشيء عن المنتجات التي نقلها التجار القرطاجيون، أو أصدرت من قرطاجة على يد الإيطاليين. والفخاريات الغليظة وغيرها من الأدوات الاعتيادية التي تملأ القبور البونيقية، بدون شك، لم يكن لها مشترون عند شعوب الهضبة، التي كانت تتزود عن سعة بالصناعات الإغريقية والأهلية. أما الثياب والملابس والجلود المزوقة، فلاشك كانت تقابل بأحسن القبول. وكذلك الفواكه من رمّان وتين، والخضر والشمع والعسل والمملحات. وأما تجارة العاج فلاشك فيها. ويمكن التصديق بوجود تجارة في العبيد والجلود والصوف والمعادن وعلى الخصوص في القصدير والفضة، ولكن نود أن تتوفر لنا البراهين. ولربما أن الحيوانات المتوحشة المخصصة للفرجة، ورخام شمْتو Chemtou كانت تبعث إلى رومة فيما بين الحرب البونيقية الثانية والحرب الثالثة.

وقد تسلمت قرطاجة في السنين الأخيرة من حياتها خمور كمبانيا. وعن المستجلبات الأخرى التي أصلها إيطالي، فلا نعرف منها إلا أدوات من الطراز الإغريقي، كأوعية البرنز والفخاريات المصنوعة في كمبانيا وبجنوب الهضبة قبل أو بعد فتح رومة لهذه الأراضي. وهي قد حملت من

موانئ إغريقية، من كومِسْ Cumes وتارَنْت Tarente وغيرهما. وسندرس هنا في نفس الحين مع منتجات الصناعات الهيلينية.

ولا نعلم شيئا عن تجارة القرطاجيين مع المدن الإغريقية بسرنيكا.

وبالتأكيد، فمع المدن الصقلية، كانت لهم أكثر العلاقات. فبالجنوب الغربي للجزيرة، كانت سيلنونة Selinonte قبالة إفريقيا. وهذه كانت في القرن السادس وبداية الخامس واسعة الثروة. ويبدو أنها كانت مدينة … الازدهار بالخصوص إلى تجارتها مع قرطاجة، إذ كانت في سنة … حليفتها، وخانت المصلحة الهيلينية. وبعيدا إلى الشرق وصلت أكرجنت Agrigente في القرن الخامس إلى الذروة. ونحن نعلم أنها … كانت تبيع الكثير من الخمر والزيت للقرطاجيين. وأن هؤلاء كانت لهم اتصالات مع السرقوسيين منذ القرن السابق، ولربما حتى قبل ذلك. وقد أصبحت سرَقوسة العاصمة الحقيقية لصقلية الإغريقية. فكانت لها تجارة نشيطة مع قرطاجة خلال الحروب التي تابعتها ضدها. ونقرأ عند ديودور Diodore (78) أن عددا كبيرا من الأغنياء القرطاجيين كانوا في سنة 398 مقيمين بهذه المدينة، التي كان ميناؤها يأوي سفنا بونيقية مشحونة بالبضائع. وقد عثر على كنز من القرن الخامس مخفي قرب … يتكون على الخصوص من قطع فضية سرقوسية ومعها نقود لبعض المدن الإغريقية الأخرى بالجزيرة، وكذلك نقود من أثينا.

هذا، ولم تبرهن الاكتشافات الأثرية، لا في صقلية ولا في إيطاليا، عن المستجلبات القرطاجية. فهناك جعلان وتمائم وأوعية صغيرة من الخزف المصري، وزجاجيات كانت تضمها قبور من القرنين الثامن والسابع في سرِقوسة وميگارا هِبْليا Mégara Hyblaea، يبدو أنها

منتجات فينيقية، ولكن هذا لا يبرهن على أنها جاءت من إفريقيا. وبعد ذلك أي في القرنين الرابع والثالث أدخلت إلى كامَرين Camarine وسرَقوسة Syracuse وجيلا Géla جرار من الطراز الفينيقي، وعلى إحداها وسم يظهر به الرسم البونيقي المعروف باسم علامة تانيت Tanit. وكانت لابد تحتوي على الخمر والزيت أو الفواكه. وقد تكون حملت إما من مالطة أو من قرطاجة.

ويحتمل أن القرطاجيين، لأمد طويل، كانت علاقتهم المباشرة قليلة مع إغريق شرق البحر الأبيض المتوسط. وسنرى أن الأوعية الأتيكية التي من القرنين السادس والخامس، هي قليلة الوجود جدا في المدافن البونيقية. وفي القرن الرابع كان التجار القرطاجيون يترددون على المدن الإغريقية. ولقد قدم للتمثيل كل من أليكْسيس Alexis وميناندر Ménandre في أثينا روايات هزلية اسمها (القرطاجي)، كما أن رواية إغريقية تحمل نفس الاسم هي التي وقع تقليدها في رواية الـ Poenulus، ذلك أن الكاتب بْلوط Plaute أظهر على المسرح شخصا اسمه حنّون جاء إلى كاليدون Calydon في إيتوليا، حيث له مضيف. وهناك نقيشة من ثيبة Thébes مؤرخة بحوالي سنة 365 ق.م، وهي عبارة عن مرسوم بتعيين شخص اسمه حنّيبَعْل بن حسدربَعْل وهو قرطاجي، في منصب بروكسين عند البيوتيين Proxène des béotiens. وحيث إن أصحاب هذا المنصب كانوا كالمعتمدين القنصوليين، فإن هذا النص برهان على العلاقات التجارية بين ثيبة وشمال إفريقيا. والشخصان القرطاجيان سينالوس Synalos وبودملكارت Bodmelqart، اللذان ذهبا إلى أثينا حول نهاية القرن الرابع، كانا قد كلفا بسفارة نجهل موضوعها. وإيهوميلك Yhoumilk، وهو مواطنهما ومعاصر لهما، قد وهب تاجين من الذهب لأبولون Apollon

وأرتميس ديلوس Artémis de Délos. وليس مؤكدا أنه قد تعاطى التجارة. لكن بعض القرطاجيين الآخرين، من مستوى عادي جدا، قد تأسوا دون شك بأثينا وديلوس لتعاطي التجارة، على غرار هؤلاء الفينيقيين الشرقيين الذين كونوا في بلاد الإغريق جاليات مزدهرة جدا.

ومن أي شيء كانت تتكون المستجلبات البونيقية لهذه المنطقة ؟ هنا أيضا تنعدم النصوص والوثائق الأثرية، بحيث لا يذكر إلا العاج والزرابي والوسادات، باستثناء النسيج، لأن الصناعة القرطاجية لا يمكن أن تزاحم الصناعة الإغريقية.

في القرن الثالث وبداية الثاني كانت جزيرة رودِسْ Rhodes إحدى العواصم التجارية في العالم. وكانت آنذاك تبعث مقادير ضخمة من الجرار الملأى بالخمر. والأنواع كانت مرقومة على مقابض الجرار. وتشهد بمأتاها وتخبر بتاريخ ملء الجرار. والكثير من هذه المقابض المرقومة قد عثر عليه بالتراب في قرطاجة. وهي ترجع للحقبة الزمنية الواقعة بين 220 و150. وأكثرها هو المؤرخ بحوالي 180.

وتضم القبور الفينيقية، التي بغرب البحر الأبيض المتوسط، العديد من الأشياء الإغريقية. لكن غالبا ما يستحيل القول بدقة أين قد صنعت هذه الأشياء، كما لا ندري كيف وصلت إلى حيث نجدها اليوم. هل السفن الإغريقية حملتها إلى قرطاجة او إلى موانئ أخرى لم يكن الوصول إليها محرما على الأجانب ؟ هل السفن الفينيقية ذهبت لجلبها من موانئ هيلينية ؟ ولربما أن الموانئ الإغريقية بصقلية، وعلى الخصوص منها سرَقوسة، قد استخدمت كالأسواق وساطة بين إغريق الشرق وفينيقيي الغرب.

أقدم الفخاريات الأغريقية التي كشف عنها التراب في قرطاجة، هي التي يطلق علماء الآثار عليها اسم الكورنثية القدمى Protocorinthienne لأن كورنث Corinthe إن لم تكن المكان الأوحد الذي صنعت به، فإنها على الأقل واحد من أمكنة صناعتها الأولى. وحسب التقديرات الأشد احتمالا، فإن هذا الفخار تقع بدايته حول نهاية القرن الثامن، وحقبة نشاطه الكبير في القرن السابع، ونهاية إنتاجه في السادس. وهو عبارة عن أوعية صغيرة، لا تتكون زخارفها عادة إلا من رسوم هندسية، ومن قنينات صغيرة كانت لاشك تحتوي زيوتا عطرة، وعلبا صغيرة (حقق للمراهم أو للمساحيق)، ومشربات عميقة لها أذنان، وأكواب وغيرها. وكانت التجارة هي التي حملت هذا الفخار إلى الغرب، للمستعمرات الإغريقية بصقلية، وكذلك لموتية Motyé المستعمرة الفينيقية (بغرب الجزيرة)، وإلى إيطاليا الوسطى كلها، وإلى مرسيليا. ولم يعثر حتى اليوم إلا على عدد ضئيل منها في قرطاجة، ولا أظنه يرجع لما قبل القرن السابع، والبعض من هذا الفخار صناعته رديئة ويبدو أحدث عهدا. وعثر كذلك على كثير منه بمالطة، وفي سردانية، وهذا يرجع لعهد متأخر.

أما الفخاريات التي تُسمى كورَنْثية Corinthienne فترجع للنصف الثاني من القرن السابع والأول من السادس، ويظهر عليها زخرف كثيف بطريقة مشرقية، بسلسلات من الحيوانات الحقيقية أو العجيبة. وقلما يظهر بها رسم للإنسان أو للمعبودات. والكل في حقل انتثرت به وردات في نطاق أسود مع لمسات بالأحمر. فإذا كانت كورَنْث هي مركز الصنع، فلربما أن بعض الفروع قد كانت موجودة. وعلى كل فَسِرَقوسَة، وهي مستعمرة لكورنث، كانت لاشك إحدى أسواق هذا الفخار الذي ذاع كثيرا في الغرب. والأوعية التي استخرجت منه بكثرة من مدافن

قرطاجة، تماثل تماما ما استخرج منه من المدافن الإغريقية – الصقلية والإيطالية. واستمرت عمليات الاستيراد إلى حقبة التردي الكامل في الصنع، بحيث إن بعض القطع منه بلغت في رداءة الصنع إلى حد أنها اعتبرت تقليدا بونيقيا. وكذلك جرى اكتشاف فخاريات كورنثية غير كثيرة العدد بمالطة وبَنْتِلارية وفي تاروس بصقلية. ولم تشتمل هذه المجموعة إلا على أوعية صغيرة، وبالخصوص على قنينات صغيرة للعطر. والراجح أن هذه لم تكن تصل فارغة للموانئ الفينيقية، كما بالمجموعة علبات المرهم والمساحيق، والأكواب، والكؤوس والأباريق والصحون. كما عثر بقرطاجة على جرّة كبيرة واحدة مزخرفة بنطاق من الحيوانات.

وعثر على وعاء صغير في مقبرة دُوِيمَس، يقدم مشهدا من قصة طروادة أي أخيل يفاجئ طرويلي Troïle، وهو مصنوع في أحد المصانع الأيونية قبل موسطة القرن السادس. فكان هو الاكتشاف الوحيد حتى اليوم. وكذلك الأمر بالنسبة لجرة معاصرة له تقريبا كانت مخفية في قبر بتاروس، وهي ترجع للفصيلة المسماة ترهينية Tyrrhénienne أو أتيكية – كورنثية (وفي الحقيقة هي أتيكية) وتغطيها رسوم فاحشة.

إننا نعرف الازدهار البديع للخزف الأثيني المصبوغ، ذي الدمى السوداء، ثم ذي الدمى الحمراء مابين موسطة القرن السادس، وهجوم كزرشيش Xèrxès سنة 480، كما نعلم إلى أي حد كان هذا الخزف يستحسن في إيطاليا. لكنه على وجه التقريب لم يكن ممثلا في المدافن الفينيقية بالغرب. وهو أمر عجيب، لا يكفي في تفسيره افتراض النقصان في علمنا، لأن مقابر هذا العهد لم تستطع أن تحتجب عن المنقبين بكل مكان بسردانية كما بقرطاجة. ولأسباب تبقى غامضة، فإن الفخاريات

الجميلة التي كانت تصنعها آنذاك المصانع الأثينية لم تقتحم المجال البونيقي.

في القرن الخامس وصل للفينيقيين الغربيين، ولا ندري كيف، أوعية أتيكية، عموما من ذوات القيمة الضئيلة، وبها رسوم أوجه سوداء صنعت بغير عناية، أو بأوجه حمراء.

ولأزمنة أكثر حداثة ترجع أوعية بأوجه حمراء. أكثرها من أحجام صغيرة. أنتجتها صناعة منحطة. وبالتاكيد فإن بعضا منها – كما يحتمل جيدا أن بعضها الآخر – قد أخرجته مصانع إغريقية مقيمة في إيطاليا. وقد عثر على بعض منها في قرطاجة، وسوسة، وثُبْسوس، وگوريا، ومالطة، وبجزيرة يابسة، وڤيلاريكوس بأسبانيا. وهي ترجع للقرنين الرابع والثالث.

وللقرن الثالث أو للنصف الأول من الذي يليه، يجب إرجاع عدة من الأباريق وأوعية الرضاع التي عثر عليها بمقبرة سَنْت مونيك Ste Monique والأوديون Odéon. وهي فخاريات مكسوة بطلاء أبيض تظهر من فوقه زخارف بالأحمر الغامق، أهمها ساق متموجة، وبها عادة أوراق اللبلاب. ونحن نجهل أين صنعت هذه الفخاريات الدقيقة الصنع.

ومنذ القرن الرابع، يعثر في قرطاجة بكثرة، على أوعية صغيرة من طين أحمر، يكسوه ميناء أسود لامع، منها أكواب وكؤوس وباطيات صغيرة، وأوعية للرضاع، وقنينات صغيرة وأباريق، وآنيات البراد Théieres [79]، وعلَيْبات المرهم، والصحون والأطباق والقصاع. وهي بأشكالها الممشوقة الرشيقة تقلد أمثلة معدنية. وغالبا ما يظهر على الصحون والأكواب زخارف مرشومة، وعلى الأباريق والقنينات الصغيرة

الأكواب والكؤوس زخارف نباتية مرسومة بالأبيض وبالأصفر من فوق طلاء التلميع. هذه الأواني ذات الميناء الأسود كانت تصنع من قبل في بلاد الإغريق، التي وجدت بها مصانعها بأثينا في القرن الخامس. لكن من القرن الرابع لما حَوْلَ نهاية الثاني، عرفت صناعتها ازدهارا كبيرا في إيطاليا، خصوصا في كمبانيا وأبوليا. فالمنتجات الإيطالية هي التي نقلت إلى قرطاجة، وإلى منطقة النفوذ القرطاجي كلها على السواحل، وحتى إلى داخل القطر التونسي، إلى كولو (القالة) وگورايا، ولجزيرتي سردينيا ومالطة، ولِصُولونة Solonte وإيرِكْس وليليبي، ولكالْياري، ونورا، وتاروس، وأولبْيا، ولجزيرة يابِسة، وڤيلاريكوس. كما نقلت إلى موسطة إيطاليا، ولصقلية الإغريقية، ولجنوب غاليا وإلى شمال شرق أسبانيا. ومما عثر عليه من هذه الفخاريات بإفريقيا، غالبا ما تظهر عليها أرقام أو علامات قد نقشت بعد عملية الشي بالنار. ولربما أن بعضا منها نقشه الإغريق من صناع أو تجار. والبعض الآخر الذي هو عبارة عن حروف فينيقية، يبرهن على القدر الذي شارك به التجار البونيقيون في هذه التجارة. أما الخزفيات الملمعة التي من بلاد الإغريق الكبرى، فبلغت من الشهرة إلى حد أنها قد وقع تقليدها في قرطاجة، ولكن بطريقة شوهتها.

وقد جرى في أبوليا وكمبانيا صنع فخاريات يكسوها نفس الميناء الأسود، مع زخرفة ذات وجوه بارزة بطريقة استنساخ القوالب Surmoulage لأوعية معدنية. وقد استخرج بعض منها من التراب في قرطاجة. ويحمل أحد الشقوف زخرفة نباتية وكتابة لاتانية بارزة كذلك، تكشف عن أصل الشقف، وهو مدينة كاليس Calès إحدى مدن كمبانيا.

وقد عثر في ثَبْسوس والقالة على زلافات[80] نصف مستديرة تكسوها من الخارج زخارف نباتية متقنة. ويبدو أيضا أنها وردت من إيطاليا، التي قد كانت تصنع بها ابتداء من القرن الثالث أدوات بهذا الشكل وهذه الزخرفة، وذلك بعدما كانت بلاد الإغريق قد قدمت المثال.

وابتداء من القرن الرابع كانت القناديل الإغريقية غير منعدمة الوجود في المدافن البونيقية. وأكثرها يذكّر، بسبب طلائه اللامع الأسود، بأوعية كمبانيا وإيطاليا الجنوبية، وأصلها واحد لاشك. وترجع للقرن الرابع قناديل تسمى أُتيكية Attiques، لها شكل كوب بمشعلة Bec مدورة ومقبض نصف دائري. وكذلك من القرنين الرابع والثالث نوع آخر من القناديل – الأكواب، التي يمر بوسطها أنبوب عمودي، كانت تدخل فيه ساق. ومن النصف الثاني من القرن الرابع كما من الثالث والثاني قناديل تسمى بالرودسية Rhodienne ليس لها مقبض، ولها مشعلة طويلة، كما لها في الغالب جنيح جانبي. وأخريات ترجع للقرنين الثاني والأول لها كذلك مشعلة طويلة، ولكنها تتسع كأنها سندان. وأقدم الأنواع هو الذي لا مقبض له، بينما أحدث الأنواع له مقبض عمودي بحلقات. وهذه الأنواع من ذوات المشعلة المستطيلة، أو المدورة أو العريضة، يرجع بعضها إذن لما بعد تخريب قرطاجة. ففي إفريقيا، بهذه المدينة أو بغيرها كان يقع تقليد القناديل الإغريقية.

واستجلبت في القرن الثاني مواقد من طين مشوي أصلها إغريقي. وقد اكتشفت منها قطع مزخرفة برسوم بارزة، إما برأس إنسان مُلْتح وشعور منفوشة أو بقلنسوة، أو برأس حيوان. ونجهل مكان صنع هذه الأدوات التي أذاعتها التجارة في البحر الأبيض المتوسط. ويكثر وجودها على الخصوص في ديلوص Délos.

أما عن الدُّمَى الإغريقية التي من طين، فلابد من التمييز بين التي هي من الطراز الإغريقي القديم، وهذه تؤرخ بالقرن السابع والنصف الأول من السادس. وبين التي لها طراز كلاسيكي. فالأولى يحتمل أنها صنعت في بعض مدن ساحل أسيا الصغرى. ومع هذه الأوعية يعثر على أوعية كورنثية من نفس العهد في مدافن الغرب. ومثلها ربما أنها مرت بصقلية قبل ان تنقل إلى إفريقيا وسردانية. أما الثانية فقليلة الوجود بقرطاجة، وأقل وجودا بغيرها. فلا نستطيع أن نذكر بدقة من أين جاءت.

وأباريق البرنز التي من القرنين السابع والسادس، يمكن أن تكون مصنوعة بأيدي بعض إغريق قبرص، بينما غيرها من القرون الخامس إلى الثالث هي على ما يبدو من كمبانيا. وحقّة مرايا يزينها رأس جميل لإحدى النساء بزخرفة بارزة، كانت قد وضعت بمقبرة سَنْت مونيك. وفي قصور الساف Ksour es-Saf بجوار المهدية، فتحت مقبرة ربما هي معاصرة لهذه. وعثر بها على درع جميلة من البرنز، بصدرتها وظهارتها رأس مينرڤا Minerve، وعليه خوذة. وهي مستجلبة من بلاد الإغريق الكبرى، وكذلك الحزام الذي عليه صفحات من البرنز، وكان يصاحبها.

كما أن الأصل الإغريقي لعدة أدوات أخرى عثر عليها في قرطاجة أمر لا يشك فيه، كأقراط الآذان من الذهب مزخرفة برأس إنسان، ووعاء وأدوات من عاج وعظام بها زخارف أو نحوت رائقة الصنع.

هذه القائمة طويلة، ولو أنها غير تامة. ومع ذلك فنوعها لا يعادل كثرتها. والخلاصة هي أنه لم يقع العثور في قرطاجة، ولا في غيرها من المدن الفينيقية بالغرب على أي شيء إغريقي ثمين. وبالتقريب، فإن كل ما ذكرناه من قبل هو بضاعة عادية. بحيث إننا لا نطريها إذا قلنا إنها أعلى من البضاعة الرديئة البونيقية.

في القرن السابع والنصف الأول من السادس، كان القرطاجيون على ما يبدو يتزودون لدى إغريق صقلية، خصوصا الذين كانوا يعملون كسماسرة. وفي القرون الرابع إلى الثاني تزودوا من بلاد الإغريق الكبرى التي كانوا يشترون منتجاتها دون وسطاء. وبين هاتين الحقبتين كانت المستجلبات الإغريقية قليلة، أي في النصف الثاني من السادس والقرن الموالي له. هذه على الأقل هي الخلاصة التي تأذن بها التنقيبات التي أجريت في المدافن البونيقية.

لقد كانت تجارة صُور Tyr نشيطة جدا، ولمدة طويلة في أراضي الغرب التي أسست بها مستعمرات. ويشهد حزقيال Ezéchiel بعلاقاتها مع جنوب أسبانيا. وإذا كانت قرطاجة قد تحررت من الربقة السياسية لأمها صور، فإنها بقيت مرتبطة بها بروابط الدين، وأيضا بالروابط التجارية دون شك. وفي المعاهدة الثانية التي عقدتها مع روما كان اسم الصوريين Tyriens مكتوبا بين الطرفين المتعاقدين بجانب اسم القرطاجيين. فمنافع والتزامات هذا العقد تنطبق على هؤلاء وأولئك. والفينيقيون من ساحل أسبانيا وقبرص كانوا يذهبون لقرطاجة أو يقيمون بها. وفي القرن الثاني كان العديد من التجار البونيقيين لا يزالون يترددون على صور وعلى الموانئ الفينيقية الأخرى. كما أن سفنا تجارية فينيقية، كانت راسية قرب جزيرة قرْقَنّة عندما مر بها حنّيبعل سنة 195. والمبعوث الذي أرسله إلى وطنه (قرطاجة)، بعد ذلك بسنتين كان أحد التجار الصوريين، إذ كان قدومه لا يثير الشكوك.

في العهد الأول لوجود قرطاجة، كانت صور تزودها طبعا بقسم كبير من المصنوعات التي كانت تحتاج إليها، وذلك قبل أن يقلل

الازدهار الصناعي بالمستعمرة مما تبعثه أمها صور. ولكن ليس بالإمكان مطلقا – كما سبق أن قلنا – التمييز في أثاث المقابر البونيقية القديمة، بين ما هو قرطاجي وما هو من صور، إذ يبدو أن المصانع المحلية لم يكن لها هم غير التقليد الحرفي لمنتجات صور.

ولاشك ان السفن الفينيقية هي التي حملت المصنوعات التي من البرونز ومن الطين المشوي، والتي حسب رأينا قد صنعت في جزيرة قبرص. وهناك أداة صغيرة لها شكل أسطواني من عمل آشوري Assyrien، وخاتم به كتابة منقوشة قديمة عبرانية Hébraïque، ولابد أنهما مرا بصور قبل وقوعهما في أيد قرطاجة. وأيضا فإن بعض قواقع البحر الأحمر والمحيط الهندي قد وضعت في بعض مدافن المدينة الإفريقية، وكذلك البخور والمر اللذان من البلاد العربية البعيدة. كما أن بعض الأدوات المصرية، باعها على ما يحتمل للقرطاجيين سماسرة فينيقيون، إلا أن هؤلاء كانت لهم متاجر في الدلتا. وكانوا يكوّنون جالية مهمة في منفيس Memphis. على أن هذه الأدوات لم تكن كثيرة العدد. وهي عبارة عن وعائين للماء من طين ملمع، وجعلان وأقنعة ودمى ومدلّيات القلائد وقنينات صغيرة للعطر من الزجاج والألبتر.

ويحسن الاعتقاد بأن علاقات مباشرة قد حدثت بين قرطاجة ومصر بعد تأسيس مدينة الإسكندرية، إذ عثر في تونس على بعض نقود البَطالمة. وبعض المسافرين الأفارقة قد تركوا ذكرى مرورهم بمنفيس في قبر العجل المعبود Sérapéum بكتابات بونيقية ونيوبونيقية Néopuniques منقوشة على ظهر سفَنْكس Sphinx تذكر أسماءهم وهي أسماء فينيقية وليبية.

6

ما هي النتائج التي يمكن أن نستنتجها من هذه الدراسة عن التجارة القرطاجية التي نعرفها معرفة سيئة ؟

يستحيل إلغاء النصوص العديدة الدالة دلالة واضحة على نشاط هذه التجارة التي بفضلها ازدهرت قرطاجة. ففي نهاية القرن الخامس وفي الثاني، نجد مؤرخين اثنين جادين في كتاباتهما، هما توسديد Thycidide وبوليب Polybe يؤكد أحدهما ان القرطاجيين يملكون الكثير من الذهب والفضة، ويؤكد الثاني أن قرطاجة قبيل اضمحلالها كانت تعتبر أغنى مدينة في العالم[81].

ومع ذلك، رأينا أنها ضربت النقود بعد الإغريق بزمن كثير، وأن عملتها كانت فيما بعد من نوع سيء. وبالتأكيد فإن هذه العوامل لم تكن في صالح التجارة. ولم تعطنا الوثائق الأثرية برهانا على حركة واسعة للتصدير إلى البلاد التي خصصتها هي لاحتكاراتها. وحيث إن التجارة بها كانت تجري خصوصا بطريقة المقايضة، فيجوز لنا أن نتساءل هل قامت بتصدير كثير من هذه المناطق. ونحن لا نعلم شيئا صحيحا عما كانت تجلبه إلى إيطاليا. ولا يحتمل أن تكون صناعتها، وهي على العموم رديئة، قد وجدت لدى الإغريق وبالمشرق أسواقا عريضة لها. وبالنظر لأثاث قبورها، فهي لم تكن تطلب من الصناعة الإغريقية سوى ادوات ضئيلة القيمة.

فيحسن الاعتقاد إذن بأن منابع ثروتها تستعصي على رقابة المنقبين الأثريين. ونحن نفترض أن هذه المنابع كانت على الخصوص، هي قصدير شبه جزيرة الكُرْنواي وفضة جنوب أسبانيا

يجلب السودان وربما حتى ذهب المغرب. وعلاوة على ذلك، فإن تجارة هذه المعادن لابد أنها عرفت التقلبات. ففي ما يخص القصدير نجد الطريق المارة خلال أرض غاليا La Gaule قد زاحمت الطريق الفينيقية المارة بالبحر المحيط. وكانت قرطاجة ذات ثروة عظيمة في الذهب والفضة في القرنين السابع والسادس، كما تدل على ذلك حلى مدافن مرسيش ودويمَسْ، أثناء الحروب الباهظة الثمن، التي مكنتها في عهد سيطرة الماگونيين Magonides، من تكوين إمبراطوريتها الاستعمارية في نهاية القرن الخامس حسب قول توسدِيد. ولكنها عدمتهما في الحرب البونيقية الأولى بالتأكيد. ولم تعد إليها الفضة بكثرة إلا بعد فتوحات البركيين Barcides في أسبانيا.

ومن جانب آخر فقد كان للتجارة البونيقية مجال عمل أوسع من التي كانت قرطاجة له مركزا. إنه هو تجارها الذين لم يكونوا يخشون التغيب عن بيوتهم، والذين كانوا يعرفون اللغات الأجنبية، والذين كانوا يترددون على الموانئ الإيطالية والإغريقية والمشرقية، والذين كانوا كلهم يترصد للفرص الحسنة، ويستطيعون القيام بعملية السمسرة في السلع التي لم تكن تتجه لوطنهم، والتي لا تصدر عنه. وبهذا نفهم كيف أنهم حتى بعد ضياع مستعمراتهم واحتكاراتهم فيما بين الحربين البونيقيتين الثانية والثالثة، فإن القرطاجيين كانوا لا يزالون يستفيدون من التجارة البحرية أرباحا طائلة. فعبقريتهم التجارية بقيت حية بعد انهيار قوتهم.

والحق أنه، إذا كان هذا الشعب غنيا، فإننا لا نعلم جيدا ما كان يحتفظ بثرواته. وعلى كل فإنه بعد القرن السادس لم يدفنها في مقابره.

وحتى المدافن القديمة، فإنها أبعد من تشتمل على كنوز مماثلة لتلك التي وقع العثور عليها في المدافن الأترورية.

لهذا فالتنقيبات الأثرية، يبدو أنها تناقض النصوص. فهي تدعونا للاعتقاد بأن قرطاجة في العهد الذي نشرت فيه سيطرتها على قسم كبير من سواحل الغرب، وفي الحقبة التي استولت فيها على جنوب وعلى شرق أسبانيا، هذه العاصمة لإمبراطورية شاسعة، كادت تكون فقيرة وتجارتها قليلة الأهمية. ولربما تكون النصوص بالغت في ذكر ثرواتها. ومع هذا، فيجب أن لا ندّعي إعادة تركيب تاريخها الاقتصادي اعتمادا فحسب على الفخاريات التي تؤثث قعر قبورها.

الكتاب الثاني

الأخلاق والمعتقدات

الفصل الأول

حياة القرطاجيين وأخلاقهم

1

تجهل عدد الفينيقيين الذين جاؤوا من صور في نهاية القرن التاسع وأسسوا قرطاجة. كما نجهل الذين أنموا من بعدُ سكان هذه المدينة. والراجح أن الأزمات البالغة الشدة التي مرت بها المدينة الأم (صُور صور) في القرنين السابع والسادس، قد دفعت لهجرات إلى المستعمرة الافريقية التي كانت مزدهرة آنذاك. وفي القرن الرابع، عندما هاجم الإسكندر مدينة صور، فإن الكثير من النساء والشيوخ والأطفال، قد لجأوا إليها (قرطاجة) لاجئين. ولابد أن قسما منهم قد مكث بها. وكذلك بعض الفينيقيين المولودين في غيرها من مدن البحر الأبيض المتوسط الشرقي قد استقروا بها. وتذكر بعض النقائش القرطاجية أشخاصا من صيدة Sidon، وأراد Arad وكيتيوم Citium. والقصة تعطي لديدون Didon رفقاء من قبرص(82).

ولربما أن هنا بعض الحقيقة المغلفة في أسطورة غريبة. وتذكر بعض النذور وجود أشخاص من أيْرَنيم Aïranim، وبَنْتلاريا Pantelleria وأيْبوسيم Aïbousim من يابسة، وربما من واحدة من المدينتين اللتين كانتا تحملان اسما واحدا هو هيبون Hippone (وهما بِنْزَرت وبونة)، أي من المستعمرتين الغربيتين اللتين كانت قرطاجة تسودهما أو هي مؤسستهما، وبقيتا على اتصال وثيق بها.

هذه العناصر الفينيقية التي لا نستطيع تحديد أهميتها العددية والتي لاشك لم تكن كلها صافية، قد اختلطت بها عناصر كثيرة فالأهالي قدموا للعمل في صور الجديدة التي كانت بحاجة لليد العاملة والعبيد الذين جيء بهم من كل جهة كانوا كما نعلم كثيري العدد بها. ومما وراء البحر: من صقلية وإيطاليا وبلاد الإغريق، جاءها تجار ومندوبون تجاريون وصناع لاشك.

هؤلاء الرجال الذين من سلالات وأحوال وأخلاق مختلفة جدا، كان التمازج بينهم عسيرا. ومع ذلك، وبقدر ما يمكننا أن نحكم، فقد حدث التمازج على نطاق واسع. ذلك أن القرطاجيين، رغما عن كبريائهم، لم يكونوا يتعصبون للدم. (فالملك) عملكار الذي من أسرة الماگونيين Magonides البالغة القوة، قد كان ابناً لامرأة سرقوسية. وحسدربعْل الذي كان صهرا لعملكار بركا، قد تزوج ثانية بامرأة أسبانية. كما أن حنّيبَعْل ابن عملْكار هو أيضا تزوج أسبانية. وكذلك فإن هيبوقْراط وإيبسيد Hippocrate et Epicyde الضابطين في جيش حنّيبعْل، كانا ابنين لامرأة قرطاجية وحفيدين لأحد السرقوسيين المنفيين، الذي التجأ إلى إفريقيا. كما أن إحدى بنات مسنيسا قد دخلت في أسرة أرستوقراطية بونيقية. وهذه الزيجات المختلفة، لابد أنها كانت

كثيرة بالخصوص بين القرطاجيين والليبيين والنوميديين، بنسبة يحتمل أنها كانت بالعاصمة أقل مما في المستعمرات المنبتة على السواحل من السدرتَيْن إلى ما وراء المضيق. فسالُسْت يقول : «هكذا كان الأمر في لبدة الكبرى». كما أن الكاتب بلوط Plaute في روايته Poenulus يصف - ربما - حنّون بأنه (هجين ليبي). أما العبيد، فلا يبدو أنهم عوملوا بقسوة شديدة. وعلى الأقل من كانوا يسكنون المدينة. فقد كانوا مأذونين بعقد زيجات يعترف القانون بها. وسواء أكانت الأسر الناتجة من هذه الزيجات قد أبقي عليها في العبودية أم أعتقت، فإنها على ما يحتمل كانت تخضع لحضارة المجتمع الذي تعيش فيه.

إن النقوش البونيقية المتحدثة عن العبيد قليلة جدا، ولا تعلمنا بشيء عن أصولهم. والجماجم العديدة المعثور عليها بالمدافن، تبدو عليها السمات الخاصة بالزنوج. فهم لبعض الأفراد، ينتمون للمنحدرين من آخرين جيء بهم من حاشية الصحراء، أو من أبعد من ذلك أيضا.

بعض التقدمات لتانيت Tanit ولبَعْل حمّون Baal Hammon تشتمل على أسماء لرجال يلوح أنها أسماء ليبية، مثل : ماگرْسان Magarsan، صقلان çaqalan، ملْمان Malman، قوفان qofan، هَشْدان Hashdan، يفتان Yeptan ، ماسيلْوي Massiloui، ماسيلوت Massilout، ماسِلْكات Massilkat، مگْراوا Magraoua، لوبي Louby، في المؤنث لوبات Loubat أي (الليبي والليبية)، وهو اسم نلاقيه كثيرا. كما أن شخصا يُدْعى أنان Anan ابن شَنان Shânan قد كان من ت، ب، ر، ب، ش TBRBŠ أي من مدينة إفريقية هي ثوبرسيكو Thubursicu أو على الأصح ثوبربو Thuburbo. ولا شك أيضا، ففي إفريقيا يجب البحث عن : ع، ب، ت، ب، گ، ن

PTBGN' عَبْتوكْني Abthugni ؟)، وطن شخص آخر أهدى إحدى التقدمات. وعلى العديد من الأنصاب فإن لفظ شار Shâr وشارام (؟) Shâram يطلق على ما يظن، على المكان الذي منه صاحب التقدمة. وحيث إن نفس اللفظ تتبعه كلمة بَتيم ؟ Batim التي توجد على نقيشات بسرْتا Cirta أي (قُسَنْطينة)، فيستنتج أن هذا المكان كان يقع في سرتا أو بجوارها. ولكن هذا الافتراض منقود. وكلمة ش، ر، د، ن، ي ŠRDNY وفي المؤنث ش، ر، د، ن، ت ŠRDNT معناها على ما يبدو السردانيون Sardes.

كما أن بعض الإغريق خلفوا آثارا عن إقامتهم بقرطاجة. ففي نقيشة بنذر مكتوبة باللغة الفينيقية كالآلاف غيرها، نجد اسم صاحبة التقْدمة، وهو : أوكْلِن Euklen منقوشا بحروف إغريقية.

وقرئت في غيرها أسماء إغريقية، هي : فيلومنِي Philouméné فيلوزريس Philosiris، وبيرينكي Bérénikè، مكتوبة بالحروف البونيقية. وشاهد قبر باللغتين الإغريقية والفينيقية يحتمل أنه يتعلق بأحد السرقوسيين. وتؤكد إحدى الفقرات من ديودور الصقلي أنّ قرطاجة في بداية القرن الرابع، عندما كانت تخوض الحرب ضد دونيس الكبير، قد كانت بها جالية هيلينية مهمة. وكان أهل الاعتبار منهم متعلقين بعبادة ديمتير Déméter وكوري Koré التي أدخلت لهذه المدينة.

واكتشفت في سراديب جنائزية من القرن الثالث أكواب من البرنز عليها تقدمة بونيقية (للمعبود)، ومعها مجموعة حروف من أبجدية إغريقية. لكنها بالإغريقية لا تعطي أي معنى. فلربما أنها بإحدى لغات إيطاليا. وعلى قطعة عاج تؤرخ بنفس العهد، كتابة أترورية تذكر اسم

قرطاجة التي ربما بها نقشت القطعة. ولابد أن التجار الأترورين والرومانيين والذين من جنوب الهضبة الإيطالية، لم يكونوا قليلين بالمدينة الإفريقية. فالضمانات المخولة بها للرومانيين ولحلفائهم قد ذكرت - كما رأينا - في المعاهدتين اللتين أوردهما پوليب. وهناك نصوص تذكر أن إيطاليين كانوا بقرطاجة في 149، في العهد الذي اندلعت فيه الحرب البونيقية الثالثة، وأن الشعب أوقع بهم. ولاشك أن أكثرهم كانوا تجارا، على غرار من كانوا قبلهم بقرن من الزمان، يساهمون في تموين المدينة التي كان المرتزقة يحاصرونها. كما أن اسما نقرأه على أحد الأنصاب، ربما يكون لاتانيا.

هذه الجماهير المختلطة، لابد أن تختلف فيها كثيرا خلقات الوجوه. ولا تساعدنا الآثار القديمة على دراستها، لأن صور الموتى المنقوشة على التوابيت الحجرية وعلى الصناديق والأنصاب ليست صورا شخصية حقيقية. ولربما أن وجوها مما نقش على أختام الخواتم تمثل مالكي هذه الخواتم. ولكنها لشدة صغرها لا تصلح لتكون وثيقة أنتربلوجية. وقد أخذت قياسات الجماجم المأخوذة من قبور قرطاجة، فوقع التمييز بين عدة نماذج خلقية، لوحظ وجودها كذلك في المدافن القديمة الأهلية بشمال إفريقيا. غير أنها بقرطاجة غير تامة الوضوح بسبب تعدد التهجينات. وتوجد إحداها بصيدة، وتتميز بخاصية هي أن حدبتي العظم الجداري واضحتان جدا، وتقعان جدا إلى الأمام، وإلى أسفل مما هو معتاد. أما الوجه فقصير جدا. ولايبدو حتى اليوم أنه قد عثر بقرطاجة ولا بصيدة على النموذج المعروف بالسامي، الذي يكثر لدى اليهود والعرب، بالوجه المستطيل، البيضوي الشكل المنتظم، والأنف الدقيق المستقيم، والجمجمة المستطيلة والبارزة جدا من فوق القفا. وفي

الغالب فإن الأبدان متوسطة القامة، بعظام غير قوية، الأمر الذي لا غرابة فيه بالنسبة لسكان المدن.

2

إن لفظ سامية Sémitique، الذي بالغت الأنتربلوجيا في استعماله يصلح للغة التي حملها المعمرون الأولون، والتي صمدت أثناء كل الوجود القرطاجي، وفرضت نفسها على العناصر غير الفينيقية. هذه اللغة غير معروفة جدا، رغما عن الجهود التي بذلتها أجيال من العلماء لتوضيحها.

لقد كان القرطاجيون يحبون أن يبوحوا للحجارة أو للبرنز بالأحداث التي كانوا يريدون تبليغ ذكراها للخلف. وهكذا، فإن حنّون بعد عودته من بعثته بالمحيط قد وضع في معبد كرونوس Cronos التقرير الذي وصلتنا ترجمته الإغريقية، وحنّيبَعْل عند نهاية إقامته بإيطاليا، قد ترك في معبد يونون اللّسينية Junon lacinienne قرب كروطون نقيشة طويلة بالبونيقية والإغريقية يخلد فيها مفاخره. وقد اطلع عليها بوليب. أما النصوص الفينيقية المنقوشة التي استخرجت من تراب قرطاجة، فليس لها مثل هذه القيمة، وهي على العموم تعود للقرنين الأخيرين للمدينة. فباستثناء بعض القطع المتبقية من تعريفات التقريب Tarifs de sacrifice، وبعض التقدمات لآثار دينية، فإنما هي شواهد قبور أكثرها لا أهمية له. كما أنها على وجه الخصوص نذور وافرة الكثرة كتابتها مختصرة ومتماثلة. وبدون صعوبة نقرأ أسماء الأعلام التي يكثر ورودها، ونفهم الصيغ المعتادة. أما الباقي ففهمه يصطدم بعقبتين أوليين، هما أن الكلمات غير مشكولة، وغير مفصول بينها.

في رواية Poenulus وهي كوميدية بقلم بلوط Plaute نجد بعض الفقرات بالبونيقية، وهي أولاً حديث فردي Monologue لحنّون مع نفسه. وليسا منه ترجمتان، ونص لاتاني أيضا. ثم جمل قصيرة من حوار. ولاشك أن بلوط قد كتب باللاتانية ماكان يريد أن يجعل حنّون ينطق به، ثم طلب من أحد القرطاجيين المقيمين بروما أن يقوم له بالترجمة. وبالطبع فالأمر هنا لا يعني نصا متفككا ومزريا، بل إنه لغة بونيقية حقيقية، كتبت طبعا بالحروف اللاتانية، وشكلها كما ينطق بها(83). لكن مع الأسف الشديد، فإن هذه الفقرات قد شوهها كثيرا النساخون. وباستثناء الترجمة الاولى للحديث الفردي الذي يمكن تصويبه وإعادته، فالفقرات الأخرى لا يمكن استعمالها. ويجب أن يضاف لهذه الوثيقة عدد قليل من الألفاظ الفينيقية التي كتبها وفسرها بعض قدماء الكتاب. ومن بينهم خصوصا الإفريقي القديس أوغسطين الذي عاش في منطقة كانت البونيقية بها لاتزال مستعملة. وكذلك مجموعة من أسماء النباتات المحفوظة في مؤلف ديوسْكوريد Dioscoride. وأسماء رجال ومواقع تذكر النصوص الإغريقية واللاتانية كيفية النطق بها، مع قليل أو كثير من الصواب.

هذه المعطيات تكون ضئيلة جدا في دراسة البونيقية، إذا لم نقم بالمقارنات مع العبرانية. فالقرابة المتينة بين هاتين اللغتين قد انتبه لها القديس جيروم Jérôme والقديس أوغسطين. ذلك أن الفينيقية التي حملت إلى إفريقيا وصمدت بها زمنا أطول مما في وطنها الأصلي، والعبرانية التي تكلم بها الكنعانيون قبل اليهود، لم تكونا في الحقيقة سوى لهجتين لغة واحدة. وعلى مجرى القرون فإن كل لهجة منهما قد سارت بتطورها الخاص. ولكن لا يبدو أن الاختلافات كانت عميقة. ولا نرى كذلك أن

الفينيقية في عهد قرطاجة الأولى قد تغيرت بالغرب، فالوحدة اللغوية كانت مضمونة بعلاقات من عدة أنواع. ومن المحتمل أن بعضا من المدن التي كان الأهالي فيها كثيري العدد، يكون تأثيرهم بها قد أحدث تغييرا في لغة المعمرين. ذلك ما تنبه سالُسْت لوجوده في لبدة الكبرى. لكن الفينيقية كانت لا شك تدافع عن نفسها بقوة أكثر في العاصمة نفسها.

ومع ذلك، فكون اختلافات قد وجدت بين كلام صُور وصَيْدة وكلام قرطاجة وأوتيكا، فذلك ما يمكن افتراضه دون مجازفة. وهي اختلافات كانت تقع لابد في النطق أكثر من وقوعها في المفردات والنحو. وبعض الإشارات تساعد على الاعتقاد بحدوث إخفات في حركة أ α مثلا وتحولها إلى أو ô وأ o التي تصير أو ou، وبحدوث تليين في الحروف الحلقية التي عندما لم تعد ينطق بها، ابتدأت تقلب وتتبدل، بل وتنسى أحيانا. وسيكثر القلب والنسيان في العهد الروماني. كالفرنسية بشمال إفريقيا التي تميل إلى نطق تخين أثقل من نطق فرنسا. وفوق ذلك فبالنسبة للفينيقية، بدأت هذه الميول تظهر في الوطن الفينيقي بينما حافظت العبرانية حسب ما يظهر على نطق أقوى وأشد.

لقد اضمحل اللسان الفينيقي بالمشرق أمام الآرامية والإغريقية. أما بالغرب فقد بقي حيا مدة قرون خصوصا في البوادي. وحيث أن هذا اللسان كان آنذاك يقع التخاطب به أكثر مما يكتب، فقد أصابه التحريف بأسرع من العهد الذي كانت فيه قرطاجة مقر حضارة وفي اتحاد لغوي مع فينيقيا نفسها. وقد كان القديس جيروم على حق حينما أكد أن الفينيقية أصيبت بالتغييرات في إفريقيا. ولكنها تؤرخ على الخصوص

الأزمنة التي تلت سقوط قرطاجة. ونلاحظ هذه التغييرات في نقائش القرون المسيحية الأولى.

ما نقوله عن اللغة ينطبق على الكتابة. فلا يوجد فرق كبير بين الأبجدية في نقائش قرطاجة وأبجدية النقائش التي من فينيقيا. ومع ذلك نلاحظ أن الحروف في قرطاجة تلين، طبعا تبعا لكتابة اليد العادية. فالحروف التي تعلو فوق السطر (مثل لامد و طاو Lamed et taω أي اللام والطاء) تتوج بعفرة صغيرة... وفي نفس الحين تطول ذيول الحروف وتأخذ أحجاما غالبا ما تكون ضافية بالنسبة لرأسها الصغير جدا. والكتابات كلها خفيفة ورشيقة. وأخيرا، فبينما على سواحل فينيقيا كانت كل الخطوط تقريبا لها نفس القيمة، فهي في قرطاجة خطوط مليئة وخطوط نحيلة أضفت على الكتابة البونيقية حلة من الرشاقة). في بعض المدن الأخرى بالغرب اكتشفت بعض النقائش بأبجدية حروفها قائمة ذات زوايا، كثيرة الشبه بالكتابة الشرقية القديمة. وذلك لا يؤكد أنها حتما الأكثر قدماً. إذ ربما يكون نموذج من كتابة قديمة احتفظ به في قرطاجة مدة زمن أقل من سردانية ومالْطة ولكْسوس.

إن الكتابات البونيقية حتى ما نقش باهتمام وعناية، تبدو عليها مسحة صغار: فالحروف صغيرة، وشكلها مضطرب، وتتراحم فوق حجارة صغيرة، ولاشيء فيها يذكر بالفخامة والانتظام الجليل للنقائش الأثرية الرومانية.

إن الأبجدية المعروفة باسم "البونيقية الجديدة" (نيوبونيقية) Néopunique تقدم أشكالا تعرف بأنها سريعة Cursives، ويصعب فيها التمييز بين هذا وذاك غالبا. هذه الكتابة المبسطة، استعملت لابد

أول الأمر في مواد تكتب الحروف عليها بسهولة بالريشة أو بالقلم، كالفخاريات والألواح الطينية أو الخشبية وغيرها. وقد استعملت في المشرق حيث نجد منها أمثلة منذ القرن الخامس، كما استعملت بالغرب مع نماذج مختلفة وتغييرات متتالية. وقد بدأ دخولها لقرطاجة بالنقش على الحجر قبل تخريب المدينة بقليل. فالكثير من النذور، به صيغة الدعاء المهيأة من قبل وتكون مكتوبة بالبونيقية، ويضاف لها بالبونيقية الجديدة معلومات تتعلق بصاحب التقدمة. بل إن بعض الكتابات كلها بالبونيقية الجديدة. لكن بعد أمد طويل، وفي تواريخ متغيرة حسب الأمكنة، حلت الكتابة السريعة بالغرب الفينيقي محل الكتابة القديمة الفخمة. فهناك أنصاب ونقود وكتابات مرسومة على أوعية جنائزية تقدم خليطا من الأبجديتين. ومنذ العهد المسيحي تقريبا بقيت الكتابة بالبونيقية الجديدة هي وحدها المستعملة بكل مكان.

3

تكاد جميع أسماء الأشخاص تعود إلى اللغة الفينيقية. وسنعود نحن لهذه الأسماء المعروفة بذكر اسم المعبود فيها Théophores، ونجعل الأشخاص في علاقة متينة مع الآلهة. وليس فيها أسماء للعائلة، وقلما يحمل الابن نفس الإسم كأبيه، لكن غالبا ما يحمل اسم جده. كان كل فرد يحمل اسما مفردا، ونظرا لأن أسماء الأعلام لم تكن عديدة، فالتجانسات الإسمية كانت تعدّ بالآلاف. وكالإغريق كانوا يهتمون بذكر اسم الأب، ويضاف له عادة اسم الجد وأسماء بعض الأسلاف العلاة.

ولكن هذا الانتساب كان استعماله يحدث اضطرابا ولا يمنع دائما من الخلط. فجرت العادة بإضافة لقب إلى الاسم، وذلك على الأقل لشخصيات الأرستقراطية. وأقدم مثال نعرفه هو حنّون الكبير من أهل القرن الرابع. هذه الألقاب المذكورة في النصوص الإغريقية واللاتانية، نجدها غالبا في عهد الحروب البونيقية. منها عمِلْكار بَرْكا، وحنون الكبير مرة ثانية وثالثة، وحسدربَعْل الجدْي Chevreau وحنّيبَعْل الزرزور (أو الطائش) L'étourneau، وحنّون الأبيض، وحنّيبَعْل المهوس Monomaque، وحنّيبَعْل الرودوسي، وماگون الإبروتي Bruttien، وماگون السمْناتي Samnite، وعَمِلْكار السمناتي، وجيسْكون سْتريتانوس Strytanos، وحملكون فمَيَاس، وبَنّون تيجلاس Tigillas. ويبدو أنهم لم يحملوا هذه الألقاب بصفة رسمية، إذ لا نجد لها أثرا على الأنصاب النذرية التي لايذكر فيها أصحاب التقدمات إلا باسم واحد طبقا للعادة القديمة.

وقد احتفظ القرطاجيون بلباسهم الشرقي، الذي كان سرعان ما يعرف بهم في إيطاليا وبلاد الإغريق. لقد كانوا كأهل فينيقيا يلبسون جبة فضفاضة تنزل عادة حتى الأقدام، تتموج حرة أحيانا، وتارة يحصرها حزام. ولهذه الجبة أكمام إما طويلة وواسعة تكاد تغطي اليدين، أو في أقل الأحوال أكمام قصيرة وتترك الذراعين عاريتين. وسنتحدث فيما بعد على هذا النوع من الكتفيات épitoges والصدريات étoles التي كان بعض الأشخاص يحملونها على كتفهم اليسرى، والتي لاشك أنها كانت شعارا. وعلى العموم لم يكونوا يلبسون شيئا فوق الجبة. لكن ترْتوليان Tertullien تحدث عن رداء Manteau رباعي الشكل، محصور حول القفا، تربطه المشابك على الكتفين وينزل من كل جهة.

فلابد أن هذا الرداء كان يستعمل وقت البرد والمطر. وعلى نصب قرطاجة نشاهد رجلا يرتدي لباس السفر أو البادية – أو ربما هو لباس أجنبي – يلبس جبة تصل إلى منتصف ساقيه، ومن فوق الجبة عباءة Sayon مربوطة إلى كتف واحد. ونشير كذلك إلى هذا اللحاف Pèlerine المكون من عدة قطع متوازية ومتراكبة، ويرمى به حول العنق ويتخذه الرجال كما يستعمله النساء، وهو ليس واسع الاستعمال. والأقدام كانت تلبس نعالا أو أحذية. وكان الرجال – حسب العادة الأسيوية – يضعون على رؤوسهم عمرات (غطاء الرؤوس) من اللبد أو الثوب، كقلنسوات طويلة أو طرابيش مقببة. وعلى صندوقين جنائزيين يرى شخص تغطي رأسه عمامة حقيقية، ولربما أن ذلك شعار، وأحد القرطاجيين يحمل كتفية كذلك والآخر موصوف بأنه راب Rab (ربي ؟).

وليس لنا كذلك علم بلباس النساء. فهناك غطاءان لتابوتَيْن، عثر على أحدهما بمدينة صُلُونة Solonte بصقلية، ويبدو أنه يؤرخ بالنصف الأول للقرن الخامس، بينما الثاني أزيح عنه التراب بقرطاجة، ويؤرخ له بنهاية القرن الرابع أو بالذي يليه، ويمثلان نساء ميتات بملابس إغريقية صرفة. ويمكن التساؤل عن الفنانين الإغريق الذين نحتوا هذه الوجوه هل اهتموا بأن يكونوا صائبين ؟ ولكن يبدو مع ذلك أن القرطاجيات في عهد الحروب البونيقية قد كن يلبسن تقريبا مثل الإغريقيات، بفستان طويل، يضيق حول الأفخاذ، وله كمان قصيران. وعندما يغادرن المنازل فإن رداء واقيا Voile-Manteau يسدلنه على الرأس وينزل إلى الأقدام تقريبا. والمشابك (التي على شكل الدبابيس الأنجليزية[84] لربط الملابس) كانت دائما قليلة الذيوع عند الفينيقيين الغربيين.

والرجال كانوا يتركون اللحى تطول، وشعر الرأس كان قصيرا. وسبق أن أشرنا لمختلف أنواع الحلي وغيرها من أدوات الزينة. وكما كانت بنات صهيون Sion يفعلن في عهد عيسو Isaïe، فإن بنات قرطاجة كن يبالغن في التحلي بهذه الأدوات الكمالية. أما العادة البشعة التي هي الحلقة في الأنف، فقد سيطرت زمانا طويلا في المدينة الإفريقية كما في بلاد كنعان، ويتحلى بها الرجال والنساء. وكذلك فالقلائد الثقيلة التي من زجاج، وتزينها كل أنواع المدلّيات والتمائم، ودهون التجميل، والمبالغة في استعمال العطور برهنت باستمرار على ذوق همجي، غير طيّع للدروس الإغريقية.

كان الختان شعيرة معمولا بها عند الفينيقيين وعند العبرانيين والعرب. لكنهم – كما يقول هيرودُت – كانوا يتخلون عنها حينما يعيشون مع الإغريق. فهل تخلوا عنها في إفريقيا ؟ أُفضّل اعتقاد ذلك، نظرا لسكوت المصادر. ولاشك أن بلوط Plaute ما كان ليهمل هذه المادة الصالحة للمزاح العريض.

وقد حوفظ على عادات مشرقية أخرى، منها مثلا السجود أمام من يراد احترامه. وهو وضع حقير يغضب الإغريق والرومانيين. وكان القرطاجيون كالفينيقيين يمتنعون عن أكل الخنزير.

واستمروا في حفاظهم على التقويم الكنعاني القديم الذي تخلى عنه العبرانيون في عهد أسْرهم واتخذوا التقويم البابلي. كما حافظوا على القيس بالذراع المصرية التي يبلغ طولها 525 سنتمترا، ونشروا العمل بها في إفريقيا، حيث كانت في العهد الروماني لا تزال مستعملة بها في كل الجهات. ولاشك أن موازينهم ومكاييلهم كانت أيضا مشرقية. وقد

قلنا إن قلة الدقة في العيارات التي عثر عليها، وكذلك استعمالهم لأنظمة متعددة قد جعل التصنيف أمرا صعبا. وباستطاعتنا معرفة نظام معمول به في فينيقيا وهو المنّ Mine الذي يزن 363,8 من الگرامات وهذا هو المن الصغير، أي نصف الكبير الذي يزن 727,6 گراماً، وله تقسيمات متفرعة، هي 1/2 , 1/4 , 1/8 , 1/16 , 1/32 , 1/64 , 1/128 كما له تفريعات أخرى، هي 1/25 (وهذا هو السِّكل Sicle الثقيل ويزن 14,55 گراما) و1/50 وأخيرا 1/100 (وهو العيار الذي دعاه الإغريق باسم دْرَخْم Drachme) ولهذا النظام تنتمي أكثرية النقود البونيقية من ذهب وفضة. وفي نظام آخر ربما أصله مصري، فالمن قد وزن على ما يبدو 393 گراما، أي 786 گراما للمن الثيقل بمجموعتين من التفريعات المذكورة، وهي سكْل يزن 15,72 گراما ودرخم يزن 3,93 گراما وقد استعمله القرطاجيون لسك النقوذ بأسبانيا.

إذن، فباللغة واللباس والأخلاق والعادات بقي القرطاجيون فينيقيين حقيقة. وسنلاحظ نفس الشيء عندما ندرس عقائدهم وممارساتهم الدينية. إنهم في نظر الإغريق كانوا ولم يزالوا من الباربار. ومع ذلك فقد رأينا كم كانوا يطلبون الأشياء الإغريقية التي أدخلتها التجارة لمدنهم، وكم غيرت هذه النماذج وربما أيضا حتى قدوم الصنّاع الإغريق في صناعتهم. ولقد امتدت هذه التأثيرات الهيلينية لمجالات أخرى: لأمور الحرب، وحتى للبحرية، والسلاح والآلات والخطط وهيأة السفن، وللدين ولو بنسبة ضعيفة، وأكثر من ذلك في الفنون وعادات مجرى الحياة.

وكما كانت قُبْرص بالنسبة لفينيقيا، كذلك كانت صقلية تستخدم وسيطا أمام قرطاجة. إذ أنها من عهد باكر كانت على اتصال مع سِرَقوسة وأكْريجَنْت وسِلْنونة. فلما سيطرت على القسم الغربي من

الجزيرة وجدت بكل مكان الحضارة الإغريقية، ليس فحسب في المدن الإغريقية التي هي سلنونة وهيركليامينوا، بل كذلك عند الإيليميين Elymes، وفي المستعمرات الفينيقية القديمة التي هي صلونة Solonte وبالِرْم Palerme وموتيَة Motyé. حيث ضربت في القرن الخامس النقود بكتابات ونماذج إغريقية، وحيث كان للهندسة والنحت الإغريقيين المقام الرفيع. يشهد بذلك المعبد الدُّوري Dorique الذي يوجد حتى اليوم بسجِسْت Ségeste وكذلك التمثال الجنائزي لامرأة، في لباس دوري متمددة على غطاء تابوت في صلونة Solonte. كما أن الدولة القرطاجية بدورها قد سكَّت في صقلية نقودا مقلدة عن النقود الإغريقية، وعليها صورة نخلة.

على أن الهيلّينية لم تكن بحاجة إلى المقاطعة الصقلية البونيقية، لتقتحم قرطاجة التي كان ميناؤها مفتوحا لجيمع الإغريق. ولم يكن فينيقيو المشرق ليصدوا إخوانهم عن هذا الإغراء. فهم أنفسهم تقبلوا الحضارة الإغريقية قبل أن يفرضها عليهم فتح الإسكندر. فمنذ القرن الخامس وصلهم من الفن الإغريقي التوابيت المنحوتة التي كانوا يضعونها في أعماق قبورهم. والصور التي تخفي آلهتهم متنكرة في معبودات الأولمب. وحول بداية القرن الموالي استحق سْطراطون Straton صَيْدة أن يلقّب بصديق الإغريق Philhellène.

في نفس الحين، كان في قرطاجة بعض الأرستقراطيين العارفين بلغة الإغريق ويتذوقون ثقافتهم. فالسِّرَقوسي دِيونْ الذي كان صهرا، أي زوجا لأخت دونيسْ المتأمّر Denys le Tyran عرف عندما زار هذه المدينة كيف يثير إعجابهم فيها ببلاغته، وكيف يحدث فيها صداقات استفاد

منها فيما بعد. وإحدى الشخصيات الأولى في الدولة – هو سُنْياتوس Suniatus حسب جُسْتان Justin – كانت له مراسلات بالإغريقية مع دونيس الذي كانت الجمهورية آنذاك تهيء حملة ضده. ولما علم مجلس الشيوخ بالخبر صوّت، كما قيل، على منع هذه اللغة. ولكن هذا القرار على فرض صحته لم يعمل به مدة طويلة. وللقرن الرابع ترجع الترجمة الإغريقية لحكاية حملة حنّون لما وراء أعمدة هرقل. والمعلومات التي أوردها أرسْطو عن الدستور القرطاجي لابد أنه استقاها، مباشرة أولا، من بعض القرطاجيين. كما أن العالِم الفلاحي ماگون Magon كان يعرف الإغريقية، وكذلك حنّيبَعْل العظيم، وكان أستاذه سوسيلوس Sosylos اللسْديموني الذي صار من بعد مؤرخه الخاص، وهو نفسه (أي حنّيبَعْل) كتب بعض الكتابات بالإغريقية. ذلك أن معرفة اللغة التي كانت – وبعد الإسكندر على الخصوص – واسعة الانتشار في العالم القديم، هذه اللغة كانت تفرض نفسها على التجار. وفوق هذا فالكثير من القرطاجيين كانوا يعرفون عدة لغات.

4

إننا نكاد لا نعرف شيئا عن الهندسة المعمارية البونيقية. فهي حتى في المباني النفعية لم تكن تهمل الكماليات في الزخرف الفني. وأپْيان Appien يخبرنا أن أرصفة الميناء الحربي كانت مسبوقة بمجالات شاسعة ذات أعمدة. أما البنايات التي تستعمل في الحياة العامة وللعبادة، فكان يستحسن أن تليق بقوة قرطاجة وثرواتها. ويحتمل أن أروقة كانت محيطة بالساحة الكبرى التي يقوم بجانبها البناء الذي تجتمع فيه المشيخة. وقد مدح الناس جمال بعض المعابد، ومن بينها

معبد أبولون Apollon ومعبد إيسْكولاب Esculape. وقد قال ستْرابون إن المدينة بحسن تناسقها يمكن مقارنتها بِرُودِس Rhodes، وبمرسيليا، وبِسيزيك Cyzique. وإذا كانت المنازل العالية، التي على جانبي الطريق الضيقة، في الأحياء القديمة في بنايات لاشك رديئة جدا، فالأرستقراطية كانت لابد تسكن منازل فارهة، ربما وسط حدائق ميگارا Mégara بالمنطقة الهادئة والصحية. وفي الأرياف المحيطة، كانت هذه الأرستقراطية تملك دارات Villas، أدهشت ثرواتها رفقاء أگاطوكْلِس وريگُلوس. ومدينة قرطاجنّة Carthagène، أي قرطاجة الجديدة التي أسسها حسدربَعْل في أسبانيا، قد أقام بها قصرا يليق بأحد الملوك.

ولم يبق شيء من كل هذا. لكن حافظت لنا الصدفة على اسم لمهندس معماري بنى معبدا مزدوجا مُكرّساً لأسْتَرْتي Astarté وتانيت لبنان Tanit du Libanon. وهذا الإسم فينيقي الأصْل. كما أن ضريح دُقّة Dougga الشهير يرجع تاريخه على ما يحتمل لحقبة قريبة من تحطيم قرطاجة. وفيه كانت نقيشة مكتوبة باللسانين الليبي والفينيقي، وعليها الأسماء المأخوذة من هاتين اللغتين للذين بنوا الضريح. وزخرفته إغريقية–بونيقية Gréco-punique. والجميع مكوّن من ثلاثة طوابق، ومن هرم صغير. وهو ينتمي للنموذج المصري الذي في الهرم المقام على قاعدة، أي النموذج الذي اتخذه الفينيقيون (والإغريق أيضا)، والذي كانت له تنوعات عديدة. وحتى ولو أن التنقيب في المدافن القرطاجية، فوق السراديب التي حفرت إلى عمق كبير، ولم تتضح عنه أية بقية تمكن من الاعتقاد بوجود بناية مماثلة، فليس من قبيل المجازفة عتبار هذا الضريح (أي ضريح دُقّة) بأنه العمل الهندسي المعماري البونيقي الوحيد الذي وصل إلينا في أيامنا هذه.

لقد نقل الفينيقيون إلى إفريقيا طرائق البناء التي وصلتهم من مصر أو من بابِلونْيا. أما الإعمادات Soutènements والأسوار Remparts والمراسي، فقد كانوا يستعملون فيها كُتلاً رباعية الشكل، تنجز بالإسفين والمطرقة، ولا تقطع بالإزميل، وتوضع متراكبة، كقواعد منتظمة من غير ملاط تحتها ولا في فواصلها. وإن بقايا هذه الأسوار بحجاراتها الضخمة، لا تزال موجودة إلى اليوم في قرطاجة على طول الساحل الشرقي، وفي هيپون Hippone، ولِكْسوس Lixus.

وبنوا كذلك بمواد صغيرة مضغوطة، كالدبش الملموم بملاط من الجير والرمل. هكذا تتكون في قرطاجة نواة سور البحر خلف واجهة من الحجر الضخم. وهذا البناء بالحجارة الضخمة، أصله مشرقي. وقد استحسن الرومانيون استخدامه كما نعلم، وربما أنهم استعاروه من القرطاجيين.

وهناك طريقة أخرى، تتكون من ضغط التراب في صناديق من ألواح الخشب التي تُزال بعد العملية. تلك هي طريقة البناء المدكوك Pisé. ويؤكد پلْين الكبير أن حُصون حنّيبَعْل Tours d'Hannibal المبنية هكذا بأسبانيا قد قاومت الزمان مقاومة جيدة. وقد اكتشف في خزينة بونيقية بحي ميگارا هذا المضغوط مكونا من خليط من التراب المدكوك والجير، ويكسوه الجبس. والدارات المكسوة بالجير التي لاقاها جيش أگاطُكْليس أثناء زحفه إلى العاصمة، ربما كانت مبنية هكذا.

وكان الرومانيون يطلقون اسم "لوتوم بونيكوم Lutum punicum" على طلاء من التراب الثخين الذي يكسو السياجات. والاسم يدل على مصدر الطريقة.

وختاما، كان القرطاجيون يصنعون آجُراً كبيراً رباعياً مستطيلا، يدعونه يجف في الشمس على غرار المصريين، ولم يكونوا يستخدمون الآجر المشوي.

وكان لابد من وجود فَعَلَة ذوي خبرة لتحريك هذه الكتل الضخمة، وجعلها في أماكنها، ولضمان الصلابة لكتل الخرسانة وللحصول على ضغوط متماسك. أما مواد البناء فكان الحصول عليها سهلا. ولا يبدو أن القرطاجيين استعملوا المرمر في هندستهم المعمارية، بل إنهم استعملوا هذه المادة بقلة ضئيلة في أنصابهم الصغيرة وفي الصفيحات الصغيرة التي كانوا ينقشون عليها كتاباتهم. وحجر البناء الذي كانوا يحصلون عليه من المحاجر المجاورة للمدينة، كان ذا حبوب غليظة جدا، وهو معرّض للتفتت، لذلك كانوا يكسونه بطبقة من الجص الأبيض الدقيق جدا، وذلك في البنايات التي يودّون أن يعطوها مظهرا جميلا، ويريدون أن يحلوها بزينة رشيقة. وكذلك كان الإغريق يفعلون.

وعلى غرار ما جرى في الفن الصناعي، فإن الأسلوب الذي جلبه الفينيقيون للغرب، هو فن مصري مع بعض العناصر الأسيوية. وقد استمر العمل به طويلا في المدن الصغيرة (الثانوية) المنغلقة تقريبا في وجه التأثير الهيليني بهَدْروميت Hadrumète، ونورا Nora، وسُلْكي Sulci. أما في قرطاجة فقد ضعُف، وإن كان لم يندثر. فنتج عن ذلك فن مختلط تسوده عناصر إغريقية من أصول مختلفة، غالبا ما استُعْملت استعمالا مضطربا، رغما عن القواعد الكلاسيكية. وفي الوسط المحافظ الذي تلقى هذه العناصر، وقع التشبث بها أكثر من تشبث الإغريق أنفسهم.

والخرجة Entablement المعروفة باسم الحلق المصري Gorge Egyptienne كثيرة الوجود في كل مكان. وهي عبارة عن إفريز أملس بقضيب، وعن

ربع دائرة محفور ومنعطف، وأخيرا بعصابة صغيرة منبسطة. ثم إن القرص الشمسي على جانبيه ثعبانان، وله جناحان. إنه زخرف مصري صالح جدا لتحلية الجبهات التي تعلو الفتحات. والفينيقيون الذين اتخذوه حافظوا عليه بالغرب كما بالمشرق. وهناك زخرف مصري آخر، هو عبارة عن صف من الثعابين المنتصبة. إنه موجود على أنصاب بسردانية وهَدْروميت، وعلى قلة بقرطاجة. كما أن العصابات المزينة بسلسلة من الوردات الهندسية تبدو من أصل آشوري، وقد بقيت مستحبة. أما السعفة التي كانوا يطلقون عليها اسم الفينيقية، فإنها صارت لا يُعثر عليها إلا نادرا.

وشكل الدعامات هو أحيانا مستوحى من مصر. ففي قرطاجة نقش يرجع للقرن السادس. كما على نصب بِنورا Nora دعامتان تسندان إفريزا. وكل واحدة منهما تنتهي في أعلاها بزوجين متراكبين من الأوراق المنعطفة. فهي على ما يحتمل تقليد لبعض القبب المصرية. ونرى بقرطاجة أنصابا أعمدتها مغزلية الشكل، أسفلها منطّق بأوراق حادة الرؤوس ومنتصبة. وهذا أيضا مستعار من فن وادي النيل. وجرى كذلك تقليد التيجان المعروفة باسم الحاتورية، وهي المزينة برأس الربة حاتور Hathor بأذني العجلة وغطاء الرأس الثقيل. وعلى قطعة من نذر قرطاجي، نرى رأس امرأة بغطاء يذكر بغطاء حاتور. وهو يعلو عمودا بتاج إيولي وجذع مخدد. كما أن نصبا غريبا في هَدْروميت هو عبارة عن بناء صغير مصري الأسلوب، به بزرة يعلوها إفريز من زهور وبراعم اللوتس، وقرص له أجنحة، وصف ثعابين وسلسلة من الوردات الهندسية. وهو مدعم بعمادين يقفان على قاعدتين لهما شكل الناقوس. أما جذعه فمخدد ومحوط في أسفله بنطاق من الأوراق. ويقوم في أعلاه

تمثال نصفي لامرأة، وعلى رأس هذه المرأة غطاء حاتور، ومن فوق الرأس ينتصب قرص ربما على جانبيه قرنان، وتحمل بيديها هلال قمر يحيط بقرص صغير.

غير أن هذه الأعمدة ذات الطابع المصري هي حالات استثنائية. وعلى النقيض منها الأعمدة والسواري ذات الأسلوب الإغريقي، فإنها كثيرا ما رسمت على الأنصاب القرطاجية، التي ربما يرجع تاريخ أكثرها القرون الرابع إلى الثاني، بل لنا منها بعض القطع الأصلية.

يطلق اسم الأيولية Eolique (أو أيونية أولى) على تاج تظهر عليه دائرتان، إحداهما منفصلة عن الأخرى، وتقومان كأنهما عكازتان، تولي إحداهما ظهرها للأخرى. وكثيرا ما تبرز من زاوية الدائرة زائدة كسعفة أو كبرعم اللوتس. وإذا كان المنقوبون الأثريون يتناقشون حول طبيعة العناصر النباتية التي كونت هذا التاج الإغريقي، فإنهم على العموم يعترفون بأنه يرجع إلى الفن المصري. ففي القرن السابع نعثر عليه في منطقة طَرْواد Troade وفي جزيرة لسْبوس Lesbos. كما نجده في جزيرة قبرص التي منها لاشك ذهب إلى آسيا عن طريق فينيقيا. أما أتروريا فلابد أنه دخلها على يد الإغريق. ويحتمل أنه لم يصل لقرطاجة على أيديهم، بل على أيدي فينيقيي قبرص أو فينيقيا نفسها. وهو ممثل على العديد من النذور القرطاجية. وانتشر في إفريقيا الشمالية حيث مكث مستعملا حتى في عهد الإمبراطورية الرومانية. فكان على الخصوص يأتي على رأس الأعمدة، وبالأخص منها أعمدة الزوايا، التي كان كل وجه من وجهيها الاثنين تزينه دائرة.

أما التاج الأيوني Ionique الحقيقي، الذي تتصل دائرتاه في الأعلى بقناة تمتد أفقيا، فوجوده على الأنصاب ليس أقل من الأيولي. فأحيانا هو

تمثال نصفي لامرأة، وعلى رأس هذه المرأة غطاء حاتور، ومن فوق الرأس ينتصب قرص ربما على جانبيه قرنان، وتحمل بيديها هلال قمر يحيط بقرص صغير.

غير أن هذه الأعمدة ذات الطابع المصري هي حالات استثنائية. وعلى النقيض منها الأعمدة والسواري ذات الأسلوب الإغريقي، فإنها كثيرا ما رسمت على الأنصاب القرطاجية، التي ربما يرجع تاريخ أكثرها للقرون الرابع إلى الثاني، بل لنا منها بعض القطع الأصلية.

يطلق اسم الأيولية Eolique (أو أيونية أولى) على تاج تظهر عليه دائرتان، إحداهما منفصلة عن الأخرى، وتقومان كأنهما عكازتان، تولي إحداهما ظهرها للأخرى. وكثيرا ما تبرز من زاوية الدائرة زائدة كسعفة أو كبرعم اللوتس. وإذا كان المنقوبون الأثريون يتناقشون حول طبيعة العناصر النباتية التي كونت هذا التاج الإغريقي، فإنهم على العموم يعترفون بأنه يرجع إلى الفن المصري. ففي القرن السابع نعثر عليه في منطقة طَرْواد Troade وفي جزيرة لسْبوس Lesbos. كما نجده في جزيرة قبرص التي منها لاشك ذهب إلى آسيا عن طريق فينيقيا. أما أتروريا فلابد أنه دخلها على يد الإغريق. ويحتمل أنه لم يصل لقرطاجة على أيديهم، بل على أيدي فينيقيي قبرص أو فينيقيا نفسها. وهو ممثل على العديد من النذور القرطاجية. وانتشر في إفريقيا الشمالية حيث مكث مستعملا حتى في عهد الإمبراطورية الرومانية. فكان على الخصوص يأتي على رأس الأعمدة، وبالأخص منها أعمدة الزوايا، التي كان كل وجه من وجهيها الاثنين تزينه دائرة.

أما التاج الأيوني Ionique الحقيقي، الذي تتصل دائرتاه في الأعلى بقناة تمتد أفقيا، فوجوده على الأنصاب ليس أقل من الأيولي. فأحيانا هو

في عمادتين على جانبي النقيشة، وأحيانا هو مجرد تاج يأخذ كل سعة الحجرة، ما بين القمة المقطوعة كجبهة وبين نقش الإهداء Dédicace. وفي مكان آخر هو عمادة منعزلة تحمل رمانة، هي رمز للإله. كما أن تيجانا أيونية مماثلة قد رسمت على صفائح العاج، وهي بقايا من صناديق، وعثر عليها في مقابر من القرنين الرابع والثالث، وعلى عدة منشآت أخرى. وأثناء التنقيبات التي أجريت منذ بضع سنين في الميناء العسكري لقرطاجة، عثر على تاج أيوني حجري اعتراه عطب كبير، وقد كان على رأس عمود مندمج. إن هذا الاكتشاف، مع اكتشاف لقاعدة كانت أساسا، ولبعض الأجزاء من جذوع الأعمدة ذوات القناة، إن كل ذلك يذكرنا طبعا بفقرة أيبان Appien، المتعلقة بالأعمدة الأيونية التي كونت الأروقة المحيطة بحوض جزيرة القيادة البحرية. وضريح دُقّة، في طابقين اثنين من طوابقه، تلوح تيجان أيونية على أعمدة الزوايا، وبه في طابق آخر تيجان أيونية على أعمدة مخددة.

في هذه الأعمدة التي ذكرنا، تنعطف الحواشي السفلى للقناة انعطافا شديدا نحو الأسفل. وهذه خاصية لأقدم التيجان الإغريقية من الطراز الأيوني. والنماذج التي قلدها القرطاجيون، والتي نجهل أصلها، ليست متأخرة عن القرن الخامس. وبأفريقيا فالمتأكد هو أن هذا النوع من التيجان ذات القناة المنعطفة قد احتفظ به على الأقل في القرن الثاني ق.م.

على أن بعض التيجان الأيونية، شكلها قليل الوجود ويحتمل جدا أنها مما قبل الميلاد. وقد عثر عليها في قرطاجة، وفي أماكن أخرى بإفريقيا الشمالية. ويصعب التأكيد إلى أي حد هي تمثل أو تشوه نماذج إغريقية.

ويبدو أن القرطاجيين استعملوا بقلة الطراز الدُّوري Dorique الذي كانت مع ذلك له السيادة في صقلية. وتوجد الأعمدة الدورية في عمارتين أثريتين بشرق الجزائر، في مقابر الأمراء النوميديين، أي في الصمعة La souma قرب قُسّطنطينة، وفي المدْغاسن بالقرب من باطْنة. وحيث إننا نجد هنا الحلق المصري الذي هو في بلاد البربر نتوء تجميلي بونيقي، فيمكن أن نتساءل هل الأعمدة أيضا لم تقع استعارتها من الفن القرطاجي ؟ ومع ذلك ففي عهد مسينسا ومن تولى بعده، فإن فكرة الاستعارة المباشرة من الفن الإغريقي، ليست مرفوضة. وفي قرطاجة نفسها لم يعثر إلا على نصب واحد تظهر عليه أعمدة من هذا الطراز. وهو نذر لإحدى الربات الإغريقية، هي پيرْسيفون Perséphone، التي تبدو صورتها في وسط معبد. فجذوع الأعمدة تحملها بعض القواعد، والإفريز عبارة عن صف من أسنان صغيرة، وصفّ من زخارف بيضوية الشكل. وهذا لا يتفق مع قواعد الدوري الكلاسيكي.

في الأنصاب المهداة إلى تانيت Tanit وإلى بَعْل Baal غالبا ما يكون شريط التزيين قد خط فوق أو تحت الكتابة المنقوشة. وترى به وشمات إغريقية بيضوية أو مستديرة أو بثلاثة خطوط محفورة. والكثير من هذه الأحجار تكون رؤوسها مشغولة بسعفات إغريقية كذلك. وأحيانا تكون الكتابة داخل بناء صغير بأعمدة لها تيجان أيولية أو أيونية، وإفريز بجبهة مثلثة الشكل. وتبدو هذه الرسوم تقليدا سطحيا للمعابد. وهذا برهان على سيطرة الطراز الإغريقي في الهندسة المعمارية في عهد الحروب البونيقية.

5

في قرطاجة، كان يوجد الكثير من التماثيل وغيرها من أعمال النحت. وقد جلب منها سيبيون إيمليان Scipion Emilien الكثير إلى رومة. وكان من قبل قد وزع الكثير منها على الصقليين. وهي على العموم قد كانت عملية استعادة. إذ في القرنين الخامس والرابع كانت المدن المغلوبة قد نهبها القرطاجيون من كنوزها الفينيقية. وفي ذلك تحية تقدير للإغريق يؤديها لهم قوم غير قادرين على منافستهم في هذا المجال. وقد عمل الرومانيون على هذا المنوال منذ أن استولى مَرسيلوس Marcellus على سِرقوسة. ومن المحتمل أن يكون بعض النبلاء قد كونوا لأنفسهم بعض المجموعات. وفي عهد الإمبراطور دوميتْيان Domitien فإن إحدى تحف ليزيب Lysippe، وهي تمثال برنزي صغير شهير يمثل هيركْليس Héraclès، كان يقال عن خطأ أو صواب إن حنّيبَعْل كان يملكها.

وبالطبع فإن هذه التحف الجاهزة لم تكن تفي بحاجيات العبادة والرفاهية العامة والخاصة. ولابد أن الفنانين كانوا ينجزون بالطلب صور المعبودات، ونقوشا محفورة للمعابد، ومنحوتات جنائزية وغيرها. لكن لاشيء يدل على أنها من أصل بونيقي. وفي مدينة أفسوس Ephèse عثر على قاعدة تمثال عليها توقيع بالإغريقية باسم بْويطوس Boéthos القرطاجي ابن أپُلودوروس Apollodoros. وحسب قول پوزانْياس فإن بْويطوس هذا، هو صانع تمثال الطفل الجالس المحفوظ في أولمبيا Olympie. ولن نتردد في أن نعزو إليه الطفل الذي يخنق إوزّة، أي لبويطوس، إذا كان هذا التمثال البرنزي الشهير الذي لنا منه عدة نسخ من المَرْمر، ليس هو مما أنتجه سميُّه بْويطوس الخَلْقدوني ابن أثَناپون

Athanaion. على أنه لاشك أن النحاتين الاثنين، لم يكن أي منهما أقل إغريقية من الآخر. فبويطوس المولود في قرطاجة من أب يحمل مثله اسما إغريقيا، لابد أنه لم يمكث بالمدينة، التي ليس منها، و ما كان لشهرته أن تنطلق من هنا لتذيع في العالم الهيلّيني.

وقد عثر في مقبرة سَنْت مونيك على العديد من التوابيت المرمرية. وأكثرها يرجع للقرن الثالث، والبعض منها هو عبارة عن آثار هندسية معمارية لا أعمال نحت. فلها مظهر معبد إغريقي، ولها غطاء يقلد سقيفة مسنمة، بجبهات على الطرفين، وبخرجات عند الزوايا، وعلى طول الجوانب الكبرى. وعلى طرفي الجفنة Cuve (85) الأعلى والأسفل، تتوؤات تتحلى بزينات مرسومة على شكل بيضوي ورؤوس للحراب، وصف من قلوب وتعريجات. وعلى جبهتي غطاء التابوت رسمت وشمات لا يمكن تمييزها اليوم. فهي أغصان ملتفة، وأنصاف تماثيل بأجنحة، وطيور خرافية وكلاب. وكل هذا إغريقي. فالمادة رخام من باروس Paros أو غيرها من جزر بحر إيجَة Mer Egée، وكذلك الشكل والزخرف. وقد وقع العثور على آثار مماثلة لهذا في بعض المدن الإغريقية، في أكْريجَنْت Agrigente وفي جيلا Géla مثلاً قبالة إفريقيا.

وعلى بعض التوابيت الأخرى، يُرى الميّت مُصُوراً بطريقة النقش البارز.

وكان القرطاجيون قد استعاروا استعمال الصناديق الجنائزية التي لها شكل مقدود على قدّ جسم الإنسان، وعلى غطائه صورة الميت تامة قليلا أو كثيرا. هذه التوابيت المعروفة باسم «شبيهة الإنسان» Anthropoïdes، قد عثر على الكثير منها وهي من مرمر وحجر وطين

مشوي في عدة جهات بالغرب. وأشدها قدما قد عثر عليه في صولونة Solonte، وهو لا يبدو أنه من عهد متأخر عن موسطة القرن الخامس، وعليه صورة المرأة الميتة ظاهرة بكاملها. وبغيره مما اكتشف بصولونه وقادس Gadès ومالْطة Malte لم ينحت عليه سوى الرأس والذراعين أو القدمين.

ومن المحتمل أن التوابيت ذات الشكل الشبيه بالإنسان لم تكن مجهولة بإفريقيا، غير أنه لم يعثر على أيٍ منها حتى اليوم في مدافن قرطاجة. أما المدافن المنحوتة التي بسِنْت مونيك، فإنها على وجه التحقيق ليست شبيهة بالإنسان، لأن الجفنة لها شكل رباعي كشكل غطائها أيضا. غير أنها، هي والتي ذكرناها من قبل، لها هذه الخاصية المشتركة بينها، وهي أنها تقدم لنا صورة الميّت. وهي ليست صورة طريح ينام نومه الأخير، فالعينان غير مغلقتين. إنها تمثال لا تنقصه حتى قاعدة الأساس، تمثال لشخص في قوة الحياة، واقف، كما يشير لذلك وضع الساقين. إنه تمثال تم تمديده خلافا للمنطق، فوق التابوت مع الغطاء الذي وقع ضمه له.

هذه المخلفات الأثرية الأربعة، من بينها واحد يمثل امرأة، يحيط برأسها نقاب-رداء تنحيه باليد اليمنى وتمسكه باليسرى. وهو تكرار لطراز إغريقي من تماثيل القرن الرابع. أما الثاني فكله مصبوغ، ولاشك أنه صورة لكاهنة ترتدي اللباس المشرقي للمعبود الذي تقوم على خدمته، وتمسك بحمامة ومبخرة. والاثنان الآخران رجلان لابسان حسب الطريقة البونيقية. وباليد اليسرى لكل منهما مبخرة، بينما يؤديان باليد الأخرى إشارة الصلاة المعتادة لدى القرطاجيين. إن جمع هذه التماثيل بأغطية التوابيت أمر يفسر ربما باستعمال الفينيقيين للتوابيت الشبيهة

بالإنسان. فاللباس وهيأة الثلاثة الأخيرة، برهان على أن رجالا من قرطاجة قد طلبوها للفنان. ولكن المادة هي رخام بحر إيجَه. وبالرغم من وجود بعض النقص في الصنع، فالإنجاز ينبئ عن أيد إغريقية. فالوجوه منتظمة، بسحنات لطيفة وقور، وليست صورا شخصية، إذ تحت تمثال الكاهنة الجميلة الشابة، وجد هيكل عظمي لامرأة عجوز بلا أسنان، بفكّين بارزين وأنف ثخين عريض. هذه التوابيت وكذلك التي لها زخرفة هندسية معمارية، صنعت ربما في مصانع وراء البحار وبعثت إلى إفريقيا. لكن يجوز أن نفترض كذلك أن إغريقيين كانوا مقيمين بقرطاجة، ويحصلون بها على مرمر الأرخبيل، ويشتغلون فيه طبقا لرغبات الزبناء. ولربما أن صانع التماثيل بْويطوس بن أبُلودوروس كان ينتمي لإحدى هذه العائلات.

وقد أعطانا أحد سراديب مقبرة سَنْت مونيك أثرا شبيهها بالتي سبق لنا الحديث عنها، غير أنه صغير الحجم جدا. وهو عبارة عن صندوقة تحتوي عظاما محروقة، وعلى الغطاء نحت رجل بملابس بونيقية وهو في وضع الصلاة. وهذا الأثر ذو صنع متقن، ووقع إنجازه في قرطاجة، لأن حجر الكَلْكير الذي صنع منه قد جيء به من محجرة مجاورة للمدينة. كما أن وعاء حجريا آخر لحفظ العظام Ossuaire، في قعر سرداب مجاور، له غطاء يرينا أحد القرطاجيين هو الربّي بَعْل شيلِكْ Rab Baalshillek، بنفس اللباس ونفس الوضع. والصورة لها محيط بارز، غير أن الجزئيات الداخلية هي مجرد نقوش. فهي غليظة الصنع ولابد من أن تُعزى لمصنع محلّي. وكذلك الحال بالنسبة لتوابيت الكلكير التي من طراز الهندسة المعمارية بزخرف مرسوم.

وبالطبع فقد كان يصنع في قرطاجة العديد من الأنصاب الصغيرة التي من حجر البلاد، وهي بضاعة عادية بدون قيمة فنية. كالنذور التي زخارفها تكون في الغالب مرسومة غير متضحة بالنقش البارز، والتي تكون بها الوجوه الإنسانية عملا استثنائيا. وكالأنصاب الجنائزية التي يكاد جميعها يكون متشابها. فقد حفرت بها كوة، وبداخل الكوة رجل واقف أو امرأة واقفة، واليد اليمنى مرفوعة بإشارة الصلاة، واليسرى تمسك مبخرة، وأحيانا تمسك قنينة صغيرة. وقد جرى تكرار هذه الصورة طوال عدة قرون إلى حقبة قريبة من عهد الميلاد. ونجدها في بقاع مختلفة بالقطر التونسي. وقلما يكون بها ما يدفع إلى الظن بإرادة صنع صورة صادقة، أو أن الكوة تحاط بإطار معماري مستعار من الفن الإغريقي.

على بعض المقابر لم تقم بها أنصاب مسطحة، بل أقيمت تماثيل بالنقش البارز، دائما في حالة الصلاة. أما المادة فهي المعتادة أي الكلكير الرمادي، وطريقة الصّنع بارباريّة، ببدن غير مشذب، ووجه مشين، لا يعبر عن شيء. وعلى إحدى الرؤوس، هي بقية من أحد هذه التماثيل، كما على بعض الأنصاب الجنائزية، نلاحظ وجود جزئية نلاقيها في تماثيل إغريقية أكثر قدماً، ذلك هو الخط المار بالخدين، الذي يشير إلى الحد الأعلى للحية، وربما تحته إشارة للشعر بطبقة من الألوان. كما أن رؤوسا من حجر عثر عليها خارج قرطاجة في مدينة فيليپْڤيل Philippeville ولِكْسوس تمثل أيضا فينيقيين على ما يبدو، وذلك لا يعني أنها صور حقيقية. وفيها نحسّ كذلك، مع عدم إتقان الصانع، وبوجود تأثير الفن الإغريقي العتيق Archaïque.

هذا التأثير الذي لم يتحرر منه الصنّاع الاتّباعيون يصعد إلى القرنين السادس والخامس. وليس هو تأثير الأسلوب الذي كان قبلاً مستعارا من مصر، أي الأسلوب الفينيقي في صناعة التماثيل، بحيث إن رؤوسا نسائية صغيرة من حجر أبيض رخص، قد عثر عليها في المدافن القديمة بدَرْماش ودويمَس، وهي إنجاز مصري.

وختاما، إننا نجد هنا نفس العقم ونفس الكسل كما في الهندسة المعمارية والصناعة. إن العمل يؤديه مقلدون مشوهون، لا يكادون يعرفون كيف يمسكون الإزميل، ولا يعنون أنفسهم بالنظر للطبيعة، وليس لهم شعور بالحياة. أما النحاتون العالمون بمهنتهم، الذين أنجزوا التماثيل الجنائزية المودعة في سراديب سَنْت مونيك، فقد كانوا إغريقيين، وليس مهماً أن مصانعهم كانت بقرطاجة او بغيرها.

6

يقول پْلين الكبير : «بعد الاستيلاء على قرطاجة، أهدى مجلس شيوخنا خزانات الكتب إلى الأمراء الأفارقة». فهل هذه الخزانات وقع تأسيسها فحسب في عهد الحروب البونيقية على غرار خزانة الإسكندرية التي هي مفخرة للهيلينين ؟ أم كان تأسيسها، بعد مرور زمن طويل، على غرار ما فعله في القرن السابع، الملكُ الآشوري شوربانيبال Assourbanipal ؟ ذلك ما نجهله. والكتب التي نجت من التدمير سنة 146، كانت ذات جدوى على مُلّاكها الجدد، وبالخصوص على هيمْبسال Hiempsal الذي يبدو أنه هو نفسه قد قام في اللغة الفينيقية بعمل واحد أو أكثر في ميدان التاريخ. وليوبا الثاني Juba II العالم المجتهد الذي لا يكل، ذي التآليف العديدة. وبعد مرور عدة قرون،

المتآمّرين Tyrans في أوربا وآسيا، وهناك من يقول إنه هو مؤلف الليبيات، والأثيوبيات، ورحلة لما وراء "أعمدة هيراكْليس Héraclès" التي يجعلها سْويداس من مؤلفات شارون اللّمْپساكي Lampsaque. والحق أننا لا ندري متى عاش، وهل كان وطنه هو قرطاجة البونيقية أو قرطاجة الرومانية.

بل قد تكون المدينة الإفريقية عرفت رجالا يتعاطون للفلسفة. فلقد جرى ذكر لبعض الفيتارغوريين Pythagoriciens، وأصلهم إغريقي بالنظر لأسمائهم. لكن النصوص التي جعلت كْسينوقْراط Xénocrate الأفلاطوني وهيرْيوس الرِّواقي Herillos قرطاجِيَّيْن قد أخطأت، لأن هذين الفيلسوفين كانا من خَلْقدونية Chalcédoine. أما حَسْدربَعْل كليتوماك الذي كان من الأكاديمية المحدَثة، فهو مولود في قرطاجة ربما من أب إغريقي، وجاء إلى أثينا وهو لا يزال جاهلا، وعمره أربع وعشرون سنة. ذلك على الأقل هو ما تؤكده بعض اللمحات المتعلقة بترجمات حياته. لكن حسب معلومات أخرى، يقل الوثوق بها فإنه بقي في وطنه حتى بلغ الأربعين وبه زاول الفلسفة. والأطباء تذكر أسماؤهم في العديد من النذور.

على أننا لا نرى أن قرطاجة قد ساهمت في تقدم العلوم النظرية. إذ يبدو أن كتّابها كتبوا خصوصا بحوثا في مناحي نفعية. أما الأرستقراطية فبلغ بها التَّهَيْلُن إلى حد الإحساس بالقضايا الفكرية، بل إن بعض النساء كن يتذوقن ذلك. فهذه صُفونَة بَعْل (أو صُفونسْبي) Sophonisbe كانت على ماقيل واسعة المعرفة في الآداب وراسخة في الموسيقى. غير أن الحضارة البونيقية لم تنتج علماء ولا شعراء ولا مفكرين، أو إن التاريخ لم يعرف أي واحد من هؤلاء. فَطيرانْس Térence

الشاعر اللاتاني وكْليتوماك Clitomaque الفيلسوف الإغريقي لم يكونا قرطاجيَّيْن إلا بمكان ولادتهما.

7

على أن القرطاجيين قد عرفوا بأنهم رجال أذكياء. غير أن هذا الذكاء كان من النوع الذي يجعل نفسه رهن المصلحة الشخصية، ويعرف كيف يكتشف أمهر الوسائل وأبرع الحيل للوصول إلى غاياته. وفي حديث عن شخص اسمه بُسْتار Bostar، الضابط الذي خدعه أحد الأسبانيين، تحدث تيتْ ليف Tite-Live قائلاً إن الجنس البونيقي ليس من عادته أن يكون بمثل هذه السذاجة. فله حسّ عملي كبير، ويعرف كيف يتوافق مع الظروف، ويستفيد من الفرص، ويتجنب العراقل، ويبرهن في العمل على عزيمة مرنة بقدر ما هي صلبة. وعندما لا يبقى شك في السلوك الواجب اتخاذه، فإن هذه العزيمة تصمد بإرادة تبلغ حد البطولة. وإن الدفاع النهائي لقرطاجة ضد الرومان، كدفاع موتِيه Motyé ضد دونيس Denys، وكدفاع صُور Tyr ضد الإسكندر تُعَدّ سِجلّ فخر للفينيقيين، شعب التجار.

كان القرطاجيون يُلامون على ولعهم بالملذات الجنسية، في حين أن الأسرة كانت قوية التكوين عندهم، كانوا يعرفون أجدادهم ويذكرونهم في النقائش. وفي هذه النقوش النَّسَبية قلما تظهر النساء اللائي قد يبدي ذِكْرهن مولداً غير شرعي. ونجهل هل كان تعدد الزوجات مقبولا عندهم، وحيثما وجد فإنه لم يكن سوى حالة استثنائية. وهذه المدينة التي كان فيها السبق للربة "تانيتْ بني بَعْل" Tanit Pené Baal على بَعْل حنّون، هل كان فيها وضع المرأة أقلّ من وضع الرجل ؟ فجل المدافن القرطاجية

كانت حتى القرن الرابع لا تضم سوى جسد واحد أو اثنين. وعندما يضم القبر اثنين، فهما لرجل وامرأة. وفي ذلك إشارة لحالة اجتماعية، فيها أن الزوجة الوحيدة هي صاحبة لا خادمة. لكن على النذور، فإن أصحاب التقدمات رجالٌ على العموم، الأمر الذي يمكننا من استنتاج أن النساء كن يمكثن داخل بيوتهن، وأن أزواجهن لم يكونوا يشركونهن، ولو بالإسم، في الشكر الذي يؤدونه للأرباب. ومن ناحية أخرى، فإن بعض النساء كن يُدْعون للكهنوت، ويَصِلن إلى مرتبة كاهنة كبيرة، ولهن السلطة على الإكْليروس من الجنسين. والمرأتان الوحيدتان اللتان ذكرهما المؤرخون، أي صُفونة بَعْل Sophonisbe، وزوجة حسدربَعْل آخر قادة قرطاجة، لم تكونا أبداً مُطْلق امرأتين باهتتين بالحريم.

وسنتحدث عن الشعور الديني عند القرطاجيين. ويكفينا هنا الملاحظة بأن خشية الآلهة لم تكن لديهم مانعا أخلاقيا. فالأجانب متفقون على اتهامهم بالنقائص العظيمة.

ففيهم أولاً شراهة حبٍّ للمال تدفعهم لأن يأتوا من غير تردد بأعمال غير لائقة أو سيئة الأخلاق. بحيث هناك ادِّعاء يقول : إن حنّيبَعْل العظيم يفوق – هو نفسه – في هذا المجال غيره من مواطنيه. والغش الكبير هو التبكيت الذي سبق أن وجهه هيرودُت Hérodote إلى الفينيقيين. فالكذب والخداع والغدر كلها صفات يوصف بها القرطاجيون عادة. إنهم يخادعون حتى آلهتهم، مع أنها مرهوبة جدا، ويحرمونها من القرابين الواجبة عليهم لها. وينقضون بوقاحة الأيمان التي أعطوها لها. ولا يجهل أحد ما يعنيه الرومانيون بهاتين الكلمتين أي : (fides punica) بمعنى "الصدق البونيقي". و(المعاهدات الفينيقية) هي التي كانت تعقد مع نوايا التدليس. فحنّون كما قدّمه پْلوط Plaute يُخفي ما يعلم : «فهو قرطاجي

حقيقي، وهل من حاجة لقول أكثر من ذلك ؟ لكن لا يجب نسيان الصِّدق الإغريقي fides graeca لأن شهرته سيئة، وتكاد تعادل الصِّدق البونيقي fides punica. أما رومة القاسية جدا على الآخرين، فلقد أوضحنا أن سلوكها تجاه قرطاجة، قد كان دائما أبعد من أن يستلهم الأمانة الدقيقة. ويمكن الاعتراض كذلك بأن الإغريق والرومانيين، كانوا – كما فعلوا – على حق في الغضب من قسوة القرطاجيين. غير أنهم في ظروف عديدة بَدوا هم أيضا سفّاكين للدماء وبغير رحمة. ومع ذلك فيحسن أن ننظر في المرويات. وهي : ترك المرتزقة في جزيرة قاحلة، ماتوا فيها جوعا، والتعذيب الذي أوقع على ريـگُـلوس Régulus، والفظائع المختلفة المنسوبة إلى حنّيبَعَلْ، والنصيحة التي قُدمت لهذا القائد من لدن حنّيبَعَلْ آخر، وهي أن يدرّب جيشه على أكل اللحوم البشرية وغير ذلك. والمتأكد مع ذلك، هو أن المذابح، والتعذيب والاغتيالات والقتل التعبدي، كل ذلك كان له مكان عريض في التاريخ البونيقي. وإن حرب سنة 409 في صقلية، والصراع ضد المرتزقة والأفارقة الثائرين، ولربما أن حروبا أخرى تغيب عنا تفاصيلها، قد انطبعت بمذابح مرعبة. كما أن ذبح ثلاثة آلاف إغريقي بهيمير Himère بأمر من حنّيبَعَلْ الماگوني في المكان الذي مات به جده، وكذلك المثلة بجثث الموتى، والتذكارات الكريهة التي كان الغالبون يتحلون بها في كبرياء، وسحق الأسرى بأقدام الفيلة القاتلة التي يملكها عَمِلْكار، كلها خطوط لا يظهر أنها مختلقة. وإنا لنعلم مقدار القسوة التي غالبا ما كان يعاقب بها القادة على أخطائهم أو سوء حظهم. ونعلم القرابين الكريهة بالأطفال، الذين يُهْدون لساتورْن Saturne البونيقي.

في إحدى الفقرات يعطي بلوتارك Plutarque أسبابا أخرى لما يوحيه القرطاجيون من كراهية، يقول : «هذا الشعب مليء بالمرارة،

مُتجهّم، مُتَذلل لمن يحكمونه، عنيف تجاه من يخضعون له، خسيس إذا خاف، كثير الوحشية إذا غضب، لا يتردد في عزماته، قسوتُه تجعله خصما للأشياء اللطيفة والمستحسنة». ويكتب أپْيان Appien من جانبه قائلا: «القرطاجيون في الازدهار هم غير عادلين، وهم وقِحون تجاه الجميع، لكنهم يظهرون التواضع إذا ساءت حالهم».

هكذا كانوا يجلبون نحوهم إهانة الأقوياء الذين كانوا يكرهون دناءتهم، كما يثيرون بغض الضعفاء الذين كانوا يهينونهم. فهم مع ظلمهم لم تكن لهم كالإغريق سهولة البشر الذي يقرب ويوحي بالثقة، ويدفع في الاتصال اليومي إلى نسيان الكثير من المؤاخذات. بل كانوا كما يشهد بذلك دينهم، يميلون ليروا الحياة بألوان سوداء. وزيادة على هذه الكآبة الجِبِلِّية فيهم، فإن كبرياءهم كانت تبعدهم عن غيرهم من الرجال لشعورهم بأنهم أسمى منهم. وكان ينقصهم هذا الحب للناس (Philanthropie) الذي كان الإغريق يتمدحون به. وبالطبع، لا يجب أن نبالغ في هذه الأحوال الفكرية. فلقد قلنا إنهم لم يكونوا يمتنعون عن الزواج بالأجنبيات، وأنهم لم يكونوا يجعلون الحياة قاسية جدا على العبيد القائمين بخدمتهم، وأنهم في علاقاتهم التجارية كان لابد لهم أن يبدو البشاشة لزبنائهم الذين لا يستطيعون استغلالهم بمكر. ولكنهم كانوا يرون معاملة رعاياهم بقسوة أمرا طبيعيا. وأنهم إذا كانوا يحبون السيطرة، فإنهم كانوا يرون مزاولتها حقا. وحتى الذين كانوا يداهنونهم من أجل المصلحة، كانوا يشعرون جيدا أنهم ليسوا صادقين. فالنفور منهم كاد يكون عاما، سواء أكان ذلك النفور مقدرا بحكمة أو فطريا.

الكتـاب الثاني

الأخلاق والمعتقدات

الفصل الثاني

الآلهـة

1

لكي ندرس ديانة القرطاجيين وغيرهم من فينيقيي الغرب، لدينا وثائق من أنواع مختلفة هي :

– النقائش الفينيقية التي تذكرأسماء المعبودات. ونرى أحياناً فيها الأسماء تُطلق على الآلهة غامضةً. وحتى إذا كانت أكثر دقة فليس من السهل التمييز بينها لمعرفة أنها أسماء شخصية، أو أسماء عامة، أو هي صفات أو ألقاب.

– العديد من الأسماء المركّبة بأسماء المعبودات Noms théophores التي حافظت عليها سليمةً النقائشُ البونيقية، كما حافظت عليها مع تحريف النصوص الإغريقية واللاتانية. فهي أسماء للرجال أو للنساء، ويدخل في تكوينها اسم أحد المعبودات، مثل عَبْدِ شْمون،

وإشْمونْيَطون Eshmounyaton أي إشْمون أعطاه (عطية أشْمون) يَطون سدْ Yatoncidسدْ أعطاه أي (هِبَة السيّد). لكن غالبا ما لا يذكر المعبود إلا بأحد الألقاب، مثل بَعْل Baal أي السيّد، وملْك Milk أي الملك. وفي هذه الحالة لا يمكن التأكد من معرفته مثل : شَفوت بَعْل Shafotbaal، أي بَعْل حاكمه، وملْكيَطون Milkyaton أي ملك أعطاه، وحنّيبَعْل Hannibaal أي الذي له حنان بَعْل وغير ذلك. وأحيانا فالمعبود يُشار له بضميره فحسب، مثل عبدو (عبده) وجِرو Gero (تابعه) وربما يُسْكَتُ عنه مثل مُتّون Muttun، أي (عطاء) وهو اختزال لاسم عَطاء بَعْل، وعَريشة أي (عريسة – أو عروس – بَعْل)، وهَنّو Hanno أي هناها، وبَرَك Berek أي باركه.

– والنوع الثالث أسماء إغريقية ولاتانية تطلقها النصوص على معبودات عبدها الفينيقيون الغربيون. وكان من عادة الإغريق والرومانيين أن يطلقوا أسماء آلهتهم على آلهة البلاد الأجنبية. ولنا على ذلك أمثلة شهيرة في هيرودوت Hérodote وقيصر César وتاسيتْ Tacite، فيما يتعلق بمصر وغاليا وجرْمانيا. وغالبا ما يستعصي أن نعرف بالتدقيق أي معبود فينيقي يختفي تحت هذه الأسماء المستعارة. وعلاوة على ذلك فالمماثلات تتغاير. فالإغريق، وتبعا لهم الرومانيون إلى حد ما، قد وجدوا أنفسهم أمام آلهة تختلف كثيرا عن آلهتهم. ولم يكن لهم وقت ولا حب للمعرفة الجيدة كما اعتادوا. وجدوا آلهة لا تظهر كآلهتهم بوظائف بيّنة، وبقسمات واضحة تكاد لا تتغير، ثبتها الفن والشعر. فلابد أنهم كثيرا ما احتاروا في الاختيار. أما الأسباب التي دفعتهم إلى هذا الاختيار فإنها تغيب عنا على العموم.

إن أهم نص يذكر آلهة قرطاجية متدثرة بأسماء إغريقية، هو النص الموجود في پوليب Polybe، المتعلق بالمعاهدة المبرمة سنة 213 بين حنّيبَعْل وبين سفير فيليپْ Philippe ملك مَقْدونيا. ففي هذه الوثيقة نجد حنّيبَعْل والقرطاجيين هم الذين يبينون مختلف المواد، ويتحدثون عن أنفسهم بصيغة الجمع، وهم الذين في البداية يقطعون على أنفسهم العهد باليمين، أن يحافظوا على المعاهدة. فواضح أن مختلف الآلهة التي تقوم شاهدا هي آلهة بونيقية. وهنا لا أهمية مطلقا لمعرفة هل هي في نفس الحين آلهة الزون الإغريقي Panthéon grec، إذا كان هذا النص نتيجة لذلك، يقدم لنا توفيقا حقيقيا Véritable Synchrétisme.

وهذه صيغة اليمين : «بمحضر زيوس Zeus، وهيرا Héra وأبُلون Apollon وبمحضر جِني Génie [86] القرطاجيين، وهيركْليس ويولاوُس Iolaos، وبمحضر آريس Arès وتْريتون Triton، وبوزَيْدون Poséidon، وبمحضر الآلهة الذين يحاربون معنا، والشمس والقمر والأرض، وبمحضر الأنهار والبحيرات والمياه، وبمحضر جميع الآلهة المشاركين في الحملة، والذين يترأسون هذه اليمين، فإن القائد حنّيبَعْل قال... إلخ». ولا يُعقل أن الآلهة المذكورين في ظرف بالغ الأهمية كهذا، يكونون قد اختيروا وذُكروا بالصدفة. ومن جانب آخر فقد كان من حول حنّيبعْل رجال قادرون على أن يترجموا بإتقان إلى الإغريقية نصّاً لابد أن أصله قد حرر بالبونيقية. إذن فهذه اليمين التي قدمناها اعتبرت وثيقة بالغة الأهمية في دراسة الديانة القرطاجية. ولكنها مع ذلك، لا تنسجم مع ما نعرف عن هذه الديانه. وهناك نصوص أخرى تخبرنا أن كْرونوس Cronos كان واحدا من أهم آلهة قرطاجة، وأن المعبد الثري لأسْكليپْيوس Asclepios كان يعلو مُشرفاً على المدينة إبان الحروب البونيقية. ولكن كْرونوس لم يُذكر

في اليمين وكذلك أسْكليپْيوس. ولا نعثر في مكان آخر على الأسماء الإغريقية التي هي يولاوُس، وآريس، وتْريتون واقعةً على آلهة لاشك قد عبدها القرطاجيون. بهذا يمكننا أن نؤكد أن مترجم المعاهدة قد استعمل التعريف بأسماء لم تكن مقبولة لدى الجميع. وبهذا المثال تتضح الصعوبة التي تواجه بحثنا.

– والنوع الرابع هو الآثار المرسومة. ولا نعرف شيئا دقيقا عن تماثيل المعبودات التي كانت منصوبة في المعابد. والنذور التي عثر عليها بكثرة ضخمة تحمل رسوما مختلفة، وسندرسها. فهي رموز إلهية وأدوات للعبادة وغير ذلك. وفي القليل النادر تبدو عليها الآلهة بشكل الإنسان. وتلوح على بعض النقود رسوم أغلبها لشخوص إغريقية، ولكنها دون شك تمثل آلهة فينيقية. ولا تذكر كتاباتها بأي اسم. وكذلك فإن أشياء صغيرة، منها دُمًى من الطين المشوي، وأحجار منقوشة، وتمائم وغيرها، قد عثر عليها كلها في المقابر، وتُبدي لنا أربابا وربّات بِسمات مشرقية أو إغريقية. لكن ليس أكيدا أن القرطاجيين أعطوا مدلوَلا دينيا لهذه الأشياء التي صنع أغلبها بعيدا عن قرطاجة، والتي من بينها ما هو زائف مستجلب.

– النوع الخامس هو الكتابات اللاتانية التي على الآثار المنقوشة في العهد الروماني، والتي عثر عليها في إفريقيا الشمالية، وبعض النصوص الأدبية المتعلقة بهذه المنطقة. ولدينا أسباب قوية إلى حد ما، للاعتقاد بأصل بونيقي للآلهة التي تعطيها الوثائق أسماء لاتانية وسمات مستعارة من الفن الإغريقي الروماني. ولكن للأسباب التي سبق ذكرها، كثيرا ما نكون في حيرة عندما نبحث لتشخيصها في آلهة قرطاجة الأولى. وكذلك يصعب التحديد بدقة للتغيرات التي أصابت كُنْهها عندما

استعارت اسمَ ووَجْه آلهة يعبدها الفاتحون. وفي أحوال عديدة أخرى، لا يمكن التبين هل نحن في تعامل مع إله روماني مستجلب، أو مع إله فينيقي متنكر، إذ غالبا ما يكون التمازج كليا حتى في فكر المتعبدين.

وهذه المعطيات تكملها فائدة النصوص والآثار المتعلقة بالفينيقيين المشرقيين.

فالمواد إذن لا تنقصنا، ولكنها من نوع مشكوك فيه أو رديء، ولا تسمح باستعادة التصور الكلي. ولم تصلنا معرفة أسماء بعض الآلهة وبعض طقوس العبادة إلا بعد مشقة. وعن طبيعة هذه الآلهة وعلاقاتها، فإننا لن نأتي إلا بافتراضات واهية جدا. وليس باستطاعتنا أن نتتبع التحولات في العقائد والشعائر خلال تاريخ قرطاجة الطويل. أما الآثار الفكرية المقدسة، فلم يصلنا منها شيء، إلا إذا أدخلنا في الاعتبار تعريفات القرابين التي أصابها التشويه قليلا أو كثيرا، وبقية من نقيشة يبدو أنها كانت كتاب طقوس لاحتفال كبير. ولا نعرف شيئا عن الترّهيات Mythes. بل ليس لدينا بالنسبة للقرطاجيين حتى ما يعادل الفقرات المتعلقة بنشأة الكون Cosmogonie، التي عزاها للفينيقيين المشرقيين أحدُ المزوّرين للعهد الإمبراطوري، وهو فيلون الجبيلي (فيلون بِبْلوس) Philon de Byblos.

2

تحتل الديانة مقاما كبيرا في الحياة العامة والخاصة للقرطاجيين. فقد كان لهم رجال الدين الرسميون الذين يختارون من العائلات الأولى من بين الرجال المتقلدين للمناصب العليا. وكانت الدولة وكبار القادة

يقدمون للآلهة القرابين بأبهة. كما أن سفارات كانت تحمل إلى كبير آلهة صُور – التي هي أمّ قرطاجة – الولاء وهدايا المدينة. وكانت الآلهة تنتصب شاهدة في المعاهدات التي تعقد مع الشعوب الأخرى. وكانت السلطات تنظم العبادة، وتقيم المعابد، وتُدخل المعبودات الأجنبية. ولكي يضمن الآباء لأبنائهم الحماية الخاصة بأحد الآلهة، فإنهم يسمونهم باسم متكون من اسم هذا الإله. وكانت التمائم تكسو الرجال والنساء. والموتى كانوا يمثلون على الأنصاب التي تعلو قبورهم وهم في حالة تعبد، وكذلك على أغطية التوابيت التي تضم بقاياهم. والآلاف من النذور تشهد بكثرة الرغبات المرفوعة إلى تانيتْ بني بَعْل وإلى بَعْل حمون مع شكر المؤمنين، وقد كان هؤلاء المؤمنون ينتمون لكل المستويات من الصناع إلى السوفيت Suffètes وأسمى أهل قرطاجة – وهو حنّيبَعْل – كان قبل القيام بحملته العظيمة، قد ذهب يرجو عَوْن هِرْكول Hercule، (أي مِلْقارت) في المعبد الشهير بجزيرة قادس Gadès. وكان خبيرا في علم الاطلاع على المستقبل بتفتيش أحشاء القرابين. وكان يصدق أخبار السماء التي يتلقاها في الأحلام. وقبيل سقوط قرطاجة، أعلن حسدربَعْل القائد المكلف بالدفاع عنها، أنه يجعل أمله في إغاثة الآلهة على الخصوص.

ولا شيء يسوغ الإصرار على أن التديّن عند القرطاجيين كانت تصحبه مشاعر أخلاقية سامية، كما لا يمكن التأكيد كذلك بأن هذا التدين قد اتخذ شكل التصوف. وبعض أسماء الأشخاص تشير إلى علاقات نسب بين الآلهة والناس [87]، لكن في أكثر الأحوال هي أسماء تدل على أن الإنسان هو خادم، عبد للمعبود، وأنه عطاء منه [88]، وكثيرة هي الأسماء التي تدل بصفة أو بأخرى على أن سعادة الإنسان

هي هبة من الفضل الإلهي. والآلهة تتصرف كما تشاء في البشرية الضعيفة. فهي تبعث لهم الخيرات والشرور. ولا يعرف الدين الفينيقي الثَّنَوية Dualisme [89] ولابد من الحصول على العَوْن، أو لابد على الخصوص من تنكب غضب هؤلاء الأسياد المتشددين الصارمين. إذ أن الخوف منهم أشد من حبهم. والقرطاجيون يتضرّعون أمام أربابهم، ويقدمون إليهم رغباتهم، فإذا استجابوا لهذه الرغبات أجزلوا لهم الحمد والشكر. وأقاموا لهم المعالم، شهادة دائمة بالاعتراف الواجب عليهم للأرباب. وإذا أرسلوا الشرور فإن الحماس المتجهم الكئيب يضاعف من الصلوات والهبات والقرابين. ولاشك أن القرطاجيين لم يعتقدوا، كما اعتقد المصريون، أن المعبود يمكن أن يرغم على الاستجابة بالأداء الدقيق للطقوس التعبدية. ولكنهم كانوا يؤمنون بنجاعة العبادة. والشعور العميق بالقدرة المطلقة التي للآلهة، لم توقع هذا الشعب النشيط المجد في الرضاء المستسلم للقدر.

عند الفينيقيين المشارقة، كانت كل مدينة لها آلهتها الخاصة بها. فهي تسود المدينة وتحميها، وتُعرف الآلهة أحيانا باسم المدينة، فيقال مثلا : Baal Cidon بَعْل سيدون (سيّد صَيْدَة) بَعْلَتْ جَبَل Baalat Gebal (سيّدة بِبْلوس - أي مدينة جبيل -)، مِلْقارْت بَعْل صُور Melqart Baal çôr (ملك المدينة، سيّد صُور). لكن رغما عن تنوع الطقوس وتنوع أسماء الآلهة كذلك، فإن بعضا من هذه الآلهة يمتّ للبعض الآخر بقرابة متينة، أو إن الإله هو هو ذاته. وذلك إما لأن عموم أجداد سكان هذه المدن قد عبدوا تلك الآلهة قديما، وإما بسبب عملية اقتباس عن أصل واحد، أو تأثيرات متبادلة قد قربت بينها. ففي مختلف المدن نجد ربة للخصب، وهي أم ومرضعة تعطي الحياة الحيوانية والنباتية وترعاها. ونجد إلها

دائما وخالدا، هو الذي رأى الإغريق فيه زِيوس، أو كْرونوس، والذي يبدو في عدة أمكنة على الأقل، أنه رب السماء أو رب الشمس. رب يموت في كل سنة ويعود للحياة. ينام ويتنبه. هو روح النبات الذي يخرج من باطن الأرض في الفصل المطير ويذبل بحرارة الصيف. هو روح الشمس التي تفقد قوتها وتستعيدها على التعاقب. فكان إذن لهذه الآلهة طبيعة مزدوجة. فهي كونية ومحلية. كانت هي الكائنات المسيطرة التي تحرك القوات الكبرى في الطبيعة، وهي السيدة أيضا وبيدها الملك في المدن. وعلى تلك الحال كان الأمر عند الفينيقيين الغربيين. فإله إحدى الجزر الصغيرة المجاورة لسردانية يلقب في إحدى النقائش بأنه : «رب سماوات جزيرة الصقور».

ونظرا لأن مدنا مختلفة بفينيقيا قد ساهمت في تعمير وتكاثر المستعمرات بالغرب، وعلى الخصوص مدينة قرطاجة العظيمة، فلابد أن آلهة متعددة قد هاجرت مع الناس. أي آلهة تتشابه بطبيعتها كثيرا، وإن كانت تختلف في اسمها، أو على الأقل في أوصافها، وأكثر من ذلك في العبادة التي تُؤدّى لها. ويحتمل أن البعض منها لم تلحقها تغيرات جوهرية. على أن ظروفا خاصة أمكنها أن تحدث في غير هذه تغيرات عميقة إلى حد ما، وتخلق هكذا معبودات جديدة ظاهريا، وبدون أن تمحو القديمة من الوجود. وبدورها فإن الآلهة المعبودة في قرطاجة قد انتشرت. فكان إذن من المنتظر أن نلاقي في الغرب معبودات كانت من قبل متماثلة، ولكنها لما تغايرت عاشت جنبا لجنب.

والديانة الفينيقية في وطنها الأصلي استعارت من ديانات أخرى. فالآلهة الأجنبية قد أعارت أحيانا لبعض الآلهة الوطنية بعض الخطوط من صورتها، وبعض صفاتها أو رموزها، وبعضا من وظائفها. وأحيانا

أخرى كان يقع اعتمادها بشكلها الأجنبي، بدون أن تمتزج على ما يبدو بمعبودات القوم الذين تقبلوها. فمثلا الاعتقاد بأن الآلهة الكبرى تقيم في السماء قد انتشرت على ما يحتمل عند الفينيقيين بتأثير من بابِلونيا Babylonie. ومن مصر استعارت فينيقيا قرص الشمس المجنح وعلى جانبيه ثعبانان. ومن عهد باكر وقع تشخيص ربّة جبيل بالمصرية حَتْحور Hathor. وهي التي يقدمها، مشخّصة في إيزيسْ - حَتْحور، نصب في بِبْلوس يرجع تاريخه للعهد الفارسي. وهِرْكول قادِس الفينيقي يوصف بالمصري في عدة نصوص. ولربما أن بعض الخاصيات من طقوس كانت تذكر بمصر. ومن ناحية أخرى فإن إيزيس وأوزريس قد عبدهما الفينيقيون باسميهما الحقيقيين، وأيضا بشكلهما المصري.

وسنرى أن تأثيرات إفريقية وقعت على القرطاجيين، وأنهم استعاروا من الإغريق. وكثيرا ما نهبوا ودنسوا وهدموا معابد أعدائهم. غير أنهم كانوا لا ينكرون قوة الآلهة الأجنبية، ويؤدون لها الاحترام عندما تدعوهم لذلك المصلحة أو الخوف. وقد قدموا الهبات إلى جوبِتير الكابتولي Jupiter du Capitole وإلى أُبُلون ديلوس Apollon de Délos. واستفتوا عراف دلفة Delphes. وفي إيطاليا ذهب حَنّيبَعْل ومعه قسم من جيشه إلى بحيرة أفيرني Averne ليقيم احتفالا بتقديم القربان، وأدى التحية إلى يونون Junon التي بالرأس اللاسيني Cap lacinien. وقد أقامت قرطاجة أحد المعابد ترضية لديمتير Déméter ولابنتها الغاضبة من أحد أعمال التدنيس. ولما اتخذت آمون Ammon كبيرَ آلهة الليبيين، فإنها ربما كانت تبحث عن استمالة رب الأرض التي استولت عليها.

وفي أسفل من الآلهة العظمى الوطنية أو الأجنبية، التي كانت العبادات الشعبية تتوجه إليها، كان عدد لا يحصى من العفاريت الشريرة Démons يملأون الكون، ويستطيعون التدخل في شؤون الناس. فكان لابد من منعهم من الإساءة والتصون منهم بالأحجبة والحروز.

وحدث بين الآلهة نوع من الترتيب التصاعدي الذي يدخل في اعتباره، ليس فحسب قيمتها في تدبير الكون، بل زيادة على ذلك الدور الذي يعزى لها في حماية المدينة. وهذا الترتيب كان إذن يتغير بحسب المدن. ففي قرطاجة كانت تانيتْ بني بَعْل متقدمة على بَعْل حمّون. وفي قيرْطا (سيرتا Cirta) كان النقيض. هل أرادوا أن يقننوا المعتقدات، وأن يجمعوا في نظام متسق هذه الكثرة من الآلهة ؟ وأن يقربوا بين ما هو متشابه منها ومتماثل ؟ إن هذه الأسئلة قد تكون مهمة علماء اللاهوت أو الفلاسفة. وما كانت لتؤثر على الشعب الذي كانت الطقوس تشغله أكثر من التصورات الفكرية. ولا ندري هل وقع الشروع فيها أم لا. وهل سما بعض القرطاجيين إلى فكرة إله أعظم، ليست الآلهة المختلفة سوى مظاهر وأحوال منه ؟ ليس لدينا عن ذلك أي برهان. ولا شيء كذلك يشير إلى وجود ميل لوحدة الوجود في الدين الفينيقي. فهو يميّز تمييزا قاطعا بين الطبيعة والمعبودات.

غالبا ما كان المؤمنون يجمعون عدة آلهة في تعبدهم. وأحسن مثال لهذا هو الاشتراك الثنائي المكون من تانيت بني بعْل، وبَعْل حمّون اللذَيْن أهْدِي لهما العديد من النذور بقرطاجة، ويعثر عليهما بأماكن أخرى. وفي معبد مزدوج بالعاصمة نجد ربتين كانتا تُعبدان، هما : أشْتارت Ashtart وتانيتْ لبنان Tanit du libanon. وهناك نقائش تعرفنا باشتراكات لم تفسر تفسيرا مقنعا، هي إشْمون أشْتارت وسِدْ تانيت وغيرها. وفي

المعاهدة المعقودة بين حنّيبَعْل وفيليب ملك مقدونيا فالآلهة المدعوة تذكر ثلاثة ثلاثة.

وهناك صفيحات اكتشفت في قرطاجة، وأنصاب وجدت في هَدْروميت، وبالكنيسية قرب هدروميت، وفي ليلبيي، وأخيرا في سردانية يرى عليها ثلاثة أعمدة قائمة على قاعدة مشتركة، والعمود الأوسط منها أطول من الاثنين الآخرين. إنها صور لأحجار مقدسة، قيل عنها إنها تشير لثلاثة من الآلهة المتحدة اتحادا متينا، وأحدها أعظم من صاحبيه. وأنصاب هَدْروميت التي تعرض مجموعتين أو ثلاثا، بكل واحدة ثلاثة أعمدة، تشهد ربما بالعبادة في حين واحد لثالوثين أو لثلاثة ثواليث(90). وهذا افتراض لا يجب تقديمه على أنه حقيقة مبينة. وفي حالة قبول ذلك، لا يمكن استنتاج أي شيء عن طبيعة وعلاقات الآلهة التي تعرضها الأعمدة، إذ ليس هناك نقش ينير السبيل.

هل بعض الثنائيات كانت مكونة من زوجين ؟ وهل بعض الثواليث Triade كانت مشكلة على غرار ما جرى به العمل كثيرا في مصر بصورة العائلة الإنسانية من أب وأم وابن ؟ إننا نجهل ذلك. هل كان في قرطاجة – كما أكد البعض – ثالوث يعلو كل الزون Panthéon، ويتكون من تانيت بني بَعْل، وبعْل حمّون وإشْمون ؟ إن تانيت وبَعْل حمّون ربما كانا في المدينة أهم آلهتها. وكذلك كان لأشمون بها مقام مهم. ومع هذا فإنه لم يذكر ولو مرة واحدة مع هذين المعبودين على الأنصاب التي لا يحصى عددها والتي كرست لهما. وقد جرى الحديث عن مآثر إفريقية أحدث عهدا، ولكن لا محل للاعتقاد بأن إشْمون ممثل فيها بثعبانين أو بنجمة، بجانب وجهي بَعْل حمّون وتانيت. وما يدعى من وجود ثالوث أعلى فإنه لايبدو في أي مكان.

وكل ما يمكن قوله في الحالة الراهنة لمعلوماتنا، هو أن فينيقيي الغرب، مثل عدة شعوب أخرى، قد أحبوا وأشركوا معبودين أو ثلاثة في صلواتهم وأيمانهم أو في حفلاتهم الدينية وداخل معابدهم.

فكانت الازدواجات Couples والثواليث Triades إطارات يدخلون فيها مختلف الآلهة. والأسباب التي دفعت لهذه الاشتراكات تبقى خفية عنا.

قبل استعراض المعبودات القرطاجية، سنشير لبعض الأسماء العامة ولبعض الصفات التي كانت مشتركة بين العديد منها. فكثيرا ما كانت هذه الصفات تُطلق ويُكتفى بها، لأن الذين كانوا يستعملونها، كانوا يعرفون جيدا إلى من يوجهون شكرهم. ولربما كان الورعون يعتقدون أن الأولى هو السكوت عن ذكر الاسم الخاص للمعبود، مثل العبرانيين الذين كانوا يمتنعون عن النطق باسم يَهْوه Yahwé ويستعيضون عنه بِأَضوناي Adonai (سيدي) لأن صفة التمجيد تدل على الاحترام الفائق. فكانوا يتركون الأجانب يجهلون الاسم الحقيقي، والأعداء الذين قد يستعملونه أسوأ استعمال، وحتى بالنسبة للمؤمنين، فإن هذا الاسم يختزن قوة هائلة، ومن الحصافة أن يبقى محفوظا.

ولفظ 'ل، إِل، إيل L, El, Il'، كان معناه "الإله". ففي مدينة بِبْلوس الفينيقية (أي مدينة جبيل) كان يقوم مقام الاسم العلم لمعبود شخّصه الإغريقي في كْرونوس Cronos. ولا ندري أن الأمر كان كذلك عند الفينيقيين الغربيين، حيث لا يبدو «إِلْ» سوى في اسمين مركبين باسم المعبودات Théophore، وربما يكون أصلهما من ببلوس.

والمؤنث 'لت، إِلَتْ، إيلَتْ، أي أَلّات يوجد في منقوش من قرطاجة، ويعسر القول هل يعني فحسب "الإلهة Déesse" أو هل يصاحب اسماً علَماً. وهو على نقشين قرطاجيين آخرين يقع بالتأكيد على إلهة بعينها. فالأمر يعني كاهن اللاّت، ورئيس كهنة اللات. وكذلك الكتابة التي عثر عليها في سولْكي Sulci بسردانية هي إهداء معبد أقيم للسيدة ألّلات Dame Allat. وكذلك في الأسماء المركبة من المعبودات أَمَتَ اللاّت Amatallat (أَمَة اللات) حوتاللاّت Hotallat (أخْت اللاّت). لكن يمكن التساؤل : هل هذه «اللاّت» لم تكن هي نفس الإلهة التي دعيت باسم آخر في جهة أخرى ؟

وصيغة الجمع 'لم Lm'، إلِمْ Elim، إيليم Ilim، لا تقع حتما على عدة كائنات إلاهية، إنها لفظ يمكن أن يصاحب اسم إله واحد، أو إلهة واحدة، كما في العبرانية، حيث لفظ الجمع إللوهيم Elohim يصحب أو يحل محل اسم يَهْوِه Yahwé. فاللفظ إذن يدل بصفة مبهمة على «الألوهية»، ويكون في الأسماء المركبة مع أسماء المعبودات Théophores. ونجده في تعابير مختلفة يكون فيها هو اللفظ الثاني مثل : أَمَتْ إيليم Amat Ilim (خادمة الألوهية) گلابْ إيليم Gallab Ilim (حلاق الألوهية). مَقام إيليم Maqam Ilim (مقيم – أي الباني – للألوهية). ميرزاح إيليم (جماعة الألوهية) أي الجماعة الدينية Mirzah Ilim. نصيل إيليم Nasil Ilim (هدية – صلَة – للألوهية). وفي مكان آخر قد استعمل وحده. مثلا للأكواب الرصاصية الصغيرة التي اكتشفت في قرطاجة وعليها نقش لـ 'لمL'LM أي للألوهية، ومعناه أن تلك الأشياء هي مكرّسة للآلهة.

ولفظ 'لن LN'، إلون Elôn، ألون Alôn، ويدعى صيغة مبالغة أو تفخيم لكلمة إل، وهو موجود في الاسم المركب إيهو إلون Yhou elôn

حيث له مكانة الاسم العَلَم، وفي نقيشة من قسطنطينة قد استعمل صفة لِبَعْل.

أما B'L أي Baal بَعْل فهو اسم عام يمكن أن يطلق على الناس وعلى الآلهة. ومعناه "ملك، وسيّد" ومؤنثه بَعْلَتْ Baalat بعْلة ودائما لابد له من مبين أي تكملة توضح الشيء المملوك، كَبَعْل شميم Baal shamim (سيد السماوات) ملْقارْت بَعْل صُور Melqart Baal çôr (ملقارت سيّد صور) بَعْل قَرْنايم Baal qarnaïm (بَعْل القرنين أي جبل القرنين)، وهو الذي أصبح في العهد الروماني يدعى سَتورْنوس بَلْكَرَنانْسيس Saturnus Balcaranensis. ولكن التكملة المبينة يمكن أن تكون مضمرة، كما هي فعلا في عدة أسماء مركبة باسم المعبود، كما في أزْروبَعْل Azroubaal، وحنّيبَعْل Hannibaal، وبَعْل يطون Baal yaton، وبَعْل هانو Baalhanno، ومُتون بَعْل Muttun Baal، ومَهار بَعْل Mahar Baal وغيرها. ولاشك أنه هنا يعني السيد، الإله الأكبر للمدينة التي ينتمي لها من تطلق عليهم هذه الأسماء عند ولادتهم. ويظهر اسم بَعْل كذلك في إهداءات راجعة لعهد متأخر، يدل بعضها بالتأكيد وبعضها يدل باحتمال، على بَعْل حمون. وهو يترجم في اللاتانية باسم ضومنوس Dominus، الذي كان في القرون المسيحية الأولى وصفا غالبا ما يطلق على ستورنوس الإفريقي Saturnus، الإله ذي الأصل البونيقي. بل كان ضومنوس أحيانا يستعمل منفردا ويطلق على ساتورن Saturne.

ويمكن أيضا أن هذا اللفظ اللاتاني يقابل 'دن 'DN أي أَضون Adôn (السيد) وهو صفة تشريف تطلق على مختلف الآلهة : على بَعْل حمون في نذور قرطاجة وقسنطينة ومَكْتار، وقالمة وغيرها. وهو قلّما يذكر وحده في الأسماء المركبة باسم الآلهة التي يطلق فيها على إله بعينه.

ونحن نعلم أن الإغريق كانوا يطلقون أضونيس على أحد آلهة ببلوس (جبيل)، وذلك إما لأنهم اتخذوا الصفة وتركوا جانبا الاسم الحقيقي، وإما لسبب أكثر احتمالا، هو أن فينيقيي هذه المدينة يكونون قبلهم اعتادوا استعمال الصفة بمثابة الاسم العلم. وبعض النقائش من إفريقيا الشمالية تظهر أضون Adon أو أضونيس. فلربما أنه ليس أضونيس ببلوس، بل إنه إله بونيقي كان في بعض الجهات يسمى بوصفه فحسب. وهو أضون أو أضوني Adoni. ويمكن أن نفترض أنه هو بَعْل حمّون الذي كان عادة يدعى ستَورْنوس في الإهداءات اللاتانية.

والصفة ربت RBT أي السيدة ربّة Rabbat، كانت تسبق اسم العديد من الإلهات، وكان استعمال هذه الصفة في قرطاجة باستمرار على النذور المكرّسة لتانيت بني بَعْل. وهي على ما يظهر اسم هذه المعبوده الأكثر تقديسا من بين الإلهات. كما أنها صفة مضمرة في عدة نقائش، وفي اسم مركب باسم المعبود، حيث إن لفظ ربت، أي (السيدة) مستعمل وحده.

ولفظ ملك Melek، ملْك Melk وميلْك Milk، (MLK أي ملك Roi)، وملكت، أي (ملَكة Reine) يكثر ذكره في الأسماء المركبة باسم المعبود، مثل : ملك يطون Milk yaton، عبْد ملْك Abdmilk، وحيمِلْك، وحيملْكَت، وحوتْملْكَت، وأمَتْ ملْكَتْ وغيرها. وملْقارْت اسم بصيغة مختصرة عن ملِك قرْت Milk qart أي ملَك القرْية بمعنى المدينة. وهو اسم يطلق على الإله الأكبر لمدينة صور Tyr. وقد شخّصه الإغريق في هيركْليس. ويحسن التسليم بأن الأسماء المركبة في اسم المعبود بمدينة صور، قد كان لفظ ملَك Malek فيها يمثل ملقارت. ويمكن أن هذه الأسماء عندما هاجرت إلى قرطاجة، فإن ملك Melek وميلك Milk استمرّا يقعان على ملِك أمّ

الوطن (صُور) الذي كان دائما يلقى إجلال القرطاجيين. أما مِلْكَتْ فيمكن أن تمثل أسْتارتي Astarté أو أن تمثل في قرطاجة تانيت بني بَعْل Tanit Pené Baal. وعلى نقيشة بونيقية يبدو هذا الاسم، ولا ندري جيدا هل هو صفة تصحب إحدى الإلاهات، أو يدل هو وحده على أحد المعبودات.

إن ت ن ت TNT (وهو TYNT كما على بعض الأنصاب بقسنطينة) يعتبره جل العلماء اسماً علماً، اتُّفِق على كتابته تانيت Tanit، والنطق به مجهول. وهذا الرأي يمكن أنْ لا يكون له أساس، إذ على النذور القرطاجية، لا تستعمل كلمة تانيت منفردة، وهي دائما متبوعة بكلمتي «بني بَعْل». وكذلك فإن تانيت بني بَعْل، لا «تانيت»، هي المذكورة في نصوص عثر عليها في قسنطينة وغيرها. ومن جانب آخر، لقد جرى بناء معبد مزدوج في قرطاجة لـ : «أشْتارْت Ashtart ولِتانيتْ لُبنان Tanit du libanon». ومن المشكوك فيه أن تكون «تانيت لبنان» المذكورة بعد «أشتارتي Ashtarté» هي «تانيت بني بَعْل» التي يبدو أنها كان لها مقام الصدارة بين المعبودات البونيقية. وقد كان يوجد بقرطاجة معبد لـ : «سدِ تانيت ميارات Cid Tanit Méarat». وهذه الألفاظ الثلاثة غامضة جدا. بحيث إذا كان الأمر يتعلق بتانيت كانت تُعْبَد بحيّ ميگارا Mégara، فلا يجب أن تختلط بتانيت بني بَعْل التي على ما يحتمل كان لها معبد بوسط المدينة. وبهذا فنحن مدفوعون إلى التسائل هل «تانيت» لم يكن اسما عاما، أو صفة أطلقت على إلهات مختلفة ؟ و«تانيت» يدخل في العديد من الأسماء المركبة مع المعبودات، ولكن لا يمكن استنتاج شيء من صفات (بَعْل ومِلْكَتْ وغير ذلك) ولا من أسماء الأعلام (إشْمون وسَكّون وغير ذلك) التي تمثل آلهة بهذه الأسماء. وهو لا يوجد مطلقا إلا بالغرب. ولربما أن أصله ليس فينيقيا. وختاما، فإننا لا ندري مدلوله.

وفي إفريقيا يوجد اسمها على نقائش بونيقية أحْدَث عهداً: في بئر بورَكْبة قرب الحمّامات، ويأتي بعد اسم بَعْل في إهداء لمعبد مزدوج. ويوجد بقسنطينة مذكورا بعد اسم بَعْل حَمّون على عدة أنصاب. وقلما هو فيها مصحوب بصفة (رَبّة Rabbat) التي تتقدم على اسمها في قرطاجة. كما عثر عليه بالكنيسة قرب سوسة مذكورا بانفراد على أحد الأنصاب. ويسوغ افتراض أن عدة نذور في مالطة، مشابهة للتي في قرطاجة، قد حملت إلى الجزيرة في عهد قريب منا جدا. كما أن نصبا آخر اكتشف بالقرب من بالرِّم Palerme، ربما هو أيضا صنع بالعاصمة الإفريقية وبعث به منها إلى صقلية منذ العهود العتيقة. وقد نقش إهداء للإلهة على وعاء صنع في إيطاليا الجنوبية، ويمكن أنه مر بقرطاجة قبل الوصول إلى نورا Nora بسردانية التي اكتشفت بها قطعة منه.

لا توجد أي نقيشة فينيقية شرقية تذكر تانيت بني بَعْل. فهي بهذا الاسم، وبقدر ما يبدو، معبودة بونيقية خاصة. وهي على ما يظهر قد دخلت أمكنة مختلفة بالغرب بواسطة القرطاجيين أو بتأثير من حضارتهم، ولم تحرز في كل مكان على المقام الأول.

إن التعبير الذي نكتبه بني بَعْل Péné Baal يكتب دائما : PNB'L ويكتب أحيانا P'NB'L، وPN'B'L وPN'B'L وP'N'B'L فأما أن B'L يمثل بَعْل أي السيّد الإلهي فذلك ما لا ينكره أحد. والحروف المذكورة آنفا يقع الاتفاق على أنها تطابق الاسم الفرنسي بمعنى الوجه Face. ولكن ما المعنى الحقيقي لكلمة (وجه بَعْل) ؟

يرى فيه البعض اسما لمكان. بإثارة الانتباه إلى أن الساحل الفينيقي كان به مكان يدعى بالإغريقية θεου Πρoδωπον (أي وجه

الإله)، ولاشك أن هذه ترجمة لتعبير سامي. وهذا التعبير كان موجودا في العبرانية، هو بينوإل Penouel، أي (وجه إل)، وهو اسم أطلق على موقع خلف نهر الأردن لأن المعبود ظهر به. إذن فيجب أن يترجم إلى (تانيت الْبني بَعْل). بل ظن البعض أن بالإمكان تعيين موقع هذا (الْبني بَعْل). وأنه هو جزيرة Προδωπον كما في معجم إتيان البيزنطي. وهي الواقعة حسب هذا الكاتب غير بعيد من قرطاجة. فزَمْبرة Zambra وزَمْبريتة Zambretta أي جزائر الجامور Aegimures عند القدماء بغرب الرأس الطيب، وجزيرة پْلان Plane بشرق رأس سيدي علي المكّي، كلها هي الجزر الصغيرة الواقعة قرب المدينة. ولكن هل إن واحدة من هذه الصخور المنبتة بمدخل خليج تونس، استطاعت أن تكون مركزا دينيا مهما، أن تكون مهدا لأهم عبادة بقرطاجة ؟ وإذا كان لفظ بني بَعْل Penébaal حقيقة اسم مكان فقد نحاول البحث عنه في قرطاجة نفسها حيث معبد الإلهة كان مقاما.

ويرى الغير أن بني بَعْل هي تسمية إلاهية، هي بدل من تانيت، وأن تانيت هذه يمكن بهذا تمييزها عن تانيت غيرها، كما في تانيت لبنان Tanit du libanon. إذن فالآراء تختلف في المعنى الدقيق لكلمة بني بَعْل. فتارة يقترح التأويل بـ «التي تواجه بَعْل»، التي صورتها موضوعة تجاه صورة بَعْل في عبادة مشتركة. وأحيانا يقبل أن «بني بَعْل» معناه الحقيقي «وجه بَعْل». وبهذا فالإلهة تكون مظهرا أو كصورة للإله مثل أسْتارتي Astarté بقولهم إنها شِمْ بَعْل Shem Baal (اسم بَعْل) في إحدى النقائش بصَيْدة. ولكن ليس مؤكدا أن SMB'L كان له هذا المدلول. ومن جهة أخرى فإن «تانيت» كان لها بقرطاجة الصدارة على «بَعْل» المشارك لها. فهل ألصقوا بها وصفا يجعلها تابعة لبَعْل، أي يجعلها

كمظهر للإله ؟ إن الموضوع يبقى غامضا جدا. وإن النعت بالموقع الجغرافي لينتقل كما ينتقل النعت أو الصفة الطبيعية. وإذا كان الأمر يتعلق بمكان هنا، اسمه بنبَعْل Penébaal هو المهد أو المركز لعبادة الربة، فليس غريبا أن يعثر عليه في سرِطْا Cirta أو بغيرها، كالعثور اليوم على بعد مائة فرسخ من أرض المسيحية على كنيسة Notre Dame de Lorette أي سيدة لوريت.

إن النذور التي تذكر اسم «تانيتْ بني بَعْل» لا تخبرنا تقريبا عنها بأي شيء. وإشراكها الدائم مع بَعْل حمّون ليس حجة قاطعة على أنها كان ينظر إليها كزوجة لهذا الإله. وهناك صيغة خاصة يقدمها لنا نصبان قرطاجيان. فعوض : «إلى السيدة، إلى تانيت بني بَعْل، إلى السيد، إلى بَعْل حمون»، فإننا نقرأ فيهما : «إلى الأم، إلى السيدة، إلى تانيت بني بَعْل... إلخ». ونقرأ كذلك : «إلى الأم، إلى السيدة بني بَعْل... إلخ». فإذا كان لفظ الأم يعني إلهة غير تانيت، فالكتابة تكون على ما يحتمل «إلى الأم وإلى السيدة... إلخ». ولا يوجد أي نصب يذكر معبودة ثالثة. وإنه لعجب شديد أن ربة كانت لها الصدارة على تانيت، ولا تُذكر إلا قليلا، بينما ذكرت «تانيت» آلاف المرات. فهذه الأخيرة إذن هي الموصوفة بأنها أم. وفي وسط العديد من الأنصاب، أقيم عمود يحمل رمانة، هي بهذا المكان الشرفي رمز إلهي. ثم إن الرمانة التي تضم بداخلها العديد من الحبات قد كانت رمزا للخصب. وهي هناك لا ترجع إلا على المعبودة المذكورة في النقائش. والخلاصة هي أن تانيت بني بَعْل كانت تعبد على أنها الأم الخصبة.

وكثيرا ما جرى التأكيد على أنها ربة قَمَرية. واللفظ الدال على القمر مذكر في العبرانية وفي الفينيقية دون شك أيضا. وفي آسيا

الغربية كلها كما في مصر كان كوكب الليل (القمر) يعزى لآلهة ذكور. لكن المعبودات لدى الفينيقيين كانت كما نعلم تبقى متميزة جدا عن قوى الطبيعة. ولهذا فليس مستحيلا إذن أن يكونوا عزوا سيادة هذا الكوكب إلى إحدى الربّات. ففي سوريا وبشمال إفريقيا، أي المناطق التي يقل فيها نزول الأمطار خلال قسم كبير من السنة، فإن الطل يحمل للنباتات النداوة اللازمة لها. غير أن هذا الطل ينزل في الأوقات الجلية التي لا يستر سحابها القمر. ولذلك كان القمر يعتبر أنه هو الذي ينتج الطل. فَتانيتُ بني بَعْل، وهي الأم الخصبة، وربة الكوكب الليلي الذي يرعى الحياة، قد أمكن أن تكون هذه وتلك في آن معا. ومع ذلك فيحسن الإدلاء بالبراهين : في نقيشة بلغتين من أثينا، نجد الاسم العلم «عبد تانيت Abd tanit» قد عبر عنه باسم أرتميدوروس Ἀρτεμιδωρος، ولكن لابد من معرفة تانيت هذه، الممثلة في أرْتميس، هل هي حقيقة تانيت بني بعَل ؟ وكذلك لابد أن نعرف هل أرتميس هذه كانت هي إلاهة القمر، أو غيرها هي الإلهة الأم من أصل مشرقي كأرْتميس أفْسوس Artemis d'Ephèse ؟ وفي مقال لِبْلوتارك Plutarque، حديث عن مكتوبات بونيقية تكون قد نجت من الدثور وأخفيت سرا عند الاستيلاء على قرطاجة. هذه الكتابات تحض خصوصا على عبادة القمر من بين الآلهة المرئية. لأن القمر يدبر حياتنا أكثر من الآلهة الأخرى. فإذا كان هذا النص يستحق الثقة، وذلك أمر مشكوك فيه جدا، فيمكن البحث فيه عن برهان على الطبيعة القمرية لأهم آلهة قرطاجية.

غالبا ما يكون بقمة الأنصاب القرطاجية هلال منقلب على قرص صغير. لكن إذا كان الهلال قمريا بالطبع، فلا شك أن القرص يمثل قمر التمام (البدر). ولكن ليس متأكدا أن هذا الرسم المزدوج قد وقع رسمه للدلالة على المجال أو المجالات التي كانت تانيت سيدة لها على الخصوص. فلربما أن الرسم كان مجرد إشارة للسماء وإلى أن تانيت،

ومعها بَعْل حمّون، يقيمان بها. بل ربما لم يكن للرسم حتى هذا المعنى، وأنه صار شعارا غامضا يُرمى به صدفة على الآثار الدينية. ففي المشرق الفينيقي كما بالغرب يوجد الرسم بجانب مختلف الآلهة، مثل هيرْكول أي (مِلْقارت)، وبِسْ Bès ، وإيزيس وحورُص Horus. ويشاهد كذلك على الأحجار النذرية في ليليبي وبشَرْشال حيث لا يتجه بالإهداء إلا لبَعْل حمّون.

ويشاهَد الهلال على نصبين إفريقيين، وقرناه منتصبان، وهو يطوق قرصه ويحملهما بعض الأشخاص. وبهَدْروميت امرأتان تبدوان بنصف البدن، وتكوّنان القسم الأعلى من عمودين يحملان بروزة سطح. ورغما عن الدور المعماري الذي تقومان به، فلابد من التسليم بأنها صورتان لمعبودتين، لأن رأسهما يعلوه القرص الشمسي. غير أن هذه العمرة (غطاء الرأس) توضح أن الربّة ليست قمرية على الخصوص. وفوق ذلك، هل كان النذر متجها إلى تانيت بني بَعْل ؟ لم تكن عليه أيّ كتابة. وفي قرطاجة امرأة مجنّحة، جعلت في مشكاة مقوسة. فيحتمل أن الإلهة المذكورة في الإهداء، أي تانيت بني بعْل تكون بهذا طبيعتها القمرية قد تأكدت بصفة واضحة.

ويبدو من صور أخرى كثيرة الوجود على الأنصاب، أنها تبرهن على أهمية القمر في الديانة القرطاجية. والشعارات المقدسة المعروفة باسم الكادوسي Caducées، تنتهي في أعلاها بنصف دائرة، هي حسب رأينا، الهلال القمري. كما أن الرمز الإلهي الذي يدعى علامة تانيت يعرض في قسمه الأعلى، إما دائرة طبيعتها يمكن المناقشة فيها، أو في غير الكثير يعرض هلالا قمريا مقلوبا. وعلى وجه الحقيقة فإن الكادوسي والشعار لم يكونا، أو إنهما على الأقل لم يمكثا رمزين لتانيت بني بَعْل.

وفيما بعد، تحول هذا الرمز إلى صورة بشكل إنسان يحمل أحيانا هلالا بيديه المرفوعتين، فبهذا لاشك يراد تمثيل أحد المعبودات. وبالعهد الروماني كما سنرى، إلهة مرسومة بجانب آمون Ammon. هي لاشك التي كان القرطاجيون من قبل يدعونها تانيت بني بَعْل. وكذلك الشأن مع كيلسْتيس Caelestis. على أن هلالا ينصب قرنيه خلف رفيقة آمون. وكيلستيس بدون نزاع كانت سيدة القمر. فهل ورثت هذه السيادة عن تانيت ؟ نحن نعتقد ذلك بسهولة حتى مع غياب البراهين الثابتة. وإذا كانت تانيت بني بَعْل كما يظهر، إلهة خاصة لقرطاجة، فيمكن الافتراض بأنها قد كان لها بعض الاقتباسات من معبود أهلي. لكن في القرن الخامس قبل الميلاد، أكد هيرودتُ أن جميع الليبيين كانوا يعبدون القمر والشمس كذلك. ومع أن اللفظة الدالة على القمر هي لفظ مذكر في لغتهم، كما في اللهجات البربرية، فالمعبود القمري ربما كان عندهم إلهة، بينما الشمس إله.

وأشْتارت Ashtart دخل في بعض الأسماء المركبة من أسماء المعبودات الكثيرة الاستعمال في قرطاجة. ويذكر أحد النذور امرأة تنتمي (لشعب Peuple) أشْتارت، وهي تبعا لذلك إحدى خادمات أشتارت. وعلى نصب آخر يظهر أحد خدّام أشْتارت هـ ' د ر ت Ashtart H'DRT، اللفظ الذي قد يعني (القوية La puissante). كما أن نذرين آخرين أهداهما خدام معبد ملك أشتارت، ولربما يحسن أن نفهم مِلْكَتْ Milkat أي الملكة، لكن سنرى أن تأويلا آخر جرى عرضه. وإهداء معبد مزدوج هو موجه إلى السيدة (أو السيّدتين)، إلى أشتارت وإلى تانيت لبنان. فهل الإشارة الطبوغرافية لاسم لبنان راجعة إلى أشتارت وفي نفس الحين تانيت ؟ وهل أشتارت هذه هي الإلهة الفينيقية الكبرى ؟ أم هي إلهة مشبّهة بها ؟

هذه كلها أسئلة لا تحمل جوابا صحيحا. واسم أشتارت بأحد الأحجبة يصحب اسم أحد الآلهة هو پِگْماليون Pygmalion، وسنناقش هذا النص الغامض فيما بعد. وختاما هناك نذرُ صاحبِه كاهنُ إشْمون أشْتارت أي إشْمون المشارك لأشتارتي.

إن أشتارت لاتبدو على أي نقش بونيقي اكتشف في إفريقيا، بخارج قرطاجة. وتوجد في مدينة گوزو Gozzo التي كان لها معبد بها. ولا فائدة في أن ندرس هنا النصوص والنقوش التي تذكرها في قبرص وفي فينيقيا نفسها. فقد كانت أهم إلاهات الفينيقيين. وأهمية عبادتها مؤكدة في صُور وصَيْدة، كما أن تعبير (سّيدة جبيل) كان يدل عليها في مدينة بِبْلوس.

إن الطقوس أمكن أن تختلف، لكنها عُبِدت في كل مكان مع الشعور بعبادة نفس الإلهة، أي التي بيدها النسل. وقد جرى الظن، على الأقل في الأعصر التاريخية، أنها كانت تقيم في السماء، وأنها كانت ملكتها. وإذا أمكننا الشك في أن نقيشة من صيدة قد أعطتها (السماء) أو أعطتها (السماوات)، أو الشك في أن النبي جريمْيا Jérémie وصفها (بسيّدة السماوات)، فمن المؤكد أن أشتارتي – أَفْروديت Aphrodite قد نالت عند الإغريق صفة «أورانْيا Oὐρανια» أي السماوية.

على أن كاتبَيْن من العهد الروماني يَجعلان أَسْتارتي ذات علاقة بالقمر. فأحدهما وهو لوسْيان Lucien يبدو أنه يشير إلى أن هذا الرأي ليس مقبولا لدى الجميع، بينما الآخر وهو هيروديْان Hérodien يتحدث عن إلهة عُبدت في إفريقيا في عهد الإمبراطورية، وهي كيلِسْتيس Caelistis اللاتانيّين. ويُحتمل، أياً ما كان رأي هيروديان، أنها لم يكن لها تمام

الشبه بأشْتارت الفينيقية القديمة. لقد قيل عدة مرات إن هذه الأخيرة كانت إلهة قمرية، ولكن لم يقع لذلك تأكيد مطلقاً. والقرنان اللذان تحملهما سيدة جبيل، في أثر يرجع تقريبا للقرن الخامس قبل الميلاد، ليسا قرنَي الهلال، بل هما قرنا بقرة يحيطان بالقرص الشمسي. إن غطاء الرأس هذا، (أي العمرة) التي أعطيت كذلك لأستارتي في صُور، هي مستعارة من الإلهتين المصريتين إيزيس Isis وحَتْحور Hathor. وفيما يتعلق بالغرب، يمكن أن نشير للنقوذ المسكوكة في جزيرة كولوس Gaulos (گوزو). فعليها يظهر رأس امرأة عار، أو عليه خوذة، ويحيط به هلال. إذن فالأمر هنا يتعلق بمعبودة قمرية، ولربما هي أسْتارت التي كان لها معبد بالجزيرة، وقد يكون معقولا اقتراح اسم تانيت بني بَعْل كذلك. هذه النقود لها تاريخ حديث جدا، متأخر عن السيطرة القرطاجية التي انتهى عهدها بگوزو في 218. وعلى إحدى العملات الإفريقية بكتابة بونيقية جديدة، ضربت دون شك في القرن الأول قبل الميلاد، يشاهد على وجهها رأس إله ذي لحية يعلوه نجم منير، وعلى ظهرها رأس إلهة منقبة، يعلوها هلال يحيط بالقرص. هذه السيدة للقمر، المقابلة بصفة بالغة الوضوح لسيدة الشمس، هل كان اسمها أشتارت ؟ تانيت بني بَعْل؟ لا نستطيع قول ذلك.

كان كوكب ڤِينوس Vénus في بابِلونيا ملكا لإشْتار إيريك Ishtar d'Erech منذ العهود العتيقة البعيدة. كما جرى الظن بأن هذا الكوكب كان قد أعطي لأستارتي الفينيقية. ولكن هذا الرأي لا يمكن أن يعتمد إلا على نصوص متأخرة جدا. ويجب أن لا نأخذ كحجة التشابه الواقع في اللفظين، تشابهاً قرّب الاسمَ الإلهي أشتارت ΑαΤαρΤη من اللفظ الإغريقي αστηρ أي الكوكب.

وعلى غرار إلهات أخرى بآسيا، مثل إشتار في بابلونيا وآشور، و«ما» Ma في قَپادوقْيا Cappadoce، و«عَنات» Anat في سوريا، و«اللاّت» Allat عند العرب الشماليين، و«نيت» Nit عند المصريين، فإن أسْتارت هي ربّة الحرب، على الأقل في بعض الجهات. فهل كان ذلك لِصَوْن عبّادها ؟ إني أجهل هل هذا التفسير صحيح، وعلى كل فغيره لَيس أحسن منه.

بعض النصوص الإغريقية واللاتانية تطلق اسم «هيرا» Hpa'، و«يونو» Iuno على معبودة قرطاجية أصلها مشرقي. وهي مذكورة بعد زيوس Zéus في بداية اليمين التي تعهد بمقتضاها حنّيبعْل ورفقاؤه بالمحافظة على المعاهدة التي عقدت مع فيليپ Philippe ملك مقْدونيا. وقد ذكر معبدها وكهنته. ويؤكد سرْڤيوس Servius أن الرومانيين في عهد الحروب البونيقية قد أدوا الشعائر الضرورية ليحرموا المدينة العدوّ من عونها. وعندما قرروا في سنة 123-122 إقامة قرطاجة من جديد، فإنهم أطلقوا اسم يونونْيا Iunonia على المستعمرة الجديدة. وفي ملحمة الإنْيادة l'Enéide للشاعر ڤرْجيل Virgile، فإن يونون Junon هي حامية المدينة، وجعلت فيها مقامها المفضل. وكانت ديدون Didon قد سارعت وأقامت لها معبدا كبيرا وجميلا. ويتحدث كل من سيسرون Cicéron وهوراس Horace عن يونون التي يقدسها الأفارقة جدا، وهي نفس الإلهة. والأفارقة – كما يبين سرڤيوس ذلك – قد أخذوها عن المشرق.

وكان ليونون Junon في مالْطة معبد مهمّ. وهي إلهة فينيقية قدم لها مسنيسا إهداء باللغة البونيقية. كما أن بعض الجزر تحمل اسم هيرا أو يونون، ورأس يونون Cap Junon، كانت كلها تقع بالغرب في جهات يتردد

عليها الفينيقيون. وهي مواقع مدينة باسمها ربما لنفس الإلهة. لكن يجب أن لا ننسى أن إلهات يعبدها الأهالي ربما قد اندمجت في هيرا الإغريقية أو يونون اللاتانية.

وهناك علامة ضعيفة تمكن من الافتراض بأن يونون الفينيقية هذه، قد كانت سيدة القمر. ذلك أن جزيرة هيرا Héra في مضيق جبل طارق كان أحد الكتاب الإغريق من أهل القرن الخامس، قد دعاها باسم جزيرة القمر. وفي قرطاجة، حسب قول ڤرْجيل، كانت توجد أسلحة يونون وعربتها. إذن فقد كانوا يعطونها طبيعة حربية كما أعطوها لأستارتي. وفوق هذا فإن القديس أوغسطين يقول بصراحة ووضوح : إن الذين كانوا يتخاطبون بالبونيقية كانوا يطلقون على يونون اسم أستارتي.

وأشتارت الفينيقيين المشرقيين شخّصها الإغريق في أفْروديت Aphrodite. ويبدو أن هذا التشخيص قد جرى أولاً في جزيرة قبرص، إذ فيها اتصل الشعبان اتصالا وثيقا. وفي صقلية، فالإلهة التي كان الإيليميون Elymes يعبدونها على قمة جبل إيرِكْس Eryx، سماها الإغريق باسم أفروديت، كما سماها اللاتانيون باسم ڤينوس Vénus، وبدورهم أطلق عليها الفينيقيون اسم أشْتارت، ولكنها مطلقا لم تكن أشتارتي الحقيقية. وإذا لم يستحل كون أشتارتي الفينيقية في الغرب قد شخصت هنا وهناك في أفروديت–ڤينوس، فليس لنا في أي مكان آخر برهان على ذلك. واسم هيرا واسم يونو هما اللذان كانا يطلقان عليها بانتظام . ولربما أن الإنيادة Enéide قد ساهمت في إبعاد ڤينوس. ففي هذه الملحمة كانت والدة إيني Enée، جدة يوليوس قيصر تعارض يونون حامية ديدون وأهلها. لكن تشبيه أشتارتي ويونون كان سابقا جدا على ڤرْجيل، ولا ندري لأي سبب قد وقع قبول هذا التشبيه.

ومن ناحية أخرى، فيونون الإلهة الكبرى لقرطاجة، هي حسب رأينا تانيت بني بَعْل التي لها المقام الرفيع في المدينة. وإذا طرحنا هذا التشخيص جانبا ، فإننا سنبحث عبثا في النصوص القديمة عن اسم إلهي إغريقي أو لاتاني يمكن إيقاعه على تانيت.

وبعض الإلهات التي عبدت في إفريقيا في العهد الإمبراطوري الروماني تتفق مع تانيت بني بَعْل، ومع أشتارتي هذه. وليس هذا مكان دراستها بتفصيل. وإنما سنذكر ما يفيد في تكملة معلوماتنا الهزيلة عن الديانة البونيقية في عهد قرطاجة الأولى. ويحسن الانتباه إلى أننا هنا لسنا على أرض صلبة جدا، بحيث إذا كانت المعبودات تبقى في العمق هي هي، فإن وظائفها يمكن أن تعتريها بعض التغيرات، وفي نفس الحين يتغير اسمها.

ولنذكر قبل كل شيء عصابات الجبين من الفضة أو من البرنز، التي هي دون شك شعارات كهنوتية، عثر عليها في بعض المدافن بالقطر التونسي وبشرق الجزائر. إنها تقدم لنا صورا مختلفة لا نلاقيها متجمعة بهذا الشكل في الطقوس الإغريقية الرومانية. ومن بينها نجد الوشمة البونيقية الأصل، المعروفة بعلامة تانيت، وفي الوسط نجد تمثالين نصفيين، أحدهما يمثل إلهة على رأسها تاج شكله شكل حصن، والثاني يمثل إلها بقرنَيْ كبش ملتويين. فهو بالتأكيد آمون Ammon، الإله الأكبر للأفارقة، المماثل كما سنرى بعد، لبَعْل حمّون الذي يشركه مع تانيت بني بَعْل العديد من أنصاب قرطاجة وقسنطينة. فهذه هي التي تُرى مصاحبة لآمون، ولو أن أي نقيشة لم تعلن اسمها. وفوق ذلك، ربما إنها في ذلك العهد كانت تحمل اسما آخر. والتاج الجداري (بشكل الحصن) يبين دورها بأنها حامية المدن، مثلما في عهد خلفاء

الإسكندر وفي عهد السيطرة الرومانية قد كانت التيشات Tychés ذات الأبراج وربّات الثراء[91] Les Fortunes يكثر وجودها في سوريا وفينيقيا، حيث يبدو أنها كانت تبديات متكررة Dédoublements للإلهة الكبرى، سيدة المدن التي كانت تعبد فيها. وعلى إحدى العصابات، رسم الهلال خلف تانيت التي كأنه يحيط بها، ويرجع إليها طبعا، وبين الإله والإلهة كوكب ذري، هو نجم وليس شمسا، ويشير - ربما - إلى إقامتهما المشتركة في السماء.

بعض النقائش اللاتانية الإفريقية، تذكر مع ساتُرْن Saturne الإلهة أوبس Ops التي يوجد لها ذكر في الولايات الأخرى من الإمبراطورية. فلابد من اعتبارها إحدى المعبودات الخاصة بإفريقية. أعارتها اسمها زوجة ستورنوس Saturnus الإيطالي. لكن ستورْنوس هو الاسم الذي عرف به بَعْل حمّون في إفريقيا. وعلى هذا، فإن أوبْس Ops تكون مشخصة في تانيت بني بَعْل، صاحبة حمّون أو زوجته. ويحتمل أيضا أنها المعبودات البونيقية القديمة التي تتبوأ، واحدة قرب الأخرى، أنصابا عثر عليها بمنطقة تبِسّة Tebessa، والإله يبدو عليه النموذج الكلاسيكي لستورْنوس، وهو مذكور صراحة بهذا الاسم، أما الإلهة التي لها صورة عادية، فلربما تكون قد دعيت باسم أوبس Ops.

والعديد من النقائش الإفريقية الأخرى تعرفنا بإلهة تدعى نوتْريكس Nutrix التي كانت ذات علاقة متينة بستورنوس، هذا تقريبا هو كل ما نعرفه عنها. ولربما أن هذا الاسم كان يطلق على تانيت بني بَعْل القديمة التي وصفت بكلمة الأُمّ على نصبين قرطاجيين. ولقد ظن البعض أن تانيت دعيت أيضا في العهد الروماني باسم كيريس Céres، ولكن، حسب رأينا، لم يعطوا عن هذا حجة قاطعة.

وأخيرا فقلة ذكْر أوبْس ونوتْريكس لا تعبر بوضوح عن الحظوة لدى الجماهير الشعبية للإلهة التي كان لها من قبل مكان عظيم في إفريقيا، والتي كانت عبادتها متفوقة في قرطاجة، وانتشرت حتى منطقة هَدْروميت وإلى سرْتا. على أنها لم تتدهور من عليائها إلى حد أن لاتُعبد سوى في أمكنة قليلة. ويكون من غير المعقول أن لا تكون قد خلفت أي أثر في قرطاجة الرومانية، والتي بها آلهة عظيمة أخرى من آلهة قرطاجة البونيقية، نجدها قد صارت تُدعى ستورْنوس Saturnus وإيسْكولَبْيوس Aesculapius، وكريرِسْ Cerers. وقد أعيدت للتمجيد واستوت على نفس المكانة كالسابق. (وهذا نعرفه على الأقل لأسْكولاب الذي أقيم معبده، كالقديم على ذروة بِرْسا Byrsa). فيجب إذن قبول كون الاسم المعتاد لتانيت بني بَعْل في القرون الميلادية الأولى لم يكن هو أوبس أو نوتْريكس، بل هو كيلسْتيس Caelestis. وبهذا النعت الذي استعمل اسما كان اللاتانيون يسمون إلهة أصلها فينيقي، وكانت أكبر معبود في قرطاجة الثانية، ونالت التمجيد في إفريقيا الشمالية، خصوصا في المناطق التي تركزت فيها الحضارة القرطاجية. ويردّ على ذلك بالتناقض القائم بين النقائش البونيقية التي تصف تانيت بني بَعْل بكلمة الأم، وبين النصوص اللاتانية التي تدعو الإلهة السماوية باسم العذراء كيلسْتيس Virgo caelistis. ولكن، لا يبدو لنا أن هذا الاعتراض قوي يدفعنا للتخلي عن التشخيص الذي نقترحه باتفاق مع بعض العلماء الآخرين. والأمومة والبتولية الإلهيتان تتوافقان في أكثر من دين واحد. ولنلاحظ فوق ذلك، أن الأمومة من ناحية، والبتولية من جانب آخر لم يكونا على ما يظهر خاصيتين يراد إظهارهما جيدا في طبيعة تانيت بني بَعْل وطبيعة كيلسْتيس. فالنعت بالأم لا يقرأ إلا في نذرين من قرطاجة، كما أن العذراء Virgoصفة لا تقرأ إلا بواحد من الإهداءات

العديدة لكيلسْتين، مما قد أزيح عنه التراب في إفريقيا. وحتى إذا كان التناقض حقيقيا، فيمكن إرجاعه إلى تغير في المعتقدات بين العهد البونيقي والعهد الروماني.

ومن جانب آخر فالمؤكد هو أن كيلسْتيس هذه تتطابق مع أستارتي، الإلهة الفينيقية التي كان الإغريق يصفونها بأورانيا Ουρανια (السماوية). وهيرودْيان Hérodien يقول ذلك بلفظ صريح. وقد رأينا من قبل أن أستارتي قد شُخِّصت في الغرب مع هيرا – يونون، وشخصت في المشرق مع أفروديت، بينما ليس لدينا أي ذكر في إفريقيا الرومانية لڤينوس كيلسْتيس التي نجدها أحيانا في جهات أخرى. وعلى النقيض، فإن العديد من الإهداءات الإفريقية تتوجه إلى يونوكيلسْتيس. وكان أبولي Apulée يفكر في كيلسْتيس حينما تحدث عن يونون التي مقامها المفضل هو قرطاجة. وهي إلهة عذراء ينقلها أسد خلال السماء.

وكيلسْتيس لها تأثير حسن على خصب الطبيعة. فهي تجلب الأمطار التي تنبت الحصاد. وتطلق عليها إحدى النقائش نعتا هو Spicifera (أي حاملة السنابل). وهي سيدة السماء كما يدل اسمها على ذلك. وهي بصفة خاصة معبودة قمرية، كما قد يفهم من إهداء إفريقي يذكر اسم يانكيلسْتيس، كما يوضح ذلك هيرودْيان. وهي تدعى أحيانا باسم فورتونا Fortuna، أي بالاسم القريب من التيشات، التي تحمل تاجا كالحصن مثل إلهة العصابات الكهنوتية. وهي نفسها تحمل هذا التاج. وأخيرا، وعلى غرار أستارتي ويونون البونيقية، هي معبودة حربية، إذ أن نقيشة تونسية تُشير إلى دِرْعها.

والسؤال هو أن نعرف تانيت بني بَعْل وأشتارت اللتين وقع تشخيص كل منهما في هيرا–يونون في العهد البونيقي، ودعى كل منهما

باسم كيلسْتيس في العهد الروماني، هل كانا اسمين لإلهة واحدة عند القرطاجيين أنفسهم ؟

لم يكن الاسمان أشْتارت وتانيت مترادفين مطلقا. يشهد بذلك إهداءُ لأشتارت وتانيت لبنان. ولكنه لا يشهد بأن التسمية بتانيت بني بَعْل - التي فيها معنى تانيت غير واضح لمفهوم بني بَعْل - لم تطلق على أشتارت الإلهة الفينيقية الكبرى. وصحيح أن أي واحدة من النقائش القرطاجية القليلة التي تذكر أشتارت لا تقدم لنا اسمها مقترنا باسم تانيت بني بَعْل. ولكننا سنعثر دون مشقة على معابد مسيحية بها مئات من النذور الموجهة إلى سيّدتنا Notre Dame من غير ذكرٍ لسَنْت ماري، أو للقديسة العذراء. إن تانيت بني بَعْل لم تُدْع دائما باسم كيلسْتيس في العهد الروماني، إذ يبدو أن نوتْريكس وأوبْس يمثلانها أيضا. والأفارقة الذين كانوا خارج قرطاجة يطلقون عليها واحدا من هذين الاسمين، هل أرادوا الاحتفاظ باسم كيلِسْتيس لأشْتارت ؟ فيكونون قد تذكروا أن الإلهتين كانتا فيما مضى متغايرتين. وبالتأكيد ليس الأسماء المركبة مع أسماء المعبودات Théophores التي يدخل فيها لفظ تانيت قليلة العدد في قرطاجة، حيث تانيت بني بَعْل في الصف الأول من المعبودات. وعلى النقيض فاسم أشتارت له مكانة واسعة الاستعمال. أفلا يمكن استنتاج أن تانيت بني بَعْل هو في الحقيقة مُمَثَّل فيها تحت اسم أشتارت ؟ غير أن تانيت هذه، ربما هي مذكورة بها على نحو آخر : فصفة ملْكت Milkat (الملكة) المذكورة بكثرة تناسبها جيدا، (كما تناسب أيضا أشتارت).

هكذا نرى أن البراهين المؤكدة والمعارضة للتشخيص، لا يساوي بعضها أحسن من البعض الآخر. نتمنّى أن يطرأ جديد يوضح هذا المشكل. وعلى كل، إذا كان الأمر يتعلق بإلهتين، فقد تشابهتا إلى حد

الالتباس على الأجانب، وعلى الأفارقة فيما بعد، وعلى سكان قرطاجة الثانية. إن فقر الوثائق التي بين أيدينا لم يمنعنا من التنبه للخاصيات المشتركة التي قد تبرر التحير.

إن تانيت بني بَعْل لم تكن على ما يظهر سوى صيغة إفريقية لأشتارتي. وبهذا الشكل فهي الإلهة الحامية الخاصة لقرطاجة التي انتشرت منها عبادتها. ومع حفاظها على السمات الخاصة لأشتارتي، فلربما أنها اكتسبت سمات جديدة. والمشكوك فيه هو أن أشتارتي كانت في المشرق سيدة القمر، لكن تانيت استطاعت أن تصير قمرية، وكيلِسْتيس كانت كذلك بدون شك.

وبجانب تانيت، فإن أشتارتي صُور Tyr، التي جلبها لقرطاجة المعمرون الأولون، استطاعت المحافظة على معبدها الخاص الذي تكون عبدت به وفقا للطقوس القديمة، والذي كان يفضل تمجيدها به الصوريون الذين يمرون بالمدينة أو يسكنونها. وفي بعض جهات الغرب، وخصوصا في بعض المستعمرات القديمة التي أسستها صور، فإن أستارتي هذه ربما لم تتغير، أو أصابتها تغيرات أخرى بغير قرطاجة. وبالرغم عن تنوع الطقوس وحتى بعض الاختلاف في العقائد، فلم يقع تناسي الوحدة الأصلية لأشْتارت وتانيت بني بعْل. ولربما ذكر ذلك للأجانب الذين أحيوه بإطلاق اسم هيرا أو اسم يونون على الإلهتين.

في معاهدة حنّيبَعْل نجد المعبود حامي قرطاجة δαιμων Καρχηδονιων مذكورا على رأس الثالوث الثاني من اليمين. ويرى العلماء عموما أنه يعني وجوباً تانيت بني بَعْل، التي تتناسب هذه التسمية معها. ولكن جرى اعتراض قوي على ذلك : لماذا تانيت الإلهة الكبرى لقرطاجة،

تذكر بعد ثلاثة آلهة أخرى، هي زِيوس وهيرا وأبُلون ؟ أليست هي المذكورة هنا باسم هيرا ؟ لا نرى سبيلا لإزاحة الاعتراض بطريقة مرضية حقا. ويمكن التساؤل : ألم يذكر الثالوث الأول المعبودات الكبرى لصور، التي هي أم قرطاجة، بحيث تكون هيرا هي أشتارت ؟ ولكن، على هذا، فإن هيرَكليس الذي يتشخص دائما مع ملْقارت (ملك مدينة صور) كان يجب أن يذكر في الثالوث الأول لا في الثَاني. فإما أن تانيت بني بعْل قد ذكرت في اليمين مرتين، أولاهما باسم هيرا، ثم تحت اسم δαιμων Καρχηδονιων ؟ غير أن افتراض الذكر مرتين ليس مقبولاً مطلقا. وإذا لم يكن هذا الديمون Démon (هذا المعبود) هو تانيت، فلن نعلم من هو، مالم يكن الأمر فيه ازدواج لشخصية الإلهة، لفورتون Fortune على غرار إلهات المدن الفينيقية.

وربما إن فقرة من أپْيان Appien تعني تانيت بني بَعْل، في حديث عن أحد القرطاجيين وهو يتوسل إلى الرومانيين أن يعفوا عن المدينة وعن βουλαια θεος أي الإلهة التي تترأس الاجتماعات.

وقد تحدث المؤرخ جسُتان Justin فحكى عن انتحار إليسا Elisa، ثم أضاف قائلا : «فقد مُجّدت كأنها إلهة، مادامت قرطاجة غير مغلوبة». فإذا صح هذا، فإن (ديمون القرطاجيين) يمكن أن يكون هو المؤسسة للمدينة، الأميرة الصورية التي وقع إقرارها في التمجيدات الإلهية. ولكن لنا أسباب قوية للشك في وجود أليسا. وقد افترض البعض أن العبادة التي يشير لها جسْتان موجهة إلى إلهة حقيقية، اعتبرت كالمؤسسة للمدينة التي كانت هي راعيتها، أي إلى تانيت بني بَعْل أو إلى أستارتي. أما البطلة الأسطورية فتدعى على العموم باسم ديدو Dido وليس بألّيسا. وهذا الاسم أي ديدو أعطيت له عدة اشتقاقات سامية. وحتى اشتقاق إغريقي،

مما قد يساعد في تطبيقه على إحدى الرباث. ولا أرى ضرورة العودة إلى هذه الافتراضات التي سبق أن تحدثنا عنها، ولا أن آتي بغيرها.

كان القرطاجيون في أوائل القرن الرابع قد اتخذوا الإلهتين الإغريقيتين ديمتير Deméter وكوري Coré. ويحتمل أنهم أعطوهما اسمَيْن بونيقيين. وفي روما كانت ديمتير تُسمّى باسم لاتاني هو كيريس Cérès. أما في قرطاجة فيحتمل أنهما عرفتا بأشتارت وتانيت مع إضافة بعض الأوصاف المكملة. ومن جانب آخر، فإن الإلهة الممثلة على نقودهم لابد أنها في رأيهم هي تانيت بني بعْل، غير أن هذه الصورة قد نقلت على نقود سرقوسية، تمثل كوري أحيانا، وأريتوس Aréthuse أحيانا أخرى. فهل حدث كما قيل اندماج كلي لديمتير وكوري مع إلهتين بونيقيتين تكون تانيت بني بَعْل إحداهما ؟ لست مستعدا لقبول ذلك. لأن عبادة ديمتير وابنتها لما أدخلت إلى قرطاجة، أجريت بها طقوسها على العادة الإغريقية. وعلى هذه العادة انتشرت بشمال إفريقيا، حيث نجدها في القرون الأولى للميلاد. وقد جرى التساؤل عن الكريريس Les Cereres، المذكورة في عدة نقائش لاتانية، أليست هي ديمتير الإغريقية وتانيت بني بَعْل ؟ ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن إلهة قرطاجة الكبرى قد مثلها الرومانيون في كيريس Ceres، إذ المعادلة المعتادة هي يونو Juno، ولأن ما نعرفه عن طقوس هاته الكريريس يذكّر بطقوس ديمتير وكوري لا بعبادة تانيت. ثم إن الكريريس اللائي قد يقع إشراكها أحيانا مع بلوتون Pluton، لايمكن إلا أن تكون كوري-بيرسيفون Coré-Perséphone زوجة بلوتون وأمّ كوري. وهذا الجمع لابد من تفسيره بطريقة واحدة بكل مكان، وإلا فلن نجد بإفريقيا إلا القليل من آثار كوري مع أنها قد دخلت إليها مع ديمتير.

صحيح أن تِرْتولْيان Tertullien تحدث عن كيريس إفريقية Ceres africana. وهذه قد أرادوا أن يعارضوها بكيريس إغريقية Ceres graeca التي بإحدى نقائش تونس. غير أن البيانات التي تعطيها عن كاهنات كيريس الإفريقية تدل على أن هذه هي في الحقيقة ديمتير الإغريقية. ومع عدم نسيان هذه الإلهة التي عُبِدت طوال ستة قرون في إفريقيا، وكانت عبادتها قليلة الانتشار في الولايات اللاتانية الأخرى للإمبراطورية، فيمكن نعتها بأنها إفريقية. ومع ذلك فقد مكثت متميزة عن الإلهة البونيقية الكبرى، إذ هناك إهداء متوجه إلى كيلسْتيس وإلى كيريس Ceres.

في مجموعة من الآثار المصورة التي عثر عليها بالغرب، خصوصا من إفريقيا وسردانية، نتعرف إما على وجه التأكيد وإما برجحان، على أستارتي أو على تانيت بني بَعْل. لأن هذه الرسوم التي تتوزعها عدة قرون قبل وبعد سقوط قرطاجة، تظهر نماذج مختلفة جدا :

فالإلهة أحيانا عارية. كما أنها على أحد الأنصاب وعلى بعض الحلى التي عثر عليها في سردانية تُرى واقفة، ويداها على ثدييها تضغطهما، وكأنها تخرج منهما الحليب المغذي. ولا يجب علينا أن نبحث أين وقع ابتكار هذا الرسم، ولا كيف ذاع في المشرق. ولربما أن تقليده جرى في سردانية عن أمثلة جلبت من قبرص، التي كان بها ذا حظوة كبيرة، كما هو على دُمَى الطين المشوي أو غيرها من الأشياء. والنصب يشهد على أنه حافظ على مدلوله الديني. ولم يعثر عليه حتى الآن في قرطاجة. وعلى نذر آخر سرداني، ترى الإلهة عارية وتمسك بيديها قرصا تسنده إلى جسمها. كما أن قرصا مماثلا تمسكه امرأة تلبس فستانا طويلا، هي إما إحدى المعبودات أو هي مطلق امرأة. وكذلك على آثار أو

على أشياء صغيرة الحجم وقع اكتشافها في سردانية وقرطاجة : من أنصاب مصنوعة بالجزيرة، وتمثال جنازي من قرطاجة، وأشياء من طين مشوي وغير ذلك. فما هو هذا القرص ؟ هل هو القمر التام ؟ فيكون به إذن برهان لمن يعتقدون أن أستارتي كانت من عهد باكر إلهة قمرية، لأن الطين المشوي يؤرخ بالقرن السابع أو السادس. ويحسن أن نضيف أن الدمْية قد صنعت بطريقة إغريقية قديمة. فإذا كان صانعوها إغريقا – الأمر الذي لاشك فيه – فهي لا تمثل إلهة فينيقية. وليس صحيحا أن يكون القرص قمرا. أيكون طبلة ؟ أم حلوى مستديرة ؟

في هيبون Hippone على الساحل الجزائري استُخرج من التراب نصب، لابد أنه من عهد بعد تخريب قرطاجة، غير أنه بطريقة صنعه أو بموضوعه، يتميز عن نذور القرون الميلادية الأولى، إذ نرى به امرأة، كل لباسها حجاب رمي به على الرأس، وهي تمسك بتاج وبعرش لشجرة الرمان شعار الخصوبة، ويصحبها هلال وكوكب. ولابد من تقريب هذه الصورة من نصب عثر عليه بسانْلوي Saint-leu قرب وهران، ويمكن تأريخه بحوالي العهد الميلادي، وبه امرأة عارية تمسك بيديها غطاء ينعطف فوق رأسها. ففي الفن الإغريقي الذي أخذت منه الحضارة البونيقية عدة استعمارات، يكون رسم الغطاء المنشور كنصف دائرة، يعني في الغالب آلهة السماء. إذن فنحن نعرف هنا الإلهة التي كان اللاتانيون يسمونها باسم كيلسْتيس Caelestis.

ويبدو أن سيدة السماء قد مثلها الفينيقيون أحيانا بأجنحة مَثْنى وَرُبا ع. ولربما أن تانيت بني بَعْل هي التي تظهر على نذر من قرطاجة، تحدثنا عليه من قبل، ولها به جناحان، وتمسك بهلال يحيط قرناه المنتصبان بقرص صغير.

على غطاء تابوت وضع في سرداب في القرن الثالث، قد نقشت صور المرأة الميتة. هذه القرطاجية تمسك بحمامة، أي بالحيوان المكرَّس لأسْتارتي، وعلى رأسها جلد أحد الطيور الجارحة، ولها جناحان كبيران معتلقان بكشحيها، يتعارضان ويحصران أسفل بدنها، بحيث أظهرت مماثلة للتي هي كاهنتها، وتحل محلها في بعض الحفلات. والطريقة التي وضع بها الجناحان تُذكّر بصور إيزيس وآلهة مصرية أخرى. أما جلد الطائر فكان غطاء للرأس يجعله المصريون لإلهاتهم ولملكاتهم اللائي كانوا ينظرون إليهن كإلهات. وسنجد ذلك في فينيقيا على رأس سيدة جبيل، أي أستارتي الممثلة في إيزيس – حَتْحور.

ونعتقد أن تابوت الكاهنة يبرهن على أن القرطاجيين قد استوحوا أحيانا، هم أيضا من الفن المصري. وذلك عندما أرادوا تمثيل أستارتي أو تانيت بني بَعْل. ولربما أن الإلهة الفينيقية الكبرى هي أيضا التي تظهر بحليات مصرية على مجموعة من نقود عهد سابق على سقوط قرطاجة، وعلى نقود أخرى بكتابات بونيقية أو لاتانية ضربت فيما بعد بمدينة كوسورا Cossura أي (بنتلاريا Pentelleria).

واكتشفت تماثيل من الطين المشوي في بئر بوركْبة Bir bou Rekba، قرب الحمّامات. وهي ترجع للعهد الروماني. ولكنها وضعت في معبد كان أقيم لبَعْل وتانيت بني بَعْل، كما يعرّفنا بذلك إهداء باللغة البونيقية. والكثير من هذه التماثيل يقدم معبودا أجنبيا عن الزون Panthéon الإغريقي الروماني. هو عبارة عن مخلوق مرعب، برأس أسد وجسم امرأة لها جناحان كبيران، يكونان مشدا حول كشحيها، كما في تمثال الكاهنة. هذه الإلهة التي برأس الأسد، لابد أنها كانت تعبد في أواسط القرن الأول ق.م، لأنها تُرى على الدوانق التي سكّها كِنْتوس كيكيلْيوس

ميتلوس بِيوس Q. Caecilius Metellus Pius الذي كان آنذاك رئيسا لحزب البومبيين Pompéiens في إفريقيا. فكان لها إذن مقام رفيع في معتقدات هذه المنطقة. والصورة التي بالنقود تصحبها ثلاثة أحرف هي لاشك الأحرف الأولى المختزلة من ثلاث كلمات : GTA، ومعناها غير متأكد، لكنها أوّلت كما يلي : G(enius) T(errae) A(fricae) أي إلهة الأرض الإفريقية. وكانت سكْمتْ Sekmet، وهي إحدى إلهات وادي النيل قد مثلت بهذه الصفة، في جسم امرأة ورأس لبوؤة. ولكن إذا كان النموذج قد استعير من الفن المصري، فيحسن الاعتقاد بأنه يدل هنا على إلهة فينيقية، أو قد اتخذها الفينيقيون. والأسد كان ذا اتصال وثيق مع مختلف الإلهات بآسيا الغربية، مثل سيبيل Cybèle، وأترْكَاتيس Atargatis، وإشتار Ishtar. ويمكننا أن نفترض أن لبوؤات حقيقية كانت في عهد بعيد جدا هي الأشكال المرئية لهذه الإلهات، ثم تحولت إلى أشكال إنسانية، وأصبح الحيوان رفيقا لها. وهذا واقع يشاهد في ديانات مختلفة. وهناك آثار آشورية وحتّية Hittites تظهر بها المعبودة راكبة ظهر هذا الحيوان. وقد اتخذ الفينيقيون هذا الرسم ونقلوه إلى إفريقيا، حيث نجده في معبد بئر بورگْبة. وزيادة على الإلهة التي لها رأس الأسد، فإن التنقيبات كشفت عن تمثال من الطين المشوي، هو عبارة عن أسد تنتصب من فوقه امرأة. والتمثال اليوم أصابه البتر. ثم صارت الإلهة تمثل من بعد جالسة على الحيوان. وكانت سيبيل Cybèle وأتاگَرْتيس Atagartis في العهد الروماني تمتطيان أسدا. وكذلك كيلسْتيس الإفريقية. ولربما أن الأسد الذي تملكه، قد ملكته من قبلها أستارتي أو تانيت بني بَعْل. وتنعدم البراهين للتأكيد على أن أستارتي قد جرى تمثيلها تماما كلبوؤة في عهد ربما كان ينظر فيه للأسد كمظهر للإلهة. ولكنها في أدفو Edfou بمصر تظهر برأس لبوؤة.

ونحن نعلم كم استعمل المصريون في صور آلهتهم هذا التوفيق بين الشكل الحيواني والشكل الآدمي. ولا نجازف جدا إذا قبلنا أن الفينيقيين، وهم يقلدونهم، قد مثلوا إلاهتهم الكبرى بنفس الطريقة، وأعطينا اسم أستارتي أو تانيت لتماثيل بوركْبة.

على أن النماذج غالبا ما استعيرت من الفن الإغريقي. بل يمكن أن نتسائل عن بعض الآثار التي هي إغريقية تماما، كصور المعبودات الإغريقية : ألم تُستعمل كصور لأَسْتارتي، مثل تلك الدُّمى من الطين المشوي، التي هي من القرنين السابع والسادس، والتي نلاقيها بالمدافن، في قرطاجة وسردانية ؟ إننا نلاقي في فينيقيا وقبرص تماثيل لأفروديت ممسكة بحمامة. وكذلك الإلهات المتحجبة المستوية على عرش، ولربما حتى تلك التماثيل التي وقع انتهابها من بعض مدن صقلية في القرن الخامس. وبدورها، فإن الأصول الإغريقية قد جرى تقليدها بكثير أو بقليل من الإتقان. فبعض الخزافين كانوا أثناء زمن طويل يصنعون معبودات جالسة، تكرارا لتماثيل الطين المشوي الأيونية. وصنعوا معبودات على رأسها تاج عال مغطى بحجاب عريض، وتتزين بقلادة ثقيلة. وهي تقليدات بشعة، أطلق عليها دون شك اسم أستارتي. ولعل تمثالا من صولونة Solonte هو لأستارتي الجالسة على عرش وبجانبيها تمثالان لسفَنْكس. ورسم الإلهة على العرش التي هي أوبْس أو كيلسْتيس، قد استمر معمولا به في إفريقيا في عهد الإمبراطورية الرومانية. ولنفس العهد ترجع بعض التماثيل من الرخام والحجر والطين، تظهر بها امرأة واقفة أو جالسة. وهي تحمل طفلا صغيرا. فيجوز أن نرى فيها صوراً لنوتريكس Nutrix. ولكن لا حجة لدينا على أن تانيت بني بَعْل قد جرى تمثيلها على هذا النحو في العهد الروماني.

إن الآلهة المصورة على نقود المدن الفينيقية بالغرب، لابد أنها هي التي كانت تقدس بهذه المدن، إذ كانت سيدتها وحاميتها. وبهذا فنعتقد أن إلهة العُملة القرطاجية هي تانيت بني بَعْل. ونعلم أنها قد وقع تقليدها في صور العملة السرقوسية. وبعد ذلك ضربت نقود في أماكن أخرى، يظهر بها رأس امرأة بتاج، أو حجاب، أو بهما معا أي بتاج وحجاب، أو بإكليل الغار، أو بغطاء للرأس كالتيشات الإغريقية الأسيوية بتاج كحصن. ولربما أن كل هذه الرؤوس التي تذكرنا من قريب أو بعيد بنماذج إغريقية، هي صور لأستارتي سيدة مائة مدينة مختلفة. وحيث إنها إلهة حربية فقد لبست الخوذة. وقد أشرت من قبل إلى ألهة قمرية بخوذة على قطعة نقد من جزيرة گوزو Gozzo. ويرى رأس امرأة تغطيه في آن واحد خوذة وحصن على قطعة نقد بكتابة نيوبونيقية من أويا Oea (أي طرابلس) المستعمرة الفينيقية القديمة. فيحتمل أنها أستارتي التي شخصها الرومانيون في مينرْفا Minèrve.

4

إننا نعلم أن عدة آلاف من الأنصاب المكتشفة في قرطاجة، عليها اسم الربة تانيت بني بَعْل ويتلوه اسم السيد «أضون Adon» بَعْل حمّون HMN (وسنرى من بعد كيف كان ينطق باسمه). ونفس الإله قد ذكر وحده أو متقدماً على تانيت بني بَعْل في عدة أنصاب من قُسّنطينة، راجعة للقرنين الثاني والأول ق.م. وهو يظهر وحده على نصب من هَدْروميت، وعلى نذور من العهد الروماني بكتابة نيوبونيقية عثر عليها في دقة Dougga، ومَكْثار، وهنْشير ميداد، وسيدي أحمد الحَشْني، الموقع الموجود بموسطة تونس، وفي قالمة Guelma بشرق القطر الجزائري،

وفي أوجل Oudjel غربي قسنطينة. وقد أزيح التراب، في هَنْشير المدينة Henchir Medeïna بجهة الكاف، عن إهداء بكتابة نيوبونيقية بمعبد كُرّس له، وهو بها يسمى السيد بَعْل حمون ألتيبوروس d'Altiburos (وكان هذا هو اسم المدينة العتيقة).

ويظهر خارج إفريقيا في كتابات فينيقية بسردانية وصقلية ومالطة، أي في بلاد كانت خاضعة للدولة البونيقية. ومع ذلك نسجل أن الكتابتين المالطيتين فيهما الأبجدية عتيقة، فوقع إرجاعهما للقرن السادس وحتى للسابع. فإذا كان التقدير صحيحا، فإن هذه الأنصاب تكون سابقة بعدة قرون على أنصاب قرطاجية. ويصبح من المشكوك فيه كون بَعْل حمّون قد أدخل للجزيرة على يد القرطاجيين. غير أن نوعا من الكتابة القديمة، يمكن أن يكون بقي مستمر الوجود بمالطة أكثر من غيرها.

في مسوب Massoub بفينيقيا بأحواز صُور Tyr، كتابة تحمل اللفظين B'L HMN وليس مؤكدا أنها تدل على الإله، وقد ترجمت بما يحتمل أن يكون (أهالي حمّون) أي باسم المكان. وعلى النقيض من ذلك فإن إلها هو بَعْل حمّون مذكور بصفة بالغة الوضوح في كتابة من القرن التاسع، عثر عليها خارج فينيقيا بِسنْجيرلي Sendjirli بشرق خليج الإسكندرون. وهذا النص نُقش بأمر أحد ملوك البلاد، بلغة شديدة القرابة للغة الفينيقية، أو هي نفسها.

وعلى النقوش الإفريقية، فكتابة HMN تحل محلها أحيانا HMN' أو MN' أو M'N' أو MN' وحتى MN.

وتختلف الآراء حول معنى هذه الحروف HMN التي تتلو كلمة بَعْل أي (السيد). ويبدو صعبا التصديق بأنها تمثل الاسم العلم لأحد الآلهة،

مثل إشْمون Eshmoun وسِدْ Cid وسَكّون Sakkon، لأنها لا يعثر عليها في الأسماء المركبة بأسماء الآلهة. والبعض يرى أنها صفة تابعة لبَعْل، صفة قد تكون مشتقة من جذر معناه «حَمْيان Brûlant» بإشارة إلى الطبيعة الشمسية للإله. غير أن هذا الافتراض يتناقض مع اعتراضات لغوية. والغير يرى في الأحرف اسما جغرافيا. فكتابة سنْجيرلْي تغرينا جيدا بأن نتعرف فيها على جبل أمانوس Amanus الذي ينتصب فوق هذا المكان. فبَعْل حمّان، بَعْل سيد أمانوس يُذكّرنا ببَعْل لبنان Baal Libanon أي سيد لبنان الذي تذكره نقوش فينيقية قديمة، ويُذكرنا ببعْل الكَرْمل أي ربّ الكرمل Baal de L'Hermon المذكور في التوراة. ولكن كيف لبعْل الأمانوس، بَعْل جبل يقع بعيدا جدا عن فينيقيا، أن يَفْرض نفسه على الفينيقيين إلى حد أنه هاجر معهم إلى الغرب ؟، وصار واحدا من المعبودات الكبرى لقرطاجة ؟، ثم بواسطة قرطاجة صار أهم معبود للكثير من الأفارقة ؟ ويمكن التفكير في أسماء جغرافية أخرى. فقد ذكرنا آنفا أن بالقرب من صور يوجد مكان يدعى حمّون Hammon. فلابد إذن من التمييز بين بَعْل الأمانوس وبين أحد الآلهة الفينيقية، وهو بَعْل الحمون Baal d'Hammon. ولكن لاشيء يدل على أن هذا المكان أو غيره، المجانس لاسمه في فينيقيا، قد عُبد به بَعْل له مكانة عظمى. وقارن بعضهم HMN بهَمَنيم Hammanim التي ذكرت في التوراة، عدة مرات مع الأشيريم Asherim، الأوتاد المكرّسة لإلهة الخصوبة في المعابد الكنعانية. وعلى ما يبدو فالهَمَنيم كانت كالمكْسِبوت Maccebot، أحجارا منصوبة بقرب المذابح. فهل تكون هذه الأشياء المقدسة اقتبست اسمها من الإله بَعْل حمان ؟ أو على النقيض، يكون معنى بَعْل حمان (سيد الحمان) أي الإله الذي كان يُعبد في الحمان ؟ فإذا أخذنا بالافتراض الثاني، هل يجب أن نربط حمان بالجذر المعبر عن فكرة

الحرارة ؟، لنبحث فيه عما يشير إلى الشمس، لنعتقد تبعا لذلك أن إله الحمان كان إلها شمسيا ؟ إن هذا كله غير أكيد.

وختاما. فقد اقترح البعض تشخيص بَعْل حمون Baal HMN مع آمون Amon، أمّون Ammon الإله المصري الذي انتشرت عبادته إلى بعيد لدى الليبيين، منذ عهد سابق على الاستعمار الفينيقي. فكون بَعْل هذا في بادئ الأمر لم يكن له ما يشركه مع أمّون Ammon، فذلك ما تشهد به طريقة كتابة اسم HMN. فالراجح هو ان بَعْل حمون Baal HMN إله قد أتيَ به من فينيقيا إلى الغرب، وأنه كذلك جلب لمالطة وقرطاجة. ولكن هذا الإله ذا المظهر الفينيقي قد عبد لاسيما في إفريقيا. بل لقد مجده الأفارقة أكثر من القرطاجيين، لأنه خارج قرطاجة كان مقدما على تانيت بني بَعْل. وفي أكثر الأحيان كان الابتهال يوجه إليه وحده. فنحن إذن مستدرجون لنفترض أنه أخذ مقام إله الليبيين الأكبر. وقرطاجة تكون قد اتخذت أمّون Ammon مثلما اتخذه إغريق سرْنيكا الذين جعلوا منه زيوس. وتكون هي قد شخصته في بَعْل حمون Baal HMN، ويكون الكثير من الأهالي عباد أمّون، صاروا يعبدونه في حلته الفينيقية.

إن البراهين المقدمة لمساندة تشخيص بَعْل حمون وأمّون ليس جميعها مقنعا. إذ أن أمّون كان في الأصل إلها كَبْشاً Bélier، وحينما قدموه بجسد آدمي، فصُوَره حافظت من الحيوان على الرأس وحده في الفن المصري. ثم حوفظ على القرنين وحدهما في الفن الإغريقي. والكبش من جهة أخرى كان هو القربان الذي يتقرب به لبَعْل حمون Baal HMN الذي صار فيما بعد هو ستَورْنوس Saturnos ؟ غير أن هذا الافتراض لا يبرهن على شيء، إذ كانت الثيران تذبح كذلك على بَعْل حمّون-ستورنوس، كما كانت

الكباش يضحّى بها لآلهة أخرى. وفي جبل بوقَرْنين Djebel Bou Kournine غير بعيد من تونس، كان الناس في القرون الميلادية الأولى يعبدون سَتورْنوس بلْكَرنَنْسيس Saturnus Balcarnensis، وهي صفة تؤدي التعبير البونيقي بَعْل قَرْنايم Baal Qarnaïm أي «سيد القرنين». ولكن هذين القرنين يمثلان قمتي الجبل. لا قرنين قد يكون الإله حملهما وصوره لا تحملهما، لأنه مصور في الهيآت الكلاسيكية لِكْرنوس – ساتُرْن.

وأهم من ذلك، هي الملاحظات التي تثيرها الأسماء التي تضاعف فيها الشبه كثيرا بالتغيرات الحاصلة في الكتابة، أي في النطق. وبدون شك، ليس إلى أخطاء النقاشين وحدهم، يجب رد التغيير الحاصل في بعض النقوش البونيقية، التي بها حرف الحلق القوي (حث H) قد تعوض بحرف حلق ضعيف جدا، أو إنه قد ألغي تماما. وبالمقابل، فإن اسم الإله المصري الليبي مكتوب في الغالب همّون Hammon، لا أمّون Ammon عند كتّاب لاتانيين أو في بعض النقائش اللاتانية. وذلك على ما يظهر هو ما يفسر بالصيغة البونيقية HMN. فمن الطبيعي إذن أن نقبل كون الشبه العارض في الأسماء قد حدد تشخيص الآلهة، وأن هذا التشخيص كان فيما بعد سببا في الخلط الحاصل في الأسماء.

إن أمّون الذي عبده الليبيون كان هو أمّون رَعْ Ammon-Râ، أي أمّون الشمس. لكن حتى إذا جرى اعتراض على الاشتقاق الذي يربط HMN بالشمس، فإن لدينا أسبابا للاعتقاد بأن Baal HMN قد جعلت له صلة وثيقة بهذا الكوكب. وصحيح أننا لا نعثر على البرهان في الآثار المعاصرة لقرطاجة الأولى. فالقرص الشمسي ذو الجناحين وذو الثعابين على الجانبين، الذي يكثر وجوده على الأنصاب المهداة لتانيت ولبَعْل، يمكن أن يكون مثل الهلال القمري، رمزا إلهيا بالغ الغموض، ولا

يتعلق على الخصوص بالإله المبتهل له في النقيشة. والأسماء المركبة مع اسم المعبود، التي يدخل في تركيبها لفظ شمس Shemesh أي الشمس تفرض عبادة إله شمسي. ومثل ذلك اسم مَقومْ شَمْس أي «مدينة الشمس» الذي أطلق على لِكْسوس في نقود متأخرة على السيطرة القرطاجية. والرأس المشع شمسا على النقود التي سكّتها هَدْروميت القديمة في العهد الروماني. ومع ذلك فلاشيء يبيح التأكيد بأنه هو بَعْل حمون Baal HMN، إذ، مع كثير من الاحتمال، كان للفينيقيين بالغرب آلهة شمسية أخرى. لكن عدة أنصاب في مُكْتار تُرينا، من فوق إهداء باللغة النيوبونيقية لبَعْل حمّون، رسماً كبيرا للشمس، أي وجها تحيط به الأشعة. وهو ليس زخرفا عاديا كالهلال. بل إن الرسم والنقش يتكاملان. وفي العهد الذي أنجزت فيه هذه النذور، في القرنين الميلاديين الأول والثاني، كان بَعْل حمون يُنظر إليه على أنه إله شمسي. فإذا كان كذلك منذ عهد بعيد سابق، وإذا كان يماثل أمون ليس في الاسم فحسب، بل في كنهه أيضا، فيكون لم يجد صعوبة في الاختلاط به.

وسيقال : إذا كانت مجموعة الأحرف HMN تمثل في إفريقيا الاسم العلَم لأحد الآلهة، فمن العجيب أن لا نلاقيها في الأسماء المركبة مع اسم الآلهة. ولربما أن القرطاجيين، لما شخصوا بَعْل حمون وأمّون، تذكروا أن HMN في لغتهم إذا استعمل منفردا فليس اسما إلهيا، ولا يمكن أن يؤدي وظائفه. ولا يبدو أنه كوّن كثيرا من الأسماء المركبة مع أسماء الآلهة Théophores، وكانوا يستخدمون على الخصوص الأسماء التي نالوها في صُور. ولكي يجعلوا أبناءهم في حماية بَعْل حمون، كان يكفيهم اختيار أسماء يدخل في تركيبها لفظ بَعْل. وكانت هذه الأسماء كثيرة عندهم. أما بَعْلُهم، سيّدهم الأعظم، فلربما أنه لم يكن هو الإله

الذي كان الصوريون يدعونه هكذا، بل كان هو HMN. وبغض النظر عن الأسماء المركبة باسم الآلهة، فإن بَعْل كما قلنا سابقا، كان يظهر غير متبوع بلفظ آخر في بعض الإهداءات البونيقية. فهي كما نرجح موجهة لبَعْل حمون الذي كان في إفريقيا أكثر البعولة شعبية.

وإننا مع عدم قبولنا التشخيص الأولي، وقبولنا لتشخيص أمّون وبَعْل HMN فسنسمي هذا باسم بَعْل حمون. على أننا لا ندعي أن هذا التشخيص قد كان عاما. بل على النقيض، فإن كثيرا من الأهالي استمروا على عبادة أمّون Ammon ولم يقلبوه إلى بَعْل حمون. هكذا كان الأمر بمنطقة السدْرَتَيْن، حيث حتى الذين يتحدثون باللسان البونيقي في أوائل العهد الميلادي كانوا يبتهلون لأمّون، وهو اسم كانوا يكتبونه بدون حرف (حثْ heth) ولا يذكرون كلمة بَعْل قبله.

ليس لدينا عن بَعْل حمون البونيقي أية صورة صادقة. وفي تونس والجزائر آثار مختلفة أكثرها – إن لم نقل كلها – متأخرة عن تحطيم قرطاجة، وهي تعرض رأس إله وبه قرنان كبيران من قرون الكباش، يلتويان أمام الصدغين. هكذا صوّر الإغريق إلهَهُم زيوس – أمّون، لما مزجوا سمات زيوس الهيليني بطبيعة أمّون المصري – الليبي. وربما أن مثل هذه الصور قد استعيرت من الفن الإغريقي لتمثيل بَعْل حمون في البلاد الإفريقية التي تحدثنا عليها من قبل. فالإله ذو قرون الكبش لابد أنه بَعْل حمون حقيقة رفيق تانيت بني بَعْل، لأن هذه الأشياء ترجع دون شك لإحدى العبادات البونيقية. وكذلك يسوغ التعرف على بَعْل حمون في تمثال غليظ الصنع جدا له قرنا كبش، عثر عليه بساحل منطقة وهران، في سانْلو Saint-Leu، ومعه نصب يعرض صورة أستارتي أو تانيت. وعثر به أيضا على أنصاب أخرى تحمل إهداءات فينيقية. على أن

بَعْل حمّون الذي عُبد في قرطاجة الأولى يمكن أن يكون قد صور بطريقة أخرى كما سنرى بعد.

على بعد مائة فرسخ من إفريقيا الرومانية، وقع العثور على نقائش لاتانية تذكر اسم سَتورْنوس، وآثارا تمثل إلها بسِيمَا «كْرونوس-سَتورْنْ». وكانت بها هيأة المعابد، والطقوس، وتكريس الأنصاب بعد ذبح القرابين. والصور المسطورة على الأنصاب، والأوصاف والنعوت المقترنة أحيانا بستورنوس، كل ذلك يبرهن على أن الأمر يتعلق بإله بونيقي متستر في لفظ لاتاني، تحت وجه مستعار من الفن الكلاسيكي.

ويحتمل أن هذا الإله لم يكن هو نفسه بكل مكان. ففي المشرق، كانت بعولة مختلفة قد مثلت في كْرونوس-سَتورْن. كما أن بعولة مختلفة، متشابهة قليلا أو كثيرا أمكن ان تعبد في العالم الفينيقي الغربي، في قرطاجة نفسها. وأن تستمر عبادتها بعد الاستيلاء الروماني، وأن تحمل كلها اسم ستورنوس. لكن في إفريقيا فإن البَعْل الوحيد الذي تشخيصُه مع ستورنوس يُعتبر مؤكدا هو بَعْل حمون. والانتشار الواسع للعبادتين في مجال مشترك، يجعل هذا التشخيص مقبولا حتى مع تغيب براهين أخرى، وإن كانت هذه البراهين غير منعدمة. ففي قسنطينة، وُضع إهداء لاتاني إلى ستورنوس في مكان أقيمت به عدة أنصاب بونيقية أهديت من قبل إلى بَعْل حمون. وفي دقة Dougga أقيم معبد ستورنوس على أرض مليئة بالنذور، التي من بينها نذر عليه إهداء بونيقي لبَعْل حمون.

وتمثيل بَعْل حمون مع كْرونوس - سَتورْن يرجع لزمن بعيد. إذ توجد نصوص تتحدث على كْرونوس Κρονος، أي ستورنوس الذي كان

معظما جدا ومخشياً في قرطاجة. فهو كَسَتورْن إفريقيا في العهد الروماني، لابد اختلط مع بَعْل حمون الذي جرى الابتهال له مرات عديدة في أنصاب العاصمة، والذي كانت تهدى له الضحايا الإنسانية، أي الأطفال. وفي معبده جعل حنون النقيشة التي ذكر فيها بعثته الشهيرة التي قام بها على طول سواحل المحيط. وقد وصف ديودور الصقلي وصفا مختصرا التمثال البرنزي للإله المرعب الذي تنحني يداه، وتقبلان الضحايا الصغيرة، وتدعانها تنزلق إلى السعير. ولابد أنها كانت معروفة جدا عند الإغريق الذين زاروا قرطاجة. ولا يعقل أن تكون قد أبرزت سمَات زيوس أمّون، بحيث لو كان الأمر كذلك لدُعِي باسم بَعْل زِيوس، لا باسم كرونوس.

في القرن الثالث ق.م كان المسيليون Massyles – وهم أمة نوميدية – يعبدون كرونوس. ويقدمون له أيضا على ما قيل الضحايا الآدمية. فهل هو حقيقة إله إفريقي شخص مع كرونوس القرطاجي بسبب هذه الضحايا ؟ أو هو بَعْل حمون اتخذه الأهالي منذ هذا العهد ؟

ونعود فنعثر على كرونوس – ستورن في الغرب، بالمناطق التي كانت خاضعة للسيطرة الفينيقية أو لتأثيرها. ويمكن أن تختفي بعض المعبودات الأهلية أو بعض البعولة تحت هذين الإسْمَين. والرأي الثاني محتمل بالنسبة لكرونوس الذي كان يملك معبدا بالقرب من قادس، بالقاصية الشمالية الغربية لجزيرة ليون Léon، أي للذي أعطى اسمه لجبل بقرطاجنّة Carthagène وكذلك لرأس أرضي بجوار هذه المدينة. لكن يمكن أن يتعلق الأمر ببعولة أخرى غير بَعْل حمون. ويبدو أن أعمدة هيرَكْليس أي المضيق كانت من قبل تدعى أعمدة كرونوس. فإذا صح هذا، فلا مانع من أن نعزو لهذه التسمية أصلا فينيقيا.

ولماذا وقع تشخيص بَعْل حمون وبعولة أخرى مع كرونوس؟ السبب حسب بعض الكتاب القدماء وبعض العلماء المعاصرين، هو أن هذه كانت تطلب قرابين أطفالا، وأن كْرونوس كان أَكَلَ أبناءه هو. إن هذا التفسير ليس مقنعا مطلقا. فاسم كرونوس، وهو أب الآلهة وجدّها، ربما أنه عبد لأن هذه البعولة لم تكن معبودات تموت في أدوار معلومة وتعود للحياة في بهاء الشباب وقوته، بل لأنها آلهة حية أزلية مليئة بالسنين، فهي (شيوخ). هكذا كان يُسمّى كْرونوس قادِس، وسَتورْن قرطاجة الثانية.

لقد سبق أن رأينا أن كرونوس لم يذكر اسمه في معاهدة حنّيبَعْل وفيليب. ويصعب علينا التصديق بأن القرطاجيين لم يذكروا بَعْل حمون في هذه المناسبة العظيمة. فشاء البعض أن يروه في أبولون، والآخرون في هيرَكليس اليمين.

قد يكون التشخيص مع أبولون مناسبا لإله شمسي، لعله كان هو بَعْل حمون. ولربما أن هذا التشخيص قد جرى اتخاذه في مَكْتار، حيث إن العديد من النذور البونيقية تشهد بالقيمة الكبيرة التي لعبادة بَعْل حمون في العهد الروماني. وحيث إن النقائش الرومانية تخبرنا من جانب آخر أن أبولون كان واحدا من أهم آلهة المدينة، إن لم يكن هو أهمها، لكن إذا كان بَعْل حمون يعتبر شيخا، فمن قبيل العجب إعادة خلطه بأبلون الشاب الجميل، وكذلك مع هيركْليس الشديد. وملْقارْت Melqart كبَعْل حمون، لم يغفل ذكره في اليمين. لقد كان ملكا في صور أم قرطاجة التي كانت هي نفسها تؤدي له عظيم التمجيدات. لكن الإغريق شخصوا دائما ملْقارت هذا في هيرَكْليس. فهيركليس المعاهدة لا يمكن أن تمثل إلا هذا. وأما أن يكون بَعْل حمون وملقارت معبودا واحدا

باسْمَيْن مختلفين، فليس لدينا أسباب وجيهة لقبول ذلك. وصحيح أنهما ربما كان هذا وذاك إلهين شمسيين. غير أن نذرا بونيقيا كان على ما يبدو يميز بينهما جيدا. فالإهداء الاعتيادي قام به رجل مكلف في معبد ملقارت. ويذكر ديودور الصقلي في آن واحد (كرونوس) الذي يذبح له القرطاجيون الأطفال وهيركليس صور. فالقرطاجيون كانوا يهدون أيضا القرابين الآدمية (لِهِرْكول)، لكن ليس هذا دليلا على أنهم خلطوه مع (كرونوس)، لأن هذه الضحايا يمكن أن لا تكون مخصصة لمعبود واحد. وهل سيقال إن بَعْل حمون Baal HMN كان في فينيقيا هو ملقارت ذاته، وأن ازدواجا قد حصل في إفريقيا، مثلما جرى على ما يبدو لأسْتارتي وتانيتْ بني بَعْل ؟ ولكن بين الإلهين المتكونين هكذا توجد فوارق عميقة لا نراها بين الإلهتين. إني فوق ذلك لست أرى هذا الرأي مقبولا. وبقدر ما نستطيع الحكم، فإن إله صُور Tyr الذي كان أشد شبها ببَعْل حمون البونيقي، لم يكن هو ملْقارت - هيركليس، بل هو بَعْل شميم Baal shamim الذي شخصه الإغريق مع زيوس.

واسم زيوس هو المقدم على الأسماء الأخرى في صيغة يمين حنّيبَعْل. كما أن عمِلْكار بَرْكا Amilcar Barca، عند ذهابه إلى أسبانيا ليرفع شأن قرطاجة، قدم قربانا إلى زيوس. وأمام هيكل هذا الإله جعل آنذاك ابنه الأكبر يؤدي اليمين على أن لا يكون صديقا للرومانيين أبدا. وحنّيبَعْل في بداية حملته الكبرى بلغته في المنام أوامر جوبِتير Jupiter. وكما يقول تيت ليف، فإنه أشهد جوبتير على العهود التي قطعها لجيوشه قبل معركة تيسين Tessin.

ولم تندمج بعولة Des Baals فينيقية وسورية في كُرونوس - ستَورْن، بل أدمجت في زيوس - جوبتير. ذلك مما أكده الإفريقي القديس

أوغسطين. وليس مستحيلا أن يكون هذا الإدماج (أو التشخيص) قد وقع أحيانا على بَعْل حمون. ونعتقد أنه في إفريقيا قد أدمج في أمّون. وهذا كان عند الإغريق هو زيوس. وإذا تحول لدى اللاتانيين يوبِتير-حمّون، Iuppiter Hammon، بإظهار الحرف الأول في النطق، فلأن بعلاً القرطاجي قد كان لا شك ينطق به كذلك. والإله بقرني الكبش الذي عُبِد بشمال إفريقيا، لابد أنه دعي أحيانا أمّون Ammon، وأحيانا بَعْل حمون Baal Hammon، كما دعي أحيانا أخرى يوبِتير حَمّون. فمعاهدة حنّيبَعْل وفيليب، يحتمل أن وجود زيوس بها، يفسر غياب كرونوس عنها.

ومع ذلك فإن بَعْل حمون، يظهر أنه كان دائما مشخصا مع كرونوس - ستورن. أما زيوس - جوبتير فربما أنه يقابل بَعْل شميم Baal shamim الذي يعني «سيد السماوات» كما يبين ذلك فيلون البِبْلوسي والقديس أوغسطين. وفي شاهد أحد القبور كما في نذر مثلوم من قرطاجة ورد ذكر لكهنة بَعْل شميم هذا. وقد جرى ابتهاله على لسان حنون في فقرة باللغة الفينيقية من ملهاة Poenulus بقلم پْلوط Plaute. ويصفه القديس أوغسطين بأنه إله بونيقي. وفي كالْياري Cagliari اكتشف إهداء «إلى بَعْشميم (هكذا بحذف اللام) سيد جزيرة النسور». وسبق لي أن قلت إنه اسم لجزيرة قريبة من سردانية. فبَعْل شميم جاء من فينيقيا التي ذكر فيلون أنه كان يعبد بها. يُعْبد بِصُور Tyr كما تؤكد ذلك وثيقة من القرن السابع ونقيشة عثر عليها بقرب هذه المدينة. وبَعْل شمين Baal Shamin -هذه هي الصيغة الآرامية لاسمه - كان أحد الآلهة الكبرى بسوريا منذ القرن الثامن. وكان سيد السماوات يتجلى بالصاعقة. ولابد أنه في عهد متأخر فحسب جعلوه إلها شمسيا. وشُخِّص مع زيوس. ومن المحتمل

جدا أن يكون هو الـ (زيوس) الذي أقام له الملك حيرام Hiram معبدا في القرن العاشر. إنه إله أزلي لصور، ولكنه أقل شعبية في هذه المدينة من ملْقارت، غير أن رتبته كانت أرفع. فكان يجب له عظائم التمجيد في مستعمرة صور الإفريقية. هذا مع أن بَعْل حمون كان له بها عبّاد أكثر ولاءً وورعاً. وعمليا لا نظن أن بَعْل شميم وبَعْل حمون اسمان لإله واحد. وهل أمكن أن يوصف بعض القرطاجيين في بعض النقائش بأنهم كهنة بَعْل شميم، لو كانوا كهنة لبَعْل حمون، الذي ذكر بقرطاجة في الآلاف من الآثار الدينية التي تسميه حقيقة باسمه ؟

من بين نذور قسنطينة المهداة إما إلى بَعْل حمّون وتانيتْ بني بَعْل، وإما لبَعْل حمّون وحده، وقع العثور على نذر واحد يتوجه فيه الابتهال «إلى السيد، إلى بَعْل أدير Baal Addir، وإلى السيدة، إلى تانيت بني بَعْل». وبَعْل أدير معناه : «السيد القدير». فإذا كان المعني هو بَعْل حمون، فلماذا لم يذكر باسمه المعتاد، الاسم المذكور على الأنصاب المجاورة ؟ وإذا كان المعني إلها غيره، فلماذا جاء ليحتل بجانب تانيت مكان بَعْل حمون، في معبد مُكرّس لهذا الأخير ؟ وبنصب آخر من نفس المكان، نقرأ ما يلي : «إلى الأضون – أي إلى السيد – إلى بَعْل أضون Baal Adôn وإلى بَعْل حمون». إن تكرار كلمة أضون أمر يستنكر. ويقترح هاليفي Halévy إصلاح اللفظ الثاني DN' على وجه الاحتمال بكلمة DR' أي أدير Addir. فإذا قلنا هذا، فهل نفهم منه : «إلى السيد، إلى بَعْل أدير»، الذي هو أيضا، بَعْل حمون ؟ أو نرجع بالإسمين إلى إلهين متميزين ؟ وبرغم الشك الذي يثيره إقحام بَعْل آخر في مكان مقدم قبل إله المعبد، فإن صيغة الجملة أكثر موافقة للتأويل الثاني. وفي عهد الإمبراطورية الرومانية، كان بَعْل أدير لا يزال معبودا في أمكنة مختلفة بالولاية البروقنصلية ونوميديا.

فهو مذكور في إهداءين بالبونيقي اكتُشفا بالجمّ وبالكاف. كما أن نقائش لاتانية من سيگوس Sigus تذكر الإله الأبوي Deus patrius، وتذكر الإله المقدّس بَليدير الماجد : Deus sanctus Balidir Augustus، وتذكره كذلك نقيشة لاتانية أخرى اكتشفت بالقرب من قالمة باسم بَلْدير Baldir. إذن فهذا البَعْل لم يُدْمج في سَتورْنوس، ويمكننا على الأقل أن نؤكد أنه لم يدمج به في كل مكان. وعلى النقيض، لا يوجد أي نص منقوش لاتاني يذكر اسم بَعْل حمون Baal Hammon، إذ يبدو أن الأفارقة الذين كانوا يبتهلون له في لغة الفاتحين، لم يعطوه إلا اسم ستورنوس. فإذا لم نخطئ فإن بَعْل أدير هو إله آخر. وهل نجعله في علاقة مع ملك أدير أي «الملك القدير» الذي يذكره شاهد قبر أحد أمراء صَيْدة، واسمه إشْمون عَزار Eshmounazar ؟ هذا الدفين يطلب من الآلهة أن تسلم إلى ملك أدير الناس الذين يفتحون مدفنه، وإن مَلْك أدير يقف ضدهم إلى حد تحطيمهم. فيكون هو مَلِك الجحيم. وأدير تساوي Potens أي القدير، وهو الوصف الذي يطلقه سيليوس إيطاليكوس بالتدقيق على معبود جهنمي يعبده القرطاجيون، على حد قوله. وغالبا ما نلاقي بإفريقيا في القرون الميلادية الأولى واحدا اسمه بلوتو Pluto، ولا نلقاه من بعد مطلقا في غيرها من بلاد الغرب اللاتاني. إنه سيد العالم السفلي، يسهر على خصوبة التربة ويدعى الفاكه Frugifer. ونكاد نرى فيه بَعْل أدير. ولكن بلوتو هذا مرتبط ارتباطا وثيقا بالكِريريس Cereres مثل ارتباط بلوتون-هادس Plutôn-Hadès مع ديمِتير Déméter وكوري Coré في عبادات إيلوسيس والبلوينز. فإذا كان أَصله بونيقيا، فلابد أن نفرض أنه لما تحول فصار بلوتو، لم يستعر الاسم فحسب بل استعار طبيعة بلوتو الإغريقي أيضا. فيحسن إذن قبول كونه، على غرار ديمتير وابنتها، إلها إغريقيا محضا، وأنه أدخل في وقت لا ندريه إلى إفريقيا،

وأنه غالبا ما كان يضم إلى الإلهتين. وبعد هذا فنحن نجهل أي شيء كان بَعْل أدير هذا.

وقد عثر في خرائب أحد المعابد في بئر بوركْبة على دُمْية من الطين المشوي، تمثل إلها ذا لحية يستوي على عرش، وبجنبيه سفَنْكسان اثنان Deux sphinx، ويقوم فوق رأسه إما تاج من الريش وإما قلنسوة أسطوانية الشكل وذات أخاديد، يغطي جسمه رداء فضفاض، مثل الذي يلبسه الفينيقيون، يده اليمنى مرفوعة مفتوحة، واليسرى أصابعها مضمومة وكانت تحمل شيئا هو اليوم محطّم. ونفس الإله الملتحي بقلنسوة على الرأس، يظهر بصورة نصفية على قطعة نقد من هَدْروميت، تؤرخ بحكم أوغسطس. وهو يحمل بيده اليسرى سنابل، ويرفع اليد اليمنى. ويعود إلى الظهور في أواخر القرن الثاني على نقود كلوديوس ألبينوس الذي كان أصله من هدروميت. وهذه الصورة كثيرة الشبه بالدمية، إذ بها أيضا الأله الملتحي، على عرش ومن حوله سفنكسان، وعلى رأسه عمرة أسطوانية، هي قلنسوة مخددة أو تاج من الريش. يده اليمنى مرفوعة واليسرى ممسكة بسنابل. هذا السيد على هدروميت، المستعمرة الفينيقية القديمة، كان بدون شك بَعْلا. وفي عهد السيطرة الرومانية قد حافظ على هيأته الخاصة. والمعتقد هو أن الدمية قد مثلت إله هدروميت، المدينة التي لم تكن كثيرة البعد عن بئر بوركْبة. ولابد أنها مثلت كذلك الإله المعبود في المعبد الذي وضعت به، لكن استخرجت من هذه الخرائب إهداءات لاتانية لستورنوس. كما أن نقيشة بونيقية، في احتفال بذكرى تأسيس المعبد، هي موجهة إلى السيد بَعْل وإلى تانيت بني بَعْل. فيحتمل أنه هو بَعْل حمون، لأن بَعْل حمون في غير هذا المكان هو الذي أشركت به تانيت بني بَعْل. وهو الذي صار

ستورنوس. ومن جهة أخرى فإن عُمْلة كلوديوس ألبينوس تحمل من حول صورة الأله كتابة هي Saeculo frugifero. فهل هذه الكتابة هي كما يرى البعض ذات علاقة متينة بالصورة التي تصاحبها ؟ إن الصفة التي تطلق غالبا على ستورنوس الإفريقي كانت واحدا من ألقاب هدروميت الرومانية وهو Frugifera. أما لفظ Saeculum فقد جرى تقريبه من لفظ Αιων أيون وهو اسم أعطاه فيلون بِبْلوس لإله فينيقي، وقد يكون ترجمة للفظ السامي LM' أي أولوم Ouloum ومعناه الزمان البعيد، الأزل. وقد أثير الانتباه إلى أن الفينيقيين كانوا يعبدون إلها بهذا الاسم هو (أولوموس Ουλωμος كما سماه الكاتب الإغريقي الذي ذكره). إن هذا الاستنتاج أكثر ذكاء منه إقناعا. فالكتابة التي من حول الصورة، والتي نتحدث عليها، إنما هي على ما يبدو مجرد تأكيد غامض لسعادة الأزمان. ونعود لسِبْتيم سيڤير Septime Sévère وكلوديوس ألبينوس. فإذا لم يكن بَعْل هدروميت هو بَعْل حمون، وإليه أهديت النقيشة البونيقية على الحجر، الوحيدة المكتشفة حتى اليوم بهذا المكان، فإن اسمه سيظل مجهولا.

كثيرا ما استخرج من قرطاجة طين مشوي محطم قليلا أو كثيرا، يرجع لعهد بونيقي متأخر (للقرنين الثالث والثاني تقريبا)، ويمثل إلها بلحية، على رأسه قلنسوة دقيقة الأعلى. وهو أيضا يجلس على عرش وحوله سفَنْكسان، وهو أيضا يرفع اليد اليمنى مفتوحة، واليسرى تمسك بساطور له حد نصف دائري. وكذلك فإن دمى شبيهة تقريبا بهذا، قد جرى وضعها في مدافن بهدروميت. والساطور لها شكل مشرقي دال على أصل الإله الذي يحملها. كما أن الساطور هي رمز لآلهة الصاعقة، وكذلك كان (سيد السماوات) لدى الفينيقيين والأراميين. إذن فيمكن

لهذه الدمى أن تمثل بَعْل شَميم. وهناك صور لشخص على رأسه قلنسوة أيضا، ويحمل ساطورا كذلك، ولكنه مرسوم في قسمات أكثر فتوة، أو في وضع مغاير، فيمكن أن يرجع لإله آخر.

كما أن بعلاً مُلْتحياً، له قلنسوة مخروطية الشكل، يمسك صولجانا، ويجلس على عرش ومن حوله سفنكسان، وهو يرى على جعلان من عهد أقدم. وقد عثر على هذه الجعلان بسردينية، أو إنها صنعت بها. ولكنها تقدم لنا نماذج مصنوعة في فينيقيا. وعلى واحدة من هذه الحجارة، فالإله فوق ذلك يمسك الساطور ذات الحد نصف الدائري.

وكذلك، فإن قطعا نقدية بكتابة بونيقية، سكّتْها مدن إفريقية مختلفة حول عهد الميلاد أو قبله بقليل، تقدم رأس إله ذي لحية يرى من أمام أو من الجانب، أحيانا رأسه عار، وأحيانا معصوبا بإكليل من الغار، وأحيانا تغطي رأسه قلنسوة دقيقة من أعلى أو قلنسوة من ريش. فكل هؤلاء بعولة نجهل أسماءها. والكثير من بينها يصحبه كوكب. والذي يبدو على نقود ليكسوس هو إله شمسي، إن كان تعبير مَقومْ شَمْس Maqom Shemesh، أي (مدينة الشمس)، الذي تحمله هذه النقود ينطبق عليه.

5

كان لملقارت Melqart في قرطاجة معبد ورد ذكره على أحد النذور. وكان شريكا لسدْ Cid في مزدوج إلهي، سد ملْقارت، عرّفتنا به نقيشة أخرى من نفس المكان. ويدخل اسمه في أسماء مختلفة مركبة من أسماء الآلهة، ومن بينها اثنان كانا مستعملين بكثرة عند القرطاجيين،

هما : عَبْد ملْقارت Abdemelqart وبُودْ ملْقارت Bodmelqart (في اللاتانية هو أملكار Amilcar، وأميكار Ammicar، وبوملكار Boumilcar). وعلى ذكر أملكار، القائد العسكري الذي قضى نحبه أمام هيميرا Himère، يقول هيرودوت : «إن الفينيقيين كانوا على شرفه يقيمون احتفالات التضحيات، وإنهم أقاموا له في جميع مستعمراتهم المآثر، وأكبرها كان موجودا في قرطاجة». فلابد أن المؤرخ الإغريقي قد اختلط عليه عبد ملقارت هذا، أي (هذا الخديم لملقارت) بالإله ملقارت. وفي ثاروس Tharros بسردانية إهداء يرجع لمعبد هو لنفس هذا الإله. كما أن نقود إحدى المدن الصقلية كتب عليها بالحروف الفينيقية، عبارة روشْ ملْقارت Roushmelqart أي رأس ملقارت. وفي مالطة نقيشتان بلغتين أمر بنقشهما بعض الصوريين في القرن الثاني قبل الميلاد. وهما في النص الفينيقي تبتهلان إلى: «ربنا ملقارت سيّد صور». وفي النص الإغريقي إلى Ἡραχλης Ἀρχηγετης. إذن فالأمر هنا يتعلق بالإله الصوري ملقارت، أي ملك المدينة، الذي شُخِّص مع هيرَكْليس تشخيصا ذكره أيضا فيلون البِبْلوسي.

ولا داعي لنبحث هنا النصوص العديدة الإغريقية واللاتانية المتعلقة بهِرْكول الصوريين، هذا الذي كانوا يعبدونه بورع فائق. فبواسطة المستعمرتين الصوريتين لاشك قد انتشرت عبادته من قبرص إلى ما وراء مضيق جبل طارق. ولنتذكر فحسب أن القرطاجيين كانوا كل سنة يبعثون إلى أم الوطن (صور) سفارة مكلفة بحمل ولائهم لهركول. وأنهم كانوا ولمدة طويلة يقدمون له عُشُر مداخيلهم، حسب ما قد وقع تأكيد ذلك. وكانوا بعد الانتصار في الحروب يخصصون له حصة من الغنائم. وفي الظروف الخطيرة كانوا يقدمون له الهبات الثمينة ليستميلوا إليهم

رضاه. ولاشك أن ملقارت المعبود في المدينة الإفريقية العظمى، لم يكن يختلف في شيء عن ملقارت الصوري الذي بقيت قرطاجة تقريبا على اتصال به. وفي الغرب كما في صور فإن هذا الإله هو الذي كانوا يشخصونه في هيرَكْليس الإغريقي. وعلى قطعة نقود صقلية رسم رأس هيركليس مع تعبير روش ملقارت. وحسب قول لبوزانياس فإن Μαχηρις، (هذه صيغة مختصرة لملقارت) كان هو هيركليس المصريين والليبيين. ومعنى هذا في الحقيقة هيركليس الفينيقيين في ليبيا. وفي نصوص أخرى: إن هركول الفينيقيين يدعى المصري أو الليبي.

إذن فلابد كما سبق أن قلنا من تشخيص ملقارت مع هيركليس في يمين حنّيبَعْل بالمعاهدة التي عقدت مع فيليب المقدوني. وكذلك الأمر بالنسبة للهركول الذي كان القرطاجيون كل سنة يتقربون إليه بنحر ضحية آدمية. والذي نقل تمثاله إلى رومة، وللإله الذي كانت صورته على السواطير النحاسية الصغيرة، التي وضعت في القرن الثالث في قبور مدفنة سانت مونيك، والتي تمثله في سيماء هيركليس الإغريقي.

وكثيرة هي النصوص التي تذكر Ἡραχλης، أي هركولس Hercules بمختلف مناطق الغرب التي أقام بها الفينيقيون أو ترددوا عليها، وتركت بها حضارتهم آثارا. وسيحدث خطأ كبير إذا أريد العثور خلف هذا الهركول وفي كل مكان على ملقارت الصوري. ولكن يجب عدم تناسي هيركليس الإغريقي. ويحتمل جيدا أن آلهة أهلية قد مثلت هنا وهناك أيضا في هيركليس الإغريق، في هركول اللاتانيين. وذلك إما مباشرة وإما بواسطة الفينيقيين الذين ربما شخصوهما في ربهم ملقارت. والموضوع يبقى مظلما غالبا.

لابد من الاعتراف وبدون تردد بملقارت في الهركول الذي عُبِد في قاصية جنوب جزيرة قادس. وتأسيس معبده يعزى صراحة إلى الفينيقيين، إلى الصوريين. وتاريخه – كما أكد – يرجع إلى نهاية القرن الثاني عشر. وحتى عهد الإمبراطورية الرومانية، كانت تجري عبادته حسب طقوس مشرقية. وصورة هركول المستعارة من الفن الإغريقي، كانت تشاهد على نقود قادس الفينيقية. وتشاهد كذلك على نقود يحتمل أنها قد ضربت في أسبانيا على يد البركيين Barcides. فهو حسب ما يبدو ملقارت جزيرة قادس، الإله الذي ابتهل له حنّيبَعْل، راجيا حمايته.

وقريبا من مدينة ليكسوس الفينيقية، على الساحل المحيطي للمغرب، ذكر پلين الشيخ هيكلا لهركول، أي معبدا لهركول، قيل إنه أقدم من معبد قادس. ويحتمل كثيرا أن هذا الهركول كان هو ملقارت.

رأينا أن اثنين من صور كانا بمالطة يعبدان ربهما ملقارت، الذي شخص مع هيركليس، وأن أهل الجزيرة قاموا – هم أنفسهم – بعبادة هذا الإله، وذلك ما تشهد به نقود مالطية عليها كتابة فينيقية ورأس لهيركليس ذي اللحية، كما أن معبدا لهيركليس، ذكره بطليموس، كان أصله لاشك هو مدينة صور.

في صقلية يظهر رأس هيركليس على نقود صولونة Solonte المستعمرة الفينيقية القديمة، وعلى نقود لغير هذه سكّتْها الدولة القرطاجية، فيحتمل أنه ملقارت. أما قطع العُمْلة التي عليها التعبير روش ملقارت Roushmelqart، وتقدم صورة هيركليس، فهي ترجع إما لصِفَلويْديون Céphaloïdion وإما إلى هيركْليا مينُوا Héracléa minoa. غير أن هذه المدينة الأخيرة ترجع باسمها هيركليا Ηραχλεια′ لرفقاء

دوريوس Dorieus الأسْبَرْطي الذي كان يدّعي أنه ينحدر من هيركليس. ونتيجة لذلك، إذا كانت نسبة النقود إلى هيركليا مينوا هي نسبة حقيقية فإن الملقارت الذي تُبينه هو الإله الإغريقي، ويكون القرطاجيون حينما سيطروا على هذا الموقع قد ترجموا اسمه إلى الفينيقية. وطبعا فإن الهيركليس الذي كان يعبد في المستعمرات الإغريقية بصقلية الغربية، وبسلنونة Sélinonte، وأكريجَنْت وهِميرا Himère قد كان إغريقيا خالصا.

في إفريقيا الشمالية كان رأس ورموز هيركول تشاهد على نقود لَبْدة الكبرى وصَبْراتة، وترجع لعهد متأخر عن عهد السيطرة القرطاجية. وقد كان هيركول واحدا من أهم آلهة لَبْدة وجيغْتي Gigthi. وهاتان المدينتان اللتان في مقاطعة السدرتين أصلهما فينيقي، وفي ذلك سبب للاعتقاد بأن ابتهالاتهما كانت تتجه إلى الشيخ ملقارت الصوري.

والملك يوبا الثاني المنحدر من مسنيسا، ادعى أن جده الأعلى هو هيركليس. وكثيرا ما مثل رموزه على نقوده. فهل الذين سبقوا يوبا، ادّعوا هم أيضا هذه القرابة في النسب ؟ وإذا كانوا قد فعلوا ذلك، فهل ارتبطوا بملقارت الفينيقي ؟ لإثبات ذلك، لا يكفي التذكير بما مارسته الحضارة البونيقية من تأثير على هؤلاء الأمراء. ولربما أن الأمر يتعلق بواحد من المعبودات الأهلية. وأن يوبا الذي كان مغرما بما هو هيليني قد وَجَد فيه هيركْليس.

في القرون الميلادية الأولى، أبدت لنا الكتابات اللاتانية عبادة هركول منتشرة جدا في الولايات الإفريقية. وفي العديد من المدن التي لم تنشئها رومة، كان لهذا الإله المقام الأول بها، حيث كان ينظر إليه على أنه الرب الحامي للمدينة. وقد يعتقد أنه في بعض الأمكنة، كان من أصل فينيقي، ولكن لا نستطيع تأكيد ذلك.

ومثل ذلك نقوله عن أسماء جغرافية، من رؤوس، وجزائر، وموانئ ومدن لهيركليس أو لهيركول، مما نلاقيه في بلاد مختلفة بالغرب. وقد أعطى موڤَرْس Movers وعلماء آخرون مكانا واسعا هنا لملقارت. وأشهر هذه الأسماء المستعارة من هيركول Hercule قد أطلق على مضيق جبل طارق. ولفظ هيراكليوس Ηραχλεους΄ أو هراكليوي سطلاي Ηραχλειοι σΤηλαι كان مستعملا عند الإغريق على الأقل منذ بداية القرن الخامس. وكان موجودا في ترجمة إحدى الكتابات البونيقية، هي رحلة حنون. فهل النص الأصلي قد ذكر ملقارت ؟ وهل قد تُرجم كلمة كلمة ؟ ذلك ما لا نستطيع قوله. وليس لدينا حجة على أن الفينيقيين كانوا قد دعوا المضيق باسم هذا الإله. بل على النقيض نقرأ في سْترابون : حسب الإيبيريين والليبيين، فإن (أعمدة) هيركليس لم تكن موجودة في المضيق، بل كانت عمودين شهيرين من البرنز، منصوبين في معبد الهيركليس الصوري القريب من قادس وعليهما كتابات فينيقية. ويحتمل أن هذه التسمية كانت مستعملة عند فينيقيي أسبانيا وإفريقيا.

لقد حكى القدماء العديد من الحكايات المتعلقة بأعمال هيركول الباهرة في الغرب، وبأفعال أصحابه وأبنائه وأعمالهم في هذا القسم من العالم. فقد جاب ليبيا مع رفيقه المخلص يولَوُس Iolaos، ونقاها من الوحوش الضارية، وانتصر على أنْطي Antée الجبار في معركة قيل إنها جرت في كلوبيا بالقرب من الرأس الطيب، أو بجهة طنجة ولِكْسوس. وزار أطلس حامل السماء. واستولى على التفاح الذهبي من حدائق الهِسبْرِيد Héspérides الواقعة حسب بعض الكتاب بالقرب من لكسوس. وفتح المضيق بين أوربا وليبيا، أو أنه أقام عمودين (نصبين) في أقصى طرفي القارتين. وذهب ليستولي بجنوب أسبانيا على قطيع

جيرْيون Géryon. وخلف ذكراه بإفريقيا في القنطرة El-Kantara وهو الموقع الذي كان في العهد الروماني يدعى باسم Ad Calceum Herculis، ربما بسبب ما أكدوه من أن البطل قد ركل بقدمه ركلة فتحت الممر الذي وصل بين التل والصحراء. وأسس مدينتي قَفْصة Capsa وتبسّة Theveste. كما أن عشرين من رفقائه أنشأوا مدينة إيكوزيوم Icosium أي الجزائر في موقع قد عبره هو بنفسه. وأحد أبنائه، هو صوفكْس Sophax، أنشأ تنْجي Tingi أي طنجة. ويدعي الكثير من الناس أن هيركول قدم إلى إفريقيا مع الهنود Des Indiens. وحسب يوبا الثاني، فإنه بموريطانية قد أقام الألبيين Olbiens والموكينيين Mycéniens. وحسب هيمْبسال Hiempsal الذي يروي رأي (الأفارقة) فإنه – أي هيركول – قد مات في أسبانيا. غير أن الميديين Mèdes، والفرس Perses، والأرمنيين الذين كانوا بجيشه قد ذهبوا إلى إفريقيا الشمالية ومكثوا بها. وكان له ابن أو مصاحب هو أفرْ Afer الذي أعطى اسمه للأرض. أما سردانية فقد استولى عليها ابن آخر من أبنائه هو سرْدوس Sardos، الذي كان يقود الليبيين، أو استولى عليها الأبناء الذين أنجبهم من النسوة الثسْبيادْيات Thespiades، ومعهم ابن أخته يولَؤوس Iolaos، كما أن باليوس – وهو أحد رفقائه – أعطى اسمه للباليار. إن البعض من هذه الخرافات يتصل قليلا أو كثيرا بملقارت. فالهيركول الفينيقي – وفي غير هذا المكان الهيركول الليبي – هو مؤسس قَفْصة. وسرْدوس هو ابن لهيركْليس (المصريين والليبيين)، أي ماكريس Makéris يعني ملقارت. أما الهيركول قائد الميديين والفرس والأرمنيين، الذي مات بأسبانيا، فهو بدون شك الملقارت الذي كانوا يشيرون إلى قبره في معبد جزيرة قادس. وإذا كانت بعض الخرافات قد ذكرت بعض الأماكن بأنها جرت فيها أعمال هيركول الباهرة – مثل لِكْسوس للمصارعة ضد أنْطي، وللاستيلاء على التفاحات الذهبية، ومثل

جوار قادِس لأخذ قطيع جيرْيون – فذلك على ما يظن لأن بها كانت توجد معابد شهيرة لملقارت.

وهل الفينيقييون الذين استعاروا الكثير من البابلونيين قد حكوا عن ملقارت أساطير شبيهة بأسطورة كِلْكَاميش Gilgamès، بطل أرض الفُراتَيْن الذي صارع الأغوال والأهوال، وضرب في الأرض برا وبحرا ووصل ربما إلى تخوم الغرب ؟ ذلك ما يستحيل قوله. ومن جهة أخرى فإن الأساطير الإغريقية عن أَنْطي، وأطْلس، والهِسْبِريد وجيرْيون ليس بها أية سمة فينيقية متأكدة. وهؤلاء الأشخاص الأسطوريون، قبل إبعادهم إلى أقاصي ليبيا وأوربا، كانوا يسكنون في مناطق عيّنها لهم الاغريق وحدهم ليسكنوها. فأطلس في أركاديا Arcadie، وجيريون في الإبير Epire، وأنطي والهِسْبِريد بسرِنيكا. أما الهيركليس الذي جعلوا له بهم علاقة، فكان بطلا إغريقيا خالصا. وبعد ذلك بكثير جرى نقل بعض هذه المفاخر إلى الغرب الأقصى، إما لأن الأقاصيص العجيبة يوافقها التراجع إلى بلاد مجهولة تقريبا، وإما لوجود سوابق تبرر مطامع وأعمالا استعمارية، وإما لأسباب أخرى نجهلها. غير أن هذه الأساطير ترجع دائما إلى هيركليس، حتى ولو نقلته إلى جهات كان ملقارت يعبد بها. وفي حكايات أخرى تلاقينا تفصيلات أصلها إغريقي، وليس فيما بقي منها ما يدعي أن له أصلا فينيقيا متفردا. إذن فلننح هذه الأخاليط، ولنكتف بالنتائج التي تسمح بها الوثائق البينة. عبادة هيركول الصوري ليست متأكدة بالغرب إلا في قرطاجة ومالطة وثاروس وقادس. وليس مشكوكا فيها بغرب صقلية وفي لكسوس، كما أنها محتملة في لبدة الكبرى وصبراتة وجيغْتي Gigthi.

وماذا كان ملقارت ؟ لقد أعطوه أباً وأماً هما زِيوس وأَسْتِريا Astéria، اللذان يبدو أن اسميهما يقابلان اسمي بَعْل شميم رب السماوات وأشترت، وهذا لا يعلمنا شيئًا جديدًا.

إنه كان يموت ويحيى. فقد حكى أحد الكتاب الإغريق وهو أودُكْس Eudox الكَنيدي أن هيركليس كان قد قتله تيفون Typhon حينما كان يجوب ليبيا، غير أن رفيقه يولَؤوس Iolaos أعاده إلى الحياة بأن جعل له تحت أنفه سلواة، أي الطائر الذي كان هيركليس يأكله بنهم شديد. لذلك فالفينيقيون كانوا يضحون له بالسلوى. وإنها لخرافة عجيبة يصعب تفسيرها. ولقد سبق لنا القول : إن معبد جزيرة قادس كان به قُدس أقْداس ملقارت Saint-Sépulcre. وفي صور فالملك حيرام، وهو معاصر لداوود وسليمان، كان أول من أقام في شهر بريتيوس Péritios احتفالا سمّاه مَنْنْدَر الأَفْسوسي Ménandre d'éphèse باسم (يقظة هيركليس). ويقع شهر بريتيوس في فبراير – مارس. إذن ففي نهاية فصل الشتاء كانت تقام الطقوض المخصصة لتنبيه الإله من نومه.

وهناك نص آخر يذكر موت هيركول بالنار، وذلك في نفس مدينة صور هذه. ذلك أن القائد القرطاجي عَمِلْكار Amilcar – الذي يبدو أن هيرودت كان يخلط له بملقارت – كان على ما رووا قد مات في لهيب إحدى المحرقات. ويمكن التساؤل : ألم يكن موت الآله حدثا سنويا ؟ والضحية التي كان القرطاجيون يقدمونها كل سنة لهيركول هل كانت لا تحرق ؟ وهل لا تمثل الإله ؟ غير أن هذا الاحتفال الذي يرتكز على إحراق ملقارت، لابد أنه كان طقسا سحريا شبيها بنيران سان جان Sant-Jean. وذلك، على ما يظهر يعني تقوية حرارة الشمس.

وربما ان تنبيه هيركليس لم يكن عبارة عن حفل متميز عن حفلة إحراق الإله، بحيث يمكننا أن نرى فيها العيد السنوي الكبير الذي كان السفراء القرطاجيون يأتون للمشاركة فيه. ولماذا كان يقام في فبراير – مارس ؟ إن الطقوس الشمسية كانت تجري عادة عند وقوع الانقلابين (الشتائي والصيفي)، وذلك إما لإعانة الكوكب على استعادة شدته، وإما للحيلولة دون فقدان شدته تماما. لكن التاريخ الذي وقع الاختيار عليه بصور، يمكن تفسيره بكون حرارة الشمس في فينيقيا تبدأ في الرجوع إلى شدتها حول شهر مارس.

هذه هي الأسباب التي تأذن بافتراض أن ملقارت كان إلها شمسيا. وذلك ما ذكره شاعر إغريقي من عهد متأخر هو نونوس Nonnus. ثم إن النقود التي تُدْعى فيها لكسوس مدينة الشمس، تضيف برهانا حسنا لصالح هذا الافتراض، إذ كان يمكن التدليل على أنها تشير إلى المعبد القديم الشهير لهركول، المقام عند أبواب المستعمرة. غير أن الرأس المرسوم على جل هذه النقود لا يقدم نموذج هيركول، بل يحتمل أنها تقدم بعلا مشخصا مع جوبتير. وإننا نشك في إمكان الادعاء كحجة قاطعة، بوجود هيكل وقبر لملقارت بجزيرة قادس، عند مدخل هذا البحر المحيط الذي تغيب فيه الشمس كل مساء.

6

كان إشْمون (SMN') واحدا من أهم آلهة قرطاجة. بحيث نلقاه بها كثيرا جدا في الأسماء المركبة مع اسم المعبود. وقد ذكرت إحدى الكتابات معبده. وكتابة أخرى ترجع لأحد كهنة إشمون أشتارت، بتعبير مزدوج سنعود له. والأسماء المركبة مع اسم إشمون، كانت لاتزال

مستعملة في إفيريقيا الرومانية. ومن سردانية كتابة بثلاث لغات، نقشت في القرن الثاني ق.م، هي في النص البونيقي تتوجه إلى أشمون م، ر،ح M'RH، وفي النص الإغريقي إلى Ασχληπιω μηρρη′، وفي النص اللاتيني إلى إيسكولبيو ميري Aescolapio Merre [91] ونجهل معنى كلمة ميري Merre.

إن إشمون المعبود في الغرب أصله من فينيقيا، إذ كان لعبادته أهمية كبيرة في صيدة. وكانت عبادته تقام في مدن أخرى، ربما في صور وبالتأكيد في بيروت Beryte.

وتشهد الكتابة السردانية التي ذكرناها آنفا، بأنهم كانوا يشخّصونه مع إسكولاب Esculape، وذلك ما يشهد به دمَسْكيوس Damascius في الحديث عن إشمون بيروت، كما يشهد به الإهداء إلى أسكلبيوس، وهو باللغة الإغريقية، وقد عثر عليه في معبد لأشمون بالقرب من صيدة. وفي قرطاجة، بقمة جبل بِرْسا Byrsa، نجد هيكلا جليلا مكرّساً إلى «إسكولاب». فإذا لم نشخص إسكولاب هذا مع إشمون، فلا نرى أي إله بونيقي يمكن أن يمثله. وفي قرطاجنّة Carthagéne أي قرطاجة الجديدة التي أنشأها البركيون Barcides في أسبانيا، يذكر پوليب جبلا كان هو أيضا يحمل هيكلا لأسكلبيوس.

والعديد من الكتابات اللاتانية تشهد بوجود عبادة لأيسكلابيوس Aesculapios في الولايات الإفريقية الرومانية. والظن أنه هنا وهناك كان هو إشمون، خصوصا عندما نجده شريكا لكيلسْتيس Caelistis، وعندما نلاقيه في مدن أصلها فينيقي. وفي قرطاجة الثانية كان هيكل لأسكولاب Esculape قائما على جبل سانلوي Saint-Louis، ربما بنفس المكان الذي كان به من قبل هيكل إسكولاب البونيقي.

وقد تسمى إشمون بأسماء آلهة أخرى إغريقية. وافترض البعض أنه في فينيقيا، وقع تشخيصه حينا مع أسكلبيوس، وحينا آخر مع ديونِسوس Dionysos. ولكن ليس لدينا سبب وجيه لنعتقد أنه في الغرب قد شخص مع هذا الأخير. ولا يستحيل أن يكونوا أحيانا قد دعوه باسم هِرْميس Hermès، نتيجة لتماثله مع تْحوت Thot، الذي هو (هرميس مصر. إن تحوت Thot كان إله مدينة خْمونو Khmounou، التي لاسْمِها شبه باسم إشمون، وقد عُبد في فينيقيا. ويدّعي فيلون البيلوسي أنه هو الذي (أي تحوت) نشر فيها عبادة الثعابين. ولكن سنرى أن الثعبان ربما كان له دور في عبادة إشْمون، ولم يكن مكرسا لتْحوت المصري. هذه كلها تلفيقات واهية جدا. وعلى ما يبدو كان للفينيقيين بالغرب إله شخص مع هِرْميس. ولكن لا يوجد برهان على أن هذا الإله كان هو إشمون.

لقد سبق أن نبهنا إلى أن أسْكلَبْيوس لم يذكر في اليمين التي بمعاهدة حنّيبَعْل. ومع ذلك فإغفال ذكر أشمون يكون تفسيره عسيرا. لذلك أقترح التعرف عليه إما في أبولون الثالوث الأول، أو في يولؤوس الذي بالثالوث الثاني. وسنرى قريبا أننا لا نعرف بالتقريب شيئا عن يولؤوس البونيقي هذا. ولصالح فكرة تشخيص إشمون مع أبولون، نلاحظ أن رأس سيدي علي المكّي بشمال خليج قرطاجة، كان يدعى في النصوص الإغريقية واللاتانية رأس أبولون أو رأس الإله الجميل (Promunturium Pulcheri)، وأن بالقرب من هذا الرأس، كما يذكر تيت ليف نقلا عن پوليب، يوجد ميناء لاسمه صيغة هي روسوكْمون Rusucmon في مخطوطات المؤرخ الروماني. ويتكون هذا اللفظ من قسمين هما : روس – روش Roush – ومعناه في الفينيقية رأس Cap، وأوكْمون Ucmon الذي يمكن أن يكون تحريفا لاسم

إشمون. وبهذا نكون قد عرفنا الاسم البونيقي لرأس أبولون. وكذلك فإن الصفة Pulcher تكون مناسبة لأشمون الذي امتدح دَمَسْكِيوس جماله العظيم. ويمكن الرد على هذا بأن قرطاجة كان بها معبدان مهمان جدا، أحدهما على جبل برسا وهو مكرّس لأسْكلبيوس، الذي يبدو تشخيصه حتما مع إشمون، والآخر قرب الساحة العامة، وهو مكرس لأبولون. ويصعب الاعتقاد أن هذين المعبدين اللذين ذكر أپيان كلاهما، نقلا عن پوليب، قد كانا ملكا لنفس الإله. فإذا كان حقيقة رأس أبولون هو رأس إشمون، فلابد من القول بأن أبولون الذي بالرأس، ليس هو أبولون معبد قرطاجة. وختاما فإن التشخيص الوحيد هو تشخيص إشمون مع إسكولاب.

ولم يعثر في إفريقيا على أي صورة – لا من العهد البونيقي، ولا من العهد الروماني – تمكننا من القول بالتأكيد بأنها تمثل إشمون.

وليس لنا معلومات جيدة على طبيعة هذا الإله، ولا عن الآلهة الفينيقية الأخرى. وقد ذُكِرت لاسمه، وهو لا شك اسم علم، عدة اشتقاقات قدمها الأقدمون والمحدثون، ولكنها غير مرضية. وحسب فيلون ودَمَسْكيوس، إنه ابن سيديك Sydyk، أي سديق أي الصادق çadiq. وقد قال أحد أهل صَيْدة البوزانياس: إن أسكلبيوس الذي يعبده الفينيقيون هو مولود من بولون. وهذا الإله الصادق ربما أنه كان مثل هذا الأبولون سيّداً على الشمس. وعند البابلونيين فإن شمس Shamash (الشمس) الذي يرى كل شيء، كان هو الحكم الأعلى. وهذا الرأي يمكن أن يكون اتخذته شعوب سامية أخرى. ومن جانب آخر، في عهد الإمبراطورية الرومانية، كانوا عن طيبة خاطر يشركون أيسْكولابْيوس وكيلسْتيس في إفريقيا. فكانوا إذن يقبلون علاقة متينة بين إشمون وأشتارتي، مثلما

ولماذا شخص مع إسكولاب؟ ربما كان له كالإله الإغريقي، القدرة على الشفاء. وهذا ليس سوى افتراض. فالثعبان كان مكرسا لإسكولاب. والعلماء المحدثون على العموم يعطونه أيضا لإشمون، ويعتقدون أن ذلك هو سبب تمثيله في أسكلبيوس. ولكن هذا الافتراض يتعارض حقا مع الافتراض السابق، إذا ظننا أن الثعبان في العبادتين كان ينظر إليه كحيوان يشفي.

وسنلقاه على بعض الآثار الإفريقية التي ترجع لما بعد تخريب قرطاجة، ولكنها ترتبط بعبادات أصلها بونيقي. ففي إحدى العصابات الفضية، تتكون المجموعة الوسطى من إله وإلهة، يبدو جيدا أنهما بَعْل حمون وتانيت بني بَعْل. وعلى الجانبين ثعبانان كل واحد منهما يتلوى حول وتد. كما يُرى ثعبان واحد أو اثنان على العديد من الأنصاب النذرية في القطر التونسي وفي الجزائر الشرقية. فهناك الثعبان يصاحب شخصا يحمل هدياً. وهناك يرى ثعبانان يكوّنان دائرة حول رأس أحد الآلهة، والرأس مرسوم بأعلى الحجرة. كما أن وثائق أخرى تنبئنا أن الثعابين قد عبدت في عدة أماكن بإفريقيا الرومانية. على أنه لا برهان لدينا على أن هذا الحيوان قد كان يعزى إلى إشمون في مكان ما. والإله الممسك بثعبان على نقود فينيقية لجزيرة يابسة Ibiça ليس هو إشمون، بل الراجح على الظن أنه بِسْ Bés. وقد كان للثعبان في فينيقيا ميزة مقدسة، على الأقل في بعض العبادات، وذلك ما يشهد به فيلون البيلوسي. ولقد رأينا أن هذا الكاتب كان يجعل له صلة مع تْحوت الإله ذي الأصل المصري. غير أن تشخيص تْحوت مع أشمون أمر غير أكيد.

وتوجد قطعة نقدية من بيروت ضربت في القرن الميلادي الثالث في عهد الإمبراطور إيـلاگـبال Elagabale، وهـي أشد إقناعا، إذ ترينا إلها عاريا وعلى جانبيه ثعبانان منتصبان. والمعتقد أنه هو إشمون، لأننا نعلم بواسطة دِمَسْكِيوس، أنه كان يعبد في بيروت. وربما أن لأشمون هذه المدينة يجب إرجاع صورة تشبه هذه تقريبا، رسمت على قطع نقدية إمبراطورية من عهد سِبْتِيم سِڤِيرْ Septime Sévère. ففيها نتعرف بوضوح على أسكلبيوس في الإله العاري الواقف بين الثعبانين، ويمسك على غرار إسكولاب الإغريقي بقضيب يتلوى عليه ثعبان آخر. هذا هو البرهان الوحيد الذي يمكن ذكره لصالح القول بأن الثعبان هو لإشمون. أما القطع النقدية فهي من عهد متأخر، ولكن يصعب التصديق بأن إشمون – إذا كان هو حقا – قد استعار هذين الزوجين من الثعابين من إسكولاب الإغريقي، لأن هذا الأخير يظهر مصحوبا بثعبان واحد، وليس محاطا عند الجانبين بثعبانين منتصبين. ويبقى أن نعرف هل هذان الثعبانان في الديانة الفينيقية هما ملك خصوصي لإشمون. لكن العصابة الإفريقية التي يظهران بها على جانبي بَعَلْ حمون وتانيت بني بَعْل، هذه العصابة تسمح باعتقاد مخالف.

كان يولؤوس عند الإغريق ابن أخت هيركْلِيس ورفيقه. واسمه قد استعمل في الدلالة على أنه إله بونيقي. وذلك هو ما تشهد به يمين حنّيبَعْل، التي جرى ذكره فيها بعد ديمون δαιμων القرطاجيين وهيركليس. ويمكن أيضا أن نفترض معبودة فينيقية مختفية وراء يولؤوس، الذي حسب الأسطورة التي رواها أودوكْس الكنيدي Eudoxe de Cnide، قد تبعت هيركْلِيس – مِلْقارت إلى ليبيا وأعادته إلى الحياة. وأسطورة أخرى لها صلة ببعثة ليولؤوس إلى سردانية. فهو قاد إليها أبناء

هيرَكْليس والتيسْبيادِيات Thespiades. وبعد موته نال التمجيدات الإلهية. ويكون أعطى اسمه لشعب كان في العهود التاريخية بعيش بجبال الجزيرة، هو شعب الأيوليين Ioléens. ويجب أن نفترض على النقيض من ذلك، أن اسم هذا الشعب هو الذي أوحى بالقصة عن رحلة يولؤوس. وهذه القصة إغريقية كما يوضح ذلك ذكر التسبيادس. ولكن يدّعي البعض أن سرْدوس Serdos ابن ماكريس (أي ملقارت) قد جاء بالليبيين إلى سردانية. وإذا لم يقولوا إن الأيوليين Ioléens كانوا ليبيين، فقد أكدوا بأنهم قد كان لهم طراز حياة هؤلاء الأخيرين. ومن ناحية أخرى فإن سرْدوس الذي وقع تمجيده بالعبادة في سردانية، كان على ما يحتمل هو نفس الشخص الأسطوري، كالبطل المدعو يولؤوس في الأسطورة الإغريقية. وكل منهما كان موصوفا بأنه أب. فيكون يولؤوس قد أخذ هنا مكان معبود كان الفينيقيون بإفريقيا يشركونه بملقارت.

ولكن لنا أسباب تجعلنا نظن أنهم كانوا يعبدون إلها اسمه يول Iol. ويبدو أن هذا الاسم كان يظهر في بعض الأسماء المركية مع اسم المعبود، كما يظهر ذلك في كتابات بونيقية اكتشف جلها بتونس. وقبل أن يدل هذا الاسم على مستعمرة فينيقية بالساحل الجزائري هي يول التي تُدْعى اليوم «شَرْشال»، فإنه قد يكون اسما لأحد المعبودات. فهل يول هذا – الذي وجوده غير أكيد – هو الذي يكون قد اختلط على الإغريق بصاحبهم يولؤوس ؟

وهناك اقتراح بتشخيص آخر. فحيث يبدو من الضروري العثور على إشْمون في يمين حنّيبَعْل، فقد اكتشف وجوده باسم يولؤوس. وقد قيل عنه إنه يعيد الحياة إلى هيركليس الفينيقي في أسطورة أودكس. وبهذا فهو إله يشفي، مثلما لابد أن كان إشمون – إسكولاب. وفي عديد

من الكتابات بجزيرة قبرص، نلاقي الاثنين إشمون ملقارت. والنتيجة هي أن هذين الإلهين كانا مشتركين. كما كان يولؤوس وهيركليس عند الإغريق. ولا فائدة في الوقوف عند هذه الفرضيات الواهنة.

كان إشمون يمتّ قليلا أو كثيرا إلى أدونيس رب مدينة بِبْلوس. فهل كان أدونيس نفسه يعبد في الغرب ؟ إن طقوسا شهيرة، اتخذت في قبرص ثم في بلاد الإغريق كانت تقام عند موته سنويا. وجرى الظن أن بقايا من هذه الطقوس بقيت حية في عادات شعبية بمالطة وسردانية حتى عهد قريب منا. ولكن لم يكن بالمستطاع إثبات أن هذه العادات هي من أصل فينيقي.

واستخرجت من أحد قبور قرطاجة، راجعٍ للقرن السابع أو بداية السادس، قطعةٌ من الحلي عليها هذه الكتابة : «إلى أشْتارت، إلى بِگْماليون PGMLYN، يدا ملْك ابْن يَداي. لقد نجا من أنجاه بِگْماليون». لا يمكن في بداية هذا النص أن نرى في إشتارت وبگماليون تَشاركاً إلهيا، مكونا على غرار التشاركات التي تقدم لنا أمثلة منها كتابات، هي أحدث عهدا مثل : إشْمون ملْقارت، سيّد ملقارت، سيّد تانيت وغيرها. فبگماليون هنا لايتلو مباشرة أشتارت، بحيث يكون متعلقا بهذا الاسم كالمضاف في اللاتانية. فهو كأشتارت مسبوق بحرف يؤدي معنى "إلى" في لغتنا[92]. وتركيب هذه الجملة يأتي في النصوص التي يكون فيها الاسم الأول صفة لمعبود يعرف بالاسم الثاني. مثال ذلك : «إلى الأضون، إلى بَعْل حمون»، «إلى الربّة، إلى تانيتْ بني بَعْل). غير أن هذا التفسير لا يناسب كتابتنا حتى ولو أردنا قبول كون أشتارت هو لقب أو صفة لا اسم علم. فإنه لم يطلق أبدا على معبود ذكر، كما كان

بگماليون. ثم إن افترض معبود خُنْثى لن يجد أي سند قوي فيما نعرفه في الديانة الفينيقية. ولذلك فيحتمل الأخذ بهذا التأويل، وهو : «إلى أشتارت وإلى بگماليون» هكذا بحرف العطف الذي نُسِي أو وقع إضماره.

ومن المستحسن – ربما – أن نرجع لهذا الإله بگماليون معلومة أوردها العالم اللغوي هيزيكْيوس Hesychius وهي (پگمَيون – كذا – Pygmaïôn : أدونيس عند القبارصة). والأسماء المركبة باسم المعبود التي استعملت في قرطاجة دلتنا على وجود إله عند الفينيقيين باسم PMY أي بوماي Poumaï الذي يبدو أنه كان ممجدا في قبرص على الخصوص. ونفس هذا الإله يظهر أنه دعي بصيغة ثانية للفظ بوماي، وهي : بومايون Poumaïôn، الصيغة التي كتبها الإغريق بگماليون أي πυγμαλιων فالاسم، وقد ارتدى جلبابه الإغريقي، فرض نفسه على الفينيقيين أنفسهم في هذه الجزيرة التي عاش بها الجنسان مندمجين تقريبا. ومنها انتقل الاسم إلى الغرب، وهذا مالم يكن الشخص المالك لقطعة الحلي المكتشفة في قرطاجة فينيقيا من قبرص. وحسب شهادة ضئيلة القيمة، فإن بگماليون قد حصل أيضا على مقام في معبد هركول المجاور لقادس. ثم إن الكتابة القديمة التي تذكره في آن واحد مع أشتارت، لا تتعارض مطلقا مع ما رواه هيزيكيوس. ثم إن الأساطير الإغريقية المتعلقة ببگماليون، ملك قبرص الأسطوري، تختلف مع أسطورة أدونيس. وهي مع ذلك تصوره لنا في قوة عنفوان الشباب، وتجعل له صلة بأفروديت. إذن فيحتمل أن هذا البوماي Poumaï، أن هذا البگماليون إن لم يكن هو هو متشخصا مع سيد ببلوس، فعلى الأقل كان يمت إليه بالقرابة.

ومن قرطاجة كتابة تذكر معبدا لأرْشوف Archouf ('RSF) وهذا الاسم المكتوب RSF يدخل كعنصر في اسم مركب باسم المعبود بنتر مكرَّس لتانيت ولبَعْل[93]. ويبدو أنه كان يُلفظ رَشُوف Reshouf. وفي الألف الثانية ق.م كانت عبادة رشوف واسعة الانتشار في سوريا. فعرفها المصريون، وأدخلوها لوادي النيل. وقد مثلوه محاربا، تغطي رأسه خوذة حادة من أعلاها، وبيده قناة وترس وساطور. وقد عبده كل من الفينيقيين والآراميين. ولربما أنه كان في أول الأمر أجنبيا عن هذه الشعوب، وأنه تلقى عندهم اسمه السامي الذي معناه (اللهب، البرق). فيكون إذن رب الصاعقة. كان هذا الدور، كما نعلم، معزوا إلى بَعْل شميم، ولكن ليس لنا داع للاعتقاد أن هذا الأخير قد اختلط مع رشوف. وعند الآراميين، كان رشوف متميزا عن هَداد Hadad. ويبدو حقا أن هداد كان مطابقا لبَعْل شمين. على أن بعض الصور البونيقية لإله ممسك بساطور يمكن إرجاعها لرشوف، وليس إلى بَعْل السماوات. وبينما كان هذا الأخير ممثلا بِزيوس كان رشوف يمثل بأبولون. وكان الإغريق يسمون إحدى مدن الساحل الفلسطيني باسم أبولونيا Apollonia، وهي التي كانت في العصور الوسطى تحمل اسم أرشوف. وبدون شك كان هذا هو اسمها الأقدم. وفي كتابات من قبرص بلغتين نجد اللفظ أبولون بالإغريقية قد عُبِّر عنه برشوف في الفينيقية.

وفي الغرب كما بالمشرق نجد هنا وهناك إلها فينيقيا يشخصه الإغريق في أبولون. إنه قبل كل شيء هو أبولون الذي اتخذ شاهدا في يمين حنّيبَعْل، في بدايتها بعد ذكر زيوس وهيرا. وهو أبولون الذي كان معبده مقاما بقرطاجة قرب الساحة العامة، بين المراسي وجبل بِرْسا.

والصورة الإلهية المذهبة التي كانت بأحد المعابد، وبترف فائق كانت مكسوة بالذهب، لا نستطيع القول إن تمثالا لأبولون حمل إلى روما، كان قد نقل من هذا المعبد. وأوتيكا على قول پلين الشيخ كان بها هيكل لأبولون، قيل عنه إنه أسس في نهاية القرن الثاني عشر على يد المعمرين الأولين. وبالقرب من هذه المدينة فإن رأس سيدي علي المكّي كان يسمى مرتفع أبولون. ويحتمل أن نفس الإسم الذي أطلق على رأس إفريقي آخر بالقرب من يول Iol (أي شرشال) المستعمرة الإفريقية، قد كان ترجمة لاسم سامي. كما يحتمل أيضا أن أبولون الذي عُبد في بعض الأمكنة بإفريقيا الرومانية، كان أصله فينيقيا، وعلى الخصوص في أويا (أي طرابلس) التي سُكّت بها، حول بدء العهد الميلادي، نقود تحمل رأس أبولون ورموزه. ولربما أن الأمر كان كذلك، عن أبولون الذي كانت عبادته بمالطة تشهد بها الصور على النقود.

ومع هذا، يكون من قبيل التهور التأكيد على أن أبولون هذا، في كل مكان يمثل رَشوف، إذ أن هذا الأخير لم يقع التصريح بوجوده إلا في قرطاجة. وكما سبق أن قلنا، فإن تشخيصات أخرى ليست من قبيل المستحيل. ومع أشمون، ولو أن هذا يُشَك فيه كثيرا، وفي قرطاجة نفسها، فإن معبد أبولون كان مقاماً، بحي تسمح بعض الإشارات بجعل معبد حمون فيه. ولربما أن بَعْلا هذا هو الذي يجب إرجاع رشوف إليه.

إن أسماء مركبة مع اسم المعبود، مستعملة عند الفينيقيين بالغرب كما بالمشرق، تعرفنا بإله اسمه سَكّون Sakkôn (SKN أو بألف زائدة SKN’) أحد هذه الأسماء هو جِرَسْكون Gersakkôn الذي حَوَّله الإغريق واللاتانيون إلى Γεσχων وإلى Γισχων وإلى جيسْكو Gisgo. وكان اسما كثير الوجود بقرطاجة.

ونظرا لأن Σωχος هو لقب هيرْميس عند هوميروس، فقد ظن البعض أن سَكّون قد تشخص مع هِيرميس. وهو افتراض واهن جدا. ولكن لاشك مطلقا في أن اسم هيرْميس وسِماته قد أعطيت لأحد آلهة الفينيقيين. ونعثر عليه ممثلا في ساطور صغيرة من النحاس، موضوعة في مدفن قرطاجي. كما أن رأسا صغيرا لهيرْميس، مرسوما على عملة من قرطاجة، تصحب صورة الفرس. ونفس الإله يُرى على نقود سَكّتها صولونة Solonte بصقلية في القرن الرابع. ومرتفع هيرْميس كان هو الاسم الذي يعرف به الرأس الطيب منذ العهد البونيقي. وحول القرن الرابع ذُكر رأس يحمل نفس الاسم على الساحل المحيطي للمغرب. وعلى أبواب قرطاجنّة Carthagéne كانت توجد رَبْوة مرْكور Mercure (أي عُطارِد). وتظهر صورة مرْكور-عُطارِد في صَبْراته ولبْتيس الصغرى وزيلي Zili على نقود متأخرة عن السيطرة القرطاجية. ويحتمل أن عبادته التي كانت منتشرة في الطبقات الشعبية بإفريقيا الرومانية بأمكنة مختلفة، قد كان لها أصل فينيقي. ففي سِرْتا (قسنطينة) Cirta كان معبد مُكرّساً للمرْكوريّين Mercuri(i)S Aug(stis)، ولربما أنه كان يأوي في نفس المكان مرْكور الإغريقي الروماني، ومرْكوراً بونيقياً.

سدْ (ÇD) Cid هو أيضا يعرف من أسماء مركّبة مع اسم المعبود في المشرق والغرب. وزيادة على ذلك فإن كتابات من قرطاجة تنص على معبد لسدْ تانيتْ ميارَة Méarat، ولسدْ باشتراك مع تانيتْ في معبد بحي ميگارا (؟). وفي كتابة أخرى تقع على الثنائي سدْ-ملْقارت. ولاشك أن اسم سدْ لم يكن له جامع بالمصْري سيتْ Set، الذي دعاه الإغريق باسم تيفون Typhon. غير أن اسمه كاسم مدينة صَيْدة (سيدون Cidôn) يمكن ربطها بالجذر اللغوي الدالّ على : (صَادَ وقَنَصَ Pêcher et Chasser).

وهناك نقيشة قرطاجية، ذكرت ولم يقع نشرها، وهي تتعلق بأحد الآلهة، اسمه شَدْرَابا Shadrapa (SDRP') ، وهو أيضا من أصل مشرقي. ونجده في فينيقيا وفي تَدْمُر Palmyre. والأغريق جعلوا اسمه ΣαΤραπης. وهنا تَشابهُ لفظي، إذ لا يُقبل كون اللفظ السامي مستعارا من اللفظ الفارسي خْشَتْرَبَوانْ Khchatrapawan أي (سْتْراب Strape). وشَتْرابا، ستْرابيس قد مُثِّل مُمْسكاً برمح في يده. ونحن نجهل لماذا تمثاله الذي وصل إلى إيليس Elis في البِلُوپُنيز، كان يُدعى فيها باسم بوسيدون Poséidon.

إن بعض القرطاجيين وكذلك فينيقياً واحداً من أهل المشرق، كما هو مذكور في بعض الكتابات، يحملون أسماء مُكوّنة من الاسم الإلهي MSKR، الذي اتُّفق على النطق به مِسْكار Miskar. ويُحتمل أن يكون هذا الإله مذكورا في فقرة بونيقية من مسرحية Poenulus لبْلوط Plaute. وكان يوجد بقرطاجة الأولى معبد لـ HTR MSKR، ويوجد معبد كذلك بمَكْتار كان في عهد الإمبراطورية الرومانية، كما يستفاد من كتابتين اثنتين، نقرأ على أولاهما HTR MYSKR ويسبقها لفظ MLK، أي Milk الملك. ونقرأ على الثانية TR MSKR. ولاندري معنى HTR، وعلى فرض أنه يعني معبودا شريكا لمسكار، فلا يُعقل أنْ هذه المجموعة من الأحرف تعني حاتور أي الإلهة المصرية. وMYSKR يمكن أن تُرجع إلى جذر معناه (أن يتذكر). ولكنني أشك بقوة في أن معبدا بقرطاجة الثانية هو Aedes Memiriae أي معبد الذكْرى قد استعمل لعبادة هذا الإله الفينيقي. وفي إحدى كتابات مَكْتار نجد ألفاظ Milk HTR MYSKR متبوعة ب : RZNYMM التي يمكن ترجمتها إما «بأمير الأيام، أو بأمير البحار». لكن قد عثر بالقرب من هذه النصوص النيوبونيقية على إهداء لاتاني إلى نِبْتون Neptune.

فهل كان هَتار (؟) مِسْكار إلها بحريا ؟ لكن مكتار بعيدة جدا عن الساحل، ونِبْتون الذي كان يُعبد في داخل إفريقيا كان ربّ عيون الماء، لا البحار. إذن فمِسْكار، مع هَتّار أو بدونها، يبقى شديد الغموض.

ويضيف شاهد قبر بقرطاجة أن الميّتة كانت كاهنة SKRW وليس لدينا أية معلومة أخرى عن هذا المعبود.

وتذكر كتابة من جزيرة گوزو Gozo معبد ص د م بَعْل ÇDMB'L. وهو اسم لا نجده بغيرها، ولابد من قبول وجود خطأ في النقش يصعب تفسيره لمن أراد جعل الاسم ÇLMB'L أي Çalambaal بمعنى (صورة بَعْل (Image de Baal) [95] هذه على ما يبدو هي الصيغة الفينيقية لاسم كتبه الإغريق واللاتانيون Σαλαμβας، Σαλαμβω أي سَلامْبو Salambo ويقع على أستارتي. وقد كانت أعياد على شرف سَلامْبو تقام بإشبيلية حول نهاية القرن الميلادي الثالث، ولكن لم يتأكد أن عبادتها قد أدخلت إلى جنوب أسبانيا، قبل ذلك بزمن طويل على يد الفينيقيين أو القادسيين أو القرطاجيين.

وعُثر بقرطاجة على جدول سحري من الرصاص به تعويذة تبتدئ بهذه الألفاظ : (Rabbat HWT ALLATMILKAT) بمعنى (السيدة HWT الربة، الملكة)، أو يكون المعنى هو : (سيدات HWT Maîtresses ، اللاّت، ملْكت). والدعاء يكون متوجها إما لمعبودة واحدة، واسمها مصحوب بثلاثة أوصاف، وإما - وهذا ما يراه السيد كليرمون كَنّو Clermont Ganneau - أنه متوجه إلى (مركّب ميثولوجي مُثَلّث)، أي إلى ثلاث إلهات مشتركات اشتراكا متينا، أو لإلهة ثلاثية (تذكرنا بالمثلثة هيكات Hécate التي هي أساسيا ربة الجحيم... الربة الكبرى

يسكنون حول بحيرة تْريتونيس، (سدرة الصغرى) كانوا يعبدون بوسيدون وتْريتون. ويؤكد في مكان آخر أن الإغريق اتخذوا بوسيدون عن الليبيين. ولكن لاشيء يسمح بالإصرار على أن الأهالي قد أخذوا عن الفينيقيين هذين المعبودين. وكثيرا ما نلاقي في العهد الروماني نبْتونُس Naptunus في إفريقيا بالساحل، حيث هو إله بحري. ونلاقيه أكثر من ذلك بداخل الأراضي، كما سبق أن رأينا، حيث هو إله عيون الماء. وفي بعض المدن الساحلية، يمكن أن يكون من أصل فينيقي. أما أن يكون رب عيون الماء فليس لنا داع للقول بهذا الافتراض. ونجهل كيف كان يسمى الألهان البونيقيان اللذان أطلقت النصوص عليهما اسمَيْ بوسيدون وتْرتون، كما نجهل الإسمين الفينيقيين لتْريتون أراضْ Arad ولبسيدون الذي يظهر وكأنه كان أهم إله في بيروت. وكذلك كان أهل صَيْدة يعبدون ربا للبحر، ولكن كان يُشخَّص مع زيوس، لا مع بوسيدون. وكان لابد يختلط مع بَعْل سيدون Baal cidôn أي ربّ صَيْدة.

في عدة مناسبات ذكرنا في الصفحات السابقة كتابات ترينا بعض الآلهة المشتركة مثْنى، مَثنى بطريقة باللغة الاتصال، بحيث يتتابع الاسمان بدون رابط متوسط بينهما. ففي قرطاجة نجد سِدْ تانيت Cid Tanit، سِدْ ملْقارت Cid Melqart، إشْمون أشْتارت Eshmoun Ashtart، وربما يضاف إلَيها هتار (؟) مسْكار Hatar (?) Miskar. وتوجد بالمشرق ثنائيات مثلها هي: إشْمون ملْقارت في جزيرة قُبْرص، ملْقارت رَشوف Melqart Rashouf في صُور. ولا نتحدث هنا إلا على الآلهة الفينيقية. والثنائي كما نرى يتكون آناً من إلهين ذكَرَيْن، وحيناً آخر من إله وإلهة. فهل نقيم بين الاسمين علاقة مثل العلاقة التي قد يكوّنها ويُظهرها خط الوصل Trait d'union في اللغة الفرنسية ؟ الأمر يتعلق بمعبودين كانا في الأصل منفصلين ومتميزين،

ثم يكونـان قد امتزجـا في معبـود واحـد مثـل أمّـون–رَعْ Ammon-Râ عند المصريين. إن هذا التأويل يقبل، إذا اقتضى الحال، للثنائيات من إلهين مُذَكّرين، مع أن فكرة امتزاج إشْمون ومِلْقارت، وامتزاج مِلْقارت ورَشوف لا يمكن دعمها بحجة أخرى. أما الثنائيات المتكونة من إله وإلهة فلابد من قبول وجود آلهة خُنْـثاوات Hermaphrodites، الأمر الذي لا يعقل. وعلى رأي علماء آخرين، وهم على صواب حسب رأينا، يكون الاسم الثاني مرتبطا مع الأول برباط الإضافة، فسِدْ مِلْقارت يكون معناه سِدْ الذي هو مِلْقارت، وسِدْ الذي هو لتانيتْ...إلخ... ولكن ما هو المعنى الحقيقي لهذه العلاقة بين اللفظين ؟ هل يكون المعنى : أن المعبود الأول كان يعبد في هيكل الثاني ؟ يمكننا الشك في ذلك، لأن الكتابات تذكر معبد سِدْ تانيتْ، وكاهناً لأشْمون أشْتارت، وخديماً لسِدْ مِلْقارت. فيبدو أن هذه الآلهة كانت حقا سيّدة في مجالها. فهل نفرض وجود علاقة ما بين الآلهة أنفسهم ؟ وأن أشمون أشتارت مثلا يكون معناه (إشمون ابن – أو عشيق – أشتارت ؟) ولكن لماذا حينما نذكر إشمون، فإن هذه العلاقة الدائمة مع أشتارت قد تُذْكَر أحيانا ويُسْكت عنها أحيانا فلا تذكر؟ وختاما، فإن هذه الثنائيات لم تُفسر حتى الآن تفسيرا مرضيا.

وفي غير ذلك يكون اسم المعبود مسبوقا مباشرة بمجموعة من الحروف : مِلْك Milk، كما في ملك بَعْل في نذور من قرطاجة مهداة إلى تانيت بني بَعْل ولبعْل حمون. ولبَعْل حمون وحده في نذور من هَدْروميت، ومن سُلْكي Sulci بسردانية، ومن مالطة. وتعبير ملك بَعْل فيها يتبع مباشرة لفظ نَصب Necib وSippe. إذن فهذه الأحجار كانت أنصابا لملك بَعْل، ونحن نجهل معنى هذا التركيب. وهذا مِلْك أوزير Milk Osir بمالْطة، في كتابة توأمة للكتابة التي تذكر ملك بَعْل، وهي مهداة كذلك إلى بَعْل

حمون، غير أن أوزير (Osiris) حل محل بَعْل. أما التحرير فواحد. وهذا ملك أشتارت الذي تذكر معبده كتابتان من قرطاجة، ونجده في عدة نصوص مستخرجة في صور. وإحدى هاتين الكتابتين تصف ملك أشتارت بمعبود حمون (باسم المكان) والأخرى تذكر أحد كهنته.

عندما يكون MLK متبوعا باسم إله ذكر، فالتفسير المتبادر للذهن هو Milk أي الملك، وأمام إلهة فلابد من MLKT ملكة. لكن قد نفترض صيغة مختصرة بحذف الحرف الأخير، ولربما أن هذا هو الحل الحقيقي. وتساءل الغير: ألا تكون هناك إضافة ؟ فيكون التركيب MLK Ashtart معناه (مَلَكُ أشتارت)، أي زوج اشتارت. وتلك طريقة غريبة في ذِكْر أحد الآلهة. وهناك تفسير لبق يرى في MLK نفس اللفظ العبري Maleak، أي رسول، ملك Malak. ففي التوراة، أن ملك يهوه Yahwé أو إللوهيم هو كائن طبيعتُه غيرُ ثابتة، يبدو أحيانا وكأنه مختلط مع إله العبريين، وأحيانا هو مبعوثه، ونائبه الذي تراه أعين الناس. فهل كان للديانة الفينيقية، هي أيضا ملائكة ؟ أي ملك لبَعْل (بَعْل حمون وبَعْل شميم) وملك لأشتارتي ؟ إن النص الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في هذا الافتراض هو الحُلم الشهير الذي حلمه حنّيبَعْل. فقد ظهر له شاب ذو مظهر إلهي، وأنبأه أنه مبعوث إليه من لدن جوبتير ليكونْ دليله إلى إيطاليا. ولكن هذا المبعوث من قبل جوبتير، هل كان من نفس الطبيعة ونفس الرتبة مع ملك أشتارت الذي كان له هيكل وكهنة ؟ ولنذكر أنه زيادة على الأنصاب التي وصفت بأنها Necib MLK Baal، Necib MLK Osir، فقد عثر بقرطاجة على نَصْب، وعليه نصب ملكت ب م ص ر م – أي Necib MLKT BM ÇRM. ومعناه لاشك هو (نصب الملكة بمصر) فهل هي (إيزيس ؟). وحيث نجد هنا لفظ ملكت Milkat، فذلك سبب حسن للاعتقاد أن بمكان آخر يحسن بعد "نصب Necib" أن نقرأ Milk، أي الملك، لا MALEAK أي الملاك.

8

رأينا فيما سبق أن الفينيقيين اقتبسوا عن الديانة المصرية اقتباسات عريضة. وهناك أسماء مركبة مع بعض أسماء الآلهة مستعملة في فينيقيا، وبعضها يوجد بالغرب، تدل على أن الآباء كانوا يفضلون جعل أبنائهم في حماية بعض الآلهة المصرية، وعلى الخصوص منها أوزريس. وليس لدينا في الحقيقة برهان على أن هذه المعبودات قد نالت التمجيدات الرسمية في قرطاجة. ولكن يحتمل أن عبادة أوزريس قد وُجدت بمالطة منذ عهد باكر. وبعد ذلك بكثير، أي في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد، قد رسمت صوَر إيزيس، ونفْـثيس Nephthis وأوزريس على نقودها. وكذلك، فإلى عهد متأخر عن السيطرة البونيقية يرجع تاريخ نقود من كوسورا Cossura (من بَنْتلارْيا Pentelleria) تمثل إما إيزيس وإما أستارتي في حلة إيزيس. ومثلها نقود من صَبْراتة، وثيناي Thaenae ومن مدينة إفريقية أخرى تمثل سيرابيس Serapis على ما يحتمل.

إن صور الآلهة المصرية توجد بكثرة في قبور قرطاجية وسردانية، وعلى الخصوص بين أدوات الزينة. ولكن التفضيل الذي كانت تتمتع به الأدوات الأصيلة او المقلدة لها، غالبا ما كان تفضيلا راجعا للموضة أو لعادات روتينية. فالمهندس مثلا عندما يضع رأس حاتور على جذع عمود، فإنما هو يكرر إنتاج زخرف فني. ومع ذلك، فإن بعض الأدوات الموضوعة بالمدافن كان لها دون شك غاية دينية، كالسواطير الصغيرة النحاسية المستعملة في الشعائر Rituelles، والشفرات الصغيرة من ذهب وفضة، الملفوفة في أغلفة وتستعمل حروزا. غير أن المعبودات المصرية توجد بكثرة على السواطير الصغيرة التي هي من القرنين الرابع والثالث ق.م، وأكثر من ذلك على الشفرات الصغيرة والأغلفة التي

هي من القرنين السادس والخامس. إذن فيبدو أنها كان لها مكان مهم في معتقدات الخواص أكثر مما في عبادة العوام.

ولم يكن أي واحد من آلهة وادي النيل أقوى شعبية من بِسْ Bès عند الفينيقيين بالمشرق والغرب. فالعديد من الأشياء الصغيرة، كالجُعلان وفصوص الخواتم، والدمى من العجين المكسوة بالميناء، سواء أكانت من العظم أم من العاج، والتماثيل الصغيرة من الطين المشوي، كلها تبرز هذا القزم الملتحي، بوجهه العريض المتغضن، والأنف المفلطح، واللسان المتدلي، والآذان السنورية، والأفخاذ النازلة المقوسة. رأسه عادة مغطى بحزمة من الريش، وصدره مضغوط في جلد حيوان مفترس. وغالبا ما يضرب أو يعصر أو يحمل، حمل منتصر، وحوشا ضارية أو حيوانات خرافية، حيوانات شريرة خاض ضدها معركة خيرة، كالأسود والقشاعيم والخنازير والأفاعي...إلخ. وأحيانا يكون ذا أجنحة. ولابد أن الكثير من هذه الصور تكون قد صنعت بالغرب. فقد عثر في قرطاجة على قالب للتماثيل الطينية الصغيرة. والوجه الكريه لبِسْ Bès كانت تعزى إليه قدرة واقية. وهو لم يكن إلها تُقدم له العبادات، بقدر ما كان جبارا واقيا أو حرزا مانعا Fétiche.

ويتحدث هيرودُت عما سماه (παταιχοι)، أي الباتيكات Patèques التي كان الفينيقيون يجعلونها في مقدمات سفنهم، والتي كانت في آن واحد تشبه الأقزام وتشبه هيفَيْستوس Hephaistos الذي هو من مدينة مَمْفيس Memphis. وكان هذا الهيفيستوس هو بْتاحْ Ptah الذي كان يقدم على شكل جنين برأس كبير، وبطن ومؤخرة بارزين، وساقين قصيرتين معوجتين. ولربما أن لفظ (παταιχοι) هو تحريف للفظ المصري. وإذا كان الفينيقيون قد أطلقوا اسم بْتاحْ Ptah على الوجوه التي كانت واقية

من الأذى، والتي كانوا يثبتونها في مقدمات سفنهم، فيمكننا أن نستنتج بأن هذه الصور كانت تقدم خلقة بْتاح، لا خلقة بِسْ Bès، مع أن الإلهين في مظهرهما العام ووضعهما لا يختلفان مطلقا. وبْتاح الذي اتخذته فينيقيا كما اتخذت بِسْ، قد اختلط فيها ربما مع معبود آخر اسمه شوصور Chousôr. وقد وجد هذا الاسم بإفريقيا في كتابة لاتانية من قالْمَة ذكرت اسم أوشوصور Auchusor (تحريف عبد شوصور Abdchusor)، أي خديم لشوصور، ولا يستبعد أن يكون استعمل اسما لجبل (هيفيستوس) في قرطاجنّة Carhagène.

ولا نلقى بِسْ Bès في الأسماء المركبة بأسماء الآلهة. فهل يكون الفينيقيون قد احتفظوا له بالاسم الذي كان يدعى به في مصر وهو بيس Bis أو بيسو Bisou ؟ يُعتقد هذا إذا كانت جزيرة (يابسة Ibiça) أي إبوسوس Ebusus أي YBSM، في الفينيقية قد سميت هكذا تبعا له. ولكن هذا الافتراض فيه مجازفة. وعلى كل فإن بِسْ، أو إلاها يمت لبِسْ، قد وقع تمجيده، على ما يظهر جيدا، في هذه الجزيرة بعبادة رسمية. ونقود إبسوس تحمل صورة قزم ملتح، متوّج بالريش، يمسك بإحدى يديه أفعى، وبالأخرى أداة تشبه قضيبا قصيرا.

وقد كان معبود مماثل يعبد في يول Iol (شَرْشال) المدينة الفينيقية. فقد اكتشف في هذا المكان صنم ثخين جدا من الحجر، يمثل شخصا عاريا، أمرد، وعلى رأسه شيء كأنه سلة متفتحة من أعلاها، وتنتصب من أمامها ريشة، وله بطن ثقيل يرهق أفخاذا قصيرة ومقوسة.

وكانت إحدى العبادات الإغريقية كثيرة الذيوع في صقلية. وأدخلت رسميا إلى قرطاجة في ظروف عرّفنا بها ديودور Diodore ذلك أن حمِلْكون في سنة 396 كان محاصِراً لسرقوسة Cyracuse، فنهب

معبدا لدمتير Déméter وكوري بيرسيفون واقعا خارج المدينة. ولم يلبث القرطاجيون إلا قليلا ثم أصيبوا في صقلية وإفريقيا بأنواع من الشرور المؤذية. فعزوها لما انتهكوه من حرمات، وقرروا أن يكفّروا عما فعلوا. ومع أن ديمتير وابنتها لم تكونا حتى ذلك الحين من بين المعبودات اللائي يمجدونها، فقد قرروا أن يجعلوا لهما كهنة يؤخذون من المواطنين الأرفع منزلة، وأنزلوا الإلهتين في احتفال فخم، وقدموا لهما القرابين حسب الطقوس الإغريقية، وكلف الوجهاء من الإغريق المقيمين بينهم بالسهر على الخدمات الإلهية. وهذا يبين بوضوح أنهم عزموا أن يحافظوا على المظهر الهيليني لعبادة ديمتير وكوري، ولم يخلطوها بعبادة سابقة. وعلى نصب رشيق من عهد متأخر، رسمت فيه بيرْسيفون كما لو رسمها فنان إغريقي. فرأس الألهة مغطى بخمار تزيحه بيد، وباليد الأخرى تحمل سلة مليئة بالرمان، ومن فوقها هي على الجبهة يجثم النمر، الحيوان المكرّس لديونيسوس. والإهداء باللغة البونيقية أهداه ملك يَطون Milk Yaton، السوفيط، ابن السوفيط Sufète. فهي إذن معبودة بقيت أجنبية، يعبدها هذا النبيل القرطاجي بعد نحو القرنين من دخول ديمتير وبرْسيفون لقرطاجة. والنص لا يعطينا اسم الإلهة. ولكن كما لاحظنا من قبل، يمكن أنها وأمها معها قد اتخذتا اسمين فينيقيين. وقد أراد البعض أن يجدهما في كتابتين من قرطاجة، إحداهما ترجع لتاريخ عهد الحروب ضد رومة. وهي إهداء لمعبد مزدوج لأشتارت ولتانيت لبنان. والأخرى موجهة كذلك إلى إلهتين : «إلى السيدة، إلى الأم، وإلى السيدة، إلى بَعْلت هـ ح د ر ت HHDRT». واللفظ يعني على ما يبدو مكانا مسيّجا، ويبدو أن ربته هي المعبودة الثانية. ولا نستطيع توضيح طبيعة هذا المكان. وقد اقْتُرحت له عدة تأويلات. منها أنه : ردهة بمعبد، أو معبد بباطن الأرض، مثلما كان لعبادة ديمتير ولابنتها، مملكة

الجحيم التي كانت بيرْسفون ملكتها. ويبقى أن تأويل هذه الكتابات كثيرة الإبهام، الأمر الذي لا يسمح بتطبيقها على الإلهتين الإغريقيتين. وكل ما يمكننا أن نقول، هو أن الافتراض ليس مستحيلا. ولقد سبق لنا القول بأن الإهداء إلى أشتارت وإلى تانيت لبنان قد عثر عليه بعيدا من موقع معبد روماني لكيريس Cérès. ولكن هذا ليس برهانا قاطعا لصالح التشخيص المقترح. ففي نفس المكان الذي كانت به هذه الحجرة مطروحة، وهي صغيرة ويسهل جدا نقلها، كانت الأرض مليئة بالقبور التي حفرت في القرن الثالث ق.م. فعلى الراجح ليس في هذا المكان قد بني المعبد المزدوج.

وثبتت في إفريقيا الألهتان اللتان اتخذتهما قرطاجة في القرن الرابع. إذ أن عبادة الكرِيرِس Cèrères كانت شعبية بهذه المنطقة في عهد السيطرة الرومانية. والمشكوك فيه جدا هو أن يكون الإله الإغريقي بلوطون Pluton قد انضم لهما منذ العهد البونيقي. أما ديونيسوس Dionysos الذي رسم نَمِرِهُ على نذر ملكياطون فليس لنا برهان آخر على إشراكه مع بيرسيفون. والتنويهات بديونيسوس الممجّد Liber Pater (98)، هي كثيرة بالكتابات اللاتانية في شمال إفريقيا. غير أن عبادة هذا الاله كانت متميزة عن عبادة الكيريرس. فيبدو أن عبادته كان لها أصل مغاير.

بجزيرة صقلية بقسمها الذي خضع لقرطاجة، كان الإيليميون Elymes سكان جبل إريكس Eryx يعبدون إلهة شخّصها الفينيقيون في أشْتارت. وقد مجدها القرطاجيون أي تمجيد. ولربما أنهم جعلوا صورتها على النقود التي أمروا بضربها في الجزيرة. وقد عثر على إهداءات إلى أشْتارت إريكْس محررة بلغتهم بجبل إريكس نفسه، وكذلك بسردانية.

وحسب ما قيل، فإن الإلهة كانت كل سنة تغادر معبدها لمدة تسعة أيام، وتذهب إلى ليبيا صحبة حمائمها المقدسة. إذن، فليس مستحيلا أن يكون لها عبدة في قرطاجة. بل إن أحد النصوص يذكر أنها كانت تعبد حتى في شق بنارية Sicca Vénéria أي مدينة الكاف(99)، وأن بعض السيكوليين Sicules هم مؤسسو هذه المدينة التي نقلوا إليها فينوس الإريكسية Venus Erycine. وقد ألقي سؤال عن هؤلاء الرجال الذين من صقلية : ألم تسكنهم قرطاجة في سِيكّا Sicca ؟ إننا أكثر استعدادا للاعتقاد بأن فينوس سِيكّا قد وقع تشخيصها مع فينوس الإريكس فحسب، لأن بمعبديهما معا قد كان النساء يتعاطين للزنى مع الزائرين.

بعض سكان قرطاجة حملوا اسمين، ربما بهما اسم إله أفروجي Phrygien وهو صَبَزْيوس Sabazios، واسم أحد آلهة شمال بلاد العرب وهو ذو الشّرى Doushara (Dousarès). وهذا لا يبرهن، إذا صح الظن، على أن هذين الإلهين قد وقع قبولهما في الزون Panthéon البونيقي. فمن الممكن أن رجالا من أصل أفروجي أو عربي، سكنوا المدينة الإفريقية، يكونون قد اتخذوا بها، أو تلقوا اسما بصيغة فينيقية، قد جعلهم في حماية أحد معبودات وطنهم القديم. هذا، ولا داعي للوقوف عند الافتراض الذي يريد أن يجد في بعض الكتابات ذكراً لمِيتْرا Mithra الإله الفارسي.

إن هذه الدراسة الطويلة عن المعبودات البونيقية، كادت في كل صفحة تكون اعترافا بحيرتنا، وشهادة بجهلنا. والنتيجة الوحيدة التي تفرض نفسها، هي أن القرطاجيين مكثوا أوفياء لآلهة فينيقيا. وأن العديد من هذه الآلهة قد أصابتها تغييرات، بحيث إن تانيت بني بَعْل وبَعْل حَمّون قد لمحنا لهما تأثيرات إفريقية. والعبادة الإغريقية لدِمِتير

ولِكُوري قد انتقلت من صقلية. والفينيقيون بالغرب كثيرا ما استعانوا بالفن الإغريقي لكي يمثلوا معبوداتهم. على أن الفينيقيين بآسيا قد فعلوا مثل ذلك. ورغما عن هذه الاقتباسات، فإن الديانة قد حافظت بقرطاجة على طابع مشرقي إلى أن دمرت المدينة. وكما في اللغة فإنها قاومت الهيلينية التي استطاعت تحوير الحضارة المادية.

الكتاب الثاني

الأخلاق والمعتقدات

الفصل الثالث

التعبد

1

لم يمتنع الفينيقيون في العهد التاريخي عن رسم آلهتهم بشكل آدمي. وفي هذا المجال، أعطاهم المصريون والآشوريون-البابليون أمثلة، ونماذج أيضا. وفيما بعد قد استوحوا الإغريق. وقد ذكرنا في الفصل السابق أشياء من الطين المشوي، وأنصابا، وسواطير صغيرة، وحلى، وأختاما، ونقودا تمثل آلهة عبدها القرطاجيون وفينيقيون آخرون بالغرب.

ففي المعابد كانت تنتصب تماثيل تعتبر أغشية مادية لأرواح الآلهة، وتؤدى أمامها حفلات العبادة. ومن قرطاجة تعرّفنا بعض النصوص على صوَر ستورن Saturne وهيركول Hercule وأبولون Apollon. كما أن تماثيل صغيرة كانت لابد موضوعة في مصلّيات Chapelles منزلية، أو يحملها المتدينون الذين ترغمهم الظروف المختلفة على الابتعاد عن مساكنهم.

هذا، وإقامة التماثيل للآلهة، لم تكن عادة عامة. فهي لم تكن موجودة في هذه الأمكنة المقدسة المقامة على المرتفعات غالبا، ولا في هذه الأراضي المسيّجة التي لا تحيط أبدا بأحد بيوت الإله. وكذلك لم تكن موجودة في الهياكل الشهيرة الثرية. لا في هيكل ملْقارت بالقرب من قادس، ولا بمعبده بصُور على ما يحتمل، ولا في هيكل أسْتارتي-أفْروديت Astarté-Aphrodite في پافوس Paphos. وعلى غرار شعوب أخرى، فإن الفينيقيين توقفوا زمنا طويلا لاشك عن جعل الآلهة على شبه بالناس، إما عن احترام ديني وإما لعجز فني. وفيما بعد، استمر بعضهم على هذا الامتناع احتراما للماضي.

وإلى تشبيه الآلهة بالإنسان، يجب إضافة عينين، وأذنين وفم كما هو مرسوم في أعلى بعض النذور بقرطاجة، أي إن تانيت قد سمعت رجاء المؤمنين، وحطت نظرها عليهم، وأعطت جوابا مرضيا.

وغالبا ما تُرى يدٌ يمنى مفتحة ومرفوعة وترى من أمام. وهي عادة ما تقع في القسم الأعلى من النصب. ويعثر عليها من جديد في نذور قُسنْطينية التي هي أحدث عهدا مما في قرطاجة. وعلى بعض الآثار الفينيقية، ترفع الآلهة هكذا اليد اليمنى. وهذه الحركة تدل إما على السطوة التي تزاولها هذه الآلهة، وإما على العون الذي تقدمه للناس بمباركتها لهم، واستجابتها لرغباتهم. ولكن بعض الورعين يمثلون في نفس الوضيعة. فهم احياء بجانب بعض المصليات، أو المذابح أو الآلهة، وموتى على أنصاب أو تماثيل جنائزية على أغطية التوابيت. فتلك إحدى حركات الصلاة. وهل اليد التي على النذور هي صورة مختصرة عن المعبود ؟ أم هي عن الإنسان الفاني الذي يرجوه ؟ لصالح الافتراض الأول، يمكن الاحتجاج بأن اليد لا بد لها من معنى شبيه بمعنى الأذنين

الذي يرجع دون شك لأحد الآلهة. كما يمكن الاحتجاج بالمكانة المشرفة التي تحفظ لها عموما بأعلى النصب، وعلى سبيل المثال، بسماء النصب حيث تظهر الكواكب غالبا. والرمز الإلهي المعروف باسم علامة تانيت مرسوم في كف العديد من هذه الأيدي. وحين تكون اليد في أسفل الحجرة، فإننا مستعدون لقبول كونها تدل على الصلاة. لكن، على بعض النذور المكرَّسة حسب العادة إلى تانيتْ بني بَعْل وإلى بَعْل حمّون، توجد بهذا المكان (في الأسفل) يدان يُمنيان. فإذا لم تكن اليدان قد رسمتا للتقابل، قصد وضع رسم جانبي، فيجوز الاعتقاد بأنهما تدلان على الإلهة والإله. لأن الإهداء قام به مؤمن واحد. والتمييز بين ما يمكن تسميته بالقسم السماوي والقسم الأرضي من النصب، لم يحافظ عليه بصفة أكيدة، لأن علامة تانيت، وقضيب الكادوسيه Caducée ورسوما أخرى، تُرى في أعلى الكتابة كما بأسفلها. ونرى في أعلى بعض الأحجار شخصا يبدو من أمام، يرفع اليد اليمنى، وهو يشبه كثيرا الموتى بالأنصاب الجنائزية، بحيث يصعب القول بأنه إله. فلاشك أنه مؤمن من الحجر. أو لم يعط نفس التفسير لليد المنفردة المرسومة بنفس المكان؟ إذن فإننا لا نظن أن التفسير الثاني يجب أن يُنحّى مطلقا. وتشابه الحركتين، دعا إلى إدخال فكرة الصلاة، مع أن المعنى الأولي لليد على هذه الآثار، هو حسب رأينا معنى القوة، وعلى الخصوص معنى الحماية الإلهية. وفوق ذلك، يمكن أنهم انتهوا إلى رسمها بصفة آلية، كمجرد صور وقائية. وقد كان لها نفس المدلول الغامض عند شعوب مختلفة منذ أزمنة موغلة في القدم. ولا يزال لها ذلك المدلول في إفريقيا الشمالية حيث المسلمون واليهود ينحتون أو يرسمون يداً يمنى على مداخل منازلهم، ويتقلدون حلى هي أحجبة تمثلها(100).

ليس لدينا من سبب داع للاعتقاد بأن القرطاجيين قد عبدوا حيوانات حية تجسيدا للمعبودات. كما أننا ليس لدينا كذلك برهان على أنهم مثلوا بعض آلهتهم في خلقة حيوانات. غير أن إلهة، ربما هي أسْتارتي أو تانيتْ بني بَعْل، قد رُسمت أحيانا برأس لبوؤة على بدن امرأة. ومن المحتمل أن يكون بَعْل حمّون، أيضا تقليدا لزِيوس أمّون، قد حمل أحيانا قرون الكبش. فهذه بقايا من عبادة للحيوان استمرت موجودة في رسوم العبادة. أما السفَنْكس Sphinx التي تكون على جوانب عرش إله أو إلهة، وربما تظهر منفردة، فلا ندري أي مدلول كان الفينيقيون يعطونه لهذه الكائنات المختلطة، ذات الأصل المصري.

ودائما نحن لا ندري لماذا قد مُثِّلت الحيوانات على بعض النذور القرطاجية. فالثيران والكباش والخرفان هي القرابين التي يهديها المؤمنون الذين أقاموا هذه الأنصاب. وفي غيرها، يوجد الحمام والسمك والأرانب، وهي جنس ولود، مكرَّس لربة الخصب. وعلى غطاء لتابوت شهير، ترى امرأة قرطاجية، في ملابس المعبودة التي كانت هي كاهنتها، وبيدها حمامة، أي الطائر العزيز على تانيتْ بني بَعْل البونيقية، وعلى أسْتارتي الفينيقية، كما كانت الحمامة عزيزة على الإلهة الكبيرة التي عبدت في الألف الثانية على شواطئ البحر الإيجي Mer Egée، وعزيزة على الإلهة السورية، وإلهة الإريكْس وأفْروديت الإغريقية. ومن المحتمل أن معابد أسْتارتي، وكذلك معابد الإلهة السورية كانت تقع بالقرب منها، في صهاريج أو في برك مائية، رعاية للأسماك يصونها احترام خرافي. فالحمائم والأسماك هي إذن على النذور، كشعارات للإلهة الأنثى الكبيرة.

ويحتمل أن الثعابين هي أيضا قد وقع إشراكها مع بعض الآلهة. فبعض النذور المتأخرة عن بداية العهد الميلادي والراجعة لعبادة تاليدها بونيقية، كما أن بعض النقود ذات الكتابة الفينيقية المضروبة في إحدى المدن الإفريقية، هي (بولاريجيا Bulla Rigia ؟) تُرينا نَسْراً. وربما أن هذا الطائر كان يعزى منذ العهد القرطاجي لسيد السماوات، أو لسيد الشمس. أما الأسد فكان في عهد الإمبراطورية الرومانية مشتركا، ليس فحسب مع الربة السماوية، بل أيضا مع ستَورْن. ونجهل هل في قرطاجة كانت تجعل له صلة ببَعْل حمّون.

2

وهناك رسوم أخرى لا تبرز أشكالا آدمية أو حيوانية، وكانت لها قيمة الرموز الإلهية.

أحدها استعاره الفينيقيون من مصر، وهو قرص الشمس، وعلى جانبيه ثعبانان، وله جناحان. ولكن في بعض الأحيان نسي فيه رسم الجناحين أو الثعبانين. هذا القرص، يرى في الحلي التي ترجع للقرن السابع أو السادس، كما يرى على الأحجار المنقوشة وعلى النقود. وهو ليس قليل الوجود بالقسم الأعلى من النذور. وقلنا من قبل إنه غالبا ما يكون مرسوما على الجبهات فوق مداخل المعابد. ذلك ما تشهد به، بصفة غير مباشرة، الأنصاب التي يأخذ فيها مكانا في منظر ذي هندسة معمارية.

هل يجب أن نرى فيه رمزا لبَعْل حمّون ربّ الشمس ؟ سنذكر أن رسوما صخرية في بلاد البربر، عليها أمّون-رَعْ، وهو ممثل بشكل كبش

وعلى رأسه القرص الشمسي وبجانبيه ثعبانان. غير ان أمّون، كما نظن، كان القرطاجيون قد شخصوه مع أحد آلهتهم. وبهذا فقد تحول إلى بَعْل حمّون. وكون القرص يمكن إرجاعه لهذا الأخير على بعض الآثار البونيقية، فأمر مقبول جدا، غير أن المتأكد هو أنه لم يكن ملْكاً لبَعْل حمّون وحده، إذ جرى رسمه فوق أو قرب رأس إحدى الإلهات، بحيث إنه صار رمزا غامضا مقدسا وواقيا.

ورسوم الشمس المنيرة والنجوم والقمر التي تكثر عند البابِلونيين والآشوريين، توجد كذلك عند الفينيقيين بالغرب كما بالمشرق. والكوكب النيّر يمكن أن يكون الشمس أو أن يكون نجما. فمثلا على نقود مَقومْ شَميش Maqom Shemesh، أي (مدينة الشمس) فهو الشمس، وعلى النقيض من ذلك نجمان وُضعا متقابلين، ولهما حجم واحد، إنما هما نجمان. وقد يُعوّض أحيانا عن الأشعة بوريْقات مستديرة من نجمية Rosace محاطة أو غير محاطة بدائرة. فذلك تشويه سبق للوجود في بلاد آشور. وتأخذ النجوم في موضع آخر به نقطة أو زرّ في وسطه، أو لربما مجرد قرص.

في العهد القرطاجي، قلما رسم الهلال منفردا، بحيث نلاقي بكثرة صورة الهلال يصحبه قرص. فأحيانا، وهذا شاذ، يكون للقرص نفس قطر الدائرة الداخلية للهلال الذي يندمج فيه. وأحيانا فمقاييسه صغيرة جدا. وفي هذه الحالة، فهو مماس لخط التقعير بالهلال، (بل غالبا ما يقتحم هذا الخط، ولا يكون دائرة تامة)، وإما أن يكون القرص منعزلا تماما. فهو مثل زر منفصل وعلى بعد سواء من قرني الهلال. ويبرز الهلال في وضعين : فهنا تكون حاشيته المقعرة إلى الأسفل، وقرناه ينتصبان. وهناك يكون القرنان على النقيض إلى الأسفل. وهذا الوضع

الثاني هو الأغلب وجودا على الآثار البونيقية منذ أقدم العهود إلى أن دُمّرت قرطاجة. كان ولا يزال يرى على النذور وقطع النقود الأحدث عهدا، إلى ما حول العهد الميلادي. ثم صار بعد ذلك الهلال بقرنين منتصبين. وكانت كل هذه الرسوم مستعملة في فينيقيا، ومنها نقلت إلى الغرب. فالتي فيها الهلال بقرنين إلى الأعلى هي مقتبسة عن الآشوريين البابلونيين، أو عن المصريين. غير أن الهلال المنقلب على القرص، فإنه خاص بالفينيقيين. ونجهل لماذا اتخذوا هذا الوضع.

وما هو القرص ؟ إنه، عندما يكتنفه الهلال، ويتكئ عليه من أقصى هذا القرن إلى أقصى القرن الآخر، يأذن بأن نعرف فيه مظهرا للقمر المرسوم على الآثار الآشورية والمصرية. ونستطيع بعد أيام قليلة من ظهور القمر أن نرى، على الأخص في سماء المشرق الصافية، كل الكوكب منيرا بنور خافت داخل الهلال المشع. هذه الظاهرة هي ما يسميه علماء الفلك باسم النور المرمد. وحتى إذا ما كان القرص أصغر حجما من الهلال، فلربما هو يمثل القمر البدر أيضا. ونلاحظ كذلك عيبا في تناسب الأحجام في بعض الرسوم المصرية، التي لاشك أن القرص فيها يمثل القمر. ولو كان الأمر يتعلق بالشمس، لصعب تقليل هذا التخالف في النسب. وفوق هذا، فالشمس المجنّحة المنيرة، تظهر هنا وهناك بالقرب من الهلال والقرص الذي لا يجب فعلا أن تلتبس به. على أن القرص الذي كان في أول الأمر صورة للبدر، قد أخذ على ما يبدو مدلولا آخر. إنه قد عوّض عنه أحيانا بنجمية Rosace أو بكوكب مشع. وذلك لا يتناسب مع البدر. فالنجمية تكون عبارة عن نجمة، ربما هي نجمة فينوس Vénus مبعوثة النهار والليل.

هذه الصورة المزدوجة للهلال والقرص، قد كانت بدون أي شك شعارا مقدسا عند الفينيقيين، كما كانت عند من اقتبسها هؤلاء عنهم. لكن، وكما قد سبق أن قلنا، لا يجب أن تُعْزى، على الخصوص في الآثار البونيقية، إلى تانيت بني بَعْل. لأنها تصحب آلهة أخرى. بحيث إنها لم يكن لها مدلول أشد دقة مما للشمس المجنحة. وقضبان الكادوسيه Caducée يكثر وجودها على نذور قرطاجية. ولها شكل ساق أو وَتِد، وعليها دائرة من فوقها هلال منتصب القرنين. وعلى أنصاب غير متقنة الصنع، نجد الدائرة غير منغلقة تماما في قسمها الأعلى، والهلال عوّض عنه بمقطعين مدوّرين يتصلان بطرفي الدائرة غير التامة. ولربما أن هذا الوضع يمكن تفسيره بالسرعة التي نقشت بها الصورة. ويُرسم الهلال والدائرة أحيانا بمجرد خط واحد، وأحيانا بخط مزدوج. وهذان الخطان لا يذكر شكلهما أبدا بالثعبانين المتشابكين في الكادوسيه الإغريقية، وكذلك ليس هناك أجنحة أبدا. ولكن غالبا ما ينبعث من أسفل الدائرة شيئان يترددان ويتموجان، كشريطين على يمين ويسار تلك الساق. وكثيرا ما تتسع هذه الساق من أسفلها إلى حد أن تستطيع الوقوف، من غير احتياج لإثباتها، وأحيانا تثبت بقاعدة.

وقلما يحتل الكادوسيه مكان الشرف في أعلى النصب. بحيث إذا مُثّل برسم منفرد، فإنه يكون على العموم بأسفل الكتابة، إما على انفراد وإما بالصف مع يد واحدة وعلامة تانيت، وإما وسط اثنتين من هذه الوشوم. وهنا يرسم غالبا اثنان من الكادوسيه المتواجهين على يمين ويسار علامة تانيت (بعدد كثير من النذور)، أو يد أو نجمية أو نخلة أو عمود يحمل رمّانة...إلخ. وأحيانا يكونان على جانبي الكتابة أو في أعلى الحجرة على جانبي يد أو علامة لِتانيتْ...إلخ.

وقد رُسم الكادوسيه كذلك على أنصاب هَدْروميت Hadrumète وليليبي Lilybée، وعلى نقود سكّها القرطاجيون في صقلية وقرطاجة نفسها، وعلى بعض علامات الفخار. ولا نعرف أي رسم يمكن التأريخ له بدقة لعهد سابق على القرن الرابع. ويعثر عليه بعد ذلك في إفريقيا في نقود ملكية أو بلدية. وبالخصوص على بعض النذور. وهو كثير الوجود خصوصا على النذور ذات الكتابة البونيقية بقسنطينة. وهو موضوع بها عادة تحت الإهداء، مع يد وعلامة تانيت. وفي غير ذلك، هو في أعلى الحجرة، تمسكه علامة تانيت التي صارت بهندام آدمي. ونلاقيه أيضا في العهود الأولى للإمبراطورية الرومانية مشوّهاً قليلا أو كثيرا. ويكون به غالبا عدة دوائر متراكبة عوض الدائرة والهلال.

وقد رضوا أن يجعلوا للكادوسيه علاقة بالصورة الإلهية المسماة بعلامة تانيت Tanit، وقد ذكرنا أمثلة لذلك. وأحيانا يتشابك الوشمان ليحل رأس الكادوسيه محل رأس العلامة. وفي بعض النذور، فإن المثلث الذي يتكون منه أسفل العلامة، يشتمل على الكادوسيه. إذن فهو قد كان شعارا مقدسا. واستطاع أن يتحول لدى القرطاجيين، كما عند الإغريق والرومانيين إلى رمز للسلام. ولكنه، في بادئ الأمر كان له مدلول ديني محض لاشك. وسواء نصب أو أمسكته اليد، فهو شعار لابد من عرضه في المعابد ليؤدي دورا في حفلات العبادة. من بين هذه الآراء المختلفة، فإن أكثرها رجحانا حسب رأينا، هو الرأي الذي يرى أن الدائرة ونصف الدائرة، هما قرص الشمس أو القمر، وهلال القمر. ويمكن أن نفترض أن الكادوسيه عزي أولا لمعبود قمري قد يكون هو تانيت بني بَعْل، ولكنها لم تحتفظ بمزاياه، لأن هذا الشعار يظهر على أنصاب مهداة لبَعْل حمون بمفرده، أو على الأنصاب التي يشترك فيها بَعْل حمون مع تانيت.

والإثنان من الكادوسيه، هل يرجع أحدهما إلى الإلهة والثاني للإله ؟ لا أريد ان أؤكد ذلك، إذ أن بعض النذور بها ثلاثة من الكادوسيه.

إن صوراً تعود للعهد الروماني، لكن أمثلتها يمكن أن تصعد للعهد القرطاجي، تسمح بالاعتقاد بأن شعارات أخرى كان لها شكل به بعض التغيير. فمن فوق القضيب يوجد مجرد هلال، أو هلال يشتمل قرصا عريضا على غرار ظاهرة النور المرمد. وعلى بعض النقود البونيقية توجد ساق طويلة تنتهي بصليب، أو عود طويل ينتهي بسعفة صغيرة. فلعلها أيضا أشعرة دينية.

إذا كان الكادوسيه في قرطاجة يرجع لتاريخ حديث، فإن أشعرة مماثلة قد وجدت منذ عهد بعيد عند الفينيقيين. فقد كانوا، كما يقول فيلون البِبْلوسي، يكرّسون أعوادا (أو أوتاداً)، ويطلقون عليها أسماء آلهتهم المزعومة، ويعبدونها بحمية. ويوجد عند الآشوريين البابلونيين أوتاد مقدسة، يعلوها هلال، أو قرص أو سنان رمح إلخ... كما أن أشرطة تتماوج بأسفل الشيء الذي يحمله القضيب. فالتشابه إذن واضح مع الكادوسيهات التي لدينا. وقد كانت هذه أيضا ذات نسب مع الأوتاد التي كان الكنعانيون ينصبوها قرب الهياكل. ولفظ أشْراح Acherah الذي كان يُطلق عليها، كان أيضا يطلق على إلهة مطابقة أو مشابهة لأستارتي Astarté.

وغالبا ما تمثل نخلة على أنصاب بونيقية في القسم السفلي من الحجرة، هي منفردة تارة، وتارة أخرى تكون على جانبيها اثنتان من علامات تانيت، أو اثنان من الكادوسيه. وربما أن شجرتين من هذه، تكونان أحيانا على جانبي يد أو مبخرة أو أحد الأوعية. فالنخلة لابد كان

3

لم يكن الفينيقيون هم الذين أدخلوا عبادة الأحجار إلى الغرب، غير أنهم ساعدوا على انتشارها. وقد كان عندهم عدة أنواع من الحجارة المقدسة. فبعضها كان يستمد فضيلته من طبيعته نفسها. كالنيازك التي تنزل ملتهبة من الفضاء السماوي، والأحجار التي من مادة بركانية، والظران Silex المستديرة أو البيضوية الشكل التي تكمن فيها النار، وربما أيضا السواطير والأوتاد المصقولة، وهي من أدوات ما قبل التاريخ واعتبرت سهاما أرسلتها الصاعقة. ففي أول الأمر اعتقد الناس احتمال كون هذه الأحجار مدهونة بأحد السوائل الذي هو قوة غير ذاتية يمكن أن تفيد الإنسان. ثم عزيت التأثيرات المنتظرة منها إلى روح تسكنها، أي إله يبعث فيها روحا من أرواحه. وتسميها النصوص الإغريقية واللاتانية باسم βαιτυλοι وباسم βαιτυλια، Baetylie. واللفظ يطلق على أحجار كانت تعبد في فينيقيا وسوريا وشمال إفريقيا. ورغما عن الشكوك التي عبر عنها بعض العلماء، فهو على ما يبدو، ذو أصل سامي، ومعناه (بيت الإله)[101]. وبفضل ذوي المهارات في الأعمال، فإن بعض بيوت الإلّ حُييت وتَحرّكت، وانبعث منها صفير إلخ... ونطقت بالنبوؤات.

ومن ناحية أخرى، لقد كان من العادة إقامة أحجار من أحجام عظيمة لها شكل مستطيل، في الموقع الذي جرت به أحداث يراد الاحتفاظ بذكراها. وفي المكان الذي دفن به الأموات، أو ظهر به أحد المعبودات. فأقيم به هيكل على شرفه. ولربما أن اللفظ الفينيقي Maccebat الذي كان يطلق لاشك على الأنصاب العمودية الجنائزية Cippes، كان يدل بصفة عامة على هذه الأحجار المختلفة المنصوبة، كاللفظ العبراني Maccebah.

وربما تكون عُرفت أيضا باسم Necib الذي يرجع مثل Maccebat لجَذْر يدل على معنى الفعل (نصب ériger). فإذا كانت ترجع لأحد الآلهة، فهي تكسى بخاصية القداسة. ومن تذكره هي فظهوره يستمر حاضرا فيها. وهي أيضا كانت مساكن للآلهة، فتبقى أحيانا على مظهرها الخشن، وتارة تنجر بانتظام على شكل مخروطي، وتارة هي هرم أو مسلّة.

وكانت بيوت الإل والأعمدة المنصوبة Cippes تنال التمجيد، فتُدلك بالزيت، وتُطلى بالشحم. وكانت موجودة في الأمكنة المقدسة البسيطة جدا، كما وجدت في المعابد الفخمة بصيْدة وصُور وبِبْلوس (جبيل) وبافوس، حيث كانت أحجارا شهيرة ومحترمة. وقد ظهرت على نقود من العهد الإمبراطوري.

هذا، وإن الاستعمال الذي اتسع وانتشر بإظهار الآلهة في شكل إنساني، كان له تأثير على عبدة هذه الأشياء، بحيث يبدو أنهم كانوا يتخيرون الأحجار التي كانت يد الطبيعة أعطتها مشابهة غامضة مع وجه أو بدن للإنسان، أو إن هذه المشابهة تحدثها بعض اللمسات Retouches. وبهذا تتحول التميمة إلى معبود.

وتبرهن بعض الوثائق على أن عبادة الأحجار كانت مزدهرة بشمال إفريقيا في عهد السيطرة الرومانية. وتسمح بتأكيد أن هذه العبادة كانت في بعض الأماكن على الأقل ذات أصل فينيقي. وفي تَهالة Thala معبد لسَتورْن، أي لبَعْل حَمّون، وفيه حجرة منصوبة (بيت إل Bétyle) مع عمود Baetilum cum columna. ولربما أن هذا النصب كان موضوعا على رأس عمود، كالرمانة الرمزية التي تبرزها النذور القرطاجية. وفي مَلْيانة إهداء موجّه إلى Abaddiri Sancto ويخبرنا القديس أوغسطين

أن Abaddires كانت لا تزال في عهده معبودات للوثنيين في نوميديا، غير أن لفظ أبَدير Abaddir الفينيقي كان يطلق على (بيت الإل)، كما أن حجرة من صاعقة (نيزكًا) كانت ضمن قائمة معبد قرطاجة الرومانية.

أما بالنسبة للعهد البونيقي فإن انعدام النصوص تعوض عنه الاكتشافات الأثرية.

فقد عثر في قرطاجة على حَجرتين بيضويتي الشكل، وعليهما خطوط وجه مرسومة بخشونة، وعلى إحداهما كتابة بونيقية. فمن الراجح أنهما معاً بيت إل. ولاشك قد كان منها هناك ماهو بسيط، أي أحجار خشنة يستحيل اليوم أن نتعرف على خاصيتها المقدسة.

لقد سبق أن تحدثنا على هذه المآثر الصغيرة التي تبدو بها المسلاّت. ففي أحد قبور قرطاجة وضع أحدها، وهو راجع للقرن السادس ق.م. أما ما عُثر عليه منها بهَدْروميت، وبقرب هدروميت، وبصقلية الغربية في ليليبي، وفي سردانية بنورا Nora، فترجع لتاريخ أحدث عهدا. وقلما تبدو هذه المسلات منفردة أو مزدوجة. فهي عادة ما يكون عددها ثلاثة، وتكون المسلة الوسطى أطول من الأخريين، وقد يكون أحيانا عددها ستة أو تسعة، يجمعها ثالوثان أو ثلاثة ثواليث. هذا، وإن القاعدة التي تحملها، والنطاق الذي يحيط بها غالبا، والهلال والقرص اللذين يعلوانها في الغالب، إن كل ذلك يدل على أنها أحجار مقدسة. ومن الواضح أن هذه العواميد Cippes التي لها جوانب منتظمة قد سوّتها يد الإنسان. ولم يأخذوا بشكل المسلّة ذات الأصل المصري فحسب، ففي أحد الآثار السردانية، يتكون الثالوث، في وسطه من عمود هو موشور رباعي، على رأسه هرم منخفض، وعلى اليمين واليسار

يتكون من هَرَمين مقطوعين مزودين بنتوؤات في القسم الأعلى منها، أما الهلال المقلوب على القرص فيزين الحجرة الوسطى. كما أن أحد نذور قرطاجة يعرفنا بشكل آخر مستعار أيضا من مصر، هو عبارة عن نوع من الدرابيز، بقاعدة.

هذه الرسوم تبين لنا الغاية من عدة عواميد Cippes جرى اكتشافها بنورا Nora وشَرْشال ومالطة. فمن نورا هرم بثلاثة أوجه، يبلغ في العلو 0.56 أي (ستة وخمسين سنتمترا). وحَجرة شرشال عبارة عن بروز منتصب من فوق قاعدة بثمانية أضلاع، والجانب المحدب محاط بالأوراق. وأما من مالطة فدربوزان[102] اثنان، بهما زخارف متماثلة، لكل واحد قاعدة مثمنة، وعليهما إهداءات لمِلْقارت هيرَكْليس باللغتين الفينيقية والإغريقية، قام بإهدائها رجال من صُور Tyr حول أواسط القرن الثاني ق.م.

هذه العواميد، على خلاف حجرتي قرطاجة، ليس بها ما يبعث على الظن بآلهة على شكل الإنسان. ولكن على نصب في نورا، توجد مسلة زُوّدت على اليمين واليسار بزائدة أفقية لها بعض الشبه بذراع. وقد خطت بين الطنفين دائرة تعزل القمة، وتبدو وهمياً كأنها رأس. وهذا الرسم الذي يشرف عليه الهلال والقرص يذكّر بالحجرة المقدسة التي بمعبد بافوس، التي كانت لها نواتئ جانبيه، ومن فوقها كانت تستدير على شكل كرة. ويمكن أن نفترض أن الزوائد كانت تستعمل فحسب لنقل هذه الأداة الثقيلة أثناء بعض الاحتفالات. وصحيح كذلك أنها كانت تساعد على إعطاء العواميد شكلا قريبا من شكل الإنسان.

4

إن الصورة التي تسمى عادة بعلامة أو رمز تانيت لها أكبر الشبه بشخص إنساني، وتتكون على ما يبدو من ثلاثة عناصر، هي : أولاً المثلث الكامل، أو مثلث رأسه مقطوع، فهو إذن مربع شبه منحرف وهو ما يمكن أن يمثل هرماً أو شكل مخروط، أو جذع مخروط يُرى من أمام. ثانياً : من فوقها مباشرة دائرة أو قرص غالبا ما يكون غير كامل، وله مظهر هلال منقلب على شبه المنحرف. ثالثاً : بين الدائرة والمثلث أو شبه المنحرف توجد عارضة أفقية، تمتد يمينا وشمالا، فتكون هكذا زائدتين جانبيتين، وكأنهما ذراعان في بعض الأحيان، وخصوصا في الآثار التي يبدو أنها أكثر قدما. وهذه الأذرع ليس لها مرافق، ولكنها تنتصب عادة بزاوية قائمة تقريبا. وعلى العموم يكون القسم العمودي مقوسا كأنه قرن، وتكون خطوط المثلث والدائرة والزوائد مفردة أو مزدوجة.

والصورة كلها تدفع لتصوّر امرأة ترتدي فستانا طويلا، وترفع أيديها. ولا نلاقيها على أي أثر يجب الرجوع به لتاريخ متقدم على القرن الرابع. فهي خاصة بالفينيقيين بالغرب، ولاشك ولدت في قرطاجة. وهي تُرى على العديد من النذور بهذه المدينة، بحيث إنها تكون تارة في أعلى الحجرة، وتارة تحت الكتابة، إما منفردة، وإما مصحوبة باليد أو الكادوسيه، وإما على جانبيها اثنان من الكادوسيه. وقليلا ما تصحب بيدين، أو ببرْعُمَين من اللوتُس أو بنجمتين، أو فإن اثنين من علامات تانيت تقومان هنا على جانبي كادوسيه أو يد أو نخلة أو برعم لوتُس أو تاج أو وعاء...إلخ. ونعثر على هذا الرسم في نقود سكتها الجمهورية بصقلية وقرطاجة. كما نجدها على أشياء من صنع بونيقي من حلى

وفخار، بل حتى على بعض الحجارة الضخمة، فتكون بها علامة على محل الشغل. وتظهر على بعض أنصاب من هَدْروميت، ونورا، وليليبي. وبعد تدمير قرطاجة بقيت زمنا طويلا محببة. وهي كثيرة الوجود على النذور ذات الكتابة البونيقية في سرْتا. وهي منقوشة على النقود التي ضربت بإفريقيا، وفي جزيرة كوسورّا Cossura (بنْتلاريْا)، كما تُرى على الأنصاب التي صنعت في العهد الروماني بمواقع مختلفة من الساحل، وداخل القطر التونسي وولاية قسنطينة، وفي الموانئ والمناطق التي تأصلت فيها الحضارة الفينيقية. وقد مثلوها على المصابيح الإفريقية المصنوعة في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، وعلى عصابات معدنية كرينة كَهَنوتية أحدث عهدا. ويوجد رسم وقائي لا يزال يرسم حتى اليوم في بلاد البربر بين رسوم الوشْم وعلى الخيام، وواجهات المنازل، وعلى الفخار، وهو يشبه رمز تانيت أو ربما هو مشتق منه.

وعلى أي شيء كان يدل هذا «الرمز» ؟ لاشك أنه كان صورة إلهية. فمكانة الشرف التي جُعلت له في العدد الكبير من النذور بقرطاجة وبغيرها من الأماكن، والصور الإلهية التي تصاحبه كافية لتأكيد ذلك. قد رأينا أنه يكون أحيانا مختلطا بالكادوسيه، أو مرسوما بداخل اليد، وفي مكان آخر يضم الهلال المحيط بالقرص. وفي أحد الأنصاب القرطاجية كلمة بَعْل BL تحل محل الدائرة التي تكون في أغلب الأحيان بأعلى الرسم. فهذه إذن قد جُعلت على اتصال متين بأحد الآلهة. وعلى نذور أخرى متأخرة عن العهد البونيقي، فإن السواعد تمسك بشيء ما. فإن كان هو هلال القمر، فلابد من الاعتقاد بأن المعبود وحده هو الذي يقدر على حمله.

والرأي القائل بأنه يرى في علامة تانيت فأسا مشوهة، هو رأي لا ينبني على أساس متين. أما الرأي الذي يشخصها مع صليب بشكل T تعلوه خرصة مستديرة، ويُسمّى صليبا بخرص، هو رمزُ وهيـرُغْليف للحياة عند المصريين. فيمكن أن ينبّه للشبه الكبير الموجود بين الوجهين، خصوصا إذا صح أن العلامة في أقدم رسومها لم تكن بها الأذرع منعطفة. ومع ذلك فالصليب ذو الخرص، حتى عندما تكون ساقه العمودية عريضة من أسفل، فإنه لا يبدي على الجانبين ميلاً مماثلا لما في رسمنا. ورغما عن هذا الاختلاف، فليس من المستبعد أن يكون الصليب المصري قد أوحى بفكرة تكوين صورة مماثلة تدخل فيها العناصر التي سنتحدث عليها. ولكن لا دليل لنا على افتراض أن جميع ما تكوّنه هذه العناصر، قد جعل للقرطاجيين نفس المدلول الذي كان في مصر يعطى للصليب ذي الخرص.

ونستبعد أيضا الرأي الذي يرى في علامة تانيت رسما اتفاقيا، هندسياً، دالاّ على شخص يصلي، أي على رمز للصلاة. إن هذه العلامة ذات طبيعة إلهية لا بشرية. وسنبين أن الدائرة (الخرص) ليست في الأصل رأسا، وأن الزوائد الجانبية إذا لم تكن منثنية، فلا يمكن أن تكون أذرعا مرفوعة للسماء. وفوق هذا، هل كان القرطاجيون عادة يصلّون في هذا الوضع المستعمل عند المصريين وعند شعوب أخرى ؟ إنهم في الآثار التي وصلت إلينا، كانوا يكتفون برفع يد واحدة هي اليمنى إلى الكتف أو الذقن.

ومما لاشك فيه، أن العديد من الأنصاب الإفريقية المكتشفة خارج قرطاجة، كانت علامة تانيت Tanit بها تماثل صورة آدمية. والزوائد هي سواعد حقيقية تمسك الكادوسيه أو سعفة، أو تاجا، أو هلالا قمريا.

ولربما تمسك خمارا متثنيا. وأحيانا تكون تقاطيع الوجه قد خطت باختصار في داخل الدائرة. لكن هذه جميعا هي مآثر حديثة العهد، ليس من بينها ما يرجع للعهد البونيقي. والمظهر العام للصورة، في هذا العهد، يذكر فحسب بالشخص، أما عن التفاصيل فإننا لا نجد علامة أكيدة للتجسيد الآدمي.

ويمكننا، اعتمادا على الأمثلة المذكورة أعلاه، أن نتسائل : أليست علامة تانيت حجرة مقدسة، مخروطية الشكل أو هرمية ؟ وجُعلت قريبة إلى حدما بشكل الإنسان، بإضافة فَـمٍ وزائدتين جانبيتين ؟ ولكن مكونات هذه الصورة لا تبدو لنا بهذه البساطة. إذن فلنبحث في العناصر التي تكونها.

إذا كانت الدائرة تذكر بالرأس، فإنها مع ذلك ليست رأسا. والذي يؤكد ذلك، هو أن هذه الدائرة، أو هذا القرص، يمكن أن يفصل عن بقية الصورة. وهوأحيانا يرسل أشعة، أو إنه يحيط بأوراق إحدى النجميات تشويها لأحد الكواكب. وهو على بعض الأنصاب يعلوه هلال بقرنين منقلبين فيتكون منه كل مع الهلال، أو له هنا الوسم المزدوج بالهلال والقرص، الذي غالبا ما نلاقيه والذي يكون القرص فيه قمراً بدراً أو نجمة (لا شمسا). وقد قلنا إن العديد من النذور القرطاجية يأخذ الهلال المقلوب فيها محل الدائرة. وتوجد هذه الصيغة في قُسنّطينة ودُقّة. وعلى آثار من عهد ما بعد سقوط قرطاجة هناك هلال بقرنين صاعدين، ملتحم ببقية الصورة أو منفصل عنها. وهو يحمل الرأس المزعومة، ويكون تارة منفردا، وتارة يغطي قرصا صغيرا أو كوكبا مشعا أو صليبا أو نجمة رسمت رسما مختصرا، أو نجمية. فكل هذه الأمثلة تدل على أن العنصر المستدير في علامة تانيت يمثل كوكبا يمكن أن يصحبه أو يحل محله

الهلال الشمسي، وأنه قد يكون القمر البدر، أو الشمس أو نجما فالمعنى الحقيقي، ليس مهمّاً على ما يبدو، إذ يكفي أن يكون شعارا يعود على معبود سماوي. وأن يكون قيمة خاصة، مستقلة عن الأقسام الأخرى للصورة. وهكذا نراه على أنصاب العهد المتأخر وقد عُوِّض عنه برأس إنسانية منفصلة، أو بشخص رسم بين الزائدتين المنعطفتين فرسم التجسيد الإنساني حل محل الشعار. وفي عهد قرطاجة الأولى اكتفوا على أحد الأنصاب سبق لنا ذكره، بأن جعلوا رسم المعبود يحل محل الكوكب.

بعض العلماء يجعلون شركة متينة بين الزائدتين وبين الدائرة فحسب رأي البعض، تكون هاتان (الذراعان)، تبديلا في الثعبانين أو في الجناحين اللذين على جانبي القرص الشمسي في شكله المصري. لكن الوشمات Motifs مخالفة تماما. وليس لدينا علامة للانتقال تبرر هذا الافتراض. ويروي الغير أن الأذرع كانت أول الأمر هلالا قمريا يحتوي القرص بقرنيه الصاعدين. غير أن هذه الأذرع الأفقية أو المثنية بزوايا قائمة، لا تشبه الهلال في شيء. ويرى أحدهم وهو ينظر لرمز تانيت أو لقسمه الأسفل كحجرة مقدسة وللزائدتين كمقبضين. هذا التخمين يعسر قبوله، لأن المقبضين يكونان موضوعين بأسوأ موضع، أي بقمة المخروط أو الهرم، أو بمحل التحام الكرة بالعمود، وهذا إذا فرضنا أن القسم المستدير هو قمة الحجرة، وقد جعل لها وضع الزاوية القائمة.

بل إن العارضة الأفقية المكوَّنة من (الذراعين) تمثل مائدة على ما يبدو لنا، مائدة مذبح. وتكون ذاته هي الرباعي شبه المنحرف أو هي المثلث. وهذه المائدة تكون تارة مسطحة تماما، وتارة فإن الزوائد تكون قامت بالزوايا. وفي الأصل فإن قرون الثيران التي وقع التقريب بها

تكون قد وضعت هناك، ثم لأن النواتئ، أي القرون الحجرية تكون حلت محل القرون الطبيعية، التي لم يعد لها سوى شبه بعيد، كما يبدو بصُوَر المذابح البونيقية. فالشكل المقوس الذي أعطي في الأغلب للقسم العمودي للأذرع، يذكّرنا جيدا بالعادة القديمة. ونجد على بعض الأنصاب الإفريقية تكرارا لرسوم المذابح التي تشبه الرسوم المكونة من شبه المنحرف والذراعين اللتين برمز تانيت، حيث المائدة مسطحة، أو زودت في طرفيها بزوائد عمودية.

ففي الصورة التي ندرسها، يوجد إذن عنصران على وجه الحقيقة، يمثل أحدهما العبادة، والثاني المعبود الذي تتوجه إليه العبادة، أي يوجد مذبح ومن فوقه كوكب.

إن هذا المذبح، هذه المائدة القائمة على دعامة، لم تكن في حقيقة الأمر حجرة مقدسة، أي مسكنا للمعبود، كما في المسلة والهرم والمخروط، بحيث إنه من فوق قاعدته يبدو لعبادة عباده. ويحتمل أن المذبح في بعض صور علامة تانيت، يكون قد عوض عنه بحجرة حقيقية مقدسة. وهذا على ما يظهر هو الواقع في الصورة التي تنقصها العارضة الأفقية، حيث إن القسم الأسفل الذي يقدم للناظر مظهر شكل مثلث، يكون وجها لهرم أو لمخروط. ولكننا نعتقد أنهم، على العموم، أرادوا إظهار مذبح.

ولربما، أن إشراك العنصرين معا، أي المذبح والكوكب، في رمز مشبه للإنسان، أمر يكون دعت له ميول للتجسيد الإنساني. غير أن هذه الميول لم تظهر بوضوح في بادئ الأمر.

وهكذا، فعلامة تانيت قد صارت بعد تكوّنها أداة مقدسة مثل الرمّانة والكادوسيه. وأنصاب قرطاجة ترينا هذه العلامة منصوبة على قاعدة. وهو ما يمكن أن يناسب مذبحا. وهذه القاعدة تكون أحيانا موضوعة في أعلى سناد رقيق عمودي كساق اللوتُس على ما يحتمل. وذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا دائما يعطون الاعتبار للمعنى الأولي للعنصر الأسفل. وفي نصب بالكنيسية El-Kenissia نجد العلامة تعلو عصا، وتأتي مع الكادوسيه على جانبي ثلاث حجرات مقدسات، فتلك إذن علامة. وعلى آثار من تاريخ حديث، نجدها تصحب مذبحا وتقوم معه، إذا صح ظننا، بدور مزدوج.

فهل كانوا على صواب حينما أطلقوا عليها الإسم الذي استعملناه لنتوافق مع العادة الجارية ؟

لاشك أنها قد عُزِيت إلى تانيت بني بَعْل. فعلى واحد من أنصابها بقرطاجة، حيث يكثر وجودها، وحيث الكتابة تبدأ دائما، باسم الإلهة. نجدهم نقشوا (تاو) بداخل العلامة الموضوعة بقمة الحجرة. وهذا الحرف (تاو) هو لاشك بدء لفظ TNT، أي تانيت. وتُرى العلامة على نقود بونيقية بقرب رأس المعبود، الذي ولو أنه في تقليد لعُملة سرقوسة، فهو مع ذلك وعلى الراجح تانيت بني بعل. وفي العهد الروماني فإن الصورة ذات الذراعين المرفوعتين تمسك أحيانا بالهلال، وذلك يبين أنها إلهة سماوية، ربة القمر.

ولكن هذه العلامة لم تختص بها تانيت وحدها. فقد سبق أن رأينا بنذر قرطاجي الدائرة وقد عوّض عنها بكلمة بَعْل، الذي يجب صرفه إلى بَعْل حمّون. وعلى نذر آخر، نجد الصورة وعلى جانبيها

(ب Beth، وت Taw)، فتكون ذات اتصال مع بَعْل ومع تانيت كذلك. والعلامتان المنقوشتان على عدد كبير من هذه الأنصاب، يمكن إرجاع إحداهما إلى الإلهة والأخرى للإله. وعلى أحد الأنصاب من ليليبي، الذي يتوجه إهداؤه إلى بَعْل حمّون وحده، نجد العلامة وعلى جانبيها كادوسيه ومبخرة، أمامها رجل يصلي. ونجدها فيما بعد ذلك تحتل أعلى بعض النذور الإفريقية المهداة إلى بَعْل حمّون، أو إلى سَتورْن الذي هو بَعْل حَمّون سابقا.

ولقد أخطأ من رأى فيها رمزا لثالوث أسمى، كان يعبد بقرطاجة على ما أكدوا. وحتى إذا كان دائما للقسم الأسفل من الصورة شكل مثلث، بينما لها في الغالب شكل رباعي شبه منحرف، فلابد من البرهان على أن الفينيقيين أعطوا للمثلث معنى رمزيا، ويجب أيضا التدليل على وجود «الثالوث القرطاجي» الذي لم يظهر بوضوح في أي مكان من مجموعة النذور التي تعد فيها علامة تانيت بالآلاف.

5

كان في فينيقيا مغارات مقدسة. وفي إفريقيا أُدّيت شعائر دينية في بعض المغارات، قبل وبعد العهد القرطاجي. ويحتمل أن المعمرين الفينيقيين لم يتخلوا عن عادة كانت مشتركة بينهم وبين الأهالي. ولكن ليس لدينا برهان على ذلك.

وفي عدة مناطق فُضّلت إقامة المعابد فوق الذرى. فمنها كان الإله ينشر سطوته وحمايته على المنطقة التي هو سيدها، ويظهر إلى أنظار وصلوات عباده. وكان هؤلاء حينما يأتون ليقدموا له تمجيداتهم،

يقتربون من مسكنه السماوي. لقد كان الفينيقيون يعبدون بَعْل لبنان. وكان أحد المعابد موجودا بقمة جبل الكرمل Carmel. وكتاب التوراة عرّفنا «بالأماكن المقدسة» في بلاد كنعان. وبقرطاجة كان معبد إشْمون مقاما على جبل بِرْسا Byrsa ويشرف على المدينة، مثل معبد نفس الإله بقرطاجنّة Carthagène. وفي بئر بوركْبة Bir Bou Rekba، قرب خليج الحمّامات يوجد معبد مزدوج مُكرّس لبَعْل، ولِتانيت بني بَعْل، وهو مقام على رأس ربوة. وفي داخل خليج تونس، على إحدى قمتي جبل بوقرْنين، فإن عبادة بَعْل، الذي صار يُدْعى ساتورْنوس بِلْكارانَنْسيس Balcaranensis، قد استمرت حتى صميم الإمبراطورية الرومانية. ولا نجازف إذا افترضْنا أن بعض المعابد البونيقية، قد احتلت فيما مضى بعضا من هذه القمم التي لا تحصى، والتي تقوم اليوم عليها قبة لمصليات إسلامية.

وتنقصنا المعلومات عن تنظيمات الأماكن المقدسة عند الفينيقيين الغربيين. وعن خطإ، عُزِيت إليهم بنايات في مالْطة وگوزو Gozzo، تتكون من مجموعات من الخلايا ذات الشكل البيضوي، وتحيط بها أسوار ضخمة بحجارة جافة. إنها آثار ترجع لأزمنة أشد قدما، ويشك أنها كانت لها غاية دينية.

وفي البوادي الكنعانية، كانت الأماكن المقدسة عبارة عن فضاءات مسواة بقدر الإمكان، ومحاطة على العموم بسياج غليظ. ويقوم بداخلها المذبح المبني بأحجار خشنة، أو تناولها التربيع على عجل، وبداخلها كذلك الأحجار والأدوات المقدسة. ولم يكن بها من معبد. وقد أقام الفينيقيون في إفريقيا أحراما شبيهة به، مثلما كان في العهد الروماني، على ما يبدو، المكان العالي الذي كان يعبد فيه Saturnus Balcaranensis. ولكن في المدن بالغرب كما بالمشرق، فإن هذا التهييء الأولي يكون

بسيطا جدا، لذلك تدخل المهندسون، واستوحوا النماذج الأجنبية، المصرية ثم الإغريقية بعد ذلك.

على أن الفضاء، كثر أو قلّ اتساعه، المحدود بسياج بقي قسما أساسيا من الحرم. فيه كانت عادة تدفن الأوعية المشتملة على بقايا القرابين والإهداءات، كما بالأمكنة المقدسة في الأرياف. ومن فوق هذه المودعات، كانت تقام فيه الأنصاب الشاهدة بأن الشعائر قام بها المؤمنون تبعا لرجائهم. وأحيانا يكون الفضاء محاطا بأروقة، أي بممر مسقوف وبه أقواس على أعمدة، وفي الوسط أو بالداخل يقوم مبنى كبير أو صغير يضم تمثال المعبود أو الحجرة التي يسكنها هذا المعبود. وكما في مصر فإن المسكن الخاص بالإله كان على ما يبدو صغير الحجم غالبا. فهو عبارة عن مُصلّى، أي عن سقيفة، وليس تلك الدار الواسعة الفارهة التي كانت هي المعبد الإغريقي. وبالفضاء، إلى الأمام، يقوم هيكل أو عدة هياكل. وعلى جنبات المبنى الكبير أو بجهة أخرى توجد محلات إضافية مخصصة للكهنة، ومخازن، ومصليات يمكن أن تؤوي بعض الآلهة ضيوف رب المعبد. ولقد قلنا إن صهريجا أو بركة ربما كانت توجد في بعض الأمكنة، وتعيش بها أسماك مقدسة، وهناك خزانات تزود بالماء الضروري للعبادة.

إننا نرسم هذه النبذة المبهمة والسريعة، نقلا عن وثائق قليلة، أدبية أو أثرية تتعلق بمعابد المشرق. وأيضا حسب الخرائب الواضحة كثيرا أو قليلا لبعض المعابد الإفريقية التي ترجع للعهد الروماني، ولكنها مهداة لمعبودات من أصل بونيقي. وليس من المؤكد أنها صحيحة جداً. وإننا لا ندعي أننا نستعيد تشكيل الهياكل القرطاجية في عهد حنّيبَعْل، بتركيب النصوص التوراتية التي تعرّفنا بمعبد القدس، الذي بناه أحد

الصوريين في القرن العاشر ق.م، أي بتركيبه مع مخطط معبد ساتورن الذي أقيم في دُقّة Dougga، في عهد حكم سبتيم سيفير Septime Sévère وزخرف حسب قواعد الفن الكلاسيكي.

أما المباني الدينية التي ذكرها الكتاب القدماء في قرطاجة وأوتيكا ولِكْسوس وبجزيرة قادس، فإننا لا نعرف عنها أو لا نكاد نعرف شيئا.

إن معبد إسْكولاب (إشْمون) بقرطاجة كان محاطا بسور، وكان بالغ السعة، بحيث تعقد فيه الاجتماعات، ويغطيه سطح على ما يحتمل، يمكن أن يحمل عدة مئات من الرجال، ويشرف من أعلاه على الأحواز. وحسب الوضعية التي كان هذا الأثر يحتلها فوق المدينة، يجوز الاعتقاد بأنه كان ينظر (موجها) للمشرق مثل معبد القدس. ولكن هل كان ذلك وفقا لأمر شعائري ؟ ففي معبد أبولون Apollon كان تمثال الإله في سقيفة Tabernacle، وتغطيه صفائح الذهب، وهو طبعا بداخل إحدى القاعات. وتمثال كرونوس Cronos من البرنز كان يعلو تجويفا تلتهب فيه نار عظيمة. ولاشك أن مصلّين ومساعدين عديدين، كانوا يقفون أمام التمثال، عندما توضع الضحية على يديه، وتنزلق من فوقهما إلى اللهيب. ومما لا شك فيه أن التمثال لم يكن مبعدا إلى إحدى الخلايا العميقة. وكان حَنّون قد علّق في معبد يونون Junon إهابين لامرأتين كثيرتي الشعر قتلهما أصحابه. هذان الجلدان، هما أعجوبة، لا تَقْدمةً دينية ومعهما أشياء أخرى، لابد أنهما كانتا تُعْرضان في إحدى ملحقات المعبد الحقيقي.

أما معبد هيرَكْليس (مِلْقارت) بِصُور فكان به نصبان رءاهما هيرودُت. كان أحدهما من ذهب والآخر من زمرّد. ونحن نشك في صواب

مقارنتهما بالعمودين الشهيرين من البرنز، أي ياكين Yakin وبؤاز Boaz المقامين في معبد القدس، أمام مدخل الهيكل. وأكثر من ذلك شكا، أن يكون لهما بعض الشبه مع النصبين من البرنز، اللذين يرتفعان بثماني أذرع، واللذين ذكر سْترابون Strabon أنهما في هيكل ملْقارت قريبا من قادس، وأن عليهما حسب ما قال، كتابة تسرد المصاريف التي أنفقت على بناء المكان المقدس. فإذا كان هذا صحيحا، فإن هذين النصبين لم يكن لهما حتى الطابع المقدس. وحسب ظننا فقرطاجة، على النقيض، كان بها رمز الإلهة، أي الرمانة، التي يحملها عمود من الطراز الإغريقي، بمعبد تانيت.

ولن نعود للحديث على التماثيل، والأحجار المقدسة والكادوسيهات وغيرها من الأشعرة التي كانت موجودة ببنايات العبادة. فإن سقائف Tabernacles من ذهب قد استخرجت في سنة 310 من معابد قرطاجة لتبعث إلى صُور. وبالتأكيد، فإن هذه قد كانت أصغر بكثير من السقيفة التي كانت تؤوي تمثال أبولون. والكتابة المتعلقة بالهيكلين المتوأمين لأسْتارتي وتانيت لبنان، قد ذكرت منحوتات ومصنوعات من ذهب وربما حتى الأوعية. وتذكر الكتابة وجود سياج، ولكن لا نستطيع التأكيد بأنه كا يسيج المكان المكرس للإلهات. وعثر في بوركْبة على إهداء بونيقي، متأخر عن عهد تدمير قرطاجة، يتعلق بمعبد مزدوج لبَعْل ولتانيت بني بَعْل، وتذكر أربعة مراكب محملة بالمعدن أغرقت، وجفنتين وزبرتين Zebarin (أكواب ؟)(103).

وبعض النذور التي من قرطاجة وليليبي تبدو عليها صورة مصلّى له جبهة أمامية مثلثة الشكل : فالمصلّى مسكن للإلهة، وهو، كما في نصب ليليبي، يضم ثلاثة أحجار مقدسة. وهو في نصب قرطاجة، مسبوق

بمذبح. فهو واحد من هذه المذابح ذات القرنين التي تحدثنا عليها من قبل. وغير هذه كان لها شكل مصري.

وفي الحملات العسكرية، كانت الخيام تقوم مقام المصلّيات. وتُنحر القرابين أمام هذه الخيام.

6

إن الكهنة والكاهنات مذكورون بشواهد القبور، وفي النذور البونيقية من غير تعريف حينا، وأحيانا أخرى تذكر بوضوح أو بغموض المعبود الذي تكرسه لخدمته، مثلا: كهنة بَعْل شَميم، إشْمون أشْتارت، للإلهة اللاّت Allat، وكاهنة الربة الكبرى...إلخ(104).

هؤلاء الكهنة كان عددهم يقل أو يكثر تبعا لقيمة المعبد. ونلاحظ وجود تدرج في الرتب. ذلك أن إحدى كتابات قرطاجة تعرف بكاهن (Kohen)، وبرئيسين للكهنة (Rab Kohénim)، وباثنين من ذوي الشأن وُصِفا بأنهما شانو Shanô، أي (SN). ويبدو أن هذا اللفظ معناه (الكاهن الثنيان Prêtre en second)، إذن فقد كان هناك على الأقل ثلاث درجات في الكهنوت. فرئيس الكهنة، أو الكاهن الكبير الذي ذكر في هذا النص وفي غيره، والكاهنات الكبريات كانوا يسيّرون جميع رجال المعبد. كما ذكر بوضوح رئيس لكهنة اللاّت Allat. ولكن ليس مستحيلا أن لقب Rab Kohenim ربّ كوهنيم، قد يكون حمله رئيس جميع كهنة قرطاجة، كحبر أكبر مثلاً. فلربما أن هذا هو رئيس الكهنة المذكور بعد السوفيت Sufètes الذين هم رجال الدولة الأولون في إهداءات معابد أسْتارتي وتانيت لبنان. وفي شاهد لأحد القبور، فإن امرأة من مستوى

رفيع قد وصفت بأنها رئيس الكهان، لا الكاهنات. ويمكن أن نفترض أنها كانت إما على رأس مجموع لكهنة من الجنسين يعملون في معبد، وإما أنها كانت تسيّر جميع كهنة قرطاجة.

في فينيقيا، بصَيْدة وبصُور فإن ملوكا وملكات وشخصيات من ذوي المقام الرفيع كانوا يقومون بعمليات الكهنوت. وفي قرطاجة أيضا، فإن أشخاصا ينتمون للأرستقراطية كانوا منصبين في وظائف دينية في القرن السادس. منهم ابن القائد الشهير ملْكوس Malchus، ومنهم في عهد الحروب ضد رومة بعض السوفيت، (وهم لاشك قضاة دائمون) وبعض أقربائهم. وتشهد بعض النقوش على أن هذه المناصب كانت تتجمع في بعض الأسَر، بحيث إن أحد كهنة بَعْل شَميم كان ينحدر من كاهنين ثنيانين، ومن كاهنين رئيسين، كما أن كاهنا رئيسا كان ابنا لكاهن رئيس، وكاهنة كانت زوجا لكاهن رئيس، ابن كاهن رئيس. ويمكن الاعتقاد أيضا أن المنصب الكهنوتي كان ينتقل من الأب للابن بحق الوراثة، فجُسْتان Justin يقول إن الأمر كان كذلك في كهانة يونون Junon (ربما في الكهانة الكبرى). وليس لدينا معلومات أخرى عن كيفية جلب الكهنة. ويُحتمل جدا أن منصبهم كان لطول حياتهم.

إن هيأة القساوسة كانت إذن منظمة جدا. وأعضاؤها، نظرا لأصولهم ولطول المدة التي يقضونها في الخدمة بجوار الآلهة، كانوا يتمتعون بنفوذ عظيم. ومع ذلك فلم يؤلفوا طبقة لها الإرادة والقدرة للسيطرة على الدولة. فالجمهورية كانت تحافظ على مراقبة العبادة، والرجال العشرة Decemvirs، المكلّفون بالشؤون المقدسة، كانوا كما تذكر بعض الكتابات، وُلاةً متولين لهذه المهمة. وكذلك، ما لم نخطئ، الكهنة الذين لقّبتهم نصوص نقيشات أخرى باللقب الغامض

الأعمال الفخمة لمنصبها، لابد أنها كانت حقيقة تلبس هذا الثوب المستعار من الإلهة التي تقوم هي على خدمتها. ورسم الأجنحة المضمومة يوجد كذلك على قطع من الطين المشوي، التي يغلب على الظن أنها أيضا صوَر للكاهنات.

بعد رجال الكهنوت، يأتي خَدَمةُ سفُليون، عددهم كثير أحيانا، تابعون لأحد المعابد. إذ يظهر على بعض الأنصاب القرطاجية خدمة أشْتارت، وسدْ ملْقارت، وآخرون تابعون لهيكل ميلك أشتارت Milk Ashtart، وإشَمونَ، وأرْشوف، وهَتَارْ مِسْكار، وسِدْ تانيت ميارَتْ. وتذكر إحدى الكتابات شَعْبَ معبد ملْقارت، كما تذكر أخرى شَعْب رجال أشْتارت. إن كل هؤلاء الناس كانوا يعيشون حول المعابد ومنها، ويؤدون الفروض العادية. فالجزارون لابد أن يشاركوا في القرابين، وموقد الأنوار كان يعنى بالمصابيح. ولكن لا نرى جليا ما هي المهمة التي كان يقوم بها الحلاقون Barbiers المقدسون. والكتّاب أمكنهم أن يقوموا بمهنتهم في بعض الهياكل. وبالطبع كان هناك منشدون وموسيقيون، كما كان النساء يؤدين أعمالا مختلفة. وقد ذُكرت خادمة مقدسة على أحد النذور من غير إيضاح زائد.

في مناطق من المشرق، في آسيا الصغرى، وبأرمينْيا، وبابِلونْيا وفي فلسطين وفينيقيا وقُبرص، كان النساء يزْنين عند حواشي بعض المعابد التي كانت مكرَّسة لإلهة الخصوبة. وحول أصل هذه العادة، ذُكرت عدة افتراضات. ربما إن أشدها إغراء هي النظرية التي ترى فيها طقسا سحريا، الغاية منه تقوية القدرة الخلقية Génératrice عند الإلهة، بمزاولة العمل الجنسي الأولي بمحضرها[105]. وفوق ذلك، فإن العادة لم يكن شكلها واحدا بجميع الجهات، إذ أن أسبابا مختلفة استطاعت أن

تغير أو أن تخفف، أو على النقيض تزيد من حدة العمليات الأولية. بحيث كان البغاء يؤدّى ببعض الهياكل أثناء بعض الحفلات الهامة، وفي بعضها الآخر كان يجري في كل حين. فهنا مثلا كان البغاء واجبا مفروضا على النساء مرة واحدة، أو مرات عديدة، في زمن يطول أو يقصر. وكان ضرورة مفروضة على العذارى يستجبن لها قبل الزواج. وهناك فالبغاء حرفة تتعاطاها المومسات بِحُرية. فيضمن لهن وسائل العيش ويمكنهن من جمع المهر.

وليس لدينا برهان على أن هذه الأنواع من البغاء قد نقلت إلى قرطاجة من فينيقيا أو من قبرص. فبعض الكتاب القدماء يخبروننا أن في معبدين بالغرب، أي في جبل إيرِكْس Eryx وفي سيكّا Sicca (هي مدينة الكاف)، كان النساء يتعاطين للزائرين. وإذا كانت الإفريقيات بعد أن يجمعن مهْرهن هكذا، يصبحن سيدات محترمات جدا كما قيل، فإنهن أثناء إقامتهن في سيكّا لا يتوانين عن العيش، عيش البنات العموميات. وليس أكيدا أن هذه المزاولات كان أصلها فينيقيا، لأن فينوس إيريكس Vénus de l'Eryx لم تكن معبودة للفينيقيين. وقد أكدوا، صدقا أو غلطا، أن فينوس سيكا Vénus de Sicca كانت مماثلة لفينوس إيريكْس. ففي هذين الموقعين، كما في لُكْريس Locrès بجنوب إيطاليا، يكون البغاء التعبدي، جاء من الخارج. بل وفي أرض الفينيقيين نفسها، يحتمل أن يكون جلب إليها من أسيا الصغرى.

وفي فينيقيا وفلسطين وربما حتى في جزيرة قبرص كان الرجال أحيانا، لا النساء هم الذين يقدمون خدماتهم. ولا شيء يلزمنا أن نعتقد أن مثل هؤلاء الأشخاص قد عاشوا حول الهياكل البونيقية.

7

وباستثناء عمليات نحر القرابين، التي لنا عنها معلومات دقيقة، فإن حفلات العبادة العادية والممتازة مجهولة لدينا. ولا نعلم شيئا عن الأعياد الدينية التي لابد أن يحتفل بها في مواعيد ثابتة، كعيد أدونيس Adonis في بِبْلوس (جبيل)، وعيد ملْقارت في صُور. وتوجد قطعة سيئة من كتابة قرطاجية، يبدو أنها كانت جزءاً من حفل ديني فخم يدوم على الأقل خمسة أيام، ويجري إبان الربيع، وكانت تهدى فيه بواكير الغلات، وبأحد الهياكل، في اليوم الرابع، كان يقع التكريس لغصن إحدى أشجار الفواكه، ولخبزة من مواد عطرة (؟)، وتذْكر بقايا الكتابة في نفس اليوم تينة بيضاء والبخور الناعم (؟) ولليوم الخمسين تَذكر العسل ومائتي طفل (؟). وإذا صح التفسيرن فإن الأطفال كانوا يظهرون ربما في أحد المواكب.

وليس علينا أن نبحث هنا عن المعنى الأولي لطقوس التقريب التي أدخلها الفينيقيون إلى إفريقيا. ويكفي أن نلاحظ أن القرطاجيين كانوا يقدمون القرابين إما لنيل رضى الآلهة، وفي بداية أعمالهم كذلك ليعرفوا ما تهيئه الآلهة لهم، بنبوآت مأخوذة من الذبائح. وإما لتسكين غضب الآلهة والتكفير عن الأخطاء المرتكبة، وإما لشكرها على إحسانها إليهم. والتحالف بين الإنسان والآلهة يتقوى، أو يتجدد بواسطة الضحايا، التي تُقدّم هدية أو فداء. والضحايا كانت تارة تحرق نهائيا، وتارة يعاد بعضها للمؤمنين الذي يتقربون مع الإله بأكل لحومها.

وكان القرطاجيون ينحرون الضحايا البشرية، وهي عادة قد استهجنت بحق. ولكن لا يجب أن ننسى أن الأضاحي الإنسانية كانت

مستعملة في البِلوبُنيز Péloponèse بعد حلول العهد المسيحي، وروما لم تقلع عنها نهائيا إلا في بداية القرن الأول قبل الميلاد، وفي غاليا La Gaule كانت كثيرا ما تقع في عهد يوليوس قيصر، وكان على الحكومة الإمبراطورية أن تتخذ الوسائل الشديدة لإيقافها. وما كان على الخصوص يغضب الأجانب، هو فخامة هذه التضحيات بقرطاجة، وسن الضحايا ووضعيتهم، وعددهم أحيانا. كذلك التعارض بين طقوس باربارية وحضارة لامعة. وقد قيل إن دارْيوس (دارا) ملك الفرس قد أمر القرطاجيين بالتخلي عن عبادة تحط من شرفهم. وأن جيلون Gélon المتأمر على سرقوسة، قد فرض على القرطاجيين بعد أن دحرهم في معركة هيمير إدخال مادة في معاهدة الصلح تمنعهم من قتل أبنائهم. وأن هذا المنع قد وقع تجديده بعد ذلك. ويبدو أن التضحيات البشرية لم تعد كثيرة الوجود بقرطاجة في قرونها الأخيرة. فهي لم تذكر من بين أنواع القساوة التي كان الحقد الروماني يؤاخذ بها حنّيبَعْل العظيم. ولا نجد لها أي أثر في الكتابات الدينية التي وصلت إلينا. ومع ذلك، فقد استمرت حتى تدمير المدينة الإفريقية، ولو أن أمَّها وهي صُور قد تخلت عنها منذ عهد طويل. وكانت تستعمل في أماكن أخرى بشمال إفريقيا. ولكنها بدون شك لم تكن طقسا من أصل فينيقي [106]. بل، وحتى في عهد السيطرة الرومانية، فإن بعض الكهنة كانوا لا يزالون يذبحون جهرا الأطفال إلى سَتورنْ. وإذا كان ترتولْيانوس Tertullien على علم صحيح، فإن تنفيذ أوامر أحد البروقنصولات لم تجعل حدا لهذه الجرائم المقسة، التي صارت منذ ذلك العهد تقترف في السر.

في العهد البونيقي، كان بعض الأجانب الأعداء، هم من يقع ذبحهم في بعض التقريبات غير العادية. إذ نقرأ في دِيودورالصقلي : أن

القرطاجيين بعد انتصارهم على أگاطُكليس، قد شكروا الآلهة بتقديمهم لها أجمل الأسرى. وهكذا قدم هؤلاء التعساء إلى اللهيب، أي للمحرقة التي ربما كانت تمثل الحظ الواجب على الغالبين للمحسنين إليهم (أي الآلهة). كما ذكرت تضحية بالأسرى في مناسبة أخرى. ولكن السبب على ما يظهر لم يكن مماثلا. ففي سنة 409 استولى الماگوني حنّيبَعْل على مدينة هيمير، فأمر بذبح 3000 عدو في المكان الذي هلك فيه جده عمِلْكار في سنة 480. فلم يكن هذا عملا انتقاميا فحسب، بل وعلى ما يحتمل، كان أيضا تقريبا ضخما إما لعَمِلْكار نفسه، الذي بعد التحطيم المأساوي لجسمه، فإن روحه كانت بحاجة لهذه الترضية لينعم أخيرا بالراحة الأبدية، وإما لأحد المعبودات الذي هو رب المقادير لهذه الروح المعذبة.

كان القرطاجيون كل سنة يقدمون ضحية لهِرْكول. ونحن افترضنا أنها كانت تمثل الإله نفسه، وكانت تحرق، ولكن حيث إن التفصيلات منعدمة بشأن الاحتفال، لذلك فإن الافتراض واهن.

ولإله آخر، هو كْرونوس-سَتورْن، ولا نعتقد أن هناك داعيا لتشخيصه مع هركول، كان يضحى سنويا بأطفال ذكور، آباؤهم مواطنون، ويؤخذون من أحسن العائلات. ولربما أن الضحايا كان عددهم اثنين فحسب. ويقول سيلْيوس إيطاليكوس : إنهم كانوا يؤخذون بالقرعة. ويحتمل مع ذلك أن ضحايا يقدمها آباء متشددون، قد كانت أحيانا تغني عن هذه الطريقة. لكن في هذه الحال كما في تلك، فالأمر هو التضحية الرسمية التي يحتفل فيها باسم الجميع ولمصلحة الكل. ولا نرى أن بعض الخواص أو طوائف الحرفيين أو مجموعة رجال آخرين قد قاموا بها للحصول على إنعامات خصوصية. وهذه التضحيات التي هي واجب شرع فردي عند الكنعانيين، أصبحت في قرطاجة من مؤسسات الدولة.

فإذا كانت الدولة تتحمل جميع المسؤولية الأخلاقية في القتل التعبدي فإنها كانت تحد من تطبيقه.

وما هي النتيجة التي كانت تنتظر من هذه العملية ؟ ذلك هو ما لاتذكره النصوص. فهل كان ذلك خَراجاً سنويا يوجبه أحد الآلهة، أي قسما ثمينا جدا يتقاضاه عن الخيرات التي يتفضل بالإنعام بها على الناس ؟ فالتقدمة عن البشائر، لم يقع الاختيار فيها إلا على الأطفال الذين ولدوا بعد احتفال السنة الماضية. هل هي تكفير عن إثم ؟ بحيث تكون الضحايا البريئة، قد حمل عليها جميع أخطاء الشعب، وتكون هي أزالَتْها بموتها ؟ ذلك أن التضحيات الخارجة عن العادة التي سنتكلم عليها، هي طقوس استغفار وتعويض. ويسوغ أن نفترض أن الأمر كان كذلك في الاحتفالات التي كانت تقع في وقت ثابت.

ومع مرور الزمان ثار الشعور الطبيعي ضد الفرائض الدينية. فديودور الصقلي يحكي أن الأرستقراطية كانت تشتري وتربي سراً الأطفال لتقدمهم عوض عن أبنائها وكذلك كان يضحى بالأطفال إلى سَتورْن عند حدوث إحدى الكوارث، مثل الوباء، والجفاف العظيم، والاندحار العسكري... إلخ... وذلك لترضية الإله الذي لغضبه وقعُ مهول. وكانت هذه الاحتفالات الخارجة عن العادة تقام كالأخرى باسم الدولة. وعدد الضحايا كان يختلف. بحيث إن القائد حِملْكون لم يُضحّ إلا بطفل واحد، أثناء حصاره لأكْرِجَنْت، في الوباء الذي عصف بجيش كامل، في نهاية القرن الخامس. وفي سنة 310، عندما قدم أگاطُكْل ليخيّم عند أسوار قرطاجة، فإن أهل المدينة قد ضحوا بخمسمائة منهم. إذ كانوا يرجون عفو كْرونوس Cronos، الغاضب كما قيل، من التدليس في التعويضات التي كان النبلاء يندمون عليها، والتي كشف عنها بحث. فقد

وقع الاختيار أول الأمر على مائتين من أطفال الأسَر الأولى، ثم قدم الأطفال الآخرون بأيدي آبائهم عن رضى، وكانوا متهمين بأنهم تملصوا من القانون، وكان عدد هؤلاء الأطفال ثلاثمائة. ولا يذكر أي نص بوضوح مثل هذه التضحيات في عهد الحروب البونيقية.

إن الأضاحي التي كان يطلبها بَعْل كانت كما قلنا، توضع على يديه المائلتين في تمثاله البرنزي، وتنزلق إلى اللهيب. وهي لم تكن قد ذبحت قبل أن تلتهمها النيران. ويقال إن الوالدين كانوا يحضرون هذا المشهد المرعب، وأنهم كانوا يداعبون أطفالهم ليمنعوهم من صياح التألم الذي لا يحبه الإله.

على أن بعض الكتابات تتعلق بتضحيات غير رسمية كانت تجري بالمعابد البونيقية. هذه الكتابات هي عبارة عن تعريفات بالأثمان Tarifs، أملاها بعض من يتولون إدارة وتسيير العبادة. وأشهر هذه الكتابات هي النقيشة التي عثر عليها في مرسيليا، حيث وصلت في ظروف مجهولة، ربما منذ عهود التاريخ القديم، ولكنها من قرطاجة. وقد جرى نقشها حول القرن الرابع ق.م. وهي غير تامة، ينقصها نحو الثلث. أما النقائش الأخرى فلم يبق منها سوى قطع جمعت من خرائب قرطاجة، ويحتمل أنها أحدث عهدا من الأولى.

إن تعريف مرسيليا يتعلق بمعبد إله يبدو أنه هو بَعْل صَفون Baal çafon. وكل واحد من تعريفات قرطاجة كان لابد يرجع لأحد المعابد بالخصوص. والأوامر المضمنة بها ليست تماما مثل التي بتعريف مرسيليا. غير أن الأقسام المحفوظة من اثنتين منها تتفق فيما بينها كلمة كلمة. وتقول : «كل ثمن غير مذكور بهذه القائمة فيعطى حسب الكتابة التي ...(هنا فجوة كتابية). ونظرا لما سيأتي، فالأمر يتعلق

بقانون نُشر في نفس السنة مع القائمة التي وصلتنا. والقطعة الهامة من نقيشة قرطاجية تحيل أيضا على قانون آخر. إذن فالولاة المكلفون بالعبادة كانوا يضعون لمختلف المعابد قوانين خاصة تتشابه قليلا أو كثيرا، وفي خطوطها الكبرى تقدم من جديد تنظيمات قديمة جدا. والملاحظ حقيقة هو أن هذه التعريفات للأثمان لها قرابة مع سِفْر اللاّويّين Lévitiquex[107]. فهي طقس يحتمل أن تاريخه يرجع للقرن الخامس. والقرابة يمكن أن تفسر بالأصل المشترك. فلعل الطقوس العبرانية كانت مستعارة منذ عهد سلُيمان من طقوس فينيقية، نقلت إلى قرطاجة واستمرت بها إلى أن وقع تدمير المدينة.

وتعريف مرسيليا يَذْكر تضحيات قدمها، ليس الأفراد فحسب، بل قدمتها حتى الجمعيات أيضا. وهذه لم يكن يجب عليها أن تؤدي قدرا أعلى مما يجب على الأفراد.

وتذكر هذه الوثيقة الحيوانات التي تذبح من ثور وعجل فتي وفحل من الضأن وكبش وتيس وخروف وجدي وÇRB'YL (حروف معناها غير واضح)[108]، وديك (؟) ودجاجة (؟) وطيور. وتوضح هذه الوثيقة للحيوانات ذوات القوائم الأربع ثلاثةَ أوجه من التضحيات، التي تسميها: كَليل Kalil، سوعات Cewaat، وشَليم كَليل Shelem Kalil، ولا نستطيع توضيح المعنى الدقيق لهذه الألفاظ. ولكننا نعرف أن التضحية الثالثة كانت إحراقا تكون الضحية فيه ملْكاً كليا للإله وتلتهمها النار. وفي الثانية، فالرجل المضحي ينال قسما من الحيوان، وينال الكهنة قسما آخر. وهذه هي التضحية المشتركة. وفي الأولى فإن الكهنة وحدهم، هم الذين يقتسمون مع المعبود. وهذه القاعدة هي نفسها التي يمليها سِفْر اللاّويّين في تضحية الاستغفار. غير أنه لم يتأكد أن كلّ كَليل Kalil في

قرطاجة كان له نفس الخاصية. أما للديكة (؟) والدجاج (؟) فالقائمة تذكر الإحراق. وفي تضحيتين أخريين، فالمؤمن يبدو أنه ينال اللحم. وإحداهما يبدو جيدا أن سببها هو استشارة الإله.

والواجبات التي تؤدى للكهنة الذين يحتفلون بالقداس هي نفسها عن كل أنوا ع التضحيات. وتختلف تبعا لأهمية الضحية : أي عشر وحدات، ربما سِكْلات Sicles فضية عن ثور، وخمس عن عجل، ولفحل الضأن سكل فضي واحد. وقطعتان من الزار Zar عن كبش أو تيس، وثلاثة أربا ع سكل فضي و(اثنان ؟) من الزار للخروف أو الجدي، أو عن واحد من CRB'YL، وثلاثة أربا ع السكل وزاران عن ديك (؟) أو دجاجة(؟). وعشر أگورات Agouras عن طائر واحد. ولا نستطيع أن نحدد بتدقيق القيمة لهذه الأسعار.

وتنص إحدى المواد على أن الكهنة لا يأخذون أي واجب ممن لا يملكون لا ماشية ولاطيورا. فالفريضة الفضية كانت إذن تؤدى من قبل الناس الذين يقدمون ضحية مأخوذة من قطيعهم، أو من خمم طيورهم، أو من الذين ربما يتقدمون للمعبد بأضحية، أياً ما كانت الطريقة التي ملكوها بها. وقد ظن البعض أن الآخرين كانوا يستطيعون أن يشتروا بداخل المكان المقدس الحيوانات اللازمة. ومن هذه البيوعات كان الكهنة يجنون ربحا قد يكون معادلا لقيمة ما ينالونه عن الحيوانات الآتية من الخارج.

ومن ناحية أخرى كان الكهنة ينالون في الكَليل Kalil زنة من اللحم من 150 وحدة (سكل ؟)، وذلك عن عجل وعن فحل من الضأن. والرقم منعدم عن الثور، ولابد أنه الضِّعف. ولاشك أنهم في هذه التضحية لم يكن لهم الحق في أي قسم من اللحم في الأضحيات القليلة الأهمية.

وعلى كل حال فالقائمة لا تذكر شيئا عن هذا. وفي السوعات Cewaat فالصدر والفخذ من كل حيوان يعود لهم، أما الأرجل والقوائم وما يبقى من اللحم فيعود للمؤمن.

وتذكر القائمة كذلك بواكير الفواكه المقدسة، وإهداءات ما ليس فيه دم من دقيق (؟) وزيت وحلاوات وحليب. فتصحيح هذه الفقرات وتأويلها أمور ليس فيها تأكيد. والكهنة ينالون حظا زهيدا على البواكير وعلى بعض الإهداءات، ولربما لهم الحظ في الاحتفاظ بغيرها لأكله.

وفي الأخير، فإن عقوبات، ذكرت تفاصيلها بدقة في القسم المحطم من الحجرة اليوم، سنّت ضد كل كاهن قد يطلب أكثر مما يجب له، وضد كل مؤمن يتخلى عن واجباته.

وليس في القطع الباقية من نقيشة قرطاجية، شيء مهم يؤخذ منها فأوسعها يتحدث على الأضاحي المسماة باسم كَليليم وسوعات. وحسب ما يظهر فإن لفظ الجمع كَليليم Kalilim يدل في آن واحد على «كَليل وشلَيمْ كَليل» المذكورين في كتابة مرسيليا. وهذه التعريفة لا يبدو أنها ذكرت قدرا فضيا عن الحيوانات ذوات الأربع. ولكن نرى أن جلد الحيوان هو ملك للكهنة، حتى في حالة التحريق، حيث إنه، أي الجلد، لا يحرق مع الحيوان. وعن الدجاج (؟)، فالواجب هو اثنان من الزار Zars. ومن ذوات الأربع، ينال الكهنة الصدر وفخذا، باستثناء حالة التحريق طبعا. وتأتي بعد ذلك الفروض المتعلقة بالبواكير المقدسة ثم الإهداءات غير الدموية.

ولم تكن الأضحيات دائما تُذبح أو تحرق. ذلك أن الضحايا الذين قدمهم حمِلْكون سنة 406 أمام أگريجَنْت، لإله سماء ديودور

باسم بوسيدون Poséidon، قد ألقي بهم في البحر، لأن هذا الإله كان رب البحر.

والأنصاب المكرّسة لتانيت ولبَعْل تظهر عليها أحيانا صور تتعلق بالتقدمات وبالتضحيات، مثل الثيران، وفحول الضأن، او الكباش، والسواطير والسكاكين، وأوعية الزيت، والحليب والخمر، والقناني والمبخرات، والمواد التي بها حفرات مصفوفة للفناجين التي كان يصب فيها مختلف أنواع الإهداءات.

وهناك علاقة متينة بين القرابين والأنصاب النذرية. ذلك ما أكدته اكتشافات ببعض المعابد العتيقة في بلاد البربر الشرقية وفي السواحل الجزائرية والسردانية. ففي هذه الأمكنة أقيمت أنصاب كثيرة إلى حدّ ما في مجال غير مغطى، وفي الغالب، أو ربما دائما، تكون فوق فخاريات مدسوسة في التراب، كجرار وصحون بها رماد وعظام محروقة لكباش وأعنز وثيران وطيور، وكأوعية هي اليوم فارغة ولكنها بغطائها كانت لابد فيما مضى تحتوي بعض السوائل، وكقنينات صغيرة للعطور ومصابيح ومباخر (لها شكل مذبح صغير أو شكل فنجان مثبت على صحن). إن هذه المودعات التي هي أقسام من التضحيات، أو تقدمات أخرى، هي ملك للإله، وكانت تحفظ داخل المجال المقدس. والأنصاب كانت تكملة وبرهانا دائما على التضحية التي غالبا ما كانت تقع عقب رجاء قد استجيب له.

هذه العادة المشتركة بين شمال إفريقيا وسردانية، لاشك أن أصلها فينيقي. وقد استمرت في عهد الإمبراطورية الرومانية، ولكن في المعابد المكرسة فحسب لمعبودات بونيقية قديمة كبَعْل حمون–سَتورن

ورفيقه السماوي. وفوق هذا، ففي سوسة (هَدْروميت) وفي نورا وقسنطينة، وفي غيرها على الراجح، فإن الطقوس التي نتحدث عليها كانت مستعملة في عهد بعيد، سابق على عهد الميلاد.

إذن هذه كانت هي الغاية من الأنصاب، التي كانت جميعا مكرسة لتانيتْ بني بَعْل ولبَعْل حمّون، والتي جمعت منها الآلاف من نقط مختلفة بقرطاجة، خصوصا بين جبل سانْلوي والبحر، كانت على ما يظهر منصوبة في مختلف المعابد. والقليل منها هو الذي عثر عليه في وضعيته الأولى، وواحدة بفخارياتها المدسوسة تحتها.

كانت هذه النذور ذات أحجام صغيرة. في المتوسط من خمسين سنتمتراً علُواً، وخمسة عشر عرضاً (0,15×0,50) وكانت عبارة عن أحجار من الكَلْكير، أسفلها لم يشذب إلا قليلا، ويتم إدخاله في التراب. أما أعلاها فينتهي بشكل حاد، ويكون بذلك جبهة غالبا ما يكون على جانبيها نتوؤان، أو ركيزتان سطحيتان للتمثال Acrotères. وغالب الأنصاب تقدم في آن معا كتابة وصورا منقوشة أو منحوتة نحتا قليل الوضوح، ومن بينها أيضا ماليس عليه إهداء، وبعضها ليس به رسوم.

والكتابات التي هي صيغ مستعملة عند جميع الفينيقيين، هي صيغ رتيبة جدا : «إلى السيدة، إلى تانيتْ بني بَعْل، وإلى السيّد، إلى بَعْل حمّون ما نَذَرَه... ن، لأنها سمعت صوتَه وباركته»، أو «لأنهُما سمعا صوته وباركاه». والخاتمة «لأنه إلخ...». كثيراً ما تكون غير موجودة. إن ما واعد به المُهدي نطقاً، وما أهداه فعلاً بعدما تحقق له الرضا الإلهي، هي الضحية التي تندّس بقاياها تحت الأنصاب، وهي أيضا النصب الذي يسمى بالفينيقية Necib. ونحن نجهل المعنى الحقيقي لتعبير «نصيب ملْك بَعْل» Necib Milk Baal الذي يدل على عدة نذور[109].

وعلى العموم يكون اسم المهدي مصحوبا باسم أبيه، وغالبا بأسماء جده وأجداد آخرين. وهنا وهناك تُذكر إحدى الحرف، أو رتبة دينية أو مدينة، كما يُذكر للأجانب مكانهم الأصلي. والرجال أكثر عددا من النساء. وقلما يكون النذر باسم أشخاص كثيرين، أو بأسماء أشخاص غيرِ مَنْ نَطَقَ بالنذر.

وأحيانا يكون على جانبي الكتابة عمودان أو ركيزتان. والكتابة تحد من أعلاها وأسفلها غالبا بوشوم زخرفية، بصفوف زخارفها بيضوية الشكل، أو قرصية أو نجمية أو بأوراق اللبلاب أو تكون ثلاثية الأخاديد أو بعصابات يملأها غصن أو غصنان ممددان، أو بمجموعة من الروافد، أو خطوط متموجة، أو بقرص مجنح. وتكون بعض الإهداءات داخل مصلّى. وأعلى النصب يكون مشغولا إما بمجرد وشم زخرفي كسعفة أو بُرْعم اللوتُس، وإما بواحدة من هذه الصور التي بحثنا على معناها الديني، كالهلال المقلوب على القرص، واليد المفتوحة، وعلامة تانيتْ. وقليلا ما يبدو الكادوسيه أو وعاء أو تاج، مما ربما هو مجرد زخرف. كالسعفة الصغيرة، والنجمة التي يمكن أن تمثل الشمس، إذا لم تكن هي أيضا وشمة زخرفية. وأقل من ذلك أيضا صورة إنسان، أي المتعبد في حالة الصلاة، وطفل جالس على الأرض وقد ثنى فخذيه وفي يديه أشياء غير واضحة، لاشك أنها إهداءات. كما يبدو مرة أو مرتين رسم لأحد المعبودات.

والعادة أن يُرسم تحت الصورة كادوسيه واحد أو اثنان أو علامات لتانيت أو أيد أو نخلة، ورمّانة على رأس عمود ونجمية وتاج وبُرْعم اللوتُس. وأحيانا يرسم هناك حيوان واحد أو عدة أوانٍ مقدسة، أو شيء يبدو أنه يشير للمهنة التي يزاولها المُهْدي، كمحراث أو دفة المركب أو سفينة... إلخ.

ولا ترجع هذه النذور لعهد عتيق. إذ يمكن توزيعها على وجه التقريب بين القرنين الأخيرين من عهود قرطاجة البونيقية. وذلك بالاعتماد على الوشوم الهندسية، التي أكثرها إغريقي، وعلى أشكال الأوعية التي هي أيضا إغريقية، وأخيرا على مظهر الحروف التي تكون الكتابات.

وعُثر في أمكنة مختلفة بالشمال الإفريقي على أنصاب ذات قرابة بأنصاب قرطاجية في الصور التي تحملها وفي طريقة الإنجاز، أي في الرسوم، أو في النقش البارز بروزا خفيفا على سطح منبسط. وتتميز عن النذور التي يمكن القول بأنها رومانية. فهذه الأخيرة هي على العموم أكبر حجما، والموضوعات فيها منحوتة نحتا قوي البروز، والوجوه الآدمية تصاحب الرموز القديمة أو تحل محلها. وختاما تكثر فيها الإهداءات اللاتانية. ولكن يصعب تحديد التاريخ بدقة لهذه الأنصاب التي تشبه النذور القرطاجية، والتي على العديد منها كتابات باللغة الفينيقية.

فالتي استُخرجت من قُسّنطينة يرجع أكثرها لابدّ إلى النصف الثاني من القرن الثاني وإلى النصف الأول من القرن الأول ق.م، وذلك بالنظر إلى الكتابة التي اختلطت فيها الأبجديتان البونيقية والنيوبونيقية (البونيقية الجديدة). وغير هذه كتابتها نيوبونيقية، ونعثر فيها على أسماء من أصل لاتاني، فهي أحدث عهدا، ولن ندرسها هنا.

إن المعبد الذي عثر عليه بسوسة (هَدْروميت) تحت الكنيسة الكاثوليكية، كان ربما موجودا قبل تدمير قرطاجة. فالبعض منها يبدي مصلّيات من طراز مشرقي تماما. وبغيرها فالوشم الأهم هو عبارة عن مجموعة واحدة، أو مجموعتين، بل وحتى من ثلاث مجموعات من

الأحجار المقدسة، أو هو عبارة عن علامة تانيتْ أو وعاء، والجبهة غالبا ما تكون مزخرفة بهلال منقلب على قرص، والأحجار ليس من بينها ما يحمل إهداء.

وفي ليليبي Lilybée بصقلية عُثر على نذر يبين بداخل أحد المصلّيات مجموعة من ثلاثة أحجار مقدسة، وفي الأسفل كادوسيه وعلامة تانيت ومبخرة، أمامها رجل يصلي وهو بلباس فينيقي، والإهداء مقدم إلى بَعْل حمّون.

وفي سردانية، كشفت التنقيبات بمعبد نورا Nora أكثر من 150 نصبا، من بينها خمسة أنصاب تقدم كتابات نذرية مختصرة جدا. والصور هي لحجارات مقدسة : (حجرة واحدة، أو اثنتين أو ثلاث)، منتصبة على قاعدة، تؤويها مصلّيات. وكذلك فالصور هي علامة تانيت، والوعاء، والإلهة عارية تضغط على ثدييها أو تحمل قرصا، والإلهة مكسوة وتمسك بنفس الأداة... إلخ.

والمؤمن لم يكن يكتفي بالرجاء وبشكر الآلهة بالألفاظ وبالأعمال التعبدية، بل يبحث لينال منها معرفة المستقبل. وكان بعض رجال الكهنوت هم الواسطة.

وبعض الصور الصغيرة الحجم، كانت من خشب، وتمثل الآلهة، وكانت محمولة على محفات، وكانت حركاتها موجهة، وبالتأكيد كان يفسرها بعض الكهنة، وتجيب عن أسئلة الطالبين. ولاشك أن هذه الدّمى كانت متحركة الأعضاء، كالتي كات تؤدي نفس العمل في مصر. وبمعبد كايْلسْتيس Caelestis في قرطاجة، كان في العهد الروماني متنبئات مسكونات بالروح الإلهية، وكن ينطقن بالنبوؤات الشهيرة. ولربما أن

الأمر كان كذلك ببضع سنين من قبل في معبد الإلهة البونيقية الكبرى. وفي عهد قرطاجة الأولى كانت النبوءات تنبعث من عمق مغارة مكرسة لڤينوس بحرية، أي على ما يظهر لأسْتارتي في جزيرة صغيرة قريبة من قادس. وعلى غرار الكثير من الشعوب الأخرى، فإن القرطاجيين كانوا يعتقدون أن الآلهة كانت تبعث الأحلام لتبين ما تريد. والعِلْم المتشعب الذي كان يقرأ المستقبل في أكباد الضحايا، كان الفينيقيون قد استعاروه من البابلونيين والآشوريين، وكان ذا حظوة في قرطاجة. والصاعقة أيضا كانت تعطي الإنذارات.

هذه الإنذارات، وكثير غيرها لاشك، كانت في حاجة إلى مفسرين خُبراء. وكان العرّافون يصحبون رؤساء الحملات والقادة الذين يحسبون الحساب الكبير لرأيهم. فَحنّون في رحلته طوال السواحل الإفريقية، قد غادر إحدى الجزر استجابة لأمرهم وكان قد نزل بها، ذلك أن نيرانا متناثرة بإحدى الغابات، وضجيجا من أصوات الناي والصنوج والطبول، كل ذلك ظهر لهم أنه لا يبشر بخير. وأثناء حصار أكْريجَنْت سنة 406 ق.م أصدروا الأمر بالإبقاء على قبر واسع قد ضربته الصاعقة حينما كانوا يهدمونه. وبعد ذلك بقرن من الزمان، عزم عَمِلْكار أن يقتحم سرقوسة، لأن أحد العرافين، حسب ما أورده ديودور، بعدما تبصر في أحشاء الضحايا، أنبأه أنه سيتعشى غدا بهذه المدينة.

إن هذه الممارسات الدينية التي درسناها، كانت تجري بمساعدة الكهنوت الرسمي، وفي غالب الأحيان بالمعابد العامة. لكن، لكي تنحى الأخطار والآلام التي تهدد القرطاجيين أو تصيبهم، ولكي ينالوا ما يرتجونه، فإنهم كانوا يفضلون اللجوء إلى وسائل أخرى كالأحجبة والعمليات السحرية.

وتضم مدافنهم عددا كبيرا من الأشياء التي كانوا يُعطونها قيمة وقائية. كأقنعة الطين المشوي، وقطع بيض النعام وعليها قد رسم وجه إنساني، وسواطير من نحاس مغطاة برسوم مختلفة، وأقنعة صغيرة، ودُمَى، وعيون وأيد، ونواقيس... إلخ. كانت جزءا من قلائد، وأغلفة تضم الطلّسمات. ومن المحتمل أن بعضا من هذه الأشياء يكون قد صنع خصوصا لوقاية الموتى. كما لابد أن غيرها يكون قد استعمله الأحياء، كالحلي مثلاً الذي يظهر عليه آثار الابتذال الشاهدة على أنه قد استخدم، وأقنعة الطين المشوي التي من المرجح أنها علقت بالمنازل قبل وضعها في القبور.

وكان لبعض الأحجبة خاصية دينية. والغاية منها هي أنها كانت تضمن لمن يملكونها عون معبود أو عدة معبودات. كما هو الشأن في الأسماء المركبة مع اسم المعبود التي كان القرطاجيون يطلقونها على أبنائهم. وهكذا فعلى مدلاة إحدى القلادات، كتابة ترجو حماية أسْتارتي وبـگماليون. وفي غيرها تظهر رسوم الآلهة التي تعبد رسميا. وفي غيرها أيضا تظهر رسوم تتعلق بهذه الآلهة : كالقرص المجنح، والهلال والقرص، وعلامة تانيت. وفوق هذا وقد سبق لنا أن لاحظناه فإن آلهة مصر، وخصوصا منها بسْ Bès أكثر وجودا من الآلهة الفينيقية. وبعض الأحجبة يبدو أنها لم تكن لها أية صلة بالمعتقدات الإلهية، مثل تلك الأقنعة المكشرة التي تطرد الأرواح الشريرة، وتلك النواقيس التي لها ضجيج ينحيها إلى بعيد، وتلك الأنياب الحيوانية، وقشة المرجان، والقواقع المسلوكة في القلائد.

وقد لجأ الفينيقيون إلى السحر، كالمصريين والبابلونيين والآشوريين وغيرهم، إما لتقوية آثار العمل الديني، وإما لتحقيق منى لا

يتقبلها الدين. وفيما يتعلق بقرطاجة، فإن الوثائق تكاد تكون منعدمة تماما. فليس بين أيدينا ما نذكره مطلقا سوى صفيحة صغيرة واحدة من الرصاص، شبيهة باللواتي كان الإغريقيون والرومانيون يستخدمونها في العمليات السحرية. وقد اكتشف منها عدد كثير في إفريقيا، ترجع لعهد متأخر عن العهد المسيحي. وكان اكتشافها بقرطاجة وسوسة، وكلها تقريبا في القبور. (إذ كان الموتى مطالبين، هم أنفسهم، بالتدخل أو مكلفين بإيصال هذه المطالب للأبالسة أو للآلهة الجحيم). والصفيحة الصغيرة المذكورة كانت قد وقع العثور عليها في أرض مليئة بمدافن القرنين السابع والسادس. فيحتمل أنها كانت قد دُسّت في أسطوانة المرور بأحد النواويس. وحسب نوع الخط فإن الكتابة التي خطت بها تؤرخ بأواخر عهود المدينة البونيقية. والرجل الذي نقشها أو أمر بنقشها يبدأ بالتوسل إلى إلهة واحدة أو إلى ثلاث منهن، ثم يرجو بعض الشرور لإحدى النساء التي كان يشكو ربما منها في قضية مالية. وإذا كنا نفهم المعنى العام، فإن تفاصيل هذا النص لم يقع تفسيرها تفسيرا مرضيا.

الكتاب الثاني

الأخلاق والمعتقدات

الفصل الرابع

الممارسات الجنائزية

1

إن ما نعرفه جيدا عن القرطاجيين هو عاداتهم الجنائزية. ونحن نعلم أن التقنيات الأخيرة قد كشفت قسما كبيرا من مدافنهم. كما أن مقابر مماثلة قد كشفت في مواقع مختلفة بإفريقيا الشمالية، وفي سردانية وفي جزر أخرى بالبحر الأبيض المتوسط الغربي. ولكن، إذا كانت الوثائق الآثارية تكثر يوما عن يوم، وتخبرنا عن شكل القبور وعن أثاثها وعن طرائق الدفن، فإنها لا تمكننا من أن نبين بدقة الاعتقادات المتعلقة بمصير الموتى. ففي قرطاجة كما في غيرها، كانت الممارسات استجابة لأفكار بدائية. فاستطاعت الاستمرار وأمكنها ذلك بينما الآراء كانت قد تغيرت.

إن الأوضاع العامة للمدافن كانت متماثلة عند الفينيقيين بالمشرق كما بالغرب. وكانت بعض التغييرات الجزئية كالسراديب بالطبقات،

والدرج بآبار الدخول، أمرا يُلاحَظ وجوده في فينيقيا نفسها كما في بلاد البربر وسردانية. وتشهد بثبوت حضارة مشتركة.

في عصور ما قبل التاريخ، من الراجح أن الفينيقيين كانوا يحطون موتاهم في مغارات طبيعية. فإن سراديب اصطناعية، بمدخل عمودي ينفتح في جدران صخرية في بِبْلوس (جبيل) ومالطة وكولو Collo، يمكن أن تكون شاهدا متأخرا على هذه العادة القديمة، لكن هذه استثناءات. إذ في كل مكان تقريبا، تنزل القبور الفينيقية إلى أعماق بطن الأرض. وتلك أحسن وسيلة لحفظها من أخطار التدمير، خصوصا ضد الهزات الأرضية التي كثيرا ما تقع حول البحر الأبيض المتوسط، ولعزل الموتى وصونهم عن أي انتهاك.

هذه القبور ليست في كل مكان محفورة في الصخر، مثل التي نعرفها في فينيقيا. إنها في قرطاجة تغور في تربات مختلفة جدا، كالرمل في القمم العتيقة بدَرْماش ودْويمَسْ، والصلصال الرملي Grès في هضبة البُرج الجديد، والطين السميك بذروة الأودْيون... إلخ.

والفتحة التي تكون على مسطح أفقي، هي رباعية الشكل، مقياسها عادة هو متران اثنان (متران وعشرون سنتمترا طولاً على 70 أو ثمانين سنتمترا عرضاً). والشكل الأشد بساطة والأكثر استعمالا في القرن السابع قبل الميلاد هو الحفرة العميقة بعدة أمتار. فيكون الميت أحيانا مُغَطى بالأتربة التي أعيد رميها بالحفرة، وتارة هو تحت اثنين أو ثلاث صفائح من حجر الكلكير الصدفي الممتدة عليه. فهي عبارة عن تابوت جزئي أو كلي يصون الرأس، أو الرأس والصدر، أو يصون البدن كله. ومع مرور الزمان، ربما منذ نهاية القرن السابع، صار أسفل القبر في

الغالب مفروشا بصفائح حجرية كبيرة، تكون جفنة يسدها غطاء. وفي بعض الأحيان تكون الجفنة قطعة حجرية واحدة، ولكن الغطاء يكون دائما من عدة صفائح. أما فخاريات الأثاث الجنائزي فتكون في الغالب موضوعة خارج الجفنة، من فوقها.

وهناك نوع آخر من القبور يتكون من كهف رباعي، يكون في أسفل بئر للوصول، هي نفسها رباعية، وتنفتح من إحدى الجهات الصغرى لهذه البئـر. ولاشك أن هذا مستعار من مصر. وطوال عدة قرون قد صنعوا نواويس، لها هذه الهيـأة، في قرطاجة إلى أن تهدمت المدينة، وفي صميم العهد الروماني بجهات أخرى من الشمال الإفريقي.

في المدافن القرطاجية الأشد قِدماً، بدَرْميش ودْويمَسْ، وفي ربوات بِرْسا (سانلوي) ويونون فالكهوف مبنَية بقطع الصخر الكبيرة المتوازية المستطيلات، المسواة بإحكام، وبدون أسمنت. وكما هو الشأن في الجفان التي سبق أن تحدثنا عليها، فالقطع الحجرية هي من الكلكير الصدفي المقتطع من محجر الهورية Haouria، القريبة من الرأس الطيب. والغرف الجنائزية، إذا كانت قد تم بناؤها هكذا عوضا عن حفرها في باطن التراب، فذلك لصونها لاشك خشية انهيارات في تربة قليلة التماسك. والكهف عادة هو ذو حجم ضيق، معدله متران وأربعون سنتيمتراً طولاً، على متر وستين (1,60 x 2,40) عرضاً، أما ارتفاعه فلا يتجاوز مطلقا، بل قد لا يصل لقامة إنسان بالغ. وهناك عادة كوة واحدة أو اثنتان يكون بهما قسم من الفخاريات. والأرضية غالبا ما تكون مغطاة ببلاطات. وفي بعض نواويس بِرْسا Byrsa فإن هذه البلاطات تغطي تابوتين ليسا كتلة حجرية واحدة. كما أن بعضا من المدافن مطلية من الداخل بعجين مرمري Stuc أبيض دقيق جدا، وكانت مغطاة

بسقف من خشب الأرز، يمتد تحت السقف الحجري المكون من قطع مستطيلة، وغالبا ما يعلوه شيء كالوقاء، هو عبارة عن صفين من قطع أخرى تنزل عمودية متساندة، ومخلفة مراحا يخفف من ضغط التراب الذي يملأ الحفير الذي بني فيه الكهف. وواجهة القاعة تمتد في الأعلى بسور يفوت السطح. هذه الواجهة توجد بها فتحة للدخول، كانت بالتأكيد تعلو فوق أحد جوانب بئر الوصول، غير أن هذه البئر التي حفرت في أرض رخصة، ليس العثور عليها سهلا، والفتحة كانت تسدها صفائح حجرية كبيرة موضوعة من أمام.

كانت الكهوف ترجع بخاصة للقرنين السابع والسادس. ولكن عادة بناء القاعات الجنائزية بقطع الحجارة الضخمة لم تَضَعْ في قرطاجة. ويظهر أن إحدى هذه القاعات ترجع للقرن الخامس. وغيرها أحدث منها عهدا، كما أن السطح الثلاثي الشكل أصبح بها نادرا.

في دَرْميشْ ودْويمَسْ، نلاحظ منذ بداية القرن السادس على أبعد تقدير، وجود كهوف حُفرت ولم يقع بها بناء، وتسبقها بئر عميقة بنحو 6 أمتار. ولم يحافظ عليها جيدا في تربة رملية، بل على العموم دمرتها الانهيارات. بحيث إن صفيحة حجرية منتصبة تبقى غالبا هي وحدها علامة على الكهف الذي كانت تسد مدخله. لكن في هذا النوع من المدافن، لم تكن الصفيحة عنصرا ضروريا. إذ أمكن معرفة أكثر من مرة، أن القاعة كانت قد بقيت مفتوحة. وعندما يهوي الكهف، وتنمحي أضلاع البئر، فموقع الدفن لا يلوح للنظر إلا كما لو كان واقعا بعمق حفير صارت جنباته غير واضحة. وفي قاعات القرنين السادس والخامس التي أمكن القيام فيها بملاحظات دقيقة، كانت أجساد الموتى

ممددة على الأرض تارة، وأحيانا كانت داخل جفنة من حجر، عادة ليس بها فخاريات، والجفنة مكونة من صفائح حجرية كبيرة، أو هي تابوت من حجرة واحدة. وكثيرة هي القاعات التي تضم جفنتين، الواحدة بجنب الأخرى. وبإحدى آبار دَرْميش قاعتان متراكبتان.

أما مدافن القرن الرابع، التي عثر عليها بجهة «أرْض الموراِلي» (أو بظهر الموراِلي)، أو بقمة المسرح الروماني، أو بجانب الأحواض الرومانية بالبرج الجديد، (بأراضي ابن عَطّار، وشَفَارد، وبجهة أرض الخرائب)، فأغلبها كهوف حُفرت في عمق بئر. ولا يقل عمقها عن5 أمتار، وربما تصل إلى 15 مترا، وإلى أكثر من ذلك. أما الفتحة فتبقى مفتوحة، وقد تغلق بصفيحة من حجر. والتوابيت الحجرية أخذ عددها يقل وصارت أحادية الحجر. وبأرض الخرائب، فإن بعض الآبار التي يمكن التأريخ لها بنهاية القرن الرابع، تُقدّم للناظر قاعة فوق أو أمام القاعة الأصلية.

أما النواويس العديدة المنبوشة بشمال الشمال الشرقي للبرج الجديد. بجهة سَنْت مونيك Sainte-Monique، فهي على العموم ترجع للقرن الثالث. والآبار بها كالقاعات مفصلة بانتظام كامل في تربة التوفة Tuf. وعمق الآبار كبير، معدله 12 مترا، وبعضها ينزل به العمق إلى22، 23 و27 مترا. وأحدثت ثغرات حُفرت في واحد من الجوانب القاصية الطويلة. وهي تستخدم سلالم للنزول والصعود. ولابد أن هذه الآبار كان يُعاد ردمها بعد كل دَفْن. وصارت الكهوف المضاعفة أكثر وجودا، مثل اثنين متقابلين في الأسفل، ومثلهما من فوق، بحيث يُعدّ منها أحيانا ثلاث أو أربع طبقات. واتسع حجم القاعات. والتربة في الأغلب تحفر بجفنة أو جفنتين يوضع بهما النزلاء الأولون، من غير أن

تغطيهم الصفائح الحجرية. والواصلون الجدد يأخذون أمكنتهم على المصطبات التي على جوانب الجفان أو تفصل بينها. وبعض القبور تضم توابيت أحادية الأحجار من الكلكير الصدفي، أو الكلكير الرمادي اللون أومن رخام.

أما مدفن الأودين Odéon الفقير والأحدث عهدا، فيتكون من كهف آباره أقل عمقا (من 6 إلى 10 أمتار) وأكثر سعة، وقاعاته واسعة، نلقى بها أحيانا توابيت أحادية الأحجار الخشنة، ولا تغطيها الصفائح الحجرية أبدا.

منذ القرن السادس صار القبر ذو الحفير أقل استعمالا من المدفن ذي البئر والقاعة الجانبية. كما أن حفائر من غير غطاء، أو على الأصح إن آبارا من غير كهوف، محفورة على عمق متغير، قد عثر عليها مع ذلك ومن جديد بالمسرح الروماني وأرض الموارلي، وبأرض الخرائب وفي سَنْت-مونيك. والدفين بها موضوع بالقعر لا أكثر.

كل هذه القبور، زيادة على قسم من جبال سانْلوي ويونون، تحتل مجالات واسعة بشمال قرطاجة العتيقة، أي المدينة. ولم يكن هنا، على وجه التحقيق سوى جبانة شاسعة. بحيث إن أسماء دُويمَسْ ودَرْماش وسَنْت-مونيك، وأوديون... إلخ. هي أسماء تساعد في التعريف بالأمكنة التي جرت فيها التنقيبات، ولا تمثل جبانات متميزة.

وقد لوحظ في هذه الجبانة بصفة عامة أن المدافن القديمة تقع بالجنوب، قريبا من المدينة. ومع الزمان اتسعت مدينة الموتى نحو الشمال. وفي هذا الاتجاه أيضا كثرت كثافة القبور بأرض الخرائب وسَنْت-مونيك من جهة، وبالأوديون من أخرى، والآبار متقاربة جدا.

على أن هذا التوسع، لم يتبع في سيره مسلكا منتظما تماما. فعلى وجه المثل، النواويس الواقعة بالجنوب الغربي للصهاريج الكبرى، ترجع حسب ظننا للقرن السابع أو لبداية القرن السادس. وهي أكثر قدما من المدافن الواقعة جدا إلى الجنوب. ولا يستحيل أن بعض الكهوف المبنية قد كانت أول الأمر معزولة. ولابد أن بعض الأراضي كانت في الأوائل كأنها جزر، يُدفن فيها أناس ينتمون لنفس المجموعة العائلية أو الاجتماعية. وبعد ذلك، وشيئا فشيئا، أصبحت الأرض جبانة. واستمرت أراض أخرى غير مشغولة، إما لأن طبيعة باطن الأرض لم تبد ملائمة، وإما لأسباب أخرى تغيب عنا. والمدافن التي تخالف الغير وتتشابه بخاصيات في البناء أو الأثاث، تكون في الغالب متجاورة أو مصفوفة. فيحسن أن نجعلها لأناس لاشك تربطهم روابط قد تكون متينة. وهكذا، فإن التوابيت الأربعة المنقوشة التي استخرجت من جبانة سنت-مونيك، كانت داخل ثلاثة قبور يقرب جدا أحدها من الآخر.

وطبعا فإن حفر الآبار والحفائر لم يكن يحدث بالصدفة خصوصا في الأراضي التي بها الأمكنة محسوبة، والتي تكاد تكون بها الكهوف متماسة ودون أن تتقاطع. فكان لابد إذن من اتخاذ قواعد للتصفيف والإفساح، الأمر الذي نجده في البرج الجديد وسنْت-مونيك، حيث إن التوجيه لم يكن يخضع لأوامر الطقوس، بل لوضعية الجنوب الغربي، بينما الاتجاه نحو الشمال الشرقي هو الذي لوحظ وجوده على جبل يونون. أما في دْويمَس ودَرْماش، فإن جل المداخل تقابل الجنوب الشرقي، أي تواجه البحر، وعلى هضبة البرج الجديد فإنها تنظر للشمال الشرقي، وأحيانا للشمال الغربي، وفي سَنْت مونيك، فإن الكهوف الأولى المحفورة في قعر الآبار تتجه للشرق، أي للبحر.

على أن هذا التوسع، لم يتبع في سيره مسلكا منتظما تماما. فعلى وجه المثل، النواويس الواقعة بالجنوب الغربي للصهاريج الكبرى، ترجع حسب ظننا للقرن السابع أو لبداية القرن السادس. وهي أكثر قدما من المدافن الواقعة جدا إلى الجنوب. ولا يستحيل أن بعض الكهوف المبنية قد كانت أول الأمر معزولة. ولابد أن بعض الأراضي كانت في الأوائل كأنها جزر، يُدفن فيها أناس ينتمون لنفس المجموعة العائلية أو الاجتماعية. وبعد ذلك، وشيئا فشيئا، أصبحت الأرض جبانة. واستمرت أراض أخرى غير مشغولة، إما لأن طبيعة باطن الأرض لم تبد ملائمة، وإما لأسباب أخرى تغيب عنا. والمدافن التي تخالف الغير وتتشابه بخاصيات في البناء أو الأثاث، تكون في الغالب متجاورة أو مصفوفة. فيحسن أن نجعلها لأناس لاشك تربطهم روابط قد تكون متينة. وهكذا، فإن التوابيت الأربعة المنقوشة التي استخرجت من جبانة سنت-مونيك، كانت داخل ثلاثة قبور يقرب جدا أحدها من الآخر.

وطبعا فإن حفر الآبار والحفائر لم يكن يحدث بالصدفة خصوصا في الأراضي التي بها الأمكنة محسوبة، والتي تكاد تكون بها الكهوف متماسة ودون أن تتقاطع. فكان لابد إذن من اتخاذ قواعد للتصفيف والإفساح، الأمر الذي نجده في البرج الجديد وسنْت-مونيك، حيث إن التوجيه لم يكن يخضع لأوامر الطقوس، بل لوضعية الجنوب الغربي، بينما الاتجاه نحو الشمال الشرقي هو الذي لوحظ وجوده على جبل يونون. أما في دْويمَسْ ودَرْماش، فإن جل المداخل تقابل الجنوب الشرقي، أي تواجه البحر، وعلى هضبة البرج الجديد فإنها تنظر للشمال الشرقي، وأحيانا للشمال الغربي، وفي سَنْت مونيك، فإن الكهوف الأولى المحفورة في قعر الآبار تتجه للشرق، أي للبحر.

ومن بين المدافن الأشد قدما، حفائر لا تضم سوى ميّت واحد، كما تضم الكهوف واحدا أو اثنين، رجلا وامرأة أي زوجين بالطبع. وهناك أيضا قاعات من القرن الخامس، والكثير من قاعات القرن الرابع. ويزيد عدد الموتى في أرض الخرائب وخصوصا في سنت مونيك. وكل كهوف سنت مونيك تقريبا، وصلتها أجساد غير محروقة، عشرة منها أحيانا وفي الكثير من النواويس زيادة على ذلك صناديق تضم بقايا محروقة. فنستطيع، والحالة هذه، قبول كونها أيضا مقابر الأسَر، وأنها استخدمت لعدة أجيال. أما في الأوديون، فقد أصبحت المدافن ركاما من الأجساد، حيث يتراكم المدفونون والمحروقون في القاعات وحتى في الآبار. وفي سانلوي، فإن كهوفا مبنية وجفانا من القرنين السابع والسادس قد أعيد استخدامها بعد ذلك بكثير. إذ أن الهياكل العظمية لعدة دزينات Douzaines من الدخلاء قد ملأت القاعتين. وفي أحد كهوف سنت مونيك وقع العثور على العديد من الهياكل العظمية الآدمية تصحبها عظام للحيوان، وبالخصوص عظام الكلاب. وعلى هضبة البرج الجديد وفي سانلوي وقع العثور على حفيرين عامين، في سعة من الأرض، بحيث إن حفير سانلوي الذي يرجع للقرن الثالث على الأكثر، كان يحتوي المئات من الأجساد المتراكبة في صفوف سميكة.

وسأختصر الحديث على القبور التي من النوع الفينيقي، وجرى تنقيبها في أمكنة أخرى بالشمال الإفريقي. إن أكثر هذه القبور من عهد متأخر، بل في الغالب هي متأخرة عن اضمحلال قرطاجة الأولى.

فهي إما حفائر وإما كهوف بآبار. وللقرن الخامس على أغلب الظن تعود حفائر أوتيكا Utique التي كان بقعرها توابيت كبيرة من الكلكير الصدفي، التي هي أحادية الحجر أو مكوّنة من عدة صفائح حجرية. وفي

جهة أخرى هناك قبور أحدث عهدا محفورة بالصخر حفرا غير عميق. ويلوح عادة على حافاتها شقوق لتثبيت الغطاء. وغالبا ما يكون التجويف من جهة الرأس والكتفين أكثر سعة منه من جهة القدمين. وفي جيجلي Djidjeli، تأخذ بعض الحفائر الهندام لبدن الإنساني بصفة واضحة، وتذكّر هكذا بالتوابيت المعروفة بشكلها الآدمي Anthropoïdes، بثغرة صغيرة تشير لمكان الرأس، ثم يأخذ الاتساع في التضاؤل من مكان الكتفين حتى مكان القدمين.

والآبار هي على العموم أكبر مما في قرطاجة، ولا تنزل في باطن التراب إلى عمق كبير، إذ لا تتعدى 3 أمتار أبدا.

وبعض القبور يظهر أن أياً منها لا يصعد لما قبل القرن الثالث. وقد زودت بسلم أنجز عند واحد من الجوانب الطويلة، أو على جميع سعة الفتحة، وهذا في القليل من الأحوال. والسلم الذي هو غير معمول به في قرطاجة، يوجد حول نفس العهد في فينيقيا، بعَمْريت (قريباً من أراض Arad) وبصيْدة، وكذلك في مالطة وسردانية.

وقلة العلوّ في الآبار لم تساعد على تراكب القاعات، لكن زيادة على تلك التي تنفتح حسب العادة على واحد من الجوانب الصغيرة، فقد فتحت فيها بكثرة فتحة أخرى في المواجهة أو في الخلف، وأيضا حتى بواحد من الجوانب الطويلة. والمدخل كان مغلقا إما بصفيحة واحدة أو بعدة منها، وإما بأحجار الدبش. ولهدْروميت طريقة خاصة في الإغلاق تتكون من سد الفتحة بجرتين أو بثلاث جرار منتصبة برأسها إلى أعلى.

والكهوف ليست مهيأة بانتظام كما في قرطاجة. فالعديد من مدافن جهة سوسة يعثر بها هنا وهناك على خلايا دائرية أو نصف دائرية.

ويفسر صغرها وشكلها بأنها لم تكن منجزة لقبول أجسام متمددة. فطقوس أهلية أثرت على هيئة المقابر. لكن القاعات في العادة هي رباعية الشكل إلى حدٍ ما، مثلما كان معمولا به في فينيقيا. ولا نعرف إلا قليلا جدا من الكهوف المبنية بالأحجار الضخمة. أما الجفان والمصاطب التي سبق أن لقيناها بقرطاجة في القرن الثالث، فإنها ليست منعدمة الوجود في المدافن المعاصرة أو التي هي أحدث عهدا، ووقع تنقيبها في ثابْسوس، والمَهْدية، وكولو، وگورايا. وكل هذه القاعات تقريبا وصلها عدة موتى، مدفونين أو محروقين. والبعض من هذه القاعات تحتوي على العشرين وأكثر منهم. والآبار كانت تردم بعد الدفن على غرار ما كان بقرطاجة. وفي العالية كانت المدافن أحيانا تحاط بنطاق واحد أو اثنين من الحجارة الخشنة، التي كانت على الراجح، هيكلا لتلة مخروطية الشكل. وهذا كان مستعارا من الأهالي.

ولاشك أن المقابر الفينيقية الحقيقية، في قرطاجة وفي أمكنة أخرى لم تكن مجردة عن بعض العلامات الخارجية. ولم يذكر في هذا المجال سوى عدد ضئيل من الملاحظات. ذلك أن البنايات المقامة على سطح الأرض منذ أكثر من ألفي سنة، كانت طبعا أكثر تعرضا من النواويس لمختلف أسباب التخريب.

ويحتمل أن الفينيقيين، كالكنعانيين والعبرانيين أقاموا من عهد بعيد فوق القبور هذه الأحجار الخشنة أو المقطوعة التي كانوا يطلقون عليها اسم مَكْسِبات Maccebat. فهي لم تكن علامة مادية فحسب. فالمكسبات Maccabat بين الأحياء (وبعض الكتابات الفينيقية هكذا تسمي بعضا من الأعمدة الجنازية) تجعل الميت حاضرا لدى من عاشوا بعده. بحيث يمكنها أن تكون ركنا عمودا يحمل روحه، التي هي حية

دائما. وفي العديد من اللغات السامية، أطلق على هذه الأركان (الأعمدة) اسم (نِفْش) Nefesh (نفس)[110]. وقد رأينا أن أحجارا منصوبة في بعض الهياكل، قد كانت في نفس الحين مساكن لأرواح الآلهة.

وعلى جبل برْسا عُثر على مسلة من حجر التوفة Tuf مقياسها متر و45 سنتمترا علواً (1,45)، بمكانها الذي أثبتت فيه من فوق كهف مبني. كما أن أحجارا أخرى عثر عليها في مدافن قرطاجة، ويبدو أنها أيضا أعمدة جنازية، حل بها تلف، ولها شكل قاعدة الهرم أو المخروط، ويتوّجها نُتوء. وقد عثر على أثر مماثل لهذا، وفي حالة جيدة، بِتاروس بجزيرة سردانية، وهو يحمل شاهد قبر. وعثر في ثابْسوس بالجبانة البونيقية على زهرتَيْ نرد Deux dés مستطيلتين، وتنتهيان بهرم صغير. واكتشفت كذلك أعمدة مماثلة في تاروس، وعلى واحد منها شاهد قبر.

أما بموتية Motyé بصقلية، فإن صورة العمود الجنازي Cippe قد رُسمت على أنصاب صغيرة تعلو مدافن القرن السابع. وفي هذا تمازج بين عنصرين. أحدهما فينيقي، والآخر يمكن أن نعزوه لأصل إغريقي.

وابتداء من القرن الرابع فحسب، أقيمت الأنصاب ذات الصور في المدافن القرطاجية. وقد سبق لي ذكر هذه الآثار المتواضعة التي نجدها فوق أو داخل الآبار، وتكوّن أحيانا مجموعة بعدد كثير، إذ أن كل ميت أدخل للناووس، فلابد أن يقام له نصب. والصورة لرجل أو لامرأة في حالة صلاة هي عائدة على هذا الميت، وكونها ليست صورة حقيقية له، وكونها قلما يصحبها اسم، فإنها أقوى من النصب، إذ تجعل الميت حاضرا (بين الأحياء). وقد عثر على أنصاب أخرى مماثلة لها هنا وهناك في تونس، بأوتيكا، ورادس، وثابْسوس... إلخ. ويؤرخ للبعض منها بالنصف الثاني من القرن الميلادي الأول فحسب.

كما أن تماثيل ثخينة الصنع، شظاياها مطروحة على الأرض بسَنْت مونيك والأوديون، وكانت تُستخدم فيما كانت تستخدم فيه هذه الأنصاب.

وكذلك، فإن كُتْلتين من البناء الضخم، قد بنيتا على قبور بسَنْت مونيك، ويؤرخ لهما دون شك بالقرن الثالث. وهما عبارة عن نصف أسطوانة، مقطعها يعتمد على قاعدة رباعية مستطيلة الشكل حجمها كبير، إذ أن إحدى القاعدتين تبلغ ثلاثة أمتار طولا على متر واحد عرضا. وبها فَلَدَيْنا أقدم الأمثلة المعروفة لهذه الصناديق المستديرة التي هي حجرة واحدة أو مبنية، والتي كانت كثيرة الاستعمال بشمال إفريقيا في العهد الروماني، والتي كان اللاتانيون يسمونها كوبولاي Cupulae. وحيث إننا نجدها في قرطاجة الأولى فيحسن أن نجعل لها أصلا فينيقيا. وربما أنها كانت تقليدا لأغطية التوابيت، إذ وقع العثور في بِبْلوس (جبيل) على توابيت حجرية بأغطية مماثلة لهذا الشكل، وهي في الأخير تقليد لنماذج مصرية.

هل المدافن الأرستقراطية كانت تملكها منشآت أهم مما سبق أن درسناه ؟ في جبانة عمْريت بفينيقيا عدة نواويس تعلوها بروج حقيقية، هي عبارة عن أعمدة ضخمة، رباعية أو مستديرة، ينتهي أعلاها بهرم أو قبة. وفي شمال إفريقيا، فضريح دُقّة Dougga، الذي أقيم لأحد النوميديين، هو منشأة بهندسة بونيقية. ونجهل هل المنشأة هي من قبيل الأعمدة، وأقيمت بجانب أحد الكهوف المخفية تحت الأرض، أو كانت تضم في طابقيها الأول والثاني قاعات جنازية. ويحتمل أن منشآت مماثلة لها قد وجدت في قرطاجة بوسط الجبانات، أو في أراض خاصة بحي ميگارا. وفي القرن الثالث، كان حسدربَعْل القائد العسكري الذي يصعد نسبه إلى أعلى الأسر النبيلة، قد اتهمته العامة بالخيانة، فذهب

لقبر أبيه جِسْكون Giscon، وشرب السم. وهناك وجد جثته من كانوا يبحثون عنه. فإذا صحت هذه الرواية التي ساقها أُپْيان Appien، فقبر جِسْكون لابد أنه ضريح يسهل الدخول فيه، لا كما في سَنْت مونيك، حيث الكهف الذي لا يستطيع حسدربَعْل الوصول لبابه إلا بإزاحة الركام عن بئر عميقة جدا.

2

قد سلم الناس زمانا طويلا بأن القرطاجيين لم يحرقوا موتاهم أبدا. غير أن بحوثا أجريت منذ نحو ثلاثين سنة بإفريقيا، أوضحت أن هذا الرأي لا أساس له. فكان لابد من الاعتراف بأن تحريق الأجساد كان معمولا به في قرطاجة وفي مدن أخرى فينيقية بالغرب، في القرن الثالث وما بعده. ثم لوحظ بعد ذلك أن بعض حالات التحريق كانت قديمة جدا.

إن أربعة عشر قبرا من القرن السابع، جرى تنقيبها أخيرا في قمة جبل يونون، وأن ثلاثة منها اشتملت على موتى محرقين. وفي نفس الموقع، وبناحية دُويمَسْ، قد وقع من قبل ذلك العثور على أحجار مكعبة الشكل مجوفة، وجوفها يشتمل على عظام محرقة. ولا يسمح اليوم بالتأكيد بأن هذه المودعات الجنائزية هي متأخرة جدا عن المدافن المحيطة بها.

وفي موتية Motyé، جبانة من القرن السابع تضم، على الخصوص، موتى محرقين، كانت بقاياهم في مكعبات حجرية، وجرار من الطين المشوي، وفي صناديق مكونة من صفائح منتصبة. وفي القرن السادس

فحسب، فإن الدفن الذي كان قليلا في القرن السابق، قد أصبح في هذا الموقع أكثر الطقوس استعمالا. وحسب توسديد Thucydide [111] فإن موتية Motyé قد سكنها الفينيقيون بعد مرور زمن قليل على بدايات الاستعمار الإغريقي لصقلية، أي في القرن الثامن. فموقع المدينة بجزيرة صغيرة، شديدة القرب من الساحل بموسطة الجون، لا يمكن أن يصلح إلا للبحارة والتجار. فهو من المواقع التي يبحث عنها الفينيقيون. وأثاث القبور، زيادة على الأوعية الإغريقية المستجلبة، يشتمل على فخاريات فينيقية. فلا داعي، والحالة هذه، لافتراض أن هذه الجبانة ترجع لما قبل حلول الفينيقيين بالجزيرة الصغيرة. إذن، فالتحريق كان معمولا به عندهم في القرن السابع. أما في قرطاجة فمنذ هذا العهد، مال للزوال أمام الدفن، بينما استمر كثيرا في موتية.

وفي فلسطين كما في بابِلونْيا، فقد استعمل التحريق في أزمنة بالغة في القدم، قبل اكتشاف صناعة المعادن. وقد ظن الناس أن أقوام شعوب أسيا الغربية كانوا قد تخلوا منذ عهد باكر عن التحريق. وبسبب ظنهم هذا لم يتوقفوا عند إحدى قصص التوراة المتعلقة بشاؤول وبأبنائه الذين قتلهم الفلسطينيون. فقد كانوا معلقين بأحد الأسوار ثم حُملوا وأحرقوا، وأخيرا دفنهم أهل جابس [112]. لقد كان هذا، على ما ظنوا، حدثا منفردا، وجدت فيه عملية الإحراق تبريرها بسبب نتن الأبدان. وإني أجهل هل هذا التفسير حسن. وعلى كل، فبعد شاؤول بعدة قرون، كان الفينيقيون لا يزالون يحرقون الموتى الذين ماتوا على ما يظهر في أحوال عادية جدا.

ويحسن التذكير بإيضاح أورده جُسْتان Justin، مُختصِر طْروكْ بومْبي Trogue-Pompée [113]، قال : حول بداية القرن الخامس،

مقابض من البرنز، ولها أحيانا أرجل. وقد تكون صندوقا لا قعر له تغطى به الجثة الموضوعة في حفير أو على الأرض بأحد الكهوف أو على مصطبة بداخل جفنة. والعادة أن هذه التوابيت كانت تصبغ بالأحمر. ولكن واحدا منها كان بداخل تابوت من الرخام المزين بألوان مختلفة وبالذهب. كما أن واحدا غيره قد ترك أثره على الرمل الذي كان يملأ الجفنة التي وضع بها. وذلك مكن من ملاحظة أنه يقدم صورة منحوتة ومصبوغة للمرأة الميتة.

ولن نعود للحديث على التوابيت (أو النواويس) التي من حجر أو من رخام عثر عليها بقرطاجة. وأوضحنا أن التي تبدي اهتماما فَنّياً هي أعمال إغريقية. وتوابيت الرصاص التي تكثر بفينيقيا، وخصوصا في صَيْدة، وتعود بها لعهد متأخر، هي مفقودة بقرطاجة. وقد عثر على تابوت واحد منها في أحد قبور فيليبْفيل. ولربما أنه يرجع للقرن الأول ق.م. أما التوابيت التي من الطين المشوي فلا توجد إلا بمالطة.

وعلى المنحدر الجنوبي الغربي لجبل سانلوي، توجد حفائر في وسط الأرض تشتمل على أجساد لأشخاص بالغين، قد غطيت تقريبا بشقوف الجرار. وبنفس الموقع توجد مدافن أكثر عددا من الأولى إما في التراب، وإما بكهوف قديمة أعيد استخدامها. وهي عبارة عن جرار قطعت عند منتصفها لإدخال جثة طفل فيها، ثمّ أعيد لها نصفها بعد ذلك. وترجع هذه المودعات لنهاية قرطاجة. ومع أن التحريق كان آنذاك طقسا واسع الانتشار، فإنه لم يكن مستعملا للأطفال الحديثي السن. فلابد أن القرطاجيين، كالرومانيين والإغريقيين وغيرهم أيضا، كانوا يفكرون أن هؤلاء الأشخاص الصغار مهيأون للعودة إذا ضمت الأرض أبدانهم سليمة. كما أن جثتا للأطفال، قد أدخلت في جرار بِنورا Nora

وكَلْياري Cagliari، حول نفس العهد كما بإفريقيا. ولربما يغرينا الاعتقاد بأن هذه العادة قد جاءت من المشرق على يد الفينيقيين، فقد كانت موجودة قبل ذلك بعدة قرون في فلسطين. ولكن حيث إن دفن الأطفال في جرار لم يظهر إلا في عهد متأخر بقرطاجة وفي المدن السردانية، فالراجح أنه استعير من الإغريق، لأن هذا النوع من القبور كثير في جبانات الجنوب والجنوب الشرقي من صقلية، منذ الأزمنة الأولى للاستعمار الهيليني.

إننا نعلم ما هي العمليات الدقيقة التي كان بها المصريون يحافظون على سلامة الأبدان التي هي المحمل الضروري للروح الخالدة. وإذا لم يكن الفينيقيون يولون أهمية كبيرة للحفاظ على الرفات الآدمي، فإنهم مع ذلك لم يكونوا يهملونه. فَتَبْنيت Tabnit ملك صَيْدة قد جرى تحنيطه مومياء بطريقة خاصة. ويتحدث پْلوط Plaute عن مُحنِّط قرطاجي. وفي سَنْت مونيك، فإن عددا من الموتى الذين تأويهم توابيت من الرخام، فهم بالتالي من أُسر ثرية، كانوا مغمورين في طبقة من راتنْج شجر الأرز، وصمغ البطم Térébenthine، مخلوطة بالقطران، ومعطرة بأوراق الصَّعتر والنعناع والحنّاء. هذه الممارسة تذكّر بما كان يزاوله بعض الشعوب القديمة، التي كانت تدهن جثث الموتى بالشمع أو بالعسل. فكانت تبطئ بوقوع التعفن وتمنع انتشار الروائح الكريهة. وأحيانا يكون الراتنج قليلا، بحيث يمكن الظن بأن الراتنج قد أدخل في البدن في محل الأحشاء، وبعد اضمحلال اللحم انتشر في قعر التابوت.

أما التحريق الذي أُلغي زمنا طويلا في قرطاجة، فإنه عاد للظهور بها في القرن الثالث. وهنا أيضا يحسن قبول القول بالاستعارة من

إغريق صقلية، الذين لم يكونوا يمتنعون عن إحراق موتاهم، مع أن الدفن كان أكثر استعمالا عندهم.

ويحكي ديودور Diodore أن سجينا قرطاجيا هو بدوسْتور Bodostor، قد توفي بروما حول سنة 250 ق.م، فأحرقت بقاياه وبعث بها إلى وطنه. وبعد مائة سنة كان مسنيسّا يحاصر حصارا شديدا جيوش حسدربَعْل التي كانت في ضائقة كَبيرة بموتاها الذين لا يستطيع تحريقهم لعدم وجود الخشب. هذان النصان يتعلقان بظروف استثنائية، ولا يبرهنان على أن التحريق عند القرطاجيين كان ممارسة عادية في عهد الحروب البونيقية. غير أن الاكتشافات الأثرية لا تدع أي شك في هذا المجال. والأوعية المملوءة بالعظام المحروقة تبدأ بالظهور في «أرض الخرائب»، في أعلى «أرض المورالي»، وتحت المسرح الروماني. ويكثر وجودها في سِنْت مونيك، وتزيد كثرتها أيضا في الأوديون، ثم هي لا تنعدم في سانلوي. وهي في «أرض الخرائب»، و«أرض المورالي»، و«المسرح»، و«سِنْت مونيك» قد وضعت في رموس كانت مهيأة لتضم موتى للدفن. وفي الغالب لم يوضعوا في قاعات قد امتلأت، بل وضعوا في آبار. إذن، فحسب ما نَرى، ليس قبل القرن الثالث قد عاد التحريق من جديد إلى قرطاجة. ولا يجب جعل هذا التغير في الطقوس الجنازية ذا علاقة باتخاذ عبادة الإلهتين الإغريقيتين ديمِتير، وكُوري في بداية القرن السابق.

ولم يقض على عادة الدفن. ذلك أن حنّيبَعْل العظيم، المتوفى على وجه التحقيق بعيدا عن وطنه، قد دفن في تابوت من الحجر. وفي سَنْت مونيك، ببعض الكهوف المليئة، فإن توابيت من الخشب قد وضعت فوق صناديق من الحجر تشتمل على عظام محروقة. وفي الجبانة الحديثة بالأوديون، فالموتى المدفونون كثيرون أيضا، والمعاصرون

لتِرْتولْيان Tertullien يمكنهم أن يُمْعِنوا النظر في «هذه العظام التي بعد نحو خمسمائة سنة لم تجفْ، وهذه الشعور التي احتفظت برائحتها».
ففي القبور المحفورة قبل تدمير قرطاجة وحدها وقع تغلب التحريق على الدفن. على أن تغلب هذا الطقس لم يؤثر على هيأة المدافن التي بقيت كهوفا متناسبة مع جثة الإنسان ومسبوقة ببئر. وفي سانْلوي وقع الاكتفاء بوضع الموتى المحروقين في قبور قديمة جدا، أو بدسّهم في الأرض البراح.

ونعود للعثور على التحريق في أمكنة أخرى، في قبور من الطراز الفينيقي بالقطر التونسي، بهَنْشير بني نافِع، وسوسَة، ولَمْطة، وثَبْسوس، والمَهْدية، والعالِية، كما نجده على الساحل الجزائري في گولو، وگورايا، وبجزيرتَيْ مالْطة وسرْدانية. ولربما أنه لم يعمل به في أي مكان قبل القرن الثالث، بل في بعض الجهات لم يتخذ إلا بعد ذلك بكثير. وقد قوبل بكثير أو قليل من الرضى. فأحيانا وقع قبوله بجانب الدفن، وأحيانا حل محله. كل هذا من غير تغيير في هيأة المدافن. فمثلا بهَدْروميت، وكولو، حيث القاعات الجنازية يمكن التاريخ لها بمائة وخمسين إلى خمسين سنة (أي 150-50 تقريبا ق.م). فهي لا تضم مطلقا سوى موتى محرّقين.

وفي قرطاجة، فالأوعية غالبا هي صناديق من حجر الكلكير الرمادي، من فوقها غطاء مسنّم ذو منحدرين. وقلما يكون اسم الميت مكتوبا عليها، ويحمل الغطاء صورته مرتين. والصندوق لا يضم إلا عظاما محرقة. لكن كثيرا ما تصحب الصندوق جرة منتفخة من أسفلها كأنها كيس، مملوءة بالرماد وبشظايا العظام وقطع صغيرة من الفحم، إذ بعد أن تكون النار قد أدت عَمَلَها، كانوا ينخلون ما يبقى من الميت، ثم

وهي في لَمْطة، والمَهْدية مكومة أحيانا على إحدى المصطبات. ولربما أن هذه *المودعات* كانت *مغطاة* بثوب.

وفي بعض المدافن التي هي من الطراز الفينيقي، بالقطر التونسي وفي الجزائر، نلاحظ ممارسات جنازية نجدها كذلك في بعض القبور التي هي من حجر جاف بناها الأهالي الأصليون، بل وحتى في بعض مغارات العصر الحجري. إذن فهذه المدافن لابد من إرجاعها إما لبعض الأهالي الذين اتخذوا جزئيا العادات الفينيقية، وإما لأقوام من ذوي الدم المختلط.

في لَمْطة، وثابْسوس، أضجع الموتى على الجنب، بأذرع وسيقان مثنية، بداخل بيوت صغيرة مستديرة. وكذلك في العالِية هم في قاعات حقيقية، شكلها رباعي مستطيل. وغالبا ما تلوح على العظام آثار اللون الأحمر. وقد عثر في العالية في عدة نواويس على بقايا آدمية ومعها كميات تكثر أو تقل من الأحمر القرمزي، أي كميات لابد أنها كونت طبقة تحت كل جثة، وربما أنها كانت أيضا تغطيها، إذ أن تابوتا بدون قعر، مصبوغا بالأحمر، يكون قد وضع من فوق. فتلوين العظام ليس ناتجا عن صبغها مباشرة وعن طليها، الأمر الذي لا يكون ممكنا إلا بعد سلخها كلية عن لحومها. فذلك رأي لايبدو صحيحا نظرا لوضعية الجثث(114). إذن فالتلوين حدث دون شك بالاتصال مع طبقة الأحمر أو ألواح التابوت بعد غياب اللحم. ولكن يحتمل التدخل في بعض الأحيان للإسراع بذهاب اللحوم : ذلك أن آثار النار تُرى على هياكل عظيمة مثنية في العالية، وعلى الجنبات الداخلية للتوابيت التي تضمها.

وفي غير هذا المكان، يوجد طقس منتشر في القبور الأهلية ببلاد البربر كانتشار ثَنْي الأجساد(115). فالعظام في كورايا لا يبدو عليها أي

أثر للنار، وقد جمعت على غير نظام، ووضعت مكومة على الأرض ببعض القاعات، أو على مصطبات، وفي جفان أو بداخل أوعية من الطين. وهي لعدة موتى غالبا، وعُثر في المَهْدية ببيت صغير، ضيق لا يتسع لجسد متمدد، على عظام غير محروقة، وعلى غير انتظام، وكان هناك ثلاث جماجم إحداها مصبوغة بالأحمر، والأرض كانت مغطاة بطبقة من التراب الأحمر. وبنفس الموقع فإن حفرا صغيرة رباعية، محفورة في الصخر كانت تضم ودائع مماثلة. وفي قاعة جنازية بكُولو، طبقة من عظام تغطي قعر إحدى الجفان الحجرية. وفي قرطاجة، بجبانة بِرْسا وقع العثور، في براح الأرض أو في كهوف أعيد استخدامها، على جرار مليئة بعظام غير محروقة، وفي إحداها البقايا المختلطة لشخص بالغ وطفل.

ويمكن أن نتسائل : ألم يكن هؤلاء الموتى قد دفنوا أول الأمر في ظروف عادية، وبعد زمان طويل أو قصير احتيج إلى المكان الذي كانوا به لإسكان زائرين جدد. وحتى لا يرمى، والحالة هذه، إلى الضياع بعظام مَنْ أزيحوا عن مكانهم، فقد جمعت هذه العظام ووضعت حيث توجد اليوم على ما يبدو. ولكن من المؤكد أن هذا التفسير، لا يصح فيما يتعلق ببعض كهوف گورايا وكهف المَهْدية. فهذه الكهوف قد أنشئت لتضم عظاما غير محروقة، مجموعة بدون انتظام، لأننا لا نلاحظ بها طريقة أخرى للدفن. فهي في گورايا مودعات جنائزية تحتل وسط القاعة، ووسط مصطبة، أي مكان الشرف. إذن فلم تكن تجري عملية الدفن النهائي إلا بعد ترك الأجساد تتعرى من لحومها تماما، إما في قبر مؤقت أو في الهواء الطلق. وغالبا ما كانت تجمع بقايا عدة أفراد، ربما ممن لم تكن بينهم علاقة نسب. كما أن كل العظام لم تكن تجمع

دائما، بحيث إن إحدى قاعات گورايا كانت تضم جماجم فحسب، وعددها نحو المائة.

وفي هذا الموقع فإن عظاما على نفس الحالة قد تحملت عمل النار ولكن بصفة ضعيفة جدا. فمن المحتمل أن هذا الإحراق البسيط كان يرمي إلى الإسراع بإزالة اللحوم. فيكون هذا مزجا بين طقس أهلي قديم، وبين طقس الإحراق الذي اتخذه فينيقيو إفريقيا في القرن الثالث. وتوجد نفس الطريقة في «العالِية» في كهوف، هي على العموم أحدث عهدا من التي بها أجساد مثنية. فالعظام، بها إحراق خفيف، وهي مبعثرة فوق مصطبة، ويُرى على بعض منها بقايا من اللون الأحمر.

3

بالقرب من الموتى غير المحروقين كان يتم وضع الأثاث، وهو عبارة عن أشياء منها ما كان ملكا للميت، كخاتمه مثلا. ومنها ما صنع أو اشتري ليقع دسّه في المقابر، لأنه لا تلوح عليه علامة الاستعمال، أو هو غير متين لا يتحمل الاستخدام.

هذا الأثاث هو فخاريات في الغالب، عليها كتابة أحيانا. ولربما إن أقدم هذه النصوص، هو ما كُتب على أمفورة اكتشفت في مدفن بجبل يونون Junon، هي : «جيربَعْل Gerbaal» وهو اسم الميّت(116). وأحدث من ذلك، الكتابات التي خطت بالمداد او بالفحم على بعض القناني الصغيرة والإجانات، وعلى العديد من الجرار المنتهية بعَقِبٍ مخروطي الشكل. والكتابات أحيانا هي بضعة حروف لا يمكن تحديد معناها، ولكنها على الراجح اختزالات لأسماء الأشخاص. وأحيانا هي اسم

للشخص المالك، مكتوبا بكامله وحده أو متبوعا باسم أبيه ونسبه. والتعبير : «قَبْرُ لا»، يدلّ بوضوح على أن بعض الأوعية هي قسم من الأثاث المكون للميت خصوصا. وهناك قنينة وقلة، عليهما اسم المالك. ولا ندري لماذا كانت إحداهما مملوءة بصدفات متفتتة، والأخرى بفحم الخشب. وتكون الفخاريات عادة مما يستعمل في الطعام أو للشراب.

في القرون السابع والسادس والخامس، لم تكن هذه الأوعية توخذ بالصدفة. فكل ميت كان ينال جرة وإناء وإبريقين، هذا بالإضافة إلى المصباح وصحنه، هو كل الأثاث الذي يمكن أن تنضاف له فخاريات أخرى من صنع محلِّي أو أجنبي. وفيما بعد وقع التخلي عن تطبيق هذه القاعدة الدقيقة. فالميول الشخصية على ما يحتمل، هي التي تحدد نوع وعدد الفخاريات المودعة في قبور القرون الرابع والثالث والثاني. وعلاوة على هذا، فعندما يكون الموتى متعددين، يصعب أو يستحيل معرفة ما يملكه أي واحد منهم. وهذه الأدوات المنزلية الجنازية كانت تشتمل أيضا على بيض النعام الذي تحول إلى إناء، كما تشمل أدوات معدنية، وعلى الخصوص منها الأباريق البرنزية.

وتكاد هذه الأدوات تبدو دائما وكأنها تركت فارغة، بحيث لم تعد لها سوى قيمة رمزية. ومع ذلك فقد عثر بقرطاجة في قعر بعض الجرار على مترسب هو بقية من سائل. وفي غيرها قشور اللوز. وعلى أرض إحدى القاعات هيكل عظمي لأحد الطيور. كما أن أوعية مغلقة بسداد من طين كانت تحتوي لابد على سائل ما. وفي سوسَة، والمَهْدية، والعالِية، وگورايا، فإن عظام الكباش والطيور وحسك السمك، وبقايا عضوية غامضة، كانت قد بقيت في الأوعية. كما أن سلالا كانت موضوعة فوق

أغطية التوابيت الرخامية في جبانة سَنْت مونيك كانت تضم فاكهة. وبجهة أخرى كانت فواكه وحلويات مصنوعة تقليدا من طين بقوالب.

وفي كل مكان تقريبا يقع العثور على المصابيح التي، إلى قريب من عهد تدمير قرطاجة، كانت مزودة بفتيل وتوقد في القبور. أما المباخر فليست غائبة. وأدوات الزينة كثيرة، كالمرايا والقناني الصغيرة من طين مشوي، وزجاج وألْبَتر Albâtre للزيوت العطرة، وعلب من عظم ومن رصاص، وصدفات مزدوجة للدهان وللمسحوق ...إلخ. كما أن صناديق صغيرة من خشب، بها صفائح من العاج مزينة بحلى معدنية، يمكن أن تحتوي الأدوات اللازمة للخدمات المنزلية أو للزينة النسائية. ورأينا أن الأسلحة قليلة. ولن نعود للحديث على الحلي، ففي عهد الحروب البونيقية كانت أدوات في الغالب مكررة، وقيمتها أكثر من أن يتزين بها الأحياء، ولاشك أنها صنعت للموتى. وفي القرن الرابع ظهرت النقود (117)، وكلها تقريبا من البرنز، بعدد ضئيل، ثم تضاعف عددها. ويعثر عليها في لفائف شديدة القرب من الجسد، قرب أحد الذراعَيْن عادة، ولابد أنها كانت مجموعة في كيس أو علبة.

وهناك أحجار سوداء لامعة، وكعاب كانت حسب رأينا تستعمل في اللعب. كما عثر على العديد من زهور النرد بين الدُّمى التي من طين مشوي. وما كان منها يمثل أشخاصا آدميين فهي لملازمة الميت، وماكان يمثل الآلهة فهي لحمايته. وقد درسنا من قبل الأحجبة المختلفة الموضوعة على الأجساد أو بقربها.

هذه الأدوات-الأثاث، تبرهن على الاعتقاد بحياة مادية للميت في القبر الذي يقيم فيه. فله نفس الاحتياجات، ونفس الميول كالرجال الذين يتحركون على الأرض، وهو مثلهم معرض لأخطار تستطيع الأحجبة أو

العون الإلهي أن يحفظه منها. فعلى أغطية التوابيت، وعلى الأنصاب المثبتة فوق النواويس، هو مرسوم في وضعية الصلاة أو الإهداء. فبهذه الأنصاب وبالأعمدة المثبتة في نفس الموقع، هو حاضر في عالم الأحياء، وبدون أن يغادر مسكنه في باطن الأرض مع ذلك.

والمهم جدا هو أن يكون للموتى مدافن. إن ذلك همّ خطير للقرطاجيين، كما هو لجل الشعوب الأخرى في التاريخ القديم. وفي عهد الحرب التي لا يمكن تهدئتها، نجدهم يقومون بتدخلات ملحة للحصول على جثث مواطنيهم الذين قضى عليهم الثوار. إذ من الأهمية بمكان، أن لا يتعكر هدوء الموتى في «مسكنهم الأبدي». هكذا كان الفينيقيون كالمصريين والعبرانيين يسمّون القبر. كما أن كتابة بشاهد قبر، أصله على الراجح قرطاجي، تنتهي بهذه الكلمات، وهي : «لا تفتحوا !». والمنع قد عُبّر عنه بألفاظ كثيرة وقوية في الكتابات الجنازية لاثنين من ملوك صَيْدَة، هما تَبْنيت Tabnit وإشْمون عَزار Eshmounazar. وعمق المقابر في قرطاجة وقاية من هذا الخطر. والميت الذي انتزع من مدفنه يصبح مرعبا. إذ القرطاجيون يؤمنون بعودة الأشباح. ففي القرن الخامس حَطّم الجيش المحاصر لأكْريجَنْت مقابر كانت تعوقه في أعماله التحضيرية. فوقع الجيش في وباء أصاب العديد من الضحايا. وقد أكد الحرس القائمون بالليل في المواقع الأمامية أنهم رأوا أشباح الموتى. فلما أبصر قائد الجيش ذعْر جنوده أمر بوقف التحطيم.

كيف كان القرطاجيون يفسرون هذه الحياة الثانية للميت ؟ لا يوجد نص يخبرنا بشيء عن ذلك. وعلى ما يحتمل كانوا مقتنعين، كالكثيرين غيرهم، بوجود روح تسكن «المسكن الأبدي» بجانب الجسد. وهي

بحاجة لأن تبقى متصلة بهذا الجسد لتحظى بحظ يحتمل. كما أنها تكون تعيسة وشريرة إذا فقدت ذلك.

وفوق هذا، فأكثر الذين يزاولون الطقوس الجنازية، لم يكونوا يهتمون كثيرا بالعقائد التي كانت قديما أصلا لهذه الطقوس. فقد استمروا يفعلون ما كان يفعله آباؤهم بحمية أصبحت تقل جيلا عن جيل. فالقواعد المتعلقة بتكوين الأثاث وقعت في الإهمال. والحلى الخالصة كانت تعوض أكثر فأكثر بالحلى المزيفة. ففي القبور الحديثة بقرطاجة صارت الحلقات رصاصا أو من البرنز المذهب، والمرايا صغيرة جدا ومن معدن رديء، والأحجبة قليلة العدد. ولازالت المصابيح توضع ولكن دون تعب لإيقادها. ومنذ مدة وقع التخلي تقريبا عن وضع الطعام في الأوعية. والتحنيط الذي كان يحفظ البدن لزمن طويل إلى حد ما، يبدو أنه قد صار مخصصا لذوي الثراء.

وتحريق الأبدان، قد عرفه الفينيقيون الذين أسسوا مستعمرات في البحر الأبيض المتوسط الغربي ثم نسوه لعدة قرون، ولكنه عاد بحظوة في عهد الحروب البونيقية. هذا الطقس أعطيت له تفسيرات مختلفة، وغير أكيدة كلها، ولا داعي لمناقشتها هنا. وأياً ما كان الحظ الذي ينتظر الروح، (إذا قبلنا أنها تبقى حية)، فإن النار تحطم الجسد. والاعتقاد بوجود مادي يصبح غير معقول. ولهذا فالبقايا المحروقة في جبانات قرطاجية تكون غير مصحوبة بأي أثاث، بحيث لا نعثر بداخل الصناديق الحجرية الصغيرة وفي جرار الطين المشوي إلا على العظام المحروقة فحسب. وعلى وجه المثال قد نجد بعض قطع النقود، وأداة صغيرة من أدوات الزينة أو الأناقة، وحجابا مما مرّ في النار مع الميّت.

لكن في هَدْروميت، وكولو، وكورايا، فإن اتخاذ عادة الإحراق لم ينتج عنه غياب الأثاث تماما. لأن الناس، لا يهتمون دائما بالمنطق.

ومن الراجح أن الفينيقيين قد اعتقدوا بحياة مشتركة للموتى، شبيهة بجحيم العبرانيين، بهذا «الشّيؤول» Shéol في باطن الأرض، بمنطقة الغمّ، حيث لكل واحد «مضجعه في الظلام». وهذا التصور لا ينسجم مع اعتقاد أقدم لاشك، بحياة الميّت في قبره، ولكنه لا يهمّ. فسكان الشّيؤول هم «الرِّفاييم» Refaïm أي «الضِّعاف». غير أن الكثير من النصوص الفينيقية تتحدث عن هؤلاء الرفاييم. فإشْمون عَزار مَلِك صَيْدة، دعا في شاهد قبر على من ينتهكون حرمة تابوته «بأن لا يكون لهم مضجع مع الرّفاييم، وأن لا يُدفنوا في قبر». وهناك كتابة بلُغتَيْن، وهي أحدث عهداً، منقوشة بأحد الهياكل بجنوب القطر التونسي، فيها كلمة *«رفاييم» الفينيقية تُرجمت للفظ الروماني مَنْس* Manes. ولكن من المجازفة الاستنتاج بأن يكون القرطاجيون يجعلون للرّفاييم نفس الظروف التي يجعلها العبرانيون لهم.

ويتابع إشْمون عَزار دعاءه قائلا : «فَلْتَتَلْقِ بهم الآلهةُ المقدّسة إلى بَعْل أدير Baal Addir، وليَغْضَبْ عليهم هذا إلى أن يدمّرهم». إن هذا كان ربّ الموتى. ونجهل هل قَبِل القرطاجيون وجودَ إله مماثل. إذ أن بَعْل أديرْ الذي قد نفكر فيه، لا نعرف نحن منه إلا الإسم، ومن المشكوك فيه، أن بِلْوتو Pluto الذي له شهرة شعبية كبيرة في إفريقيا الرومانية يكون من أصل بونيقي. ويحتمل أن إلهة للجحيم قد دعيت على إحدى الصفائح السحرية الصغيرة المكتشفة في جُبانة بدْويمَسْ. فهل كلف واحد من الموتى المدفونين بنفس المكان بمهمة القيام بالوساطة ؟ في هذه الحالة

يكون التوفيق قد حصل بين النظريتين المذكورتين من قبل، ويكون الميت قد سكن في آن واحد قبره الخاص والجحيم.

إذا كانت إقامة الرّفاييم الفينيقيين مماثلة للشيؤول العبراني، فإنه يكون بالغ الحزن. والشعوب التي كان للفينيقيين معها علاقات كالمصريين والإغريق، اعتقدوا أن الرجال كانت لديهم الوسائل لضمان وجود سعيد بعد حياتهم الأرضية. ولربما أن القرطاجيين لم يمكثوا أجانب عن أماني المؤمنين بأوزيريس، الإله الذي عبده الفينيقيون، وأماني الأرفيين Orphiques (118) و«أصحاب الأسرار» بإلوسيس Initiés d'Eleusis.

وفي قرطاجة، بقبور من القرنين السادس والخامس، وكذلك في سردانية ومالطة، عثر على شفرات صغيرة من ذهب وفضة، أبرمت وأدخلت في جعب صغير، وكانت معلقة بعنق الموتى، وكان عليها رسوم منقوشة أو موشومة، كثيرة أحيانا، تمثل حيوانات وهَوْلات، بنصف إنسان ونصف حيوان. وآلهة مصرية هي أوزيريس، وإيزيس، وحورُص، وأنوبيس...إلخ. وانتظام هذه الرسوم هو بنفسه على العديد من هذه الأشياء. فلابد أنه مثبت بأحد الطقوس. وبالطبع فإن الرسوم من إيحاء مصري، ولو أن بعض الجزئيات تكشف عن تأثيرات أسياوية. وإحدى الصفيحات تبدي كتابة فينيقية، هي : «احْمِ وصُنْ إلّشْبَعْل» Hilleçbaal، فهذه إذن أحجبة. وإذا كانت قد صنعت ليحملها الموتى خاصة، وذلك أمر غير أكيد، فيمكن ان نتسائل : أليست هذه كلها رسوما للآلهة ولديمونات Démons ؟ مكلفة بأن تقود الميت في سفر في ما وراء القبر، تكتنفه العوائق والأخطار ؟ وأن تسير به حتى الجهة التي ينعم فيها بالسعادة الأبدية ؟ ففي مصر، كان كتاب الموتى الذي انتشرت ملخصاته في القبور، يعلِّم وسائل البلوغ لهذه الغاية المرجوة بحرارة. وكذلك

الكتابات الإغريقية المخطوطة على صفيحات الذهب، التي عثر عليها في جزيرة إقْريطش Crête وفي إيطاليا، بقبور أتباع الأرفية Orphisme.

ولا مانع كذلك من الافتراض بأن إدخال عبادة ديمِتير، وكوري للشمال الإفريقي، قد لفتت أنظار القرطاجيين إلى ضمانات الخلود السعيد التي تهبها هاتان الإلهتان للمتسارين في هيكلهما بإلوسيس.

وهل اعتقد فينيقيو الغرب أن بعض الرجال بعد حياة زيَّنتها أعمال عظيمة وإحسانات فائقة، قد أدخلوا في أحوال قريبة من أحوال الآلهة ؟ ذلك ما تؤكده بعض النصوص، وهي لا تستحق الثقة. وكما سبق أن قلنا، فإن هيرودُت قد خلط لاشك الإله مِلْقارت، بالقائد عبد ملْقارت (عَملكار Amilcar). وسالوسْت Salluste يقصّ مغامرة الأخوَيْن الفيلينيين Les Philènes، اللذين ضحّيا بالحياة ليمكن لقرطاجة أن تدفع إلى الأمام حدود الأرض التي تسيطر عليها، إلى المكان الذي وقع فيه دفنهما حيين، فأقام لهما مواطنوهما هيكلين. كما أن تمجيدات أخرى أقيمت لهما في وطنهما. ولكن هذين الهيكلين، كانا على الراجح مجرد تلتين من الأحجار. كما أن الفيلينيين لم يوجدا أبدا. والإسم الذي أطلق على هاتين الشخصيتين المزعومتين كان اسما لأحد الأمكنة. ويقول جُسْتان : «مادامت قرطاجة غير مغلوبة، فإن أَليسّا Elissa قد وقع تمجيدها وكأنها إلهة». هذه التمجيدات الإلهية، كان الإغريق عمليا يولونها للأبطال الأسطوريين مؤسسي المدن. ولكن هل كان الفينيقيون يفعلون مثل ذلك ؟ وهل أليسّا كانت هي مؤسِّسة قرطاجة ؟ وإذا أردنا أن نعطي بعض القيمة لما أورده جُسْتان، فيمكن الاعتقاد بأنه يتعلق بإلهة حقيقية، لا بمخلوقة مؤلهة. وختاما فإن پوليب Polybe يورد أن بالقرب من قرطَاجنّة Carthagène مرتفعا يُدعى بجبل أليتِس Alétès : «بما أن هذا

الأخير كان قد اكتشف مناجم الفضّة، فإنه قد وقع اعتبارُهُ مستحقاً للتمجيدات الإلهية». فالمؤرخ إذن لا يعتبر الأمر مؤكدا. وفوق ذلك، هل يتعلق الأمر بطقس قرطاجي ؟ بل يبدو أن أليتس هو اسم أصله إيبيري.

أما الموتى العاديون فينالون العناية ويضمن لهم «سَكَنٌ أبَدِي». وينالون، ولو رمزيا على الأقل، وسائل العيش فيه. هل كانوا يعبدونهم ؟ مما لاشك فيه أنهم، قبل تركهم في قعر قبورهم، كانوا يقومون ببعض الشعائر الدينية. إذ في بعض مدافن القرنين السادس والخامس، فالغطاء الذي يسد الجفنة الجنازية، كان يعلوه مصلّى صغير منصوب فوق رأس الميت بالضبط. والوجه الأعلى للمصلّى يبين عن فجوة مربعة تحتفظ بآثار النار. فلابد أن البخور كان قد احْترق بها. وهل كان هذا التمجيد يتوجه للموتى ؟ او لمعبود قد طلبت منه حماية الميت ؟ ذلك ما لا نستطيع قوله.

بعد الحفلات، كانت البئر تردم ولا يعاد فتحها دون شك أبدا، مالم يصل للناووس ضيوف جدد. على أن النصب أو العمود المقام فوق الأرض، لا يزال يصل الميت بالأحياء. وهل كان هؤلاء يأتون له بذكراهم وتمجيدهم؟ إن القرطاجيين حسب أَپْيان Appien كانوا يهدون القرابين على قبور موتاهم. ولكن أپْيان يقول هذا في أحاديث خطابية، ربما ليس لها قيمة تاريخية. ولوسيان Lucien أيضا يذكر القرابين للموتى في فينيقيا، غير أن هذه الشهادة ترجع للقرن الميلادي الثاني. فهل هي صالحة للعهد الذي ندرسه ؟ إن سيسْرون Cicéron يساعدنا في الصعود إلى أعلى، لأواسط القرن الأول ق.م. فهو يخبرنا أن في نورا Nora، المدينة الفينيقية القديمة بسردانية، كان يجري في الجبانة احتفال تشارك فيه الجماهير الشعبية كلها. كان هذا إذن يوم الموتى، الذي لا

نعلم عنه مع ذلك أي شيء دقيق. ولا داعي للاهتمام بجزئية واردة في حكاية ديودون Didon، وهي : أن منشئة قرطاجة، لمّا أبْدت قبولها لزوج جديد، هيأت قربانا لترضية روح زوجها القديم. وليس أكيدا أن ذبح 3000 أسير عند أسوار هيمير Himère، بالمحل الذي هلك فيه عَمِلْكار منذ مدة طويلة، تكون قرابين مهداة لهذا الميت.

والخلاصة أننا لانرى بوضوح أن القرطاجيين، يكونون قد أدوا عبادة للموتى، ورجوا عونهم. فالأدوات الوقائية التي كانوا يحيطونهم بها، وهيأة الصلاة التي كانوا يعطونها لصورهم، كلها تشهد بأنهم كانوا ينظرون إليهم كمخلوقات ضعيفة. وإذا كان الفينيقيون يولون أهمية كبرى لبقاء الأسرة، فذلك على ما يظهر لأنها كانت تحافظ للأجداد على المسكن الجنازي. فالموتى إذن كانوا متوقفين على الآلهة والناس. ويملكون بعض القدرة فحسب على الإساءة عندما يمنعون عن مدفنهم. لأنهم يكونون تعساء جدا. لقد كانت الواجبات التي تفرضها التقاليد تؤدى لهم. ولكن بدون هذه العاطفة المتوقدة التي تبذل الجهل للتخفيف من الفراق، وللإبقاء على شخص الكائن العزيز. إن الميت مدفون دفنا عميقا ولا يُزار. وإذا كانت إحدى الكتابات الشاهدة بحقوقه على ما يحيط به، قد كتبت أحيانا على عنق أحد الأوعية، فإن الأحياء لا يستطيعون قراءتها. والكتابات بشواهد القبور قليلة الوجود، بحيث لم يقع العثور عليها مطلقا إلا بجبانة سَنْت مونيك التي ترجع للقرن الثالث. وكانت على العموم منقوشة على صفيحات صغيرة، مثبتة في صفائح الحجر التي يغلق بها الكهف من أمام، ولا يُمكن رؤيتها إلا بعد إزاحة الأتربة من البئر للقيام بدفن جديد بالقاعة. فهي طابع بالتملك وعلامة للتعرف، والاحتياج لها رديء. والكتابة قصيرة جدا. فيها اسم، وذكر

للنسب، ولقب أحيانا أو ذكر للمهنة من غير ثناء أو أسف أو دعاء. ومن فوق ذلك، بسطح الأرض هناك العمود أو النصب، أحدهما بغير صورة ولا كتابة، والآخر يحمل صورة تافهة جدا بدون كتابة. إن الموتى هنا لا يتحدثون مع المارة على جانب الطريق. إنهم لا يتكلمون، إنهم مجهولون، انتُزعت منهم خواصهم الفردية، ويبقون منعزلين في أعماق مسكنهم الجهم الذي خصص لهم. والقرطاجيون أكثر انشغالا بواقع الحياة، ولا يسمحون لأنفسهم بالتخلي عن هذا الواقع لتذكر رفقائهم بالأمس، أو للتمني الحزين بالحياة بعدهم.

الكتـاب الثاني

الأخلاق والمعتقدات

الفصل الخامس

الدور التاريخي لقرطاجة

1

في نهاية دراستنا عن قرطاجة لابد لنا، مرة أخرى، أن نلاحظ عدم كفاية الوثائق التي بين أيدينا. فالعهود القديمة لم تورثنا تاريخاً متسلسلاً للجمهورية الإفريقية العظيمة. وإذا كان هذا التاريخ قد كتبه قرطاجيون، فإن كتابتهم قد اندثرت. ويستحيل إعادة تكوين المجموع بالقطع التي خلفها لنا الإغريق واللاتانيون. فهؤلاء رووا على الخصوص الحروب التي تواجه فيها السّرقوسيون والرومانيون ضد قرطاجة. فكانت فصولا من التاريخ الإغريقي والروماني أكثر مما كانت تاريخا بونيقيا. وكان يصعب عليهم أن يكونوا منصفين، حتى ولو أرادوا ذلك. ومع هذا، فلا يجب أن ننسى أن الحربين الأوليَيْن بين الرومانيين والقرطاجيين، قد وجد هؤلاء الأخيرون فيهما شهادات لصالحهم في كتابات فيلنوس الأكْريجَنْتي Philinos D'agrigente، وفي كتابات من أرّخوا لحنّيبَعْل. فبصفة عامة، لم تكن الوسائل مفقودة لديهم بعد

الحوادث لمعرفة ما جرى عند أعدائهم. وفيما دون هذه الحروب، فإن معلوماتنا هزيلة جدا، كالتعقيبات القصيرة التي كتبها أرسْطو عن الدستور البونيقي، الذي اهتم به لمشابهته للدساتير الإغريقية، والأصداء التي نجدها عند تيمي Timée وديودور Diodore وجُسْتان Justin. ولِتيمي الفضل في أنه لم يهمل جوانب التاريخ القرطاجي التي لا تختلط مع تاريخ الإغريق بصقلية. وكقصة ثورة المرتزقة التي استقاها پوليب Polybe من كاتب لم يذكر لنا اسمه، والترجمة الإغريقية للكتابة التي وضعها حنون بأحد المعابد بعد عودته من بعثته طوال سواحل المحيط، وقائمة المدن والمتاجر المذكورة برحلة سيلَكْس المشبوه Pseudo Scylax، والتي كانت خاضعة لقرطاجة، في أواسط القرن الرابع، وأخيرا المواد الضئيلة المبعثرة هنا وهناك وذكرت صدفة، وأصلها في الغالب غير أكيد، كما أن قيمتها مشكوك فيها.

كان الإغريق والرومانيون لا يعرفون قرطاجة معرفة جيدة، ولكنهم كانوا يعلمون الجهود التي لابد أن يبذلوها لمقاومتها ولقهرها، ويبالغون في ثرواتها وقوتها. ومن المؤكد أن عدد 700.000 نسمة، الذي ذكر لسكان المدينة في بداية الحرب البونيقية الثالثة، قد كان مبالغا فيه بالتأكيد. وقد أوضحنا أن الأعداد التي ذكرت عن الجنود بالجيش، وعن عدد سفن الخط، هي أعداد لا تستحق أن نثق بها. إن قرطاجة لم تنشر سيطرتها في إفريقيا وأسبانيا إلى المدى الذي تؤكده بعض النصوص. والمظنون أنها لم تكن غنية إلى الحد الذي ذكر.

كما أن خصومها، كانوا من جهة أخرى مدفوعين إلى المبالغة في أخطائها، وفي التخفيف أو إنكار أخطائهم هم. ومن المتأكد كذلك، أن البطلَيْن الاثنَيْن الكبيرين، للهيلّينية بصقلّية، وهما دونيس

الكبير Denys l'Ancien وأكاطُكْل Agathocle، قد كانا رجلين عديمي الذمة، كما أن سلوك روما الغادر أحدث الحروب البونيقية الثلاث.

والفقر في النصوص لم تعوض عنه الاكتشافات الأثرية. أما النصوص التي وصلتنا، فالمؤرخ يكاد لا يستخرج منها إلا بعض المعلومات عن العبادات. ولم تبق مآثر من قرطاجة الأولى التي حطمها الرومانيون، ولا من المدن الفينيقية الأخرى بالغرب، المختفية تحت المدن التي حلت محلها. والمقابر التي حفرت في أعماق الثرى هي وحدها التي بقيت سالمة. ولكن، هل من الضروري القول بأن الأثاث الجنازي لا يعرّفنا بالأحداث التي شاهدها الموتى أو شاركوا فيها؟ بل إنه لا يعطينا حتى صورة صحيحة عن ظروف ثروتهم. فمن عهد مبكر يظهر أنهم اعتقدوا عدم الفائدة في أن يدفنوا معهم أشياء ثمينة.

2

فعن أصول قرطاجة، لا نستطيع قول شيء أكيد. لكن التاريخ الذي يحدده القدماء لتأسيسها، ويتطابق مع 814-813 ق.م، لا يتعارض مع الصواب. ويمكن أن نقبل أن الصوريّين قد أسسوا في الغرب قبل ذلك بعض المدن الأخرى، التي من أشهرها قادس Gadès، وأوتيكا Utique. وأن هذا العهد من الاستعمار قد سبقته تجارة نشيطة، تفرض وجود مخازن ومتاجر.

فلعدة مئات من السنين بقي تاريخ قرطاجة رهين الظلمات. غير أن مقابر القرنين السابع والسادس تبرهن على أن هذه المدينة لم تكن تفتقد الذهب والفضة. وكانت قوية حقا في أواسط القرن السابع، لأنها

أنشأت آنذاك مستعمرة في جزيرة يابسة Ibiça. بل وقبل ذلك، إذا كانت كما يذكر توسديد Thucydide قد استطاعت أن تعد بمساعدة الفينيقيين الذين تخلوا للإغريق عن بقية صقلية، واستقروا في بالِرْم وصولُنْت وموتية. وفي القرن السادس واجهت الحروب في إفريقيا وصقلية وسردانية، وحاربت الفوصيّين في مياه البحر الأبيض المتوسط الغربي، وتدخلت دون شك في أسبانيا، وأبرمت مع الأتروريين معاهدات، وربما منذ نهاية هذا القرن مع الجمهورية الرومانية الفتية. وكان قَمْبيز ملك الفرس يفكر في تنظيم حملة للسيطرة عليها.

هذه القوة الشاهدة بوجود ثروات كبيرة، تدين بها قرطاجة (قَرْت حَدَشْت = المدينة الجديدة) لموقعها الجغرافي الجميل، وربما أيضا لظروف تأسيسها، التي تبرر مطامعها في أن تصبح «صُورا جديدة». ذلك أن الصوريين الذين أصابهم التقهقر، لم يعودوا قادرين على حماية مؤسساتهم البعيدة ضد مطامع الأهالي، وضد التقدم السريع للاستعمار الإغريقي. وفي إنجاز هذه المهمة، فإن قرطاجة حلت محل أمّها صُور. فواجهتْ بمجموعة فينيقيي الغرب، هجمات الإغريق المتتالية والمتقطعة. فأبعدت مزاحميها عن صقلية الغربية وعن سردانية، وعن الشمال الغربي لإفريقيا، وعن جنوب أسبانيا. وقد أوقفت أو أبعدت البارابار، إلا في أسبانيا حيث إن هؤلاء البارابار كانوا قبائل للنهب لا أُمَماً منظمة. وخلال هذه الحقبة من تاريخها، أسعدها الحظ، فلم تجد أمامها سوى أعداء غير قادرين على الاتحاد. ونظرا لأنهم يحاربون متفرقين فقواتهم كانت رديئة. أصبحت قرطاجة مدينة عظيمة، أغنى من صُور. وسكانها أكثر عددا منها. فأنشأت الموانئ التي كانت سفنها ترسو بها في غاية الأمان، كما كونت لنفسها أسطولا بحريا مخيفا، وأنشأت الجيوش

الضرورية للبعثات التي أنجزتها. فكانت جيوشا استعمارية، مهمتها في الحفاظ على سيطرتها ونشر هذه السيطرة، لا في الدفاع عن وجودها، وكذلك كانت تريد صَوْن دماء مواطنيها، كما تريد تركهم لأشغالهم السلمية. فاستعانت بالمرتزقة الأجانب، ثم برعايا يؤخَذون للتجنيد، ثم بالمساعدين الذين يقدمهم لها حلفاؤها الأمراء. هذه الطريقة المستخدمة في الحروب البعيدة، زودتها بالجنود الذين كانت تحتاج إليهم، أي برجال كانوا على العموم يعرفون كيف يحاربون، وكان بمستطاعها التضحية بهم وتعويضهم بسهولة.

تحررت من وصاية أمّها صُور عليها. وبعثت حياة جديدة في المستعمرات الفينيقية بإنقاذها لهذه المستعمرات، وأنشأت هي مستعمرات أخرى. ولربما أن ظروف هذه المدن لم تكن من الوجهة القانونية ظروفا واحدة. وعمليا فإن قرطاجة فرضت عليها جميعا تبعية ضيقة. وقد كانت كذلك سيدة على عدد كبير من الأمكنة المنتشرة على سواحل الغرب بإفريقيا منذ سَدْرة الكبرى إلى ما وراء المغرب، وبغرب صقلية، وبسردانية وفي جزر بَنْتِلاريا، ومالْطَة، وگوزو، ويابِسة، وفي جنوب إسبانيا وفيما قبل المضيق وما بعده.

إن القرطاجيين في وطنهم وخارجه مكثوا وكأنهم مرتبطون بالساحل. وكذلك كان الشأن بالنسبة لقرطاجة، ولمدة طويلة. لكنها في القرن الخامس استولت على منطقة كانت مجالا واسعا أمام أسوارها. هي عبارة عن مزارع ومحشد للجنود. وخلف أرض الليبيين الخاضعين مباشرة لسيطرتها، كانت تمتد إلى بعيد نسبيا منطقة حماية، بها حلفاء لها أي أتباع. أما في سردانية، فلربما أنها استولت منذ القرن السادس على سهول الجنوب والغرب بالجزيرة. وهي سهول كانت غنية بالقمح.

وقد ساعدها تكوين هذه الإمبراطورية على تنمية تجارتها. فالقرطاجيون كانوا نشيطين في العمل، مَرِنين ومجدّين في سعيهم، وكانوا يستفيدون من المنافع التي تهيئها لهم الدولة. والمستعمرات البحرية التي انتعشت وكثر عددها، كانت لهم أسواقا مضمونة. وفي أقصى الغرب، اجتهدت البعثات الرسمية في تهيئة فتوحات تجارية جديدة في أوربا وإفريقيا. ولابد أن البحرية الحربية قد استعملت شرطة ضد القراصنة. كما أن بعض المعاهدات قد خصت القرطاجيين باستغلال بعض المناطق. وفي جهات أخرى أنعشت المبادلات بالتسهيلات والضمانات المتبادلة.

والغالب على الظن أن قرطاجة، منذ العهود الأولى، كانت بها طبقة أرستقراطية قوية، ساهمت مساهمة كبيرة في حكومة المدينة. ومن المحتمل أنها، هي نفسها بتعاطيها للتجارة، على غرار أرستقراطية صُور، قد ساهمت جيدا في الازدهار الاقتصادي لوطنها الجديد. ومع هذا، فإن السياسة الأمبريالية التي جعلت من إحدى المستعمرات الفينيقية عاصمة لدولة كبيرة في الغرب، هذه السياسة كانت على الخصوص من صنع بعض الرجال المنتمين لهذه الطبقة من النبلاء، ولكنهم يتعالون فوقها. ونكاد لا نرتاب في دَوْر مَلْكوس Malchus الذي، في الربع الثاني من القرن السادس، كان قد قاد الجيوش في إفريقيا وصقلية وسردانية، وحكم عليه بالموت عقب صراع شديد عنيف، وكان موته لاشك نصرا للأرستقراطية. ومعلوماتنا أحسن قليلا عن أسرة الماگونيين Magonides الذين، منذ أواسط القرن السادس، كانوا يهيمنون كما أرادوا على قرطاجة طوال مئة سنة، دون أن يتعدوا حدود المشروعية. وذلك بالاستيلاء وبضم الوظائف العليا والقيادات الكبرى.

ففي هذا العهد الطويل من الحروب والفتوحات والتوسع الاستعماري، تكونت الإمبراطورية البونيقية بصفة تامة بالبحر والبر. وانكسرت السيطرة الماگونية حول سنة 450 ق.م، فاستعادت الأرستقراطية السلطة الحقيقية بتأسيس مجلس أعلى للقضاء.

وبكل تأكيد، فإن قرطاجة كانت في هذا العهد قوية ومزدهرة. ولكنها مع ذلك لم تستطع صدّ الإغريق عن البحر الأبيض المتوسط الغربي. عن هذا البحر الذي كانت هي نفسها تمسك بمدخله الأهم، والذي كانت مستعمراتها متتابعة على سواحله. فمرسيليا مكثت صامدة ومعادية، تمنع عن قرطاجة سواحل غاليا La Gaule والشرق الأسباني. وفي سنة 480 ق.م، انتهت بالنكبة الحملةُ التي قام بها الماگوني عَمِلْكار ضد إغريق صقلية المطروحة بين حوضي البحر الأبيض المتوسط، بين أوربا وإفريقيا. فهذه الجزيرة الكبرى كانت هي باب الإمبراطورية القرطاجية. وقرطاجة لم تستطع أن تسود عليها كلية. كما تخلت عن كُرْسيكا للأتروريين حلفائها في الحرب ضد الإغريق. وكانت تمنع نفسها عن أي مطمع في الهضبة الإيبيرية. والرومانيون الذين كانت لها معهم آنذاك علاقات ودية، سيعلّمونها فيما بعد أن مالكي إيطاليا لا يمكن أن يتخلوا للغير عن صقلية. فجهود الماگونيّين بقيت ناقصة إذن.

لمدة قرنين من الزمان، كانت الجمهورية ملكا لأرستقراطية وراثية عمليا، تملأ مجلسا للشيوخ ببضع مئات من الأعضاء، وهؤلاء النبلاء كانت تقودهم أوليغَرْشية Oligarchie لها أدوات، على الأقل في القرن الثالث، تتكون من مجلس دائم يهيء مع علاة رجال الدولة قرارات مجلس الشيوخ، ومن هيأة للقضاء غير قابلة للعزل، وتتحكم في ثروة وحياة الجميع.

إن الأرستقراطية القرطاجية الذكية والمتعلمة، كانت لها تجربة الأعمال. ولكنها كانت مقسمة إلى مجموعات للمصالح يكره بعضها بعضا، ومنافساتها السرية أو العلنية، كثيرا ما كانت تضر بالمصلحة العامة. فاختلاساتها وعملياتها في النهب، كانت تثقل كواهل الرعايا، وتضعف موارد الخزينة. كانت تترك للشعب حقوقا ظاهرية أكثر مما هي حقيقة. فكان يُسرُّ بها، لأنه كان يجد في هذا النظام ترضية مصالحه المادية. وكانت تخشى الطموحات الشخصية، فتلجم الولاة وقادة الجيوش. وقضت بقسوة على المؤامرات والثورات التي كانت تهدف إلى إقامة نظام ملكي.

وهي على العموم، لم تظهر كأمبريالية في سياستها الخارجية. وكانت وهي الغنية تعمل للحفاظ على ثروتها عوضا عن المخاطرة لمضاعفتها. وتكره الحروب الطويلة التي تنتج عنها أزمات اقتصادية، والتي تدعو إلى نفقات باهضة، وتعطي للقادة المنتصرين الإرادة وحتى الوسائل ليرتفعوا إلى الدكتاتورية. ومع هذا، فإنها في نهاية القرن الخامس قد مكنت الماگونيين من العودة لمشاريع عائلتهم، وليقودوا حملات كبرى في صقلية. لكن، وبرغم الانتصارات الباهرة، فلم يقع الوصول للغاية. وفي القرن الموالي كانت دائما تكاد تنتظر أن يقع عليها التحدي لتقرر محاربة الإغريق. وجرت العمليات برخاوة بإمرة قادة يخشون المسؤوليات، ويتلافون القيام بعمليات مهمة. وكاد القرطاجيون عدة مرات أن ينالوا النصر، ولكنهم تركوه يفلت منهم لعدم صمودهم. فأبرموا اتفاقيات سريعة للسلام، أكدت حقوقهم على غرب الجزيرة فحسب.

وفي إفريقيا استفاد النبلاء من الضيعات التي كانوا يملكونها بجوار قرطاجة. وتشهد الشهرة التي نالها كِتابُ ماگون Magon في الفلاحة بأنهم كانوا يستثمرون هذه الضيعات بمهارة كبيرة. وقد تركوا للأهالي زراعة الحبوب، وأقبلوا بالخصوص على الغراسات الشجرية وتربية الماشية. وفوق هذا، فلا نرى أن هذا الاستثمار قد تحول إلى صناعة حقيقية تنتج بكثرة إنتاجات مهيأة لتُباع بعيدا.

أما التجارة فكانت أكثر من كل شيء في حماية الدولة، بحيث إن الاتفاقيات الدبلوماسية والرقابة القاسية جدا، قد أبعدت التجار الأجانب تقريبا عن جميع السواحل التي كان بها للجمهورية ممتلكات. فهذه الاحتكارات ووجود عدة من المستعمرات البحرية التي كانت على الخصوص مواقع للتعامل، كلها شواهد لاشك فيها على نشاط التجارة القرطاجية بالغرب. وحيث إن التجارة كانت تجري بالتبادل، فلابد أن عمليات الجلب كانت تعادل الإصدار، على أن الاكتشافات الأثرية لم تخبرنا عن هذا الموضوع بشيء مطلقا. إذ في شمال إفريقيا، وخلف الساحل، فإن إنتاجات الصناعة البونيقية التي يمكنها مقاومة الزمان مفقودة بالكلية تقريبا. وهذه الصناعة كانت من نوع أدْون بكثير من أن تزاحم المنتجات الإغريقية في الجهات التي تباع فيها هذه المنتجات بكل حرية، بل وفي قرطاجة نفسها كانت مطلوبة جدا. إذن فمن المحتمل أن القرطاجيين كانوا يجلبون إلى الإغريق وإلى المشرق ولإيطاليا المواد الأولية على الخصوص. ويمكن الافتراض بأن أهم ينابيع ثروتهم كانت هي المعادن، أي قصْدير شبه جزيرة كُرْنُواي وفضّة جنوب أسبانيا والذهب الإفريقي. وهي ينابيع لم تكن ثرة لا تنضب. وقد حدث أن فُقد هذا الذهب وهذه الفضة في قرطاجة التي كانت، حسب قول تُوسيديد Thucydide،

ثرية بهما في نهاية القرن الخامس. وفي عهد الحرب البونيقية الأولى، بل وقبلها على ما يظن، مرت بأزمات مالية خطيرة، سببها انعدام النقود. ولربما أنها كانت أحد الأسباب التي منعتها من متابعة الحروب ضد إغريق صقلية حتى النهاية الحاسمة.

وكذلك فلا ينبغي أيضا المبالغة في قوتها السياسية. إن سيطرتها كانت تمتد إلى بعيد جدا. ولكنها لم تكن تستند على أركان صامدة. فالمستعمرات كان أغلبها منعزلا في مناطق يعمرها الأهالي. وكانت متاجر أكثر منها مراكز للصناعة والفلاحة. ولابد أنها لم تكن آهلة بالسكان. وقد كانت قادس Gadès، وبالِرْم Palerme في الصف الأول للمدن الفينيقية بالغرب. غير أننا نعلم أن إحداهما مكثت صغيرة جدا إلى ما حول العهد المسيحي. والثانية، مع أنها محوطة بأرياف تتقن فلاحتها، فعدد سكانها كان في أواسط القرن الثالث يبلغ 27.000 نسمة فحسب. فالاحتكارات التجارية التي كانت في صالح أصحاب السفن والتجار القرطاجيين، كانت تعوق النمو الاقتصادي للموانئ التي تجري بها الاحتكارات. فهذه المستعمرات إذن كانت وسائل للثروة أكثر مما كانت وسائل للقوة، وحتى لا تسقط في أيدي الباربار الذين يحيطون بها، فإنها كانت بحاجة إلى حماية قرطاجة.

والولايات التي كانت تملكها قرطاجة في الشمال الشرقي من بلاد البربر، وفي أسبانيا وسردانية لم تكن واسعة جدا. ففي صقلية أوقفها الإغريق. وفي سردانية لم تُتْعب نفسها بالاستيلاء على المنطقة الجبلية. ولا نعلم إلى أي حد كانت تمتد بالتدقيق منطقتها الإفريقية قبل موسطة القرن الثالث، ولكنها لم تكن تشمل سوى قسم من القطر التونسي. ولم تنشىء على ما يظهر أي مستعمرة بداخل الأراضي(119)، لتكوّن بهذا

نقطا لمساندة سيطرتها. وقد طالبت الأهالي بالكثير، فاستغلتهم، بل وابتزتهم. ولم تفكر في أن تجعل من رعاياها مواطنين، أن تجعل في بلاد البربر أمة بونيقية تجذب لحضارة المشرق القديم شباب جنس قوي.

أما أهل قرطاجة فكان عملهم بالجيوش يتناقص قليلا قليلا. ولم يعودوا قادرين على القتال. غير أن مدينتهم كانت الطبيعة تحميها أقوى حماية، وكذلك التحصينات التي كانت تتحدى الهجمات. ولم يكن الأسطول الحربي يقوم بشرطة البحر والسواحل فحسب، وتبعا لذلك حماية حرية التجارة وحفظ الإمبراطورية. فقد كان الأسطول يمكن القرطاجيين أن لا يخشوا الحصار، إذ بفضل هذا الأسطول فإن موانئهم التي لا يمكن انتهاكها، كانت تستطيع أن تتلقى الجيوش والطعام. وعندما حاول أگاطُكل Agathocle، بارتمائه على إفريقيا، الانفلات من النكبة التي كانت تهدده في سرقوسة، فإنه دون شك لم يكن يؤمل الاستيلاء على قرطاجة وتحطيمها، وإنما حاول أن يلقي فيها الرعب ليحرز منها ترك أيديه حرة في صقلية. فلم ينجح فيما أراد . إنه لم ينجح حتى في الحصول من الأهالي على عون صادق وناجع حقا. إذ كانت تبدو لهم عاقبة عمله غير أكيدة. وقرطاجة كانت مطمئنة للغد وهي خلف أسوارها. فاستطاعت أن تكوّن الجيوش اللازمة للهجوم وقهرت المهاجم.

وصقلية جعلتها تشتبك مع رومة. وفي الصراع الذي دام ربع قرن كانت حكومة الأرستقراطية أقل بكثير من مهمتها. فهي لم تعرف كيف تستخدم أحسن استخدام بَحْريتها التي تغلب عليها الرومانيون تقريبا كلما لاقوها، رغما عن عدم معرفتهم البحرية. وبفضل قائد إغريقي مرتزق، انتصرت حكومة الأرستقراطية على ريگُلوس Régulus الذي ضاع مع بضعة آلاف من الرجال في إفريقيا، وفي ظروف سيئة جدا،

وهو يحلم أن يجري بها إحدى المعارك. ولكن الحكومة الأرستقراطية لم تنظم في صقلية إلا هجومين كبيرين، عادا عليها بالاندحار. وتركت تقريبا الحرب كلها تتجرجر في عمليات للدفاع عن مواقع حصينة، وفي مناوشات لا تنتظر منها أي نتيجة حاسمة. ولما عُقد الصلح، كانت غير قادرة على تلافي ثورة المرتزقة وعلى منع عدد كبير من الأهالي عن الانضمام إلى الثوار.

وقد تكون قرطاجة استسلمت دون عناء كبير لضياع صقلية التي لم تلبث أن تبعتها سردانية. وتخلت عن كل مطمح في الفتوح، سوى ربما في إفريقيا. لذلك سرعان ما استعادت ازدهارها بتجارتها البحرية وباستثمار منطقتها. أما عَملْكار بَرْكا وصهره حسدربَعْل وأبناؤه من بعد، فقد كانت لهم مطامح أخرى لوطنهم.

بعد حرب المرتزقة، أحبط عَملْكار مناورات خصومه السياسيين باعتماده على الشعب. فهذا الأخير أخذ من بعد يساهم مساهمة نشيطة في الشؤون العامة. وبعد بضع سنين كان البَرْكيون Barcides يتصرفون أيضا بأكثرية في مجلس الشيوخ. وعلى غرار الماگونيين Magonides، فإنهم سيطروا على الدولة من غير أن يقوموا بثورة عنيفة. فالشيوخ، واللجنة والقضاة الدائمون احتفظوا باختصاصاتهم. ويحتمل أن الشعب لم ينل حقوقا جديدة، وإنما نال فرصا أكثر لاستعمال الحقوق التي كان يملكها منذ أمد طويل.

إن عَملْكار رفض التسليم بانهيار قرطاجة. ولذلك فإنه هيأ الأموال الضرورية لصراع جديد. فالفتوحات التي لا تنسى والتي قام بها البركيون في أسبانيا، أعطتهم الأموال والجنود بكثرة. ولكن لا يجب

نسيان ما فعلوه من غير دَويّ في شمال إفريقيا. ذلك أن عَمِلْكار قبل ذهابه إلى أوربا، قد وسع المنطقة القرطاجية. ولربما أن ذلك الوقت هو الذي حفر فيه الحفير لتبيين الحدود. ومع أنه هو ومن خلفوه أقاموا في أسبانيا، فإنهم زاولوا القيادة العليا في بلاد البربر. فمن منطقة الجمهورية نفسها، كان بمستطاعهم أن يحشدوا جنودا مشاة أشداء، ومن خارجها كانوا يطلبون للرؤساء النوميديين الخيالة الذين كانوا أحسن صانعي انتصاراتهم. وقد كان بعض هؤلاء الرؤساء ملوكا حقيقيين. يجمعون تحت سلطتهم قبائل عديدة. ولكي يربطوهم بهم برباط متين، فإن البركيين لم يكونوا يأنفون من إيلافهم بالزواج. ومثل ذلك فعلوه في أسبانيا. وبهذا تكوّن جيشهم الجيد، الذي كاد يتكون على الخصوص من الليبيين والنوميديين والإيبيريين. هل فكر حنّيبَعْل في توسيع المدينة البونيقية بفسح مجالها قليلا، ثم بفتحها لهذه الشعوب؟ تلك تكون مهمة المستقبل، أما مهمة الحاضر فهي العقاب الذي لا ينقطع عَمِلْكار عن التفكير فيه.

لقد كان ابنه روح هذه الحرب الحاسمة، التي رمت فيها قرطاجة بكل قواها واستخدمتها حسب رأي حنّيبَعْل. ولكنها لم تكن بكافية. فلقهر رومة لابد من تكتيل جميع الذين دحرتهم رومة أو كانت تهددهم. والضربات بالقرب من قلب العدو تعطي الثقة للمترددين، لذلك نقل حنّيبَعْل الصراع إلى إيطاليا. ولكن خابت أمانيه. إذ أن حلفاءه ببلاد الألب القريبة Cisalpine وفي الهضبة لم يقدموا له جميع الخدمات التي كان ينتظرها منهم. أما الآخرون فلم يستطيعوا الالتحاق به. فبقيت رومة سيدة على منطقة شاسعة وآهلة بالسكان، زودتها بالفرق التي كانت بحاجة إليها. فواجهت الحرب في كل مكان. وأنهكت حنّيبَعْل في إيطاليا. ولم

ينجح القرطاجيون في وضع أقدامهم من جديد في صقلية وسردانية. وأضاعوا مع اسبانيا الأداة التي كان عَملِكار قد أوجدها للنهوض بقوتهم.

في التحضير لهذا الصراع، كانت البحرية قد أُهملت. إذ لم يكن البركيون رأوا أنها ضرورية لتنفيذ ما صمموا عليه. والهجوم على إفريقيا بجيش له اتصالات مضمونة مع صقلية، لم يعد عملية متهورة، مثلما كانت عليه الحال في عهد أگاطُكل وريگُلوس. ثم إن مملكات عظيمة قد تكونت عند النوميديين. وإذا نالت رومة عون هذه الممالك ضد قرطاجة، فلابد أن تنال نجاحا سريعا. وبعد أن أنهى سيپْيون Scipion الحرب في أسبانيا، نال الإذن بالمرور إلى إفريقيا. فكادت حملته أن تنتهي نهاية سيئة، لأن أحد الأميرين الأهليين اللذين كان يعتمد عليهما وهو سيفَكْس Syphax أعلن ميله إلى القرطاجيين. أما الثاني وهو مسنيسّا، فقد جاء وحده تقريبا للمعسكر الروماني. فخرج سيپْيون من وضعية صعبة بجرأته السعيدة. وانحدر سيفَكْس. واستعاد مسنيسّا مملكته، فجاء إلى حلفائه بخيالة عديدة. وبفضل هذه الخيالة، وكذلك بفضل الشجاعة والائتلاف بين جنود الفيالق، دمّر سيپْيون جيوش حنّيبَعْل المتبعثرة. ففقدت قرطاجة آخر جيوشها، ولم تعد تحميها إلا أسوارها التي كانت تستطيع المقاومة خلفها طويلا. ولكن المنتصر لم يحاول اقتحام هذه الأسوار. فروما تركت قرطاجة تعيش منحصرة في إفريقيا. جردتها من الوسائل المادية لمعاودة الحرب، ومع ذلك فإن حنّيبَعْل لم يتخل عن كل أمل. فقد دعا الشعب لتحطيم معارضة الأرستقراطية وأخذ يعمل لجعل مواطنيه على استعداد للانضمام إلى تجمع جديد. لكن من بين الأرستقراطيين كان له أعداء لا يرحمون، فتخلصوا منه بأن وشوا به إلى الرومانيين.

وهؤلاء لم يريدوا تحمل الثقل الذي يفرضه الاستيلاء على المنطقة البونيقية، بل كانوا يتمنون المزيد من الضعف لقرطاجة الضعيفة. فتركوا مسِنيسّا، طوال نصف قرن، يقوم بتجريدها، بسلسلة من الاغتصابات التي يرضونها أو يأذنون بها. وبلغت الحالة إلى حد أن الملك لم يبق له سوى أن يمد اليد لأخذ مدينة قرطاجة. وأكثرية القرطاجيين صاروا منقادين للمفاهمة معه. وبهذا فالمدينة القديمة، وهي تحافظ على مظهر الجمهورية، تصير عاصمة ومربية لمملكة قوية، يبدو أن قَدَرها في المستقبل هو أن تمتد على بلاد البربر كلها، حيث إن مسنِيسّا كان بالفعل مسيطرا من مَلْوية Moulouia إلى عمق سدْرة الكبرى Grande Syrte. وقد فهمت إذن رومة التي نبهها كاتون Caton إلى ما يجب أن تخشاه: أي يجب أن لا يصبح ملك دولة كبيرة سيدا على مدخل البحر الأبيض المتوسط الغربي. على الرأس الذي توجهه إفريقيا نحو صقلية، هذه الفريسة التي كان النوميدي يعتقد أنها بين يديه، وحرمه منها حلفاؤه عندما قرروا تدميرها. لقد حرمت قرطاجة من جيشها بسبب الغدر الروماني، وتخلت عنها أوتيكا وهَدْروميت وغيرها من المدن الفينيقية التي لم تُرِد أن تتحطم معها. ومع ذلك صمدت قرطاجة للحرب مدة ثلاث سنين.

كانت غنية لأن أرستقراطيتها جعلت المال فوق كل شيء. وكانت عظيمة لأنها كان لها بعض الرجال العظماء، وعلى الخصوص الماگونيون والبركيون. والماگونيون سقطوا من عهد باكر، وخلفوا لقرطاجة إمبراطورية لها واجهة عريضة ولكن قليلة العمق، وتهددها أخطار شديدة. أما البركيون فإنهم أتوا متأخرين جدا. فأوجدوا، وبسرعة ثروات جديدة لوطنهم الذي سبق أن قهرته وسلبته روما، التي كانت متوفرة على أكثر

من تلك الثروات. فاستطاعت أن تصلح أعطابها التي أصيبت بها على يد القائد العبقري حنّيبَعْل، وأن تنتصر على عدوها المنهوك.

3

تأسست قرطاجة على يد بضع مئات، أو آلاف من المهاجرين. وكان بها من بعد سكّان يمكن تقدير عددهم بعدة مئات من آلاف الأنسام. ومن الواضح أن كثيرا من سكانها كانوا من جنس إفريقي. فطوال سبعة قرون تقريبا، كانت المدينة مفتوحة لليبيين المحيطين بها. كما أن الأهالي كان عددهم كثيرا في المدن الفينيقية الأخرى بشمال إفريقيا. وامتزجت بكثرة دماؤهم بدماء المعمرين الذين تأثرت أخلاقهم ومعتقداتهم ولغتهم بالآخرين. وقد سبق أن لاحظنا ذلك في الطقوس الجنائزية. ففي بعض المواقع بالسواحل الشرقية للقطر التونسي وبالجزائر كانت الجثث مثنية ومصبوغة بالأحمر، والعظام مجموعة بغير انتظام بعد تعريتها تماما من اللحوم. ويبدو أن تانيتْ بني بَعْل Tanit Pené Baal كانت أسْتارتي Astarté إفريقية بالضبط. ويمكن أن نتسائل : هل لم تأخذ بعض صفات إحدى الإلهات المحلية؟ ولاشك مطلقا في أن الإله الفينيقي بَعْل حمّون قد وقع تشخيصه مع أمّون، الإله المصري الكبير الذي اتخذه الليبيون منذ عدة قرون. ولكن وفي الختام، فإن الفينيقيين قد أخذوا عن الأفارقة أقل بكثير مما أعطوا لهم. ولا غرابة في ذلك، لأن حضارتهم متفوقة جدا.

وقد استعاروا من الإغريق أكثر. إذ الأشياء الإغريقية يعثر عليها في القبور منذ القرن السابع. فالذين كانوا يستطيعون شراءها، كانوا يفضلونها على الأشياء الفينيقية الغليظة الصنع. وبعدما دمرت بعض المدن الإغريقية، فإن قرطاجة تحلت ببقاياها الفنية. ومنذ القرن الخامس

التي في فينيقيا. وتقابل بنفس المشاعر أي بالرهبة وخضوع العبيد، وليس بعواطف الاطمئنان. وعبادتهم كانت لها نفس الطقوس، التي كان أكثرها فظيعا.

والقرطاجيون في نظر من لهم بهم اتصال، كانوا يبقون دائما أجانب غير لطاف. هم قوم غير قادرين على حفظ المنزلة الوسطى بين الوقاحة والخسّة. وهم مخادعون، قساة، مكتئبون ومتعصبون. تتناقض طبيعتهم مع وقار الرومانيين وظرف الإغريق، ومع المرح الطفلي عند أنصاف المتوحشين الذين يلاقونهم في إفريقيا.

وإذا كانوا في شؤونهم الخاصة يستحسنون المنافع الهيلينية، فإنهم لم يراعوا الهيلينيين في حروبهم بصقلية. وقد حرّموا على الإغريق أن يقيموا وأن يتاجروا كذلك في قسم كبير من الغرب. وبهذا فقد منعوهم من تربية الشعوب التي لم يتعبوا أنفسهم بإخراجها من الباربارية. على أنه لا يجب أن نغالي في ذكر خطيئتهم في حق الحضارة بسلوكهم هذا المسلك. فإذا كانت الهيلينية قد استولت على صقلية وجنوب إيطاليا، فإن إشعاعها كان ضعيفا في غاليا La Gaule، وسرنيكا Cyrénaïque، حيث الفينيقيون لم يكونوا يعوقون في شيء المستعمرات الإغريقية التي كانت هناك سابقا في بداية القرن السادس.

ومن جانبها فقرطاجة ساهمت قليلا جدا في الحضارة. ورفاهيتها لم تكن مطلقا ذات فائدة للفن. وقد تَحدّثْنا عما كانت عليه صناعتها التي لم تبتدع شيئا. وكانت تتجرجر في أنماط جامدة بأساليب صنعية، إما رديئة وإما سيئة. أما بحارتها وتجارها فكان بمستطاعهم أن يقدموا معلومات ثمينة لعلم الجغرافية. ولكنهم أبوا التعريف بينابيع ثرواتهم.

ورحلة الملك حنون هي قصة سخيفة. وبالتأكيد فإن ماگون كانت له تجارب في الفلاحة، ولكن بعض إفاداته بلهاء. وهل كان ما كتبه سوى منوال وجيز لابأس به ؟

لم يكن الإغريق مدينين بشيء للقرطاجيين، ما عدا العلم ببعض آلات الحصار التي أصلها مشرقي. والرومانيون الذين تعلموا الكثير من الهيلينيين، كانت استفادتهم من القرطاجيين قليلة : هي كتاب ماگون ونماذج سفنهم الحربية ومناهج الخطة التي لقنها حنّيبَعْل للرومانيين، وعلى حساب القرطاجيين. وعلى العموم لم يكن الرومانيون أشداء مع الإغريق، ولكنهم كانوا بلا رحمة مع القرطاجيين الهمجيّين الذين لاقوا منهم شرّاً كبيرا.

4

الفينيقيون في صقلية، عوض أن يفرضوا حضارتهم، كانوا قد «تَهَيْلَنوا» تقريبا منذ القرن الخامس، وكذلك جيرانهم الإيليميون Elymes. ولربما أن قرطاجة أبدت بعض رد الفعل. ففي القرن الرابع غابت اللغة الإغريقية عن عملات صولونة Solonte، ونقود بالرم وإريكْس. لكن بقيت سلنونة Sélinonte وهيرَكْليا مينُوا Héracléa Minoa مدينتين إغريقيتين خالصتين. والإغريق كانوا أكثرية السكان بطيرْماي Thermaï التي تأسست قرب خرائب هيمير Hymère. كما أن بعض الكمبانيين الذين كانت لغتهم الرسمية هي الإغريقية، قد حلوا بالقوة في إنطيل Entelle، ولم تطردهم عنها قرطاجة مطلقا. بل هي نفسها قد أسكنت في صولونة بعض القدماء من جنود أگاطُكْل. أما سلنونة التي دمرت في أواسط القرن الثالث، فقد سيق سكانها إلى ليليْبي Lilybée، التي وقعت بعد

بضع سنين في يد رومة. ولاشك أنهم ساهموا في «هَيْلَنَة» ليليبي المستعمرة البونيقية. لأن آثارا جنائزية ترجع للعهد الروماني، وهي إغريقية بالصوَر والكتابات التي عليها، وبعض الرموز كالكادوسيه وعلامة تانيتْ Tanit والهلال، هي وحدها التي تذكر بالماضي القرطاجي لمدينة ليليبي. وفي بالرم كان لا يزال حول القرن الأول ق.م، أقوام يستخدمون اللغة الفينيقية. ومع ذلك، فإنها لم تصمد رسميا، لأن جميع النقود التي ضربت في غرب الجزيرة، بعد انهيار السيطرة البونيقية، تحمل كتابات إغريقية.

أما في مالْطة، في كوزو، وفي بَنْتلاريا، فإن الحضارة الفينيقية قد تركزت عميقا جدا، كما تبرهن على ذلك الاكتشافات الأثرية. وقد اندثرت ببطء، بعدما تخلصت هذه الجزر من القرطاجيين عند بداية حرب حنّيبَعْل. وقد ضربت نقود بكتابة بونيقية في مالْطة وكوسّورا Cossura (بنتلارية) في القرنين الثاني والأول ق.م. ولكن طريق اللغة الإغريقية من صقلية الشرقية، كانت حرة للوصول إلى مالطة وكوزو. بحيث إن كتابات إغريقية تقرأ على نقود مالطة التي كان بعضها معاصرا للنقود التي تحمل كتابات بونيقية. بينما كوزو لم يكن لها سوى نقود إغريقية. أما على نقود كوسورا فاللاتانية هي التي حلت محل الفينيقية. واللهجة المالْطية ليست بونيقية، مثلما وقع التأكيد على ذلك جدا، بل هي عربية محرفة.

كان في سردانية مستعمرات فينيقية قديمة أنعشت قرطاجة. فقد أسكنت على ما يبدو بالغرب والجنوب فلاحين من أصل إفريقي. ومن ناحية أخرى أغلقت الجزيرة في وجه «الهَيْلَنَة». فالكتابات والأنصاب النذرية، وأشكال المدافن وأثاثها، والمودعات النقدية كلها تشهد بعمق

التغلغل الفينيقي والبونيقي. ومع ذلك فإن المدن البحرية استسلمت بسهولة للنير الروماني. وإذا كان الأهالي أبدوا عدم الانقياد، بل وحتى إذا نادوا على القرطاجيين أثناء حرب حنّيبَعْل، فإن ذلك كان من جانبهم كرهاً لسادتهم الجدد، أكثر مما كان أسفا على السادة القدماء. ولكن اللغة وأخلاق قرطاجة عاشت كثيرا بعد سيطرتها. وقد عثر على كتابات، إحداها بثلاث لغات، هي اللاتانية والإغريقية والفينيقية وأخرى بلغتين، هما اللاتانية واللفينيقية، وأخريات مرسومة مثل هذه بالخط البونيقي الجديد Néopunique. وكلها ترجع للقرنين السابقين على عهد الميلاد. وفي سنة 54 ق.م تَرافع سيسْرون Cicéron ضد السردانيين، فاتهمهم بقسوة بأنهم ورثوا النقائص الخاصة بالأفارقة والفينيقيين. وليس من قبيل المستحيل أن بعض الأسماء الفينيقية تكون باقية حتى يومنا هذا في قائمة الأعلام الجغرافية بالجزيرة.

أما في الباليار، فاسم ماهون Mahon يبقى الشاهد الوحيد على الماضي الفينيقي. ويمكن الشك في أن القرطاجيين قد كانت لهم مستعمرات حقيقية على طول السواحل هنا. فالتنقيبات الأثرية لم تعط أي برهان على التأثير الذي قد يكونون أحدثوه في الأهالي. وعلى النقيض من ذلك، فإنهم قد جعلوا من يابسة Ibiça، التي استوطنوها منذ القرن السابع، أرضا بونيقية. وكان ذلك عليهم أمرا سهلا، نظرا لأن الجزيرة لم تكن شاسعة، وكان الدفاع عنها سهلا ضد أي محاولة للاقتحام. ولكنها لم تسارع بالتخلي عن حضارتهم، للأخذ بالحضارة الإغريقية الإيطالية. إذ في مدافن القرنين المواليين لم يتغير مطلقا الأثاث عن مثيله الذي يملأ المدافن الإفريقية بنفس الزمان. وقد عثر على نقود ضُربت في عهد تيبير Tibère. ولا يزال عليها كتابة فينيقية، تصحبها كتابة لاتانية.

أما بأسبانيا، فالراجح أن قادس Gadès ترجع لنهاية القرن الثاني عشر. وأنشئت مستعمرات أخرى لا ندري متى على الساحل الجنوبي، في أبْديرا Abdéra وسكْسي Sexi، ومالَقة Malaca وربما أيضا في كَرْطيا Cartéia وفي مكانين آخرين أو ثلاثة غيرهما. ولاشك أن المتاجر كانت عديدة قبل المضيق أو خلفه. وبجهود قرطاجة قدم الليبيون الفينيقيون Libyphéniciens أو فينيقيو ليبيا Phéniciens de Libye ليعززوا فينيقيي المشرق. ولقد نحينا الأقوال الغامضة التي جعلت للفينيقيين وللقرطاجيين ممتلكات بداخل الأراضي الأسبانية قبل عهد البرْكيين. إذ كما تدل على ذلك الطقوس الجنازية، فإن الأهالي هم أصحاب تلك الأشياء الفينيقية التي أدخلتها التجارة لضفاف الوادي الكبير. فهذه التجارة وكذلك استخدام قرطاجة للعديد من المرتزقة الأسبان، كل ذلك ساهم كثيرا في نشر الحضارة الفينيقية في الهضبة الأسبانية. ولكن تعوزنا البراهين على ذلك. وليس متأكدا أن الكتابة الإيبيرية تنحدر من أبجديتهم. وعن صواب وقع التخلي عن إقحامهم في مشكلة أصول الخزف الإسباني المصبوغ. ولم نعد على استعداد مطلقا للبحث عن تأثيرهم في التمثال النصفي الشهير المعروف باسم «سيّدة إلْشِي Dame d'Elche» في المنحوتات العجيبة في المنطقة الجبلية الممتدة خلف مُرْسية Murcie والقَنْت Alicante. فهي آثار أهلية، أسلوبها إغريقي أسياوي. وإنه لخطأ، حسب ما نعتقد، أن يقال إنها «إغريقية فينيقية». أما الفوصيون Phocéens فلابد أنهم لم يقع صدهم قبل القرن الثالث عن الساحل الواقع بشمال رأس بالوس Palos.

أنشأ البرْكيون مستعمرتين بحريتين في القَنْت Alcante وقرطجنة Carthagène. ولا شيء يساعد على افتراض أنهم أنشأوا

أخرى بعيدا عن الساحل. وكانت فتوحاتهم أسرع إلى الزوال، من أن يكون لها تأثير دائم على الحضارة الإسبانية. ولم يبق عنها من أثر مادي سوى «حُصون حنّيبَعْل». ومع ذلك، فمن الحق أن نتساءل : هل الكثير من بينها «حُصون حنّيبَعْل» قد سمي صدقا، مثل الكثير من «معسكرات قيْصر ؟».

وأصبحت قادس حليفة للشعب الروماني. واستمرت تضع الكتابات الفينيقية على نقودها. وقد فعل مثلها الكثير من المدن التي أصلها فينيقي، والتي نالت من رومة حق ضرب السكة. ولكن في عهد أوغسْطس Augustus كان جنوب أسبانيا «مُتَرَوْمناً». والكتابات اللاتانية التي بهذه المنطقة ليس بها أسماء سامية. وإذا كان المعبد القديم المجاور لقادس لا تزال تؤدى فيه الطقوس المشرقية، ففي بيتيكا Bétique والجهات الأخرى التي كانت عبادة ملقارت قد انتشرت بها، فإن الإله كان يظهر لعابديه تحت اسم هيركولس Hercules.

والحاصل أن في بداية العهد المسيحي، لم يبق شيء تقريبا من الحضارة الفينيقية في الهضبة الإيبيرية وفي جزر البحر الأبيض المتوسط الغربي.

ولم يكن الأمر كذلك في إفريقيا. إذ في قرطاجة وحدها، وفي عدد قليل من المدن التي بقيت على وفائها لأمها أي لسيّدتها، فإن رومة حطمت الحضارة البونيقية. لكن هذه كانت قد غرست بعيدا عروقا بالغة القوة لتعيش بعد الضربة التي قضت عليها.

أولاً في المستعمرات المتناثرة على الساحل، من سَدْرة الكبرى إلى ما وراء أعمدة هرقل، فبعضها استطاع الاختفاء قبل قرطاجة أو بعدها

بقليل. وأكثرها عاش بحاشية المنطقة الرومانية والممالك الأهلية. وفي موسطة القرن الثاني، سبق أن كان للعديد منها ماض يصعد لما قبل تأسيس قرطاجة، وهي تريد أن تبقى معتزة بهذا الماضي. هذه المدن كانت تسمح للعناصر الإفريقية أن تدخلها، لا أن تغمرها. وغالبا ما كانت هي تدمجهم فيها. وفي هَدْروميت، أثناء القرنين الأخيرين قبل الميلاد لا نجد إلا أسماء فينيقية.

وكذلك ترسخت الحضارة القرطاجية في المنطقة التي كانت تملكها الجمهورية في القطر التونسي. وصحيح أننا لا نعرف بهذه المنطقة أي مستعمرة بونيقية، بل ولا حتى أسما فينيقيا حقيقيا لأي موقع. ولم نعثر بها على آثار، ولا أدوات ولا كتابات بونيقية يمكن عزوّها دون تردد لعهد قرطاجة الأولى. وصحيح أيضا ان الحضارة الليبية قد استمرت موجودة بها. فخلف خليج الحمّامات بالوادي الأسفل لمجَرْدة (بالشّاوَش قرب مْجاز الْباب)، وحول طُبُرْسُق، ودُقّة، وبولاريجْيا، والكاف، وكلها أراض كانت قسما من المنطقة القرطاجية، وفي ناحية مكتار وإيليزْ Ellez اللتين كانتا ربما قسما منها، في كل هذه الأراضي نجد مقابر للأهالي، ولا يرجع أي قبر منها بصفة قطعية لما قبل القرن الثاني. وفي جهات دقة ومكْتار وشَمْتُو Chemtou فإن كتابات ليبية، يبدو أن أكثرها قدما، نصان اثنان من دقّة تصحبهما ترجمة Version فينيقية، بحيث إن أحدهما قد نقش في 139ق.م، والآخر يرجع لنفس الزمان تقريبا.

ومع هذا، فلا نستطيع قبول كون المعطيات الحالية للتنقيبات الأثرية تأذن بالنتائج النهائية. ولا يجب أن ننسى أن المنطقة القديمة لقرطاجة كانت كثيرة السكان في عهد الإمبراطورية الرومانية. ففي كل مكان كانت المباني الجديدة تستغرق أو تغطي بقايا الماضي. ثم إن

التنقيبات كانت وجيزة وسطحية. ولعل الاكتشافات المقبلة ستملأ هذا الفراغ. والذين يستندون على الاكتشافات الأثرية وينكرون انتشار الحضارة البونيقية في تونس في عهد السيطرة القرطاجية، هل سيذهبون كذلك إلى حد إنكار أن الفينيقية قد تكلم الناس بها في بيروت، وأوتيكا وبِنْزَرت وقادِس ؟ وكلها لم تُكْتشف بها حتى اليوم كتابة.

إن العديد من الأهالي قد كانوا يشتغلون بقرطاجة أو بغيرها من المدن الساحلية. والعديد منهم أيضا انخرطوا في جيوش الجمهورية، فتعلم الكثير منهم اللغة الفينيقية. وفي نهاية الحرب البونيقية الأولى ضد رومة، فإن غالبية من حاربوا في صقلية، كانوا يعلمون هذه اللغة. فالراجح أن هذه اللغة هي التي كان يستخدمها في العلاقات مع الليبيين من كانوا يحكمونهم، ومن كانوا يأتون لشراء منتجاتهم الزراعية، أو من يبيعون لهم الأشياء المصنوعة. ولابد أن الأفارقة أُخذوا من الساميين اقتباسات أخرى، مع بقائهم كثيرا أو قليلا، أوفياء لأخلاق أجدادهم. ومثل ذلك جرى فيما بعد لدى البربر المستعربين.

إن لفظ ليبيين فينيقيين Libyphéniciens أطلق أول الأمر على المعمرين الفينيقيين بالمدن الواقعة على سواحل ليبيا. غير أن پْلين الشيخ Pline l'Ancien وبِطْلُمي Ptolémée قد أعطياه معنى مغايرا، كما أن أحد النصوص من سْترابون Strabon (120) يساعد على الاعتقاد بأن هذا المعنى الجديد كان مستعملا حول بدء العهد الميلادي، ولربما قبل ذلك بقرن من الزمان. واللفظ كان يطلق على أقوام ليسوا من أهل المدن فحسب، بل كانوا إذن يتكونون على الخصوص من الأهالي، أي الليبيين الذين كانوا باللغة وبأخلاقهم، أكثر مما بامتزاج دمائهم، قد أصبحوا فينيقيين. وپْلين Pline يطلق صفة ليبيين فينيقيين على سكان

البِزَكْيوم Byzacium، أي المنطقة الواقعة خلف الساحل بين خليجي الحمّامات، وقابِس. والليبيون الفينيقيون الذين ذكرهم بطلمي كانوا يعيشون ما بين أرض قرطاجة وبزاكيتيس Byzacitis. وحسب نص آخر، فإن φοινιχη أي فينيسيا [121] (La Phénicie) كانت تمتد في اتجاه الشمال انطلاقا من ثابسوس. وهي على ما يظهر منطقة يعمرها سكان يشبهون الفينيقيين، أكثر مما يسكنها فينيقيون حقيقيون. ولا ندري لماذا لم يبتدئ هذا الاستيعاب إلا بعد موسطة القرن الثاني بتأثير من هِدْروميت وبعض المدن الثانوية، وتحت أنظار رومة التي لا تبالي.

ولنذكر أن كراهية الليبيين لقرطاجة قد خفت من حدتها في الحقب الأخيرة من حياتها. فالبعض منهم قد ناصروها في الصراع الحاسم. لأنهم كانوا قد تعودوا على سادتهم. ولربما أن هؤلاء كانوا يعاملونهم بطريقة أكثر إنسانية، إما لمصلحة وإما لأن الشعور بحب الإنسان، الذي نشرته الهيلينية كان قد بدأ في تهذيب الطبع البونيقي.

والحضارة الفينيقية وجدت كذلك السبيل في الممالك الأهلية. فقد تعلم بعض الأمراء معارفها، إما برحلاتهم إلى قرطاجة، وإما بالزواج مع القرطاجيات. والعديد من رعاياهم عملوا في جيوش البركيين. وقد استولى مسنيسّا على مناطق شاسعة كانت من قبل ملكا للجمهورية. كما أن مستعمرات سواحل المغرب والجزائر والسدْرَتَيْن قد سقطت في أيدي الموريين والنوميديين الذين كانت علاقتهم مع الداخل أكثر حرية، وربما أكثر نشاطا من ذي قبل. وكانت اللغة البونيقية هي اللغة الرسمية عند سيفَكْس Syphax ومسنيسّا وعند ملوك آخرين بعدهما حتى حول أواسط القرن الأول. وكانت هي التي استعملتها المدن للكتابة على نقودها. وقد كانت واسعة الانتشار في قِرْطا (سِرْتا Cirta) العاصمة

النوميدية. وكان الكثير من سكان هذا الموقع يحملون أسماء فينيقية، كما أن مدينة أنشئت في صلب نوميديا، قد حملت اسما فينيقيا[122]. مَكُمادس Macomades (Maqom Hadesh)، أي المقام الحديث. وكانت النظم القرطاجية مثالا للأمراء الأفارقة. إذ قلدوا نقودها ونظامها العسكري وحتى سفنها لاشك. وعلى كتابة في دُقّة Dougga بلغَتَيْن، وُصفَ زَلالْسان Zalalsan، جَدُّ مسنيسّا، بأنه سوفيت Sufète في النص الليبي كما في النص البونيقي، وبعد ذلك بزمان أطلق نفس الوصف على حكام الولايات التي أنشأها الملوك في دولهم، على غرار المدن الفينيقية. وفي قِرْطا Cirta عُبِدَ بَعْل حَمّون، وتانيتْ بني بَعْل، كما عُبِدا في قرطاجة. ولاشك أن مسنيساّ في الجهود التي بذلها للنهوض بالفلاحة قد استلهم الأمثلة القرطاجية. ومع مراعاة الفارق، فإنه حلم أن يكون هو بالنسبة للحضارة البونيقية، كما كان الإسكندر المقدوني بالنسبة للحضارة الهيلينية.

إن الفتح الروماني وتقدم الأخلاق اللاتانية لم يقضيا بالاضمحلال على هذه الحضارة. ورومة لم تعاملها معاملة العدو، بل ساعدتها إلى حدّ ما على الانتشار، لأن رومة بفرضها للسلام وبالإكثار من عدد الطرق، قد جعلت المواصلات أكثر سهولة.

لكن اللغة الفينيقية لم تصمد مع ذلك حيثما كان الحديث يجري بها من قبل. ففي منطقة قرطاجة، بالقسم الذي صار في سنة 146ق.م هو ولاية أفريكا، نجد الفينيقية قد أخلت المكان أمام اللاتانية. وكذلك في بعض المدن البحرية القديمة التي ارتفعت إلى دوائر Communes رومانية. ومثل ذلك بقرطا Cirta في عهد الإمبراطورية حيث ينعدم وجود الكتابات البونيقية، وحيث الكتابات اللاتانية قلما تعطينا أسماءاً أصولها فينيقية. لكن حول السدرتَيْن بقيت الفينيقية مستعملة زمنا

طويلا من بعد، ولربما حتى في صميم العهد البيزنطي. والكتابات بالبونيقية الجديدة Néopunique التي من العهد الروماني كثيرة بتونس الوسطى، خصوصا بمَكْتار. وليست منعدمة بتخوم القطرين التونسي والجزائري، في منطقة قالمَة وحتى في جهة قسنطينة، حيث الكتابات الليبية هي أيضا كثيرة. وقد كان السكان وقسم كبير منهم على الأقل، ليبيين فينيقيين بالمعنى الحديث للفظ. ففي نهاية القرن الرابع وبداية الخامس للميلاد، أكد القديس أوغسْطين انتشار البونيقية بالشمال الشرقي للقطر الجزائري. وقد كان الحديث بها في البوادي أوسع منه بالمدن التي كانت اللاتانية مسيطرة بها.

في القرون الأولى من العهد الإمبراطوري، فإن الدوائر الأفريقية التي لم تنل صفة مستعمرة أو مستلحقة Municipe ولم تنل معها قانونا رومانيا، كانت غالبيتها مدنا منظمة حسب الطراز الفينيقي. وكان اسم سوفيت Sufète يطلق على ولاتها. وغالبا ما كانت المدافن تحافظ على الطرائق القديمة البونيقية. فالصناديق والأنصاب التي تعلوها كانت هي أيضا مستعارة من قرطاجة. ومن المحتمل أن مهندسي الأضرحة يكونون قد استوحوا نماذج قرطاجية. فالأصل القرطاجي لبعض تيجان الأعمدة التي كانت لا تزال تقتطع بإفريقيا بعد حلول العهد الميلادي، هو أمر لا يشك فيه. والآلهة التي كانت تعبد في مناطق لم تخضع لقرطاجة، قد حافظت على أسماء جيء بها من إيطاليا، وأطلقت على آلهة فينيقية أخرى، مثل : أبولو Apollo، إسْكولاپْيوس Aesculapius، وهيرْكُلس Hercules إلخ... وكذلك فإن سَتُرْنوس Saturnu ، وكايْلسْتيس Caelestis المعبودَيْن الكبيرين لإفريقيا الرومانية، كانا هما بَعْل حمّون وأسْتارْتي التي سماها القرطاجيون باسم تانيتْ بني بَعْل. وفي العبادات التي تؤدى لها، فإن

الطقوس كانت تقليدا بونيقيا، كهذه التقدمات، وهذه البقايا من القرابين المخفية في مواقع مقدسة وعليها أنصاب.

وسندرسُ من بعد هذا الصمودَ للغة والعادات والمعتقدات البونيقية في إفريقيا الشمالية. ويكفي أن نبين هنا أن قرطاجة قد وَسَمت بلاد البربر بطابع عميق جدا، أشد عمقا من الطابع الذي وسمت به مدينة مَرْسيليا قُطرَ غالْيا La Gaule. إنها لم تتعب نفسها مطلقا في تهذيب الأهالي. ومع ذلك فقد فعلته. ذلك أنها، هي والمدن الفينيقية الأخرى، قد شملتهم بحمايتها. فاستطاعوا بفضل هذه الحماية أن يعيشوا وتطول حياتهم.

كان الفينيقيون قد أدخلوا في منطقة البربار حضارة متقدمة. كانوا قد أنشأوا مراكز حضرية وضيعات فلاحية. ولما سيطرت رومة على إفريقيا، فإنها اجتنت ثمار جهودهم والجهود التي قام بها الملوك الأهالي على ذلك المنوال. لقد وجدت رومة حضريين يطبقون النظام البلدي Municipal، الذي كان هو روح نظمها السياسية. ووجدت أقواما ريفيين أخضعتهم السيطرة القاسية لعادات النظام والعمل. ووجدت فلاحة تعرف خيرات البلاد ووسائل استثمارها. ووجدت حضارة مادية مجردة عن الابتكار، ولكنها لم تُبْدِ عداوة للحضارة الإغريقية اللاتانية، لكنها لم تدم إلا في المواقع التي لم تُصر فيها هذه الحضارة الإغريقية اللاتانية على الحلول محلها.

لم تكن القوة الرومانية هي التي ورثت قرطاجة. ذلك أن الأفارقة لما اتخذوا الدين البونيقي، قد تغلغلت فيهم روح هذا الدين، فجعلوا الألوهية تعلو فوق البشر علواً لا حد له. وتعودوا على مشاعر لم يعرفها الإغريق

ولا الرومانيون مطلقا. ولكنهم عادوا فوجدوها في الإنجيل، وهي الخضوع المتضع للربّ. ففي المدن والحلل Bourgs كانوا جميعا، أو جميهم بالتقريب، يعبدون بَعْل الذي صار اسمه هو سَتُرْنوس ويجعلونه في الصف الأول للآلهة، وحتى قبل كايْلِسْتيس Caelistis. وذلك كان سبيلا للوحدانية Monothéisme. إذ لتفسير الاستقبال الذي لقيته المسيحية في إفريقيا والانتشار الذي عرفته بها، فلابد ربما من الصعود إلى العقائد القرطاجية.

وأخيرا فإن القديس أوغسطين يخبرنا أن البونيقية كانت في عهده منتشرة جدا في الأرياف. وپروكوب Procope يذكر أن هذه اللغة كان الناس لا يزالون يتحدثون بها في القرن السادس. ومن هذا التاريخ إلى الفتح الإسلامي، فالفارق قصير. ذلك أن اللغة العربية التي لها نسب مع البونيقية، كان يسهل أن تحل محلها. مثلها في ذلك مثل الآرامية التي هي لهجة سامية أخرى، وحلت قبل ذلك بقرون عديدة محل الفينيقية في أرض فينيقيا. فيسوغ إذن الافتراض بأن العديد من البربر قد اتخذوا لغة الإسلام لأنهم تعلموها من غير تعب لمعرفتهم بالبونيقية. فمنذ زمن طويل كانت قرطاجة قد هيأتهم لتقبل القرآن، كتاباً مقدساً ودستوراً.

شروح وإحالات

1) سبق أن لاحظنا في الجزء الثاني ص 115 خطأ سترابون الذي قال إن القرطاجيين استولوا بشمال إفريقيا على جيع الأراضي التي لا تقوم بها حياة الرحّل.

2) المعلومات المتعلقة بالزراعة في إفريقيا في العهدين البونيقي والروماني توجد في الدراسة القيمة التي لا يعرفها الكثير وهي التي قام بها F. Lacroix في المجلة الإفريقية Revue africainne, T.XII-XIV (1868-1870).

3) كانت حملة أگاطوكْليس ترمي لنهب أرض مليئة بالخيرات المتنوعة التي تراكمت بها بسبب الرخاء القرطاجي.

4) من ذلك أن ابن العوّام الإشبيلي وهو من أهل القرن الثاني عشر الميلادي ألف «كتاب الفلاحة»، وترجمه عن العربية كليمان موليت C. Mullet في ثلاثة مجلدات وطبع في باريس 1804-1807، وفيه نجد مرويات عن كاسِنوس Kasinous، وكاسْيوس Kasious، وقُسْطُس Qosthos وقسطوس، وكلها مرويات تتفق في الغالب مع فقرات من الجيوبونيك. وقد حاول بعض الباحثين المحدَثين تعريف كاسنوس أو قُسْطوس بأنه هو كاسْيوس ديونِسْيوس الذي ترجم ماگون إلى الإغريقية، ولكن من المحتمل أن يكون كل من كاسْيوس وكاسِنوس

شخصا واحدا هو المؤلف الجمّاع صاحب الجيوبونيك. أما قسطس وقسطوس فنجده، مع بعض الاختلاف، في مؤلفات عربية أخرى ولا نعرف عنه حتى اليوم شيئا موثوقا به. وبشأنه جرى السؤال : هل يمكن القول بأنه أيضا هو كاسيانوس Cassianus ؟

5) لما طلب القرطاجيون الصلح سنة 203 ق.م فرض عليهم سِبِيون دفع 500.000 بْواصو من القمح و300.000 بواصو من الشعير. وفرض عليهم بعد معركة زاما عدة شروط من بينها تموين جيوشه بالقمح لمدة ثلاثة أشهر. وفي سنة 201 بعث إلى رومة مقادير كبيرة من القمح، بيعت فيها بثمن بخس، كما أنهم دفعوا سنة 200 من القمح. 400.000 بواصو من القمح وكذلك في 191 دفعوا 750.000 من الشعير وقدرا كبيرا من القمح. وفي سنة 170 دفعوا 500.000 من الشعير و1000.000 بواصو من القمح. وقبل ذلك كله كانوا قد دفعوا إلى القائد الإغريقي الصقلي 200.000 Médimnes أي مد من القمح.

6) هيرودُت : ك 198,4

7) Varron, Rust : 1,44,5 ; Pline L'ancien : V, 24. XVII, 41. XVII, 94. Silius Italicus : IX, 204-5.

8) پْلين : ك 94,18-95 يذكر في هذا الصدد أمرين عجيبين، أولهما أن: «حاكماً من لدن أغسطس في بوزاكيوم بعث إلى أغسطس نحوا من 400 ساق من حبة واحدة. وهو أمر لا يكاد يصدق... وكذلك فإن أحد الحكام بعث إلى نيرون 300 ساق من حبة واحدة».

9) اليوم في لغة المعلمين العوادين صنّاع المحاريث مصطلحات منها أن قصبة المحراث age أو Flèche وهم يسمونها الجذع أما الركيزة Cep فيسمونها باسم الفحل.

10) البوزاكيوم Byzacium هو قسم إداري من تونس في العهد الروماني، وكان يقع بموسطة البلاد بين خليج قابس والمنطقة الشمالية التي عرفت باسم زوجيتانيا.

11) ذكر المؤلف أن قيصر كان يحارب في البوزاكيوم واحتاج إلى القمح، فأمر بالبحث عن هذه المطمورات.

12) لايوجد نص يطلق بصراحة كلمة σειρος على السراديب الخفية الإفريقية، أما لفظ سيلو Silo المستعملة اليوم بشمال إفريقيا فهو أسباني الأصل.

13) عن پْلين ك 98,18، وهي أن يُبلل القمح في كثير من الماء، وتُنزع قشرته بمدق وأن يجفف في الشمس، ثم يعاد إلى الضرب بالمدق، ومثل ذلك يفعل مع الشعير، فَلِعشرين «ستيه» من الشعير ستيهان اثنان من الماء (والستيه مكيال قديم بأربعة أرطال).

14) وهي أن تاخذ مقدار لِبْرة (رطل أو نصف كيلو) من الدشيشة وأن تنقعها جيدا في الماء، وتصبها في جفن نقي، وتضيف لها ثلاث لبرات من الجبن الطري ونصف لبرة من العسل وبيضة وتخلط الكل جيدا وتطبخه في قدر.

15) يُقبل على وجه العموم أن صناعة الخمر والزيت قد أدخلها الفينيقيون إلى شمال إفريقيا، كما يقال إنهم أدخلوا الدالية المُستْغرسة Vitis vinifera وهي غير الدالية البرية Sauvage، وهذا ممكن. ولكن ليس لدينا عليه برهان. وحسب أسطورة رواها ديودور الصقلي ك 4 ,4,17 فإن هيركْليس أخلى ليبيا من الوحوش الضارية التي كانت تعيث فيها فسادا. فأصبحت كثيرة الحبوب والأشجار

المثمرة، وغرست بالكثير من الدوالي. وبها الكثير من حقول الزيتون المغروس. ولكن يكون من قبيل المجازفة التأكيد على أن هيركليس هنا هو ملْقارت Melqart ربّ صُور، وأنه يرمز لمحاسن الاستعمار الفينيقي في إفريقيا. لأن هيركليس حسب ديودور قد جاء للمنطقة من إقْريطش Crète.

16) ديودور الصقلي ك 5,81,13، ولكنه هنا ينسى ما سبق أن قاله في ك 17,4.

17) هيرودُت ك 4 ,4 ,195.

18) پْلين ك 13,5، وارجع عن نهر إيفور للجزء الثاني ص 178 في الأصل الفرنسي من هذا الكتاب.

19) الدبال هو ما يعرف حتى اليوم عند البستانيين بالغبار وهو السماد المتكون خاصة من الأزبال الحيوانية.

20) النسغ : Le Suc الماء الذي يخرج من الشجرة إذا قطعت، وهو هنا بلل الثفل.

21) الجيوبونيك Géoponiques اسم كتاب يعزى تأليفه لكاسيوس باسوس Cassius Basus وكان هذا المؤلف جمّاعاً، وكاتباً لبقاً أكثر مما كان عالما بالغ العلم بالفلاحة، وارجع إلى ك 5 ,26 ,1.

22) في كولُميل : ك 5 ,5 ,6.

23) الدمّاع هو النسغ Suc الماء الذي يخرج من الشجرة إذا قطعت.

24) Rivière et Lecq : Manuel de l'agriculteur algérien. P. 415.

25) ارجع لصفحة 22 من الأصل الفرنسي، ولرقم 26 من ترجمتنا العربية هذه.

26) Traité de la vigne et de ses produits : par Portes et Ruyssen, T1. P. 110-111. (Paris 1886).

27) ولكن هذا لا ينطبق على حنّيبَعْل، انظر جوسْتان Justin ك 32, 4, 19.

28) Lois, P 674. a.

29) Appien, lib, 71.

30) سترابون ك 17, 3, 20.

31) انظر ص 19 من الأصل الفرنسي وص 26 من ترجمتنا هذه.

32) Aurelius victor, caes, 37.

33) نفس المرجع أعلاه. بنفس الصفحة.

34) يُعرف اليوم شجر الزيتون البري في المغرب باسم شجر البطم وهو قليلا جدا ما يغل بالزيتون.

35) جزيرة بيتيوس Pityuse هي جزيرة يابسة Ibiça واحدة من الجزر الشرقية الأندلسية : Baléares.

36) پلْين : ك 18, 120.

37) كولُميل Columelle في De arbor ك 17, 1. وپلْين : ك 17, 128.

38) پلْين : ك 17, 93.

39) پْلين ك 8,15.

40) أپْيان Appien في lib، 117.

41) ديودور الصقلي : ك 20 ,8 ,3-4.

42) فعبارة Arbor punica الواردة في كولميل ك 3,10-242 وفي بلين ك 30,15 معناها الشجرة البونيقية. وتسمية شجرة الرمان بهذا الاسم بسبب لون زهرتها الأحمر (الجُلّنار) أمر ضعيف الاحتمال.

43) پْلين : ك 112,13.

44) پْلين : ك 21 ,2-110.

45) ديودور الصقلي : ك 4,77,16.

46) پوليب : ك 3,12 ,34.

47) عن رحلات الشتاء والصيف (أي رحلات الانتجاع) في داخل القطر التونسي، انظر Monchicourt في كتابه : La région du Haut Tell en Tunisie, Paris 1913, P372 et Suiv.

48) إلى الأعلى، أي إلى جبل طرابلس.

49) مولّرْ في Nunism الملحق ص 78، رقم 251a، أما ليون الإفريقي (بترجمة Temporal، ونَشْر Schefer، باريس 1807، ج 2، ص 309) فيقول عن المليلية : إنها غزيرة في العسل، وبسبب ذلك سُميت باسم مليلا Malela، لأن هذا هو اسم العسل باللسان الإفريقي (وهذه الفقرة الأخيرة غير صحيحة).

50) ارجع للصفحة الثالثة، وفيما يتعلق بأحواز قرطاجة انظر جُستان ك 22 ,6 ,9.

51) ديودور الصقلي ك 20 ,8 ,4-3 وانظر پوليب : ك I ,29 ,7.

52) ظهرت من بعد رسوم أسماك هي للتّون غالبا على نقود لِكْسوس بكتابة نيوبونيقية وبلغتين هما الفينيقية واللاتانية. ارجع لِمولّرْ Muller في Nunism, III, P156, numéro 238, 239.

53) للمؤلف هنا تعليق يقول فيه بالحرف ما يأتي : «أقول على ما يحتمل، لأن هذا العصر لا يسهل فيه وضع حد دقيق للفن الفينيقي في سورية وقبرص وللفن الإغريقي الأسياوي اللذين يستوحي كل منهما مصر ويتداخلان فيما بينهما».

54) تَناكْرا Tanagra إحدى جهات بيوتْيا Béotie في بلاد الإغريق اشتهرت بصنع دُمى وتماثيل صغيرة من الطين المشوي، وكان صنعها بديعا دقيقا ومتقنا.

55) السيلين Silène في الميثولوجيا الإغريقية هو جني عيون الماء والأنهار، وقد رسموه بذيل وحافر وأذني الفرس. وهو رمز للماء عندهم. أما الساتير Satyres فهو عند الإغريق والرومانيين نصف إله فلاحي، رسموه بآذان طويلة وقرون صغيرة وأنف أفطس وفخذي التّيس وذيل قصير وجسم مغطى بالشعر.

56) في الإلياذة النشيد XXIII في البيت 740 وما بعده، والأوديسة النشيد IV في البيت 615 وما بعده، والنشيد XV في البيت 115 وما بعده، حسب ما ذكره المؤلف في تعليقه رقم 11 ص 82.

57) الطالان Talent قديما عند الإغريق، هو وحدة وزن تتراوح ما بين 20 إلى 27 كيلو بالوزن الحالي. كما أنه أيضا وحدة نقد تساوي وزن الطالان من ذهب أو فضة. ولكن المؤلف في تعليق له برقم 2 بنفس ص رقم 84 يقول : «لا أدري ما كانت وحدة الوزن هذه. إذ يصعب التفكير في الطالان الأبْويقي Euboique الذي كان معمولا به في قرطاجة... ويزن 26 كيلو تقريبا. ويصعب كذلك التفكير في طالان آخر لم يكن وزنه أقل، لأن الرقم يكون والحالة هذه مرتفعا جدا. وإذا فكرنا في الطالان الصغير المعمول به عند الصاغة، فالمصلى إذن لا يزن سوى 26 كيلو وهذا غير مقبول».

58) تيت ليڤ ك 26 ,47 ,7 (ناقلا عن أحد الإخباريين من الرومان)، يقول الكنز عبارة عن (276 كوبا ذهبيا وأكثرها يزن لبرة) ثم يلاحظ تيت ليڤ بعد قليل : في ك 6,49,26 قائلا : إن الكتّاب لا يتفقون فيما يتعلق بالغنيمة الذهبية والفضية التي استولى عليها سبِيُون.

59) بِنْتِزيلي Penthésillée هي في الميثولوجيا الإغريقية ملكة الأمازونات، بنت آريس وأوتريرا، ذهبت لنجدة طروادة فقتلها أخيل، ولما جردها من أستارها ورأى جمالها بكى ندما على قتله إياها. أما بان Pan فهو أيضا في الميتولوجيا الإغريقية إله الغابات والمراعي ورعاتها.

60) پْلين Pline : في التاريخ الطبيعي، ك 37 ,37-38.

61) الإليادة، النشيد VI الأبيات 289-291، وعن براعة الصَّيْداويات ارجع كذلك للأوديسة، في النشيد XV البيت 418.

62) عرفتُ في صغَري شيوخ أهل فاس يسمّون نوعا من الأنسجة باسم «أوطونا»، ولا أدري هل كان قطناً أو كتّاناً. ولما ذاعت الكلمة

الفرنسية Cotonnade تخصص الإطلاق من بعد على ثياب القطن، مع العلم أن الحَرْفين «أ- ق» أي الهمزة والقاف يتناوبان دون تمييز في منطق أهل فاس وشمال المغرب حتى المضيق والبحر المتوسط.

63) رأيتُ بعيني أن التطريز (بالغرزة الفاسية اي طرز الجوزة) كان للوسادة الواحدة مثلا يتطلب سنتين اثنتين.

64) هنا علق المؤلف على الثمن قائلا : أي 3120 كيلو من الفضة إذا كان الطّلان أوبْويقياً Talents euboïques. وقد اشتهر السيباريسيون بالانغماس في الترف والمتع واللذات.

65) Isaïe : 8, XXIII.

66) أرسطوطاليس : كتاب السياسة، ك 4,10,5.

67) هنا أنقل تعليقا للمؤلف، وهو قوله : بين نيابوليس أي نابل وسلينونة 225 كيلومتر، ذكر توسديد في ك 30,7، يومين وليلة في البحر. وهي سرعة ضئيلة جدا. وبين بنْتلاريا Pentelleria وليليبي Lilybée : 120 كيلومتر، ذكر بْرودو سيلَكْس في ك 3 ص 80، يوما واحدا. وحسب نفس الكاتب في 3 ص 90 لابد من سبعة أيام وسبع ليال في أحسن الأحوال المواتية للذهاب من قرطاجة إلى أعمدة هرقل. (1500 كيلومتر، أي بمعدل 214 كيلمتر لليوم الكامل). وجزيرة يابسة Ibiça تقع حسب ديودور: (ك 5, 16, 1 نقلا عن تيمي) على ثلاثة أيام وثلاث ليال من الأعمدة أي 750 كيلومتر. وعلى يوم واحد وليلة واحدة من الشط الإفريقي أي 270 كيلومتر، وعلى يوم واحد من الشط الأسباني أي 100 كيلومترا. (وحسب پْلين الشيخ ك 75,15 وبلوتارْك

في ترجمته لكاتون الشيخ، 27) فإن تينة كاتون Caton الشهيرة قضت أقل من ثلاثة أيام للذهاب من قرطاجة إلى رومة وقطعت مسافة 600 كيلومتر.

68) أرسطوطاليس : السياسة ك 3 ,5 ,10-11.

69) ويذكر هيرودُت : ك : 4 ,43 أن ستاسْبيس Sataspes الفارسي قد حاول بأمر من ملك الفرس الذي كان الفينيقيون خاضعين له أن يطوف بحرا بإفريقيا في نفس العهد تقريبا، وقد سار مع قسم كبير من السواحل الغربية للقارة الإفريقية. وما كانت قرطاجة لتخشى هذه الرحلة الاكتشافية.

70) هذه الفقرة التي بين المربعين : [ويجب أن يرحل...] مفقودة اليوم ولكن يمكن استعادتها على وجه التأكيد تبعا لتعليق پوليب على نص الاتفاقية، في ك 3 ,23 ,3.

71) يجب التمييز بين قرطاجة (التي يدعوها التونسيون باسم قرطاج) وبين قرطاجنّة Cartagène (هكذا بالنون، وهي التي يدعوها المغاربة باسم قرطخَنّة بالخاء كما يسميها الأسبان).

72) «السياسة» لأرسطو : ك 3 ,5 ,10-11.

73) للمؤلف في هذه النقطة تعليق هام، هو قوله : «لعل هذه الفوائد لم يسمح بها للإغريق إلا على مضض. ولربما تكون قد ألغيت ببضع سنين بعد إقامة المعاهدة الأولى بين رومة وقرطاجة. فهيرودُت في ك 158,7، قد أورد على لسان جيلون Gélon المتأمر على سرقوسة، وهو يجيب في سنة 480 الإغريقيين الذين طلبوا منه مساعدته ضد خرشيش Xerxes، إذ قال : «لما عرضتُ عليكم إعادة الحرية لهذه

الأسواق التي كانت تذر عليكم منافع كبيرة وفوائد عظيمة، لم تتقدموا لمساعدتي...إلخ». فنحن لا نرى بوضوح ماذا يعني، هل يتعلق الأمر بأسواق تجارية يكون الفينيقيون استولوا عليها بعد إخفاق دورْيوس في حملته على غرب الجزيرة ؟ ... أو هل هي أسواق فينيقية، كانت مفتوحة في وجه الإغريق مدة طويلة، ثم أغلقت في وجههم ؟ وعلى أية حال، فإن جيلون المنتصر على القرطاجيين قد أرغمهم على إعادة الأمور إلى نصابها السابق».

74) المقصود بهذا التعبير سواحل أرض المغارب. ولم أُردْ أنا تغييره بالترجمة، لأنه صار اسما علما.

75) هيرودُت : ك 4 ,196.

76) وكذلك للتجارة في المدن الفينيقية بالغرب، وحتى بالمشرق الذي كانت لهم به لاشك نفس حقوق القرطاجيين. والمعاهدات التي عقدتها قرطاجة مع رومة كانت تسري على حلفاء قرطاجة، بحيث إن المعاهدة الثانية نصت صراحة على الصوريين والأوتيكيين. انظر پوليب : ك 3 ,22 ,4 و3,24.

77) هيرودُت : ك 196,4. وهذا النوع من التعامل هو ما سميناه نحن باسم التجارة البكماء Le commerce muet، لأنها كانت تجري في الصمت المطلق.

78) ديودور الصقلي: ك 1, 46,14.

79) البرّاد بالتسمية المغربية Théières، أي أباريق صنع الشاي، وإن كانوا لم يعرفوا الشاي طبعا.

80) أذكرُ بأن الزلافة بالمغرب هي Bol بالفرنسية وهي ما يزلف أي يقرب الشيء من ... وهنا الطعام للفم. ويسميها الشرقيون السلطانية (؟)

81) توسديد : ك 2,34,6. ويوليب : ك 9,35,18.

82) المؤلف يشير هنا لقصة هِجْرة أليسّا (ديدون) إلى إفريقيا حيث قامت بتأسيس قرطاجة. والقصة مروية في: جُسْتان ك 5-1,5,18.

83) بقدر ما يسمح النقل بأداء جميع الأصوات السامية التي ليس لجميعها مقابل في اللاتانية.

84) المؤلف وصف هذه المشابك بأنها (De le forme de nos épingles de nourrice) أي على شكل مشابك مُرْضعتنا، وهذه هي التي يسميها أهل المشرق بالمشابك الإنجليزية، وفي المغرب نسميها بالشوكة وهذا اسم عام ومبهم، لذلك فضلتُ عليه الاسم المشرقي.

85) يتكون التابوت من قسمين أعلاهما هو الغطاء Couvercle، وتحته الجفنة Cuve وفيها يوضع الميت.

86) المؤلف عبّر بكلمتَيْ Génie و δαιμων ومعناهما : معبود صغير... وللثانية معنى خاص أيضا هو الشرير والقبيح الفعل، أي Démon في الفرنسية. أما في اللاتانية فإن Genie هو من Genius وهو المعبود الخاص المتلبس بكل إنسان يرعاه ويحميه من مولده إلى وفاته. وعبّرتُ أنا في الترجمة بنفس اللفظ أي جِني وكما رأينا فمعناه هنا غير معني الجني في اللغة العربية.

87) من هذه الأسماء مثلا بعض ما أورده المؤلف في التعليق السادس، ص 227 وهو : حيملْك Himilk أي أخو ملك . حيملكت أي أخو ملكت (بمعنى الملك والملكة)، حوتملك Hotmilk أي أخت ملك. حوتْملْكت Hotmilkat أي أخت ملكت، حوت اللات Hotallat أي أخت اللات (الربة) بَتْبَعْل Batbaal أي بنت بَعْل، بَتْنَعْمت Batnaamat أي بنت النعمة، أريشتْبَعْل Arishatbaal أي عريسة (عروس) بَعْل...

88) عبد شمون Abdeshmoun، عبد ملْقارت Abdmelqart، أَمَتْبَعْل (أمة بَعْل)، أمتملقارت (أمة ملقارت).

89) الثّنوية Dualisme مبدأ فلسفي أو مذهب ديني يقوم على تعارض عنصرين أساسيين هما الخير والشر، أو الضياء والظلام كما في ديانة قدماء الفرس مثلا.

90) الثالوث هو ذو الثلاثة، وأقصد به هنا المعبودات الثلاث Triade. إذن فالثالوثان هما المجموعتان، بكل واحدة ثلاثة أرباب، والثواليث الثلاثة هي ثلاث مجموعات وبكل واحدة ثلاثة أرباب.

91) Tyché من معبودات المدن الإغريقية، ومثلها Fortune التي هي ربة الثراء، وهما معا تنعمان بالحظ الحسن على سكان المدن الذين يعبدونهما. وكانوا يمثلون Fortune أي الثروة والحظ السعيد بامرأة معصوبة العينين، واقفة على عربة لها عجلتان بجناح على كل عجلة، وتسير مسرعة إلى من تريد إسعاده أو من تقع عليه بالصدفة.

92) التعبير الإغريقي μηρρη، هو كالتعبير اللاتاني Merre وكلاهما تحريف للتعبير البونيقي M'RH الذي يرجع للأصل السامي كما نجده في الفينيقية والعبرانية والعربية، وهو الجذر الدال على الراحة

أي الشفاء من المرض. فأشْمون (إسْكولاب) هو المريح أي الشافي من المرض.

93) الاسم المقصود هنا هو عبد رشوف Abrerhouf كما في ديوان النقوش السامية : C.I.S., 2628

94) عبد صَفون Abdçafôn ،C.I.S. 265، وصَفونيصْدِق Safônyaçdiq رقم C.I.S. 1188 وكذلك اسم المرأة الشهيرة : صَفون بَعْل ÇFNB'L الذي جعله اللاتانيون Sophoniba.

95) لا أفهم معنى الترجمة بصورة بَعْل، والأفضل هو سلام بَعْل، لأن الجذر السامي سلام-شلوم وغيرهما يوجد في اللغات السامية الأخرى والفينيقية منها.

96) الزُّون (بضم الزاي أو فتحها) في المعاجم العربية القديمة كالقاموس مثلا في مادة الزون (بالضم) الصنم وما يتخذ ويعبد،... والموضع تجمع الأصنام فيه وتنصب وتزين. وهذا تقريبا هو معنى البانتيون Panthéon الدال على جماعة الآلهة المعبودة، وعلى مكان نصبها وعرضها.

97) ديودور الصقلي ك 4, 21,11 (سنة 480) وك 3, 86,13 (سنة 406).

98) Liber هو المعبود ديونيسوس المشخص في باخوس. و Pater كلمة تمجيد للإله.

99) سِكّا ڤينرْيا Sicca Veneria، عُرِّبت قديما باسم شقّ بنارية.

100) النساء بصفة خاصة يفعلن هذا. ولا يزال منهن حتى اليوم من تحمل لوحة الأصابع الخمس، وتكون كبيرة أو صغيرة من ذهب أو

فضة. وعند نساء فاس تكون اللوحة وقاية من العين أو نكاية في الحسّاد، فإنها تواجه القائل في الحين برفع يدها اليمنى مفتحة الأصابع، وتنطبق بقولها : «خمسة... خمسة في عينك»، وربما تنطبق بها مسجوعة : «خمسة وخميس لك أنت وأبوك إبليس».

101) هذا التفسير مصيب، ولا يحتمل الشك، والإسم هنا مركب إضافي من جزأين هما Baitu أو Baet، والإل الذي هو الإله المعبود.

102) طبعاً فالدرْبوز بالمغرب هو الدرابيز أو الدرابزين بالمشرق ولكنني أفضل الصيغة المغربية لأنها أقرب إلى الوزن الفصيح : فَعْلول، فَعاليل : دَرْبوز، درابيز.

103) عبّر الكاتب بقوله Deux Zébarim، وتساءل هل تكونان كوبين ؟ والصواب هو الزبرتان، أي القطعتان الغليظتان من قطع الحديد، كانتا على أحد المراكب المحملة بالمعدن.

104) الكاتب عبّر بلفظ Prêtresse de Notre-Dame. وأنا أعلم أن اللفظ مسيحي تخصص إطلاقه على السيدة مريم العذراء. ولم أهتد في هذه الزحمة من الوثنيات والأصنام والآلهة والمعبودات إلى ترجمة أخرى له هنا غير (كاهنة الربة الكبرى). ولستُ أدري هل أصبت أو أخطأت، ولكنني لم أهتد لغير ذلك.

105) علّق المؤلف هنا قائلا : وذلك لا يفسر لماذا كان النساء يهبن أنفسهن لأول قادم. وزيادة على ذلك، لابد أنه يكون قد حدث نسيان المدلول الأولي للطقس، لقبول حلول الشبان اللطاف (المستهترين) محل النساء.

106) علّق گْسيل هنا قائلا : في القرن الميلادي السادس، كان بعض الأهالي يتقربون بضحايا بشرية، لإله يسمى ماسْتيمان Mastiman، انظر اليوحانية لكوريبوس، النشيد VIII، الأبيات 307 و309.

107) كِتاب اللاّويين هو الثالث من أسفار موسى الخمسة Pentateuque، ويأتي بعد سفر الخروج، وهو متعلق بالخصوص بتنظيم العبادة لدى أبناء ليفي Lévi (لاوي). فهو في قسمه الأول (من 1-9) يعنى بتنظيم التضحيات، وفي قسمه الثاني (من 12-22) للمبادئ الأخلاقية، والسبت والأعياد وغير ذلك.

108) ألا يمكن أن نقرأ: CRB 'YL مثلا سرب الأيل ؟ وفعلاً فإن بعضهم قرأ YL وفسرها بالشادن (ابن الظبي).

109) بل نراه تركيبا إضافيا واضح المعنى فيكون Necib Milk Baal هو نَصْب المليك بَعْل، او نصب للمليك بَعْل. وسبق أن علمنا أن MILK في لغتهم يعني فيما يعنيه : إله.

110) والنفش هو القبر (والنفس) في الجاهلية العربية القديمة. فقد عثر بالنمارة على قبر الملك امرئ القيس بن عمرو... وعليه نقش يقول : «تي نفش مر القيس بر عمرو...إلخ» أي هذا قبر (أو هذه نفس...) امرئ القيس ابن عمرو... وقد أرجعوا النقيشة المذكورة لسنة 328 للميلاد. انظر جواد علي في : «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ج 1، ص 189 مطبعة التفيض بغداد 1950 – وكذلك ج 3، ص 437 وما بعدها، شركة الرابطة للطبع والنشر، بغداد 1953، وأيضا ج 4، ص 33، مطبعة المجمع العلمي العربي، بغداد 1954.

111) توسِديد : ك 6، 2، 6، وانظر ج 1، ص 407 من الأصل الفرنسي.

112) انظر : سفر صموئيل الأول، XXXI, 10-12.

113) جُسْتان : ك 19 ,1 ,11.

114) لا يصح القول بسلخ العظام لصبغها، لأن الجثة، ولو مصبوغة، فهي في القبور على وضعها الأول الذي دفنت عليه بعظام متناسقة في وضعها، غير مبعثرة.

115) الحديث هنا هو عن ممارسة في أرض قريبة من فينيقيا، هي فلسطين في عهد المسيح، حيث كانوا يدفنون الميت دفنا أولاً، وبعدما تتعرى العظام عن لحومها (داخل القبر)، كانت هذه العظام تجمع وتوضع في صناديق خشبية صغيرة أو حجرية... لكن حيث إن هذا الطقس كان قليل الاستعمال عند الفينيقيين بالغرب، بينما هو كثير الاستعمال عند الأهالي بأرض البربر، فأظن أن الفينيقيين بالغرب قد قبسوه من الأهالي الأفارقة (ملخص تعليق بقلم المؤلف، في ص 454، ج 4 تعليق رقم 1).

116) جيربَعْل Gerbaal، أقرأه أنا على أنه اسم (جار بَعْل) كما سمِّي في الإسلام بعد ذلك باسم: جار الله.

117) في الجزء الثاني، ص 326 من الأصل الفرنسي، كنتُ ذكرت أن النقود الأولى التي ضربت في قرطاجة ترجع تقريبا لأواسط القرن الرابع، وأني مستعد لقبول تاريخ أعلى قليلا. فبين البرج الجديد وسَنْت مونيك شرقاً، وموقع المسرح الروماني والأوديون غرباً، لا نلاقي سوى مدافن معاصرة للعهد الذي ضربت قرطاجة فيه العملة، بعضها سابق وبعضها متأخر على اتخاذ طقس التحريق. ولكي تحصر هذه المجموعة الواسعة داخل حدود تاريخية ضيقة جدا،

ربما يحسن الأخذ ببداية القرن الرابع، كنقطة للانطلاق. (گسيل، تعليق رقم 1، ص 495).

118) قيل إن قرطاجة كان بها بعض الفيثاغوريين. والفيثاغورية كانت ذات علاقة متينة مع العقيدة الأُرْفية Orphisme.

119) كانت توداليس Teudalis تقع قرب بِنْزَرت لا على البحر، ونالت من رومة بعد الحرب البونيقية الثالثة، صفة «الشعب الحر» على غرار عدة من المدن الفينيقية بالساحل. ويحتمل أنها هي أيضا كانت مدينة فينيقية، ولكن هذا ليس متأكدا. (گصيل، ص 479 من الأصل الفرنسي، تعليق رقم 1).

120) سترابون، ك 17 ,3 ,19، ولربما أن فيه خلطا بين المعنيين.

121) من المعلوم أن فينيقيا La Phénicie هي الأرض المشرقية المعلومة، ولكنني هروبا من الالتباس، فإن La Phénicie التي هي هنا الأرض الإفريقية المعمورة بالليبين الفينيقيين، والتي هي موضوع البحث، قد ترجمتها بكلمة (فينيسيا).

122) أي المقام الحديث. وكل الأسماء تقريبا كانت فينيقية في الكتابات البونيقية القسنطينية.

فإن الأشكال والزخرف الإغريقيين كانت لهما الغلبة في الصناعة والهندسة والنحت. ومن الراجح أن مصانع إغريقية قد حلت بالمدينة، وأن الصناع البونيقيين قلّدوا برداءة تكثُر أو تقلّ منتجات الإغريق وما تستجلبه التجارة منهم.

كان إدخال عبادة دمِتير، وكوري، استغفاراً عامّاً عن ذنب وقع اقترافه في حق الإلهتين. غير أن شعبية الكريريس Cérérés في إفريقيا الرومانية توضح أن هذه العبادة لم تحافظ على طابعها الرسمي الدقيق. وفي عهد الحروب البونيقية، فالذين يحرقون موتاهم، والذين يخفون جثث الأطفال في الجرار، ربما كانوا يقلدون إغريق صقلية. ونحن نعلم أن الأرستقراطية القرطاجية كانت ذات ألفة باللغة والحضارة الهيلّينيتَيْن، في المعارف المدنية والفن العسكري، بحيث إن ماگون وحنّيبَعْل قد استفادا من تعاليم وأمثلة الإغريق.

لكن رغما عن هذه الاقتباسات، فإن قرطاجة في أعماقها بقيت مشرقية. وفي هذه المدينة التي كانت القلة من أهلها من دم فينيقي خاص، كانوا جميعا يتحدثون الفينيقية دون أن يحرفوا فيها كثيرا. وكذلك الملابس التي كانوا يرتدونها، فهي أيضا فينيقية، مثل الموازين والمقاييس والتقويم الزمني الذي كانوا يستخدمونه. وكذلك الكهوف ذات الآبار التي كانوا يدفنون فيها موتاهم. أما الفن والصناعة اللذان كان لهما طابع مصري في أول الأمر، وبهما بعض العناصر الأسياوية، فإنهما صارا هيلّينِيَيْن، مع أن الأساليب القدية لم تندثر بما فيها من قرص مجنح بثعابين على جانبيه، ونتوء على شكل عنق، وصوَر مصرية على أحجار منقوشة، ومدلّيات وسواطير صغيرة...إلخ. أما الدين، فإنه حافظ على طابعه المشرقي على الخصوص، وبصفة عامة بنفس الآلهة